دينيس أليكساندروفيتش تشيكالوف
فلاديمير أليكساندروفيتش كوندراشوف

تاريخ
الثقافة العالمية

ترجمة : عماد طحينة

دينيس أليكساندروفيتش تشيكالوف
فلاديمير أليكساندروفيتش كوندراشوف

تاريخ الثقافة العالمية

ترجمة: أ. عماد طحينة

مراجعة: د. أحمد خريس

الطبعة الأولى 1435هـ 2014م
حقوق الطبع محفوظة
© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة مشروع «كلمة»

CB20 .C4312 2011
Chekalov, Denis Aleksandrovich
[История мировой культуры]
تاريخ الثقافة العالمية/دينيس ألكساندروفيتش تشيكالوف، فلاديمير ألكساندروفيتش كوندراشوف؛ ترجمة عماد محمود حسن طحينة.- ط. 1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2011.
466 ص؛ 14×21 سم.
ترجمة كتاب: История мировой культуры
تدمك: 978-9948-01-968-8
1. الثقافة — تاريخ. 2. الحضارة — تاريخ. 3. الحضارة الحديثة.
أ. طحينة، عماد محمود حسن. ب. Kondrashov, Vladimir Alexandrovich.
ج. العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الروسي
© Чекалов Д. А., Кондратов В. А., 2005

كلمة
KALIMA
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ مشروع «كلمة»
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيها التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

تاريخ الثقافة العالمية

المحتويات

تقديم النسخة العربية 7

مدخل 11

الفصل الأول: الثقافة البدائية 15

الفصل الثاني: ثقافة بلاد ما بين النهرين........................ 39

الفصل الثالث: ثقافة مصر القديمة........................ 53

الفصل الرابع: ثقافة الصين القديمة........................ 69

الفصل الخامس: ثقافة الهند القديمة 89

الفصل السادس: ثقافة الشعوب القديمة لأمريكا الوسطى........................ 105

الفصل السابع: ثقافة اليونان القديمة 119

الفصل الثامن: ثقافة روما القديمة........................ 143

الفصل التاسع: ثقافة بيزنطة 163

الفصل العاشر: ثقافة الخلافة العربية........................ 177

الفصل الحادي عشر: ثقافة أوروبا القرون الوسطى 199

الفصل الثاني عشر: ثقافة عصر النهضة 277

الفصل الثالث عشر: ثقافة الأزمنة الحديثة 303

الفصل الرابع عشر: ثقافة القرن العشرين 355

خاتمة 389

المراجع 393

الأسماء والمصطلحات المستخدمة في الكتاب

مسرد عربي–إنجليزي–روسي 399

تقديم النسخة العربية

بين أيدينا الترجمة العربية لكتاب «История мировой культуры/ تاريخ الثقافة العالمية» الذي يسعى المفكران الروسيان دينيس ألكساندروفيتش تشيكالوف Denis Alexandrovich Chekalov وفلاديمير ألكساندروفيتش كوندراشوف Vladimir Alexandrovich Kondrashov بوساطته – وبتتبع منهجي وموضوعي – إلى تقديم استعراض شامل ودقيق للظروف التاريخية التي نشأت وتطورت فيها الثقافة العالمية، لذلك فقد جاءت فصول الكتاب مرتبة وفق التسلسل الزمني لتطور تاريخ البشرية.

قبل الإبحار في عباب التاريخ الثقافي الطويل لابدّ لنا من أن نقف بشيء من التفصيل عند تعريف «الثقافة» الذي مازال يلفه شيء من الإبهام، إذ يشكل مفهوم «الثقافة» بالنسبة للمفكرين والفلاسفة إحدى أكثر قضايا الفكر تعقيداً، وعلى الرغم من الانتشار الواسع للفظة «ثقافة» في الأحاديث والكتابات المعاصرة، فإننا نبقى تائهين بحثاً عن مدلول واحد أو معنى موحد لها في المعاجم والموسوعات ومؤلفات المختصين. وعلى الرغم من تباين آراء العلماء إزاء تعريف «الثقافة»، فإنهم غالباً ما يتفقون في جعلها مرادفة للحضارة. ولكن، وعلى الرغم من التقارب الذي يجمع بين الثقافة والحضارة، إلا أنه يتضح لنا أنه لا يجوز الخلط بين المصطلحين، فهما وإن تقاربا في الشكل الخارجي، إلا أنهما مختلفان في المضمون، والدليل على ذلك يتمثل في كون الحضارة البدائية حضارة بدون ثقافة، في حين تقوم حضارة الآلة على ثقافة العلم مع إغفال ثقافة الآداب والفنون. الثقافة ذات طابع فردي وتنصب على الجوانب الروحية، أما الحضارة فهي ذات طابع اجتماعي ومادي.

ظهر مصطلح «ثقافة» بعد القرن السادس عشر مصحوباً بكلمة ذاكرة

أو عقل (ثقافة الذاكرة، ثقافة العقل)، ويبدو ذلك جلياً في كتابات عدد من المفكرين الذين رأوا فيها «حالة عقل مثقف بالتعلم». أما الكلمة العربية «ثقافة» فهي تأتي من «ثِقف» بمعنى حذِق وفطِن، وتدل على «شتى المعارف التي يحصلها العقل بالتربية والعلم لتنمية ملكاته وحسه النقدي».

يرى إدواردو إيريو Edouard Herriot رجل الدولة الفرنسي البارز في الثقافة «الشيء الذي يبقى في الإنسان عندما ينسى كل ما سواه»، في حين يعتبرها عالم آخر «المخزون الحي في الذاكرة، كمركب كلي ونمو تراكمي.. مكون من محصلة العلوم، والمعارف، والأفكار، والمعتقدات، والفنون، والآداب، والأخلاق، والقوانين، والأعراف، والتقاليد، والمدركات الذهنية والحسية، والموروثات التاريخية، واللغوية، والبيئية.. التي تصوغ فكر الإنسان وتمنحه الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تصوغ سلوكه العملي في الحياة...».

ويرى ألبرت اشفيتزر Albert Schweitzer الأديب واللاهوتي النمساوي الثقافة على أنها «جملة المعتقدات التي يهتدي لها الفرد بتأملاته في الكون واطلاعاته وطبيعته وغايته ومصير البشرية».

وبما أن الثقافة هي العنصر المهم في عملية البناء الحضاري، وكذلك هي القاعدة التي يرتفع عليها صرح الحضارة، فإن شمولية وتوازن واستقرار هذه القاعدة وصحة متبنياتها تمثل المعيار لثبات وترسخ الحضارة في المجتمع.

وبما أن الثقافة تفهم على أنها مجموع العقائد والقيم والقواعد التي يقبلها ويمتثل لها أفراد المجتمع، والقوة والسلطة الموجهة لسلوك المجتمع التي تحدد لأفراده تصوراتهم عن أنفسهم والعالم من حولهم، لا يستطيع أي مجتمع أن يتقدم ويزدهر حتى يعرف المكونات الثقافية التي تتحكم به وتنمط تفكيره وتحدد اهتماماته وتوجه نشاطه.

الثقافة بمعناها الانثروبولوجي هي أسلوب أو طريقة الحياة التي يعيشها أي

مجتمع، بما تعنيه من تقاليد وعادات وأعراف وتاريخ وعقائد وقيم واهتمامات واتجاهات عقلية وعاطفية وتعاطف أو تنافر ومواقف من الماضي والحاضر ورؤى للمستقبل، إذن، الثقافة بالنسبة لأية أمة هي ذلك الوعاء الذي يصب فيه أبناؤها عصارة فكرهم وجهدهم، وتمثل الإنجازات الثقافية الكنز الأمثل والأكثر ديمومة وحيوية في تاريخ هذه الأمة، وهي أسلوب الحياة الذي يتشربه أفراد الأمة منذ ولادتهم عاداتٍ وتقالِيدَ وإبداع، وينقلونه من جيل إلى جيل. ومن هنا تأتي مفاهيم «الهوية الثقافية» و«التفرُّد الثقافي» و«تنوع الثقافات» التي تحدد تنوع المجتمعات المبني على الاختلافات الكثيرة والكبيرة في الأحوال والأوضاع وطرق التفكير وأنماط السلوك والمستويات الحضارية للمجتمعات.

ختاماً، لا بدّ من كلمة شكر وعرفان أوجهها إلى مشروع «كلمة» في هيئة أبو ظبي للتراث والثقافة ممثلاً بسعادة الدكتور علي بن تميم على جهوده المباركة في إحياء وتنشيط حركة الترجمة في الوطن العربي سعياً لإثراء وتوسيع المدى الثقافي للقارئ العربي عن طريق مواكبة الحراك الثقافي في الساحة العالمية. والشكر موصول إلى الآنسة سهام عبد الله الحوسني على حسن تعاملها ومتابعتها المتواصلة.

أرجو أن أكون قد وفقت في نقل مضمون الكتاب ليشكل للقارئ العربي مادة علمية غنية ومرجعاً موثوقاً عن تطور الثقافة العالمية. والله ولي التوفيق،،،

المترجم

مدخل

قطعت البشرية طريقاً طويلة من تطورها التاريخي. وفي هذا الكتاب سيتعرف القارئ كيف حدث ذلك، إذ ستروى على صفحاته الكيفية التي تشكلت فيها ثقافة الناس البدائيين. ويزيح العديد من المواقع الأثرية الستارةَ عن صفحات كثيرة من تاريخ أجدادنا. ولا يقل أهمية تتبع مسار تطور الثقافة في المجتمعات القديمة، والشيء الذي جمع الشعوب في العالم القديم، والشيء الذي ميزها. وتمثل الوثائق المكتوبة- التي تم العثور عليها عن تلك الأزمنة وعمارتها وصور منحوتاتها ورسومها وأساطيرها ومعالم أدبها- مادة غنية للتأمل.

عند تناول تاريخ الثقافة العالمية يجب أن لا يغيب عن البال كيف تفاعلت العلوم والتكنولوجيا على مدى فترة طويلة من الزمن. ومن المتعارف عليه إرجاع المرحلة الأولى للتقدم العلمي- التكنولوجي إلى الفترة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر. وتتميز هذه المرحلة باتباع أحكام العلوم، ويتم تناولها بوصفها خادمة للصناعة.

وبحلول نهاية القرن الثامن عشر غيرت متطلبات التصنيع الآلي الموقف. وتعتبر الفترة الممتدة من نهاية القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن العشرين المرحلة الثانية من التقدم العلمي- التكنولوجي، إذ كانت البحوث التطبيقية والصناعية آنذاك من الضرورة بمكان، وكذلك إعداد التصاميم التي تتطلب إجراء التجارب. والفترة الممتدة من منتصف القرن العشرين إلى بداية القرن الحادي والعشرين هي المرحلة الثالثة للتقدم العلمي-التكنولوجي، إذ احتلت العلوم فيها مكان الصدارة، وسمحت تكنولوجيا المعلومات وإنجازات

الإلكترونيات بتحقيق انفراجة حقيقية في مجالات الإنتاج جميعها.

في سياق الثقافة المعاصرة تفتح أمام الإنسان فرص جديدة، وتواجهه تحديات جديدة. والانتقال الذي يجري أمام أعيننا للمجتمع في بلدان العالم المتقدمة صناعياً من الصناعي إلى ما بعد الصناعي يتمثل في التغيير الجذري في المجال الاجتماعي- الاقتصادي لحياة المجتمع بأكمله. وكلما كان وقوع عمليات الإنتاج على عاتق الآلات أكثر، يخرج الإنسان تدريجياً من مجال الإنتاج المباشر، ويصبح فوق هذه العملية. ولا يمكن لمثل هذه التغيرات في دور الإنسان في العملية الإنتاجية إلا أن ترتبط بالتغيرات في الإنسان نفسه، وفي وعيه. فبخروجه من إطار الإنتاج المباشر، يأخذ على عاتقه مهام الإدارة والمراقبة إزاء هذه العملية، مما يقود إلى تنامي أهمية المعلومات من النظريات العالية إلى البيانات عن حالة السوق، ويدفع بإدارة المستويات كافة- باعتبارها أحد الأشكال الرئيسية للنشاط- إلى المقام الأول في الأهمية.

لا يمكن لمثل هذه التغييرات الجارية في المجال الاقتصادي- الاجتماعي ووضع الإنسان في عملية الإنتاج إلا أن تترافق مع تغيرات في وعي المجتمع، حيث يجري أمام أعيننا تحطيم كل ما هو قديم، وتصميم كل ما هو جديد. ويجسد مفهوم ما بعد الحداثة تلك العملية الرامية إلى تدمير التقاليد والمثل والقيم القديمة، والتشكل التدريجي لأخرى جديدة ليست بأفضل ولا أسوأ من سابقاتها. وفي ظل الواقع الاجتماعي- الاقتصادي الجديد أصبحت القواعد القديمة للعبة في الثقافة غير قادرة على العمل، مما يحمل الإنسان على ابتكار قواعد جديدة.

توقفت المعلومات منذ فترة طويلة عن كونها محايدة، فأهمية هذا السلاح ذي الحدين آخذة بالتعاظم. أما بالنسبة للفرد، فتميزه حالة من الهم والقلق على نفسه، وعلى أسرته، وعلى المستقبل، الأمر الذي يجد انعكاسه توتراً في اتخاذه

للقرارات. فالإنسان الموضوع في حالة يتوقف فيها مستقبله على ردة الفعل السريعة، يخشى ارتكاب الخطأ.

اتسعت حدود العالم، إلا أن التقنيات الحاسوبية وشبكة الإنترنت تسمح بالحديث عن ظهور واقع جديد، وعلى الرغم من السمات التقدمية للفرد، يمكن التأكيد على أنه لا يتمتع دوماً بالكفاءة للتفاعل مع هذا الواقع، فالبعض يريد فرض حظر على الألعاب الحاسوبية وألعاب الشبكة والاتصال عن طريق شبكة الإنترنت وغرف الدردشة ومواقع الإنترنت، في الوقت الذي يكون فيه آخرون مستعدين للانتقال إلى الواقع الافتراضي الجديد، وذلك لحصولهم فيه على كل الظروف اللازمة لنموهم الفكري. ومع ذلك، على الرغم من توفير تقنية المعلومات الجديدة الاستمرارية لتطوير للعلوم والتقنية، إلا أنها وضعت البشرية أمام حقيقة وجودها وأمام مجموعة من المشكلات المهمة.

يتغير المجتمع باستمرار، ويفتقر الشخص العادي إلى لوقت اللازم لفهم التغيرات التي تحدث فيه، واستيعاب ما تعنيه، ناهيك عن ضرورة التكيف معها في الوقت المناسب، وبالشكل المناسب. وبحله لمشكلات واقعية محددة تحمل في معظمها طابع الآنية، يجد نفسه غير قادر على حل القضايا الحياتية الجوهرية، ويفقد المعالم التي تفوق من ناحية أهميتها الفوائد العملية. إضافة إلى ذلك، تعلو أمام كل واحد منا وبشكل حاد ضرورة التفاعل المناسب مع الآخرين ومع المؤسسات الاجتماعية.

في ظل هذه الظروف، تثار- وبحدية خاصة- تساؤلات عن التربية الأخلاقية، وغرس القيم الإنسانية عند جيل الشباب. وتمتلك هذه المهمة أهمية كبيرة، وذلك لأن دور «مربي» الأطفال والناشئة في الوقت الراهن أخذته صناعة الترفيه على عاتقها، بما في ذلك التلفاز وألعاب الكمبيوتر التي تجلب الفوائد والمنفعة لمبدعيها الذين غالباً ما يروجون للقسوة والسخرية والوحشية

لاعتيادهم على رؤية الآخرين مجرد أدوات لبلوغ غاياتهم.

إن وجود الإنسان مجرداً من نقاط الاستدلال الأخلاقي في مجتمع يتجسد معياره في غيابها، بل ويعتبر هذا الغياب فضيلة، لا يمكن إلا وأن يثير مخاوف جدية. ومع ذلك، يجب علينا الاعتراف اليوم بأن ذلك هو الثمن الذي تدفعه البشرية مقابل حقها في دخول عالم تكنولوجيا المعلومات.

لقد آن الأوان للاستفادة والتعلم من أخطاء الماضي من أجل المستقبل.

الفصل الأول

الثقافة البدائية

إن تعيين الحدود الزمنية لظهور الثقافة هو أمر في غاية الصعوبة، فالثقافة تنشأ عندما يظهر الإنسان نفسه.

ولكن ما الثقافة؟

في مؤلفه الكلاسيكي «الثقافة البدائية Primitive culture» يكتب إدوارد بورنيت تايلور Edward Burnett Tylor أن الثقافة تتكون «من المعارف والمعتقدات والفنون والأخلاق والقوانين والأعراف وبعض القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع[1]».

ووفقاً لرأي آخر، يجب النظر إلى الثقافة على أنها تجريد (ألفريد لويس كريوبير Alfred Louis Kroeber وكلايد كلاكهون Clyde Klakhon)، أو سلوك مكتسب (فيليشيا كيسينغ Felicia Keesing) ينتقل من جيل إلى جيل. ومن المهم التأكيد على أن الحديث يدور عن آلية للوراثة الاجتماعية.

ووفقاً لرأي عالم شهير آخر هو ليزلي وايت Leslie White، فإن «الثقافة هي عبارة عن فئة خاصة من الأشياء والظواهر التي تعتمد على قدرة الإنسان على التعبير بالرموز، التي يتم تناولها في السياق غير الجسدي[2]».

يعتقد وايت أن جميع الأشياء والظواهر التي تشكل الثقافة، تقع في زمان ومكان. أولاً، إنها الإنسان نفسه مع أفكاره ومعتقداته ومشاعره وعلاقاته.

(1) تايلور، إ. ب.، الثقافة البدائية. موسكو، 1989. ص 18.

(2) وايت، ل. أ. مفهوم الثقافة//مختارات من دراسات الثقافة. المجلد1. سانت بطرسبورغ، 1997. ص 26.

ثانياً، عمليات التفاعل الاجتماعي للناس. ثالثاً، الأشياء المادية. تقع خارج جسم الإنسان، «ولكن في إطار نماذج من التفاعل الاجتماعي بين الناس[1]». وتحدد هذه العوامل موقع الثقافة.

في التعريفات المقتبسة يدور الحديث عن الإنسان فقط. وكما هو معلوم أن القردة العليا Hominidae تعيش أيضاً في مجتمعات، إذ يخضع كامل القطيع لقواعد صارمة إلى حد ما، وهناك نظام فريد للارتقاء بحالة كل فرد فيه. كما أن المحاكاة واسعة الانتشار وسط الثدييات العليا (المُقَدَّمات Primates) تسمح بالحديث عن نقل غير جيني (غير وراثي) للخبرة من فرد إلى آخر. ومع ذلك، تغيب لدى الحيوانات الطريقة غير الجينية لتثبيت هذه التجربة داخل النوع أو الجماعة. أما لدى الإنسان فهي تثبت في القصص والكتب وغيرها من معالم الثقافة الروحية والمادية. وتفتقر الحيوانات إلى مثل ذلك. لذا، على الرغم من آراء بعض العلماء حول احتمال وجود «ثقافة أولية» أو «بدائية» لدى الحيوانات العليا، إلا أن معظم الباحثين يعتقدون أن الثقافة (أو كل ما هو قريب منها) لم تستطع الظهور في جماعة الحيوانات حتى ذات الدرجة العالية من التنظيم.

بصفة عامة يمكننا القول إن مفهوم الثقافة يتضمن منهج النشاط (السلوك)، والاستمرارية، والتراكم (التجميع). فيما يتعلق بالمفهوم الأخير تجدر الإشارة إلى أن الخبرة المهمة اجتماعياً تعتبر منهج النشاط البشري، وهي لا تنقل فقط، وإنما تتراكم أيضاً، لذلك فعملية التنمية الثقافية تحمل طابعاً تراكمياً. وتعتبر الخبرة والتقاليد (الماضي) والابتكار (الحاضر) عناصر مهمة للثقافة. إذن، تفترض الثقافة نقلاً غير جيني للخبرة من فرد إلى آخر. وينبغي أن تكون هذه الخبرة مثبتة في بنى مادية غير بيولوجية (مثل الكتب، أو الرسوم الصخرية).

(1) وايت، ل. أ. المرجع السابق. ص 27–28.

يمكن تقديم المخطط العام لظهور الإنسان على النحو التالي. تسمح الحفريات الأثرية العديدة بالتوصل إلى استنتاج عن أن أسلاف الإنسان كانت القردة الشبيهة بالإنسان، التي كانت تعيش في عصر الميوسيني (العصر الثلثي الأوسط). وكان نمط حياتها شبه أرضي وشبه شجري. إلا أن الظروف المعيشية تغيرت مع الزمن، واضطرت القردة للنزول إلى الأرض. ويرى العلماء في تبدل المناخ أحد الأسباب الرئيسة لهذه التغيرات، فقد أجبرت الظروف المتغيرة للحياة الحيوانات الضخمة على التكيف مع الظروف الجديدة، فقد وجب عليها القلق على سلامتها وتجنب الوقوع فريسة سهلة للعديد من الحيوانات الأرضية المفترسة. وجرى هذا التكيف باتجاهين. تحركت المجموعة الأولى نحو العملقة giantism: فقد مكنت الأحجام الضخمة من زيادة القوة للدفاع والهجوم. ومن بين العمالقة القدماء كان هناك دريوبيثاكوس Dryopithecus وجيغانتوبيثيكوس Gigantopithecus، ومن الحديثة – الغوريلا Gorilla. لم تكن المجموعة الأخرى مضطرة إلى الاعتماد على القوة والحجم، وإنما على الذكاء. فمن المعروف أنه حتى القردة الحديثة تستخدم في كثير من الأحيان الوسائل المتاحة لتحقيق أهدافها (تحطم الجوز بالصخور، وتصل إلى الموز بالعصا، وما إلى ذلك). حاولت الكائنات القديمة تغطية النقص في القوة «بالنشاط بمساعدة الأدوات الأصلية» الذي استمرت أهميته بالازدياد، وفي بعض الأحيان توقفت عليه حياة القردة القديمة وسلامتها.

قبل زهاء 5–6 مليون سنة وضعت مجموعة من أشباه الإنسان anthropoids من عصر الميوسين البداية لكائنات مختلفة كلياً عن الكائنات الحية الأخرى جميعها، واكتسبت هذه الكائنات تسمية «ما قبل البشر» أو أسترالوبيثكس Australopithecus، التي يمكن ترجمتها إلى «القردة الجنوبية». تجري بشكل تدريجي عملية التغيير في الغذاء، فقد كان العديد من القردة عاشبة (تقتات

على العشب)، وبعد نزولها إلى الأرض تكيفت مع ظروف بيئية مختلفة، ويمكن بالفعل أن تسمى بالحيوانات المفترسة. وخلافاً للحيوانات، استخدمت أدوات مختلفة للصيد منتقلة من الاستخدام العرضي إلى الاستخدام المنهجي لها. وظهر لديها المشي المنتصب، ومع ذلك، لا يمكن تسميتها بالبشر، إذ لم تعرف كيفية صنع الأدوات.

تتمثل أولى المظاهر المعروفة للثقافة المادية بالأدوات الحجرية التي ظهرت قبل 2–2،5 مليون سنة تقريباً، وأنتجتها كائنات أطلق عليها مسمى «الإنسان الماهر (الصانع) Homo habilis». ويعتقد بعض العلماء أنه لا يمكن اعتبار المهرة بشراً لأنهم فعلياً لم يختلفوا عن القردة الجنوبية، ولم يكن لديهم لغة، على الرغم من أنهم كانوا قادرين على تصنيع الأدوات المختلفة. ويعتقد بعض الباحثين أن القردة الجنوبية كانت أشباه بشر مبكرة، والمهرة – متأخرة. كذلك لا يمكن اعتبار المهرة بشراً لأنهم لم يكونوا مخلوقات اجتماعية، وإنما عاشوا في تجمعات حيوانية بحتة.

وضع المهرة البداية لعملية تشكل الإنسان والمجتمع البشري التي استمرت لمدة 1،5 – 1،6 مليون سنة.

ووفقاً لتأكيدات الكثير من الباحثين، فإن الحد الذي يمكن بوساطته تمييز المورفولوجية البشرية عن الحيوانية لا يجري بين المهرة والقردة الجنوبية، وإنما بين المهرة والإنسان البدائي Archaic Homo sapiens. انتهت هذه الفترة قبل زهاء 35–40 ألف سنة (العصر الحجري المبكر).

تطلب النشاط اللاحق لأشباه البشر عملاً مشتركاً، وأصبح هادفاً وإرادياً. وظهر الإنسان البدائي أو الإنسان المنتصب (هومو إريكتوس) Homo erectus، الذي يعني «الإنسان الذي يسير بشكل مستقيم» (قبل 1،5–1،6 مليون سنة)، الذي يعد أول إنسان متكون.

استخدم أسلاف البشر الحجارة والعصي والعظام كأدوات لهم. ويمكن الافتراض بأنهم لاحظوا الفروق الجوهرية بين الحجارة، فمن السهل جداً كسر بعض الأحجار بأحجار أخرى، وذلك بغية الحصول على قطعة مناسبة مع حافة حادة تفيد في قطع الجلد وفي استخدامات أخرى.

مع تراكم الخبرة، جرى الانتقال من العمل بمساعدة الأدوات إلى العمل الخالص بالأدوات، وهو نشاط تصنيع الأدوات (إبداع الأدوات)، ونشاط الحصول على مواد الطبيعة بمساعدة الأدوات المصنعة (الحصول بالأدوات). ويمكننا أن نفترض أن أولى الأدوات كانت مصنوعة من الحجر، وبمساعدتها استطاع الإنسان البدائي معالجة الأشجار.

ينقسم العصر الحجري Stone Age إلى العصر الحجري القديم Palaeolithic age، والعصر الحجري الوسيط (العصر الميزوليتي) Mesolithic age والعصر الحجري الحديث age Neolithic. وينقسم العصر الحجري القديم بدوره إلى ثلاث مراحل، هي السفلى (المبكرة)، والمتوسطة، والمتأخرة (العليا).

شكل التحطيم أول «عملية تقنية»، ولم يعتمد أي شيء على الكائن العامل، إذ كان كل شيء يحدث عن طريق الصدفة. ومنه انتقل أسلافنا إلى التقسيم الذي انقسم إلى نوعين – التقطيع والشحذ.

تسمح الاكتشافات الأثرية باستنتاج ظهور أدوات عمل متشابهة في أماكن مختلفة، وتمثل الفأس اليدوية مثالاً جلياً على ذلك. وتسمح هذه الاكتشافات النموذجية باستنتاج ظهور أدوات نموذجية تعتبر «نوعاً أثرياً»، ففيها– على وجه التحديد– تجسدت فكرة لا تتجاوز كل فتره فردية فحسب، وإنما أيضاً كل واحد معين من أسلاف الإنسان يعمل في إنتاج هذه الأدوات: باختصار، إنه مفهوم اجتماعي. تصنيع النموذج يعني معرفته، وهذه المعرفة تحفظ وتنقل

بوساطة المجتمع[1]».

بالإضافة إلى الأدوات، تعود إلى هذه الفترة مجموعة أخرى من الأشياء التي تم العثور عليها، ويصعب تفسير أهميتها من ناحية الاستخدام العملي، وهي: مَغْرَة حمراء، صباغ، منشورات كوارتزية، قطع من عظام الحيوانات مع تجويفات. هناك سبب للافتراض أن هذه هي معالم الثقافة الروحية في ذلك الزمن البعيد.

لا يوجد فعلياً بين الباحثين أية اختلافات بالنسبة للقردة الجاوية (الإنسان القرد)، إذ يعتبرها العلماء بالإجماع بشراً. ويمكن التوصل إلى مثل هذه الاستنتاجات بناءً على معطيات العلوم.

ظهرت لدى الإنسان البدائي بؤر للنمو الشديد في أجزاء من المخ، مرتبطة «بتنفيذ الوظائف المميزة للإنسان، الكلامية بوجه خاص[2]». ويعتقد معظم العلماء أن كلا الثقافتين المادية والروحية ولدتا مع الإنسان البدائي، فقد كانت القردة الجاوية (الإنسان القديم) قادرة على تصنيع أدوات العمل الحجرية. ويسمح كل ذلك للباحثين بالقول إن الإنسان القديم امتلك العقل.

يعدُّ إخضاع النار أحد أهم إنجازات أسلافنا البعيدين، فقد كان إشعال النار عملاً معقداً وشاقاً. وتوقف ذلك على ظروف كثيرة، فقد تطلب من المخلوق الذي يقوم به قدرات ومهارات معينة لم تكن لدى جميع أفراد القبيلة. كما اعتمد الشيء الكثير على الظروف المناخية، إذ كان بإمكان الرطوبة العالية والأمطار والثلوج والرياح إطفاء النار، في حين وجب على الناس الحفاظ عليها باستمرار. ومن أجل هزيمة الأعداء، كان من الضروري سرقة نارهم أو إخمادها. وبدون النار التي دفأت الناس البدائيين، كان يمكن للقبيلة أن

(1) تشايد، ف. غ.، الوثائق الأثرية عن علوم ما قبل التاريخ. مجلة تاريخ الثقافة العالمية، 1977. العدد1، ص 30.

(2) سيمينوف، يو. ي.، ظهور الثقافة وأشكالها المبكرة // تاريخ ثقافة روسيا. موسكو، 1933. ص 9.

تنقرض. وحول النار فرضت حماية يقظة. وطُرد من القبيلة من دون أي شفقة كل من لم يحفظ الموقد، أو سمح بإخماده.

عُثر في موقع تشوكوديان Zhoukoudian (جنوب بكين) على آثار لإنسان بكين Sinanthropus pekinensis (Peking Man). وبلغ حجم دماغ الإنسان القديم 1075 سم3. وتؤكد استنتاجات العلماء أن في دماغ إنسان بكين كانت هنالك مراكز متطورة تنظم الكلام وفهم الكلام. واستخدم إنسان بكين النار لإعداد الطعام والتدفئة.

إذن، عاش الناس في هذه المرحلة من التطور في مجتمعات، وكان يتوجب بالفعل وجود معايير معينة للسلوك. ووفقاً لبعض الباحثين، كان إنسان بكين وغيره من «المنتصبين»، قادرين على الكلام، واقتصر تواصلهم على الدمدمة أو على أصوات منفصلة. وكان لدى سكان كهوف تشوكوديان مصنوعات من الكوارتز الصلب، وكانوا قادرين على التمييز بين الحجر الرملي اللين والكوارتز الصلب، واستخدموا جماجم الحيوانات كأكواب للشرب والطعام.

حفيد الإنسان البدائي هو الإنسان القديم أو إنسان نياندرتال Homo neanderthalensis الذي يعود زمن ظهوره إلى ما قبل 200—300 ألف سنة. ووفقاً للرأي العام، في هذه الحقبة تشكل كل من التفكير والإرادة واللغة. ويتمثل الفرق الرئيسي بين الثقافة المادية للإنسان البدائي وإنسان نياندرتال في الآتي: تُصادف لدى الإنسان البدائي العديد من مجموعات الأدوات المختلفة، إلا أنها جميعها متماثلة من ناحية تركيبة المنتجات، بينما يُمثلُ إنسانَ نياندرتال عددٌ كبير من المجموعات المختلفة التي تمتلك كل واحدة منها مجموعات من الأدوات الحجرية تختلف عن الأخرى. وإذا كان الحديث في الحالة الأولى (الإنسان البدائي) يدور على وجود ثقافة مشتركة للبدائيين جميعهم، ففي الحالة الثانية (إنسان نياندرتال) يمكن الحديث عن ثقافات أثرية مختلفة، أو كما

يقال «خيارات محلية»، «خيارات الصناعة الحجرية».

مثلت إنسان نياندرتال المبكر (على أراضي فرنسا) حضارات أثرية، هي الأشولية (الأشولينية) Acheulean Culture، والتياكية، والإيفونية، والموستيرية Mousterian Culture. والإنسان القديم المتأخر (دوردوني– فيين –Dordogne Vienne (فرنسا) هو موستيري مع تقاليد أشيلية – موستيري طرازي، وأخيراً طرازان من الموستيري المسنن: موستيري من طراز كوينا Moustérien de type Quina، وموستيري من طراز فيراسي Moustérien de type Ferrassie.

اكتشفت في القوقاز ثقافات الموستيرية الطرازية والموستيرية المسننة، كما تم في إفريقيا العثور على ثقافات سانغو Sango وفاورسميث Fauresmith ولوبيمبي السفلى Lubembe وعدة ثقافات أثرية أخرى.

أحفاد الإنسان البدائي للعصر الحجري السفلي هما الإنسان البدائي وإنسان نياندرتال اللذان تحولا إلى الإنسان العاقل Homo sapiens. ويمكن وبكامل الثقة تسمية الإنسان العاقل بالبشر من النوع الحديث، فقد تميز بالقدرة على التفكير والتجريد، وكان قادراً على تكديس وفهم الخبرة العملية وتجسيد الإدراك الحسي في المجال الروحي(1).

يعود الدفن إلى الآثار القديمة للثقافة الروحية، فقد كان إنسان نياندرتال يدفن الموتى من أقاربه، وهناك عدة نظريات حول هذا الموضوع:

1. يعتقد العديد من العلماء أن البشر البدائيين آمنوا بوجود الروح لديهم وبمواصلتها الوجود بعد الموت (بونسوني Bunsoni، هيوغو أوبيرماير Hugo Obermaier).
2. ينظر آخرون مع بعض الشكوك إلى مثل هذه الافتراضات، فبرأيهم أن البشر البدائيين لم يؤمنوا بالروح، وإنما بالخصائص الخارقة للجثة،

(1) انظر ل. س. فاسيلييف، تاريخ أديان الشرق. موسكو، 1983. الفصل 3.

ولذلك حاولوا التخلص منها (إيبرت Ebert).

3. لم يدرك إنسان نياندرتال ماهية الموت، وواصل الاهتمام بأقربائه الميتين والأحياء على حد سواء (إيفان إيفانوفيتش سكفورتسوف-ستيبانوف Ivan Ivanovich Skvortsov–Stepanov).

4. الرأي الأكثر عملية هو أن الحيوانات عادة ما تبقى بعيدة عن الجثث المتحللة (باستثناء الحالات التي تأكل فيها الجيف). ومن هنا كانت رغبة إنسان نياندرتال في دفن الجثة.

تمثل طقوس الجنازة لدى إنسان بكين عملية معقدة وطويلة. ويرى العلماء أن الأقارب بعد فترة معينة من الوفاة نقلوا الجثة (أو الجمجمة فقط) إلى كهف، حيث يتم سحب الدماغ وإحراقه على موقد. ويعتقد بعض الباحثين أن النار لديهم كانت تعيد المتوفى إلى الشمس. الجمجمة إما خزنت أو دفنت تحت الموقد. ووفقاً للفرضيات المتوفرة، واصل المتوفى بهذا الشكل عيش حياته السماوية والدنيوية[1].

يمكن تفسير الدفن لدى البشر البدائيين من الطراز الموستيري (وفقاً للامبرت Lambert) على النحو التالي. توضع جثة المتوفى في وضعية النائم، فقد اعتبر القدماء أن موت الشخص هو نوم عميق يمكن الاستيقاظ بعده. كان المتوفى يمدد بشكل صارم مع محور شرق - غرب، في حين وضع وجهه باتجاه الجنوب، وتحت رأسه وسادة حجرية. وفي الجنازة وضع أبناء القبيلة قطعاً من اللحم المشوي والأدوات الحجرية ومفرشاً من الكنباث وزهوراً ونباتات طبية.

تتباين آراء المتخصصين بشأن الأحجار السيليكونية، إذ يرى البعض منهم فيها فراغات للأسلحة المقبلة، في حين يعتقد آخرون أنها «ضرورية لقدح النار».

(1) أ. ب. زوبوف، تاريخ الأديان. موسكو 1972. ص 42

بالإضافة إلى دفن الناس، يعود إلى العصر الموستيري تقليد دفن الحيوانات أيضاً، ففي كهوف دراتشينلوش Drachenloch (سويسرا) اكتشفت عظام دب الكهف مطوية في صناديق حجرية من نوع خاص. لم تكن العظام موضوعة في الصندوق فقط، وإنما موزعة بترتيب معين. وتباينت وجهات نظر الباحثين حول هذا الموضوع، فقد يكون ذلك علامات على المعتقدات الطوطمية، أو السحر، أو الصيد أو عبادة الدب. ولكن لا يستبعد أنه بهذا الشكل كان يحفظ مخزون اللحوم. وبالإضافة إلى الصيد والمدافن، يجدر التنويه إلى صنع الأدوات وبناء المساكن وغيرها من أشكال النشاط.

قبل زهاء 40 ألف عام بدأ الإنسان العاقل بتهجير جيرانه (إنسان نياندرتال) الذين سرعان ما اختفوا تماماً من على وجه الأرض. وكما يعتقد العلماء فإنه في هذه الفترة على وجه التحديد بدأت بالظهور أولى المعتقدات الدينية (على الرغم من عدم استبعاد أن يكون قد حدث هذا قبل ذلك).

بدأت فترة العصر الحجري القديم الأعلى (قبل زهاء 40–18 ألف عام). ويشير الباحثون (على سبيل المثال، ليونيد فاسيليف Leonid Vasilev) إلى اثنين من الابتكارات المميزة للإنسان العاقل في العصر الحجري القديم الأعلى:

1. الدفن، فقد كان إنسان الكهوف العاقل يدفن أقربائه المتوفين، فقد كان يغطي الموتى بطبقة من أكسيد الرصاص، وتدفن معهم الحلي والأواني. لقد كان لديهم بالفعل تصور عن الحياة الآخرة التي بدت لهم مشابهة للحياة الدنيوية، واعتقد الناس أن الموتى قادرون على التسبب بالخير والشر لهم.
2. في أوائل العصر الحجري القديم الأعلى ظهرت الرسوم السحرية في لوحات الكهوف، فقد صورت مشاهد الصيد بغية أن يصبح الصيد الحقيقي موفقاً. والنوع الآخر من الرسوم المميزة للفن الصخري هي

رسومات أشخاص–حيوانات أو أشخاص يرتدون جلود الحيوانات. ولا يستبعد أن ذلك يعبر عن الاعتقاد بالعلاقة الوثيقة التي تربط بين البشر والحيوانات.

كان المجتمع البدائي حميمياً، إذ يعتقد كثير من الباحثين أن لدى البشر البدائيين كان هناك عرف الاهتمام بأفراد مجتمعهم. واستطاع الناس القدماء إدراك أنفسهم كأفراد منفصلين عن القبيلة، وكذلك فهم القواسم المشتركة مع غيرهم من أبناء القبيلة.

لنستعرض الدفن كمثال، شنيدر Shanidar I. يدل الهيكل العظمي على أن المتوفى كان طاعناً في السن: يقارب الأربعين عاماً، وهذا سن الشيخوخة الطاعنة. وكان يعاني من التهاب المفاصل، ولم تبق لديه إلا يد واحدة. ومن الواضح أن المعوق لم يكن قادراً على تحمل نصيبه من الصيد في المجتمع. مع ذلك، وعلى الرغم من الإعاقة، فقد عاش لفترة معينة، ولم يقتل أو يبعد من قبل أبناء جماعته. ويدل ذلك على وجود حقوق ومسؤوليات معينة في المجتمع البدائي، فضلاً عن المشاعر والعواطف عند الناس البدائيين. «والشيء الأهم في المجتمع البدائي المبكر مثله معيار السلوك الذي يلزم كل عضو من أعضائه تقاسم الحاجيات، وخصوصاً المواد الغذائية، مع جميع الأعضاء الآخرين»(1).

في موقع لا فيراسي الموستيري المتأخر (العصر الحجري المتأخر) عثر على حجر مع وجود علامات واضحة لبقع حمراء. وفي لي موستيي Le Moustier عثر على بلاطة مع آثار لصباغ أحمر، ثمة افتراضات بأنها عبارة عن صور حيوانات، والبقع الحمراء – جروح. ويعتقد بعض الباحثين أن الآثار المكتشفة تمثل لوحات من الصيد تحولت مع مرور الوقت إلى طقوس. في حين يعتقد

(1) يو. إ. سيميونوف، ظهور الحضارة وأشكالها المبكرة// تاريخ ثقافة روسيا. موسكو، 1993. ص 23.

علماء آخرون أن حقيقة تصوير الجروح على جسم الحيوان تتحدث عن حقيقة ظهور الفنون التشكيلية.

قبل زهاء 35—75 ألف سنة حلت في أوروآسيا حقبة وورم الجليدية الرابعة Wurm Ice Age التي جعلت من شمال أوروآسيا منطقة غير صالحة للوجود.

تميزت الهجمة التاريخية الأخيرة للجليد على الأرض بحدث آخر، فقد شهدت تلك الفترة الاختفاء الكامل لإنسان نياندرتال الذي بقي في نهاية الفترة الموستيرية ولكن بشكل نادر.

قبل زهاء 35 ألف سنة اختفى إنسان نياندرتال تماماً من على وجه الأرض، ليسود الإنسان العاقل في أوروآسيا. في هذه الفترة امتلك الناس معارف كبيرة أمكن جمعها استناداً إلى تجارب الماضي. كانوا يعرفون الخصائص الجغرافية للأماكن التي يقيمون فيها، وكان ذلك ضرورياً من أجل البقاء على قيد الحياة في الظروف الصعبة والتنافس مع القبائل المجاورة. كانوا ضليعين في معرفة نوعية وخصائص الصخور التي كان عليهم التعامل معها، فقد كان من الضروري ليس فقط العثور على الحجر المناسب، وإنما اختيار الحجر الأكثر ملائمة للتصنيع. وكلما كانت المادة الأصلية (الحجر) أفضل، تكون المادة المصنعة أقوى. وعلى المادة المنتقاة بشكل جيد اعتمدت جودة ومتانة المادة المصنعة. وتطلب الأمر معلومات دقيقة عن الموارد الطبيعية وذلك من أجل استخدامها وحمايتها من الأعداء.

في تلك الفترة أصبح الناس قادرين على التمييز بين ما هو مفيد وما هو ضار من النباتات. وكانوا قادرين على تمييز النباتات التي يمكن استخدامها بكميات كبيرة في الطعام، كما عرفوا سر تلك الأعشاب الطبية التي لا ينبغي استعمالها بكميات كبيرة، وإنما بجرعات معينة من أجل العلاج. وتسمح الحفريات الأثرية باستنتاج أنهم في تلك الفترة عرفوا مداواة الجروح والكسور.

وضمن إطار المعارف الضرورية دخلت المعلومات عن الحياة البرية المحيطة، فكان ضرورياً الخوف من الحيوانات المفترسة. وكان من السهل التعامل مع الحيوانات الصغيرة منعزلة، أما الحيوانات الضخمة فقد طاردوها بمجموعات كبيرة. ولم تكن أقل أهميةً– أيضاً– معرفةُ مواطن الحيوانات الأخرى التي قد تبدو ضرورية لتلبية احتياجات القبيلة من لحوم للطعام، وجلود للملابس.

على ما يبدو في تلك الفترة تعلم الناس القدماء الأشكال البدائية للحساب. وظهر أول تقويم، وكان قمرياً على الأرجح، فمن المعروف أن القمر كان ذا أهمية كبيرة في حياة الناس القدماء. ومن هنا يعتقد بعض العلماء أن أجدادنا البعيدين امتلكوا معارف معينة في علم الفلك. ولعبت الشمس دوراً مهماً في تصوراتهم، فعلى دفئها اعتمدت في بعض الأحيان حياة القبيلة بأكملها.

بعد التقويم القمري ظهر التقويم الشمسي. وباستمرار رأى الناس النجوم بالقرب من القمر وتذكروها وأعطوها هذه الأسماء أو تلك.

في فترة العصر الحجري المتأخر ظهر الدين. وكانت الفنون التشكيلية معروفة قبل ذلك بكثير، إلا أن إبداع الناس البدائيين لم يقتصر عليها فقط. وكانت الفنون التطبيقية متطورة، فقد عرف الناس التزيين، واستخدموه بشكل واسع. وأقاموا الأعياد مع الرقص والموسيقى والتمثيل الإيمائي والأغاني. وظهرت الأقوال المأثورة والأمثال والقصص والحكايات الخرافية.

شكلت الأشجار والعظام والأحجار المواد الرئيسة التي استخدمها الناس البدائيون لتصنيع الأدوات والأسلحة والأواني المنزلية، فقد صنعت الأواني المنزلية من الأغصان والقضبان والخيزران والقشور. وصنع الطعام على النار، ولكن غليه أصبح ممكناً فعلياً بعد اختراع الأواني الفخارية فقط، فقبل ذلك كانوا يلقون الأحجار الساخنة في الطعام لتسخينه.

كانت ملابس الناس البدائيين تعتمد على المكان الذي يعيشون فيه، ففي

البداية ظهر الحزام والمئزر والتنورة. وساعدت الملابس القدماء على إظهار قدراتهم الإبداعية في تزيينها.

يمثل الجمع واحداً من الأشكال الأولى للنشاط البشري، فقد تمتع في البداية بطبيعية عفوية وعشوائية، وحدد البدائيون الثمار الصالحة للأكل وجمعوها، ومع مرور الوقت حددوا الأماكن التي فيها يمكن جمع الثمار الصالحة للأكل. ثم جاء إدراك موعد نضج المحصول الذي كان متبايناً بالنسبة للأنواع المختلفة من النباتات. لم يقم الجامعون (ومعظمهم من النساء) بجمع الثمار للوجبات اليومية فحسب، وإنما قاموا أيضاً بإنشاء المخزون، الأمر الذي تتطلب ذاكرة جيدة وذكاءً وقدرة على ربط الوقائع المتفرقة في صورة واحدة.

في الصيد استخدمت الفخاخ والمصايد والشباك، وكان حفر الفخ الأرضي لصيد الحيوانات الضخمة– لتوفير الغذاء للقبيلة لفترة طويلة– بالنسبة لشخص بمفرده ضرباً من المستحيل، كما كان من المستحيل أيضاً تغلب شخص أو شخصين على حيوان مفترس ضخم. لذلك جرى الصيد في مراحله الأولى بشكل جماعي، وبعد ذلك تحول إلى فردي. وكان لصيد الأسماك الأهمية القصوى في بعض المناطق، وغالباً ما تطلب بذل جهود مشتركة.

غالباً ما استخدم الكرومانيونCro–Magnon (الأقرب للإنسان الحالي) الكهوف للسكن، إلا أنهم كانوا يجيدون بناء مساكن لأنفسهم على شكل مخبأ تحت الأرض أو خيمة تحميهم من الصقيع في فصل الشتاء.

لدى دراسة آثار الثقافة الروحية يمكن أن نخلص إلى أن الفرق الرئيسي بين الكرومانيين والناس القدماء يكمن في أنهم أتقنوا فنون الرسم والنحت، فقد سمحت الاكتشافات الأثرية التي جرت في أواخر القرن التاسع عشر بالحديث عن مستوى عالٍ نسبياً لهذه الأشكال من الفنون.

من المتعارف عليه تقسيم العصر الحجري القديم الأعلى إلى فترات زمنية

مختلفة:

– الموستيرية المتأخرة (65–35 ألف سنة قبل الميلاد).
– أورينياك Aurignac (غرافيتا Gravetta) (35–25 ألف سنة قبل الميلاد).
– سوليوتر Solutré (25–20 ألف سنة قبل الميلاد).
– مادلين Madeleine (20–10 ألف سنة قبل الميلاد).

تعامل صيادو العصر الحجري القديم الأعلى مع المدافن بجدية كبيرة. ويعتبر المدفن الأورينياسيّ تقليدياً، فقد رُشَّ قاع القبر بالمغرة الحمراء. وعثر هناك على هيكل رجل وخواتم وأقراص حجرية. بعد أن يُمدد المتوفى في القبر وبعد وضع المواد المختلفة معه، رش أبناء القبيلة جسده بالمغرة الحمراء.

يعتقد العلماء أن الناس القدماء علقوا أهمية كبيرة على المغرة الحمراء في أداء الطقوس. ويمكن الافتراض أن حقوق طقوس الدفن لم تكن مفروضة لجميع الموتى، فهناك قبور لا يوجد فيها أي هبات، ووضعت بعض الجثث فيها واتجاه الوجه نحو الأسفل، في حين وضعت عليها حجارة ثقيلة. وهناك أيضاً جثث مشرَّحة. ومن المرجح جداً أن أبناء القبيلة كانوا يخافون من قدرة الموتى بعد الموت على التسبب بالضرر لهم.

لا يزال فن الرسم في لعصر الحجري القديم الأعلى موضع اهتمام كبير للباحثين، فمن الصعب جداً فهم قيمة الشيء المصور ومعناه. وكل ما بوسعنا هو التخمين بما أراد الناس القدماء نقله فقط. وتمثل صور الحيوانات أكثر أنواع رسومات العصر الحجري القديم الأعلى انتشاراً، فهناك رسومات تصور فيها مشاهد تقديم القرابين، حيث تسيل الدماء منها، في حين صورت حيوانات أخرى على خلفية بعض الهياكل التي مازال معناها مبهماً بالنسبة للعلماء.

مثلت نماذج أو رسومات الخيام أو الأكواخ الموضوع الآخر لكهوف العصر الحجري القديم الأعلى، وهناك تكهنات بأنها مثلت رمزاً لمساكن

الموتى، وتنتمي إلى هذه الفترة الآثار التي تتحدث عن وجود عبادة الماموث Mammoth[1] التي حفظت إضافة إليها العبادة القديمة للدب. فمن المرجح تماماً أن كلا العبادتين تعايشتا لبعض الوقت. وتحمل بعض رسومات الدب طابعاً غير عادي، فغالباً ما تصوره برأس ذئب وذيل ثور (بيسون)، وفي أحيان أخرى صوّر إنساناً بجلد دب.

في عام 1940 تم اكتشاف كهف لاسكو Lascaux الذي أطلق عليه اسم «كنيسة سستين العصر الحجري» وذلك نظراً لتنوع لوحات فائقة الجمال على جدرانه يزيد عمرها عن عشرين ألف عام (يرجعها معظم الخبراء إلى الحقبة المادلينية)[2]. ولكونه ملاذاً، يكاد أن يكون هذا الكهف مكان إقامة الناس القدماء.

على جدران الصالة الأولى للكهف يصور موكب طويل من الحيوانات المختلفة يبدو أنها متجهة إلى مكان ما. على رأس الموكب مخلوق غريب جداً، له رأس إنسان، وقرنان مستقيمان، وظهر ثور بري، وذيل غزال، وقدما فيل، وسنام ثور (بيسون)، وساقا حصان.

وفقاً للرأي العام للباحثين، فإن المخلوق المصور هو أنثى مع علامات حمل. وتجدر الإشارة إلى حجمه الذي يبلغ ثلاثة أمتار. وهناك روايات كثيرة عن هذا الرسم الغريب، ولكن أياً منها لم يعط الإجابة عن لغزه.

يمثل تصوير النساء (النقوش والأرقام والرسوم) الموضوع الرئيسي الآخر للرسم في العصر الحجري القديم الأعلى. ولم تتميز المرأة في هذه الرسومات بجمال أو كياسة، وإنما وعلى العكس من ذلك فقد كرس الرسامون والنحاتون القدماء الدور الاجتماعي الأساسي للمرأة – أن تكون أماً، ومواصلة للجنس

(1) ماموث Mammoth – نوع ضخم منقرض من الثدييات الفيلية من فصيلة الفيلة، يبلغ ارتفاعه نحو 4,5 م، كان يعيش في أوروبا الوسطى. (المترجم)

(2) أ. ب. زوبوف، تاريخ الأديان. موسكو، 1997. ص 87.

البشري، وربة منزل. «أغلب الظن أن لوحات «فينوس» صورت «الأرض-الأم» الحامل بالموتى الذين مازال يتعين عليهم أن يولدوا مرة أخرى إلى الحياة الأبدية. ولعل الجوهر، كما هو مصور، كان للجنس نفسه في امتداده من الأجداد إلى الأحفاد، وللأم العظيمة التي دائماً ما تنجب الحياة في العالم... ولحافظة الجنس غير مهمة الملامح «الشخصية» الفردية. إنها الرحم الحامل دوماً، والأم التي ترضع أبناءها لبنها دوماً»[1].

فسح الاقتصاد الاسكتشافي المجال تدريجياً للاقتصاد الانتاجي، إذ تعلم الإنسان تصنيع المواد الغذائية، وليس فقط التنقيب عنها بمساعدة ما يصنع من أدوات.

في تطور الثقافة المادية كان هناك نقطة تحول سميت بالحجرية الحديثة، أو الثورة الزراعية. ظهر الاقتصاد الانتاجي لأول مرة في تاريخ البشرية في غرب آسيا (فترة القرنين التاسع-الثامن قبل الميلاد).

استبدلت الأدوات الحجريه بالأدوات النحاسيه ليحل العصر الحجري النحاسي (الإنيوليثيك Eneolithic أو الكالكوليت chalcolithic). بعد ذلك حل العصر البرونزي الذي استبدله العصر الحديدي.

حفظ الكثير من المعالم المختلفة التي تعود إلى تلك الفترة. أصبحت طقوس الجنازة أكثر تعقيداً وثراءً. أخذ القادة والأمراء والملوك معهم إلى القبر النفائس والمجوهرات، ورافقهم أحصنة ميتة (وأحياناً أناس) لخدمتهم في عالم الأموات. فوق مكان الدفن كدست أكوام أصبحت فيما بعد نصباً تذكارية. كان الأفراد العاديون من القبيلة يدفنون بشكل أكثر تواضعاً. ففي تلك الفترة غالباً ما كان الأموات يحرقون ولا يدفنون تحت الأرض. على ما يبدو كان يعتقد أن الموتى مع النيران يصعدون بشكل أسرع إلى السماء.

(1) أ. ب. زوبوف، تاريخ الأديان. موسكو، 1997. ص 93.

في العصر البرونزي عبد الناس الشمس. وهناك عدة فرضيات بشأن الأسباب التي كانت وراء ثورة العصر الحجري الحديث. يواصل الباحثون التساؤل عن الشيء الذي شكل السبب الرئيسي الذي جعل الصيادين وجامعي الثمار يتحولون إلى مزارعين ورعاة ومربي مواشي مستقرين.

مصطلح «ثورة العصر الحجري الحديث» اقترحه عالم الآثار البريطاني جوردان تشايلد Gordon Childe بروفسور جامعة أدنبرة الذي يعتقد بأن عملية الانتقال من الاقتصاد الاستخراجي إلى الاقتصاد الإنتاجي جرت بعد العصر الجليدي الكبير. نتيجة لهذه الجائحة الطبيعية الضخمة جرى انتقال مناطق الرطوبة الوفيرة إلى الشمال. ساعدت الظروف المتغيرة في أن يبدأ الناس بالاستقرار في الواحات حيث كان الكثير من المياه. والظروف الطبيعية نفسها أجبرتهم على التعامل بحرص أكثر مع الموارد الطبيعية، والبحث عن السبل والطرق لزيادة تكاثرها، مما أدى إلى تعلم الناس زراعة الحبوب والبقوليات.

يؤكد روبرت برايدوود Robert Braidwoodعلى أن ثورة العصر الحجري الحديث هي نتيجة لعمق «التمايز الثقافي» و«تخصص» المجتمعات فقد أصبح الإنسان لا يسعى للحصول على مصادر الغذاء، بل بدأ في تنمية هذه المصادر حيث يقيم. وبالتدريج ظهرت الحضارة «المستقرة»، وجرى تقسيم العمل، وظهرت المدن والدول والكتابة. ويعتقد ميرتشا إلياده Mircea Eliade أن اكتشاف الزراعة سبب تغيرات كبيرة في الرمزية الدينية، فقد استبدلت العلاقة الصوفية مع عالم الحيوان بالعلاقات مع عالم النباتات، فقد أصبحت محاصيل الحبوب تستخدم في تنفيذ مختلف الفعاليات الدينية الهامة. «

لم يكن الإبداع الديني مدفوعاً بالظاهرة التجريبية للزراعة، وإنما بسر الولادة والموت والبعث، الذي يتجلى في إيقاع حياة النباتات». لذلك تصادف المواد المرتبطة بمعالجة وتخزين الحبوب قبل وقت تدجين النباتات، وهي موجودة في

المجال المقدس على وجه التحديد[1].

كأسلافه، القردة، اعتمد الإنسان القديم على قوى الطبيعة، إلا أن أهم ما يميزه عن الحيوانات هو أنه كان قادراً على الربط بين الظواهر المختلفة التي لم يكن لها طابع منطقي، وإنما على الأغلب عاطفي وخيالي.

وفي دراسته لقضايا الثقافة البدائية يلاحظ لوسيان ليفي برول Lucien – leve –Bruhl عدة عوامل هامة، هي:

1. بالنسبة لوعي الإنسان البدائي ليس هناك «حقيقة مادية بحتة» بكل ما نعطيه لهذه الكلمة من معنى، فتفكيره هو بطبيعته باطني.
2. تمثل المادة في استيعاب الإنسان البدائي كلاً متكاملاً لا ينقسم إلى جسد وروح.
3. الأهمية الكبرى في استيعاب الناس البدائيين تعود إلى التصورات الجماعية التي تفرض عليها البصمة الباطنية.
4. تبرز الصدارة في تفكير الإنسان البدائي الخصائص الباطنية والعلاقات التي لا تعطى في التجربة.

من أجل توصيف خصائص التفكير البدائي يدخل ليفي برول مصطلح «ما قبل المنطقي». وتتمثل إحدى أهم سمات التفكير ما قبل المنطقي في أنه لا يخشى التناقضات، ويتعامل معها بلا مبالاة.

لم يكن في التفكير البدائي تمييز واضح تماماً بين الذات والموضوع. وما يحدث داخل الإنسان البدائي وخارجه هو كل لا يتجزأ. وأدرك أفراد المجتمع وحدتهم مع بعضهم البعض، الأمر الذي انعكس في الطوطمية Totemism. اعتقد الناس البدائيون في أنهم مرتبطون مع أنواع معينة من الحيوانات والنباتات. ومثل هذا الاعتقاد الأساس لظهور الطوطمية.

(1) أ. ب. زوبوف، تاريخ الأديان. موسكو، 1997. ص 104.

مجموعة أقرباء الدم التي يمكن تسميتها بالطوطمية، شكلها الجنس. مثلت الطوطمية الشكل الرئيسي للدين المشابه للجماعة القبلية (الجنس)، وكقاعدة عامة كانت تسمى باسم طوطمها totem (حيوان أو نبات).

لعبت الطوطمية دوراً مهماً في تنمية المجتمع البدائي، وارتبط ظهورها ارتباطاً وثيقاً بالنشاط الاقتصادي للإنسان البدائي، الجمع والصيد.

الحيوانات والنباتات التي منحت الوجود للناس أصبحت مادة للعبادة. في المراحل المبكرة من تطور الطوطمية لم تستبعد مثل هذه العبادة، وحتى افترض استخدام الحيوانات والنباتات الطوطمية في الطعام[1].

مع الوقت جرى رسم الحدود بين مختلف الجماعات الطوطمية. تشكلت القبلية tribalism التي تمثل القواعد والتقاليد والعادات التي تنطبق على سكان القرية فقط، وليس على الغرباء.

الدور الذي لا يقل أهمية لعبته المحرمات المرتبطة بشكل وثيق مع الايمان في الطوطمية. وفي المقام الأول فرض التحريم على الزواج بين الأقارب. بالإضافة إلى ذلك كان هناك محرمات أخرى. وفي جوهرها مثلت جملة القواعد التي عاش وفقها الناس البدائيين. وطبقت المحرمات على الغذاء والسكن ومعايير السلوك وغيرها.

من المرجح أن ظهور التصورات الإحيائية (الاعتقاد في الأرواح) كان قبل الطوطمية. ويأتي مصطلح «الإحيائية Animism» من كلمة أنيما anima اللاتينية وتعني الروح. مؤسس نظرية الإحيائية هو العالم الإنكليزي إدوارد تايلور Edward Tylor الذي تكمن نظريته في الآتي. لدى تأمل الإنسان البدائي في ظواهر مثل الأحلام توصل إلى استنتاج بأن هناك ثمة روح يمكن فصلها عن الجسم. وهبت الكائنات والظواهر الطبيعية المختلفة التي كان يعيش وسطها

(1) أسس دراسة الأديان. موسكو، 1994. ص 74.

الإنسان أرواحاً يمكن أن تساعد الناس أو تلحق بهم الضرر. الفرضية الأخرى لظهور الإحيائية وفقاً لتايلور تتمثل في حقيقة أن الإنسان البدائي رأى في الأشياء والظواهر في العالم المحيط شيئاً ما يشبهه. واعتقد الإنسان أنه طالما أن الروح موجودة لديه، ينبغي أن تكون موجودة لديه ولدى كل ما يحيط به.

كان هناك اختلافات كبيرة بين الإحيائية والطوطمية، فلكل قبيلة كان هناك طوطمها الخاص، إلا أن الشمس والقمر وغيرها من قوى وظواهر الطبيعة كانت موجودة للجميع. اعتقد الإنسان البدائي أن كل شيء لديه روح، من البرق والرعد إلى النهر أو الشجرة الكبيرة.

بالتزامن مع الطوطمية والإحيائية تشكل السحر Magic (من الكلمة الإغريقية Mageia وتعني السحر). خلق الإنسان البدائي التمائم والطلاسم والأصنام. وغالباً ما كان التعامل مع تلك العناصر السحرية بمقدور المشعوذين فقط. وغالباً ما تعامل الناس البدائيون مع الأصنام بدون طقوس خاصة. ففي حال لم يجلب الصنم النتائج المرجوة على الرغم من التذكير الملح عوقب بشدة كما لو أنه إنسان حي مذنب. وفي الحالات التي لا ينفذ فيها الصنم مرة تلو الأخرى الطلبات، يرمى ويستبدل بصنم آخر(1).

تشكلت في التفكير البدائي بالفعل أفكار حول العلاقة السببية، تنحصر أولها في أن السبب في أي مصيبة يعزى إلى حقيقة أنه تم انتهاك المحرمات. في الحالة الثانية المصائب التي تقع على رأس القبيلة مرتبطة بغضب الأجداد أو بمكائد مشعوذ شرير. وقراءة البخت والمحاكمة عن طريق المحن والاختبار بالسم تساعد جميعها على تحديد سبب المصائب.

السمة الهامة الأخرى المميزة للتفكير البدائي وفقاً لليفي برول تكمن في عدم وجود لديه ما هو مستحيل وما هو عفوي.

(1) ل. س. فاسيلييف، تاريخ أديان الشرق. موسكو، 1983. الفصل 3.

قام بتفسير أفكار ليفي برول الباحث الفرنسي كلود ليفي ستروس Claude Lévi–Strauss الذي اعتقد أن التفكير البدائي يركز على توسيط التناقضات، وليس على إزالتها. ويعود الدور الهام في التفكير البدائي إلى العقل الباطن. «إن محتويات العقل الباطني الجماعي هي نتيجة للأداء الذهني لعدد من الأسلاف، أي أنها في مجملها هو الصورة الطبيعية للعالم الممزوجة والمركزة من تجربة ملايين السنين»[1].

إن هذه الصور الرمزية والأسطورية هي التي يجد فيها تناغم الذات المدرِكة مع الموضوع المدرَك تجسيده. ويعتقد كارل غوستاف يونغ Carl Gustav Jung أن من «نسيج الخبرة» هذا جاءت جميع الأساطير وجميع الإلهامات، ومنه تنبع الأفكار الجديدة حول العالم والإنسان. والعقل الباطن ليس إلهاماً، فهو يتطلب الفهم و«الترجمة» إلى لغة هذه الحقبة التاريخية أو تلك. وفي حال تمت هذه «الترجمة»، يجري لقاء عظيم. فالإنسان التاريخي والشامل الموجود في داخلنا يمد يده إلى الإنسان الفرد. وينضم العالم المعاصر إلى الخبرة القديمة للبشرية. بهذا الشكل تقريباً تواصل الإنسان البدائي مع أجداده–الطواطم أثناء مائدة الطقوس.

كثيراً ما تمر في الأساطير صورة القمر، وهي ووفقا ليونغ عبارة عن «معاناة الليل المتقلبة». يمكن للقمر أن يستدعي لدى الشخص البدائي معانات مختلفة، أولها المعاناة الجنسية. في العديد من الأساطير القمر هو زوجة الشمس. ويعتقد المؤلف أن المرأة كانت بالنسبة للرجل البدائي «حدث الليل»، وذلك لأن هذا الوقت من اليوم عادة ما خصص للجماع. إلا أن القمر قد يرتبط مع غيره من الصور. كثيراً تنتهك النوم الليلي الأفكار الشريرة عن السلطة والانتقام، ويولد تفسير أسطوري آخر للقمر بوصفه الأخ المحروم للشمس الذي يدبر الانتقام.

(1) ك. غ. يونغ، مشكلات الروح في الزمن المعاصر. سانت بطرسبورغ، 2002. ص 263.

بالإضافة إلى ذلك، يمكن للقمر أن يبدو للإنسان كمخزن لأرواح الموتى، وذلك لأن الموتى غالباً ما يزورونا في الأحلام، أو لأن الأفكار حولهم تقلقنا أثناء النوم، وهذا يحدث أيضاً في الليل عندما يسود القمر في السماء.

يمكن للجنسانية أن تبدو بالنسبة للإنسان البدائي بأشكال مختلفة: إله الخصوبة، والأنثى-الشيطان التي يصفها يونغ «الشهوانية بشكل حيواني». وبرأي المؤلف يمكن ان يوضع في هذه السلسلة حتى الشيطان ذا أرجل الماعز والثعبان اللذان يسببان لنا الخوف. في كل خطوة هدد الإنسان البدائي خطر مثلته مسوخ مختلفة. ووفقاً ليونغ فقد عاش الناس البدائيون بصورة غريزية تقريباً.

كانت الأساطير الأولى طوطمية. ارتدى الناس جلود الحيوانات الطوطمية. الرقصات الطوطمية هي محاولة إخبار أبناء القبيلة عن حياة أجدادهم.

مع مرور الوقت أخذت الطقوس تحمل طابعاً أكثر تفصيلاً، فقد جرى الالتزام بنظام صارم في المشاهد الراقصة والإيقاعات انتقل من جيل إلى جيل، لتتحول إلى تنسيق متماسك مع الخبرة العرقية للبشرية. على هذا النحو تقريباً تواصل الإنسان البدائي مع أجداده الطوطميين خلال موائد الطقوس.

كان للأساطير عن الأبطال الثقافيين أهمية كبرى. في الفترات الأولى كانت هذه الأفكار مرتبطة ارتباطاً وثيقاً مع التصورات عن الأجداد الطوطميين، وفيما بعد اكتسبت ملامح فردية وأسماء.. وفي وقت لاحق ظهر التنجيم وبدأ الناس يعتقدون أن قوة خارقة للطبيعة يمكنُ أن تنتقل من شخص إلى آخر، ومن مادة إلى أخرى. ويسمى هذا الشكل من أشكال الدين بالإيمان بالقوة السحرية.

«إن تحول الجنس البشري الذي حدث في فترة العصر الحجري القديم الأوسط، ربما كان أهم حدث تاريخي في تاريخ البشرية وبقي كذلك حتى

يومنا هذا، لأن في تلك الأثناء استطاع فيها شبيه الإنسان بالتحول إلى إنسان، إلا أن الإنسان مهما سعى، إلا أنه لم يتمكن منذ ذلك الحين من الوصول إلى مستويات فوق طاقة البشر»[1].

(1) أ. ج. توينبي، فهم التاريخ. موسكو، 1991. ص 233.

الفصل الثاني

ثقافة بلاد ما بين النهرين

يمثل السومريون واحداً من الشعوب القديمة لبلاد ما بين النهرين، وسومر هو اسم الدولة التي كانت تقع جنوب بلاد ما بين النهرين. وأجبرت الحاجة لري الأراضي الناس على بناء منظومات ريٍّ ضخمة، لتتطور الحضارة تدريجيا، وحدث ذلك في بلاد ما بين النهرين في الألف الرابعة قبل الميلاد، حيث استقر السكان المحليون في جماعات ترأس كل منها باتيس pates (الملك) تركزت في يديه السلطتان العلمانية والكهنوتية. وفي النصف الأول من الألف الثالثة قبل الميلاد أُنشئت في سومر مدن–دول، مثل أوروك Uruk وكيش Kish وأور Ur وغيرها. والأكاديون Akkadians – شعب سامي شرقي ظهر في بلاد ما بين النهرين في الألف الثالثة قبل الميلاد.

في نهاية هذه الألفية بدأ في مدينة كيش صراع مرير على السلطة، حيث تمكن أحد المقربين من الحاكم من الانتصار، وأطلق على نفسه لقب سرجون Sargon، أي «ملك البلاد». أُعلنت مدينة أكاد (شمال بلاد ما بين النهرين) عاصمة للدولة. أسس الحاكم الجديد دولة شملت كل بلاد ما بين النهرين وجزءاً من سوريا. وبهذا الشكل وحّد حاكم أكاد سرجون تحت سلطته بلاد ما بين النهرين كلها، بما في ذلك سومر. لُقّب حفيد سرجون نارام سين Naramsin «ملك الجهات الأربع». بيد أن الملكية الأكادية سقطت تحت ضربات البدو الرُّحل وعيلام Elam المجاورة. وتأسست فيما بعد مملكة جديدة تحت قيادة ممثل سلالة أور الثالثة، سقطت بدورها تحت ضربات شعب الأموريين Amorites

(العموريين) السامي الغربي.

في القرن التاسع عشر قبل الميلاد اكتسبت مدينة بابل Babylon أهمية خاصة، واسمها الثاني هو باب إيلي Bab–Illu «بوابة الإله». وساعد على تشييد هذه المدينة موقعها الجغرافي الملائم على الضفة اليسرى لنهر الفرات، وعلى مفترق طرق التجارة. بدأ حكام بابل بعملية توحيد بلاد ما بين النهرين تحت حكمهم تدريجيا. واستكملت هذه العملية في القرن الثامن عشر قبل الميلاد في عهد الملك حمورابي Hammurabi.

حمورابي (1792–1750 ق. م.) هو الملك السادس في السلالة البابلية الأولى. وضعت في عهده قوانين جديدة سميت شريعة حمورابي Code of Hammurabi وكُتب نصها باللغة المسمارية.

تتكون هذه الشريعة من ثلاثة أجزاء: مقدمة، ونصوص القوانين، وخاتمة. تضمنت هذه الشريعة 282 مادة مكتوبة بالخط المسماري ومنقوشة على عمود من البازلت الأسود. وأصبح هذا العمود في القرن الثاني عشر ق. م. غنيمة للعيلاميين Elamites، الذين بأمرهم– على ما يبدو– تم محو 35 مادة من القانون الحجري. في المقدمة والخاتمة يصوغ حمورابي السبب الرئيس لوضع هذه القوانين، التي ينبغي أن تحمي الضعفاء وتدافع عن العدالة، ولا يجوز للقوي قمع الضعيف، وينبغي للقانون حماية الأيتام والأرامل.

وجب على الجميع الالتزام بهذه القوانين، إذ إن من فرضها هو شمش Shamash إله الشمس والعدالة نفسه. تتحدث المقدمة عن الملك نفسه. حمورابي هو الراعي، والقاهر لدول العالم الأربع، والتنين بين الملوك، وهو الفاتح للمناطق الواقعة على امتداد نهر الفرات. وهو دؤوب، ونزيه، وكامل. هو ملك بين الملوك. من ناحية أخرى، حمورابي خاضع لإله عظيم، فقد منح ملكُ العدالة شمش الحقيقةَ له تحديداً.

تتحدد في شريعة حمورابي المسؤولية عن إلحاق الضرر المادي. إذا لم يهتم الشخص بتدعيم جزء من السد، وغمرت المياه محصول شخص آخر، يجب على المذنب التعويض عن الضرر. إذا شيَّد البنَّاء بيتاً يفتقر إلى المتانة وانهار على رأس صاحبه، وفي حال موت الأخير ينبغي أن يُقتل الباني. وإذا كان القارب الذي صنعه صانع القوارب سيِّئاً، ينبغي عليه صناعة قارب جديد على نفقته الخاصة وتقديمه للزبون.

ظهرت في الوقت نفسه عبودية الدَّين، ففي حال عدم قدرة مزارع أو حرفيٍّ على إعادة المال في الوقت المناسب، أُجبر على إعادة المبلغ المستحق مع فوائده. ومع ذلك، وعلى الرغم من صرامتها تجاه المدينين، إلا أن شريعة حمورابي فرضت بعض القيود. فقد تمكن الدائنون من أخذ الخبز كسداد للدين، ولكن لم يكن لديهم الحق في أخذ الحبوب من تلقاء أنفسهم من خزائن المدينين عنوة.

وجب على المدينين العمل لتسديد الدَّين في غضون ثلاث سنوات، وفي السنة الرابعة كان لا بد من إطلاق سراحهم. ولم يكن ينبغي معاملة المدينين بشكل سيء، أو مضايقتهم، أو التسبب في إصابات جسدية. في حال وفاة المدين بسبب الدائن، فإن الأخير تنتظره عقوبة صارمة، إذ دخل في القضية مبدأ «المساواة في القصاص»: بسبب وفاة المدين أُعدم أحد أفراد عائلة الدائن.

واضح من نص الشريعة أن العبيد في تلك الحقبة كانوا أسرى الحرب أو المحكومين بموجب القانون. عادة ما كانت تتم معاملة العبيد بشكل معقول، ولم يكن مربحاً بالنسبة للسيد قتل العبيد أو التسبب بإصابات خطيرة لهم. ويمثل قطع الأذن أحد أنواع العقاب في تلك الفترة، في حين أُعدم العبيد الهاربون ليتّعظ الآخرون.

لم يساعد على تشييد بابل موقعها الجغرافي الملائم حسب، وإنما الصفات الشخصية للملك حمورابي أيضاً، فقد كان استراتيجياً ودبلوماسياً ممتازاً، وفي

ظل ظروف التنافس المستمر بين المدن–الدول كان قادراً على إظهار أفضل صفاته وتحقيق كل ما هو مفيد لبابل. بالإضافة إلى ذلك، كان حمورابي إدارياً جيداً، وهذا ما تثبته الوثائق التاريخية.

وكلما سمت وتعززت بابل، وتوحدت تحت مظلتها كل بلاد ما بين النهرين، تغير –تدريجياً– دور الإله الرئيس لبابل مردوخ (مردوك) Marduk. فقد كانت هناك صيغ للعقيدة التوحيدية من نوع خاص، لم تكن الآلهة الأخرى بموجبها سوى أقنومات لمردوخ الواحد: نركال Nergal – تجسده العسكري، نينورتا Ninurta – تجسيد القوة، إنليلEnlil – تجسيد السلطة. ومع ذلك فإن هذه الأفكار لم تتلق انتشاراً واسعاً، وبقيت أديان بلاد ما بين النهرين شركية.

يرجع حكم السلالة الأولى إلى فترة القرن التاسع عشر– القرن السادس عشر ق. م. وفي عهد الملك حمورابي غطى أكاد وسومر. وتتمثل ملامح ثقافة بلاد ما بين النهرين في أمرين اثنين. أولاً، على الرغم من أن الاتصالات المباشرة مع مصر كانت ضعيفة جداً، إلا أن الباحثين وجدوا العديد من أوجه التشابه في التطور التاريخي لشعوب بلاد ما بين النهرين ومصر. وعلى الرغم من الاختلاف الكبير بين أشكال الدين، يمكن أن نلاحظ الكثير من القواسم المشتركة. «يعدُّ نشوء الحضارتين السومرية والمصرية نتيجة لاستجابات متماثلة لتحديات البيئة... والثقافة المادية لهاتين الحضارتين هي نفسها. في حين يمكن العثور في الخصائص الروحية – الدين، والفن، وحتى الحياة الاجتماعية – على أوجه تشابه أقل[1]».

كتب هيرودوتس Herodotus عن أن بابل كلها، مثل مصر، قُطِّعت بالقنوات، كانت أكبرها للملاحة، جرت من نهر الفرات باتجاه الجنوب الشرقي إلى نهر آخر. ويلاحظ المؤرخ القديم الغلال المرتفعة، والأرض بالغة الخصوبة، حيث

(1) توينبي، أ. ج.، فهم التاريخ. موسكو، 1991. ص 114.

تدرُّ أشجار النخيل المثمر محصولاً وافراً، ويصنع السكان المحليون من ثمارها الخبز والخمر والعسل.

تتمثل الميزة الثانية التي يشير إليها الباحثون في التغير السريع في المؤسسات العامة، الذي لم يساعد على ترسيخ وتعزيز السلطة المركزية في هذه المنطقة. وهذا لا يعني أنه لم يكن هناك رجالات دولة معروفين في بلاد ما بين النهرين، فاسما سرجون الأكادي Sargon of Akkad وحمورابي معروفان، فعلى الرغم من السلطة الهائلة التي تركزت في أيدي هذين الحاكمين، إلا أن هذه المنطقة لم تعرف الاستبداد المركزي.

لم يكن عرفاً في بلاد ما بين النهرين تسمية الحكام بـ «أبناء» الآلهة، إلا أنه لم تكن لديهم تلك السلطة التي لا جدال فيها في أعين الناس، السلطة التي تمكنهم من تسمية أنفسهم على هذا النحو، فكل ما ادعاه حكام بلاد ما بين النهرين هو مجرد دور الوسيط بين الناس العاديين والآلهة.

في البداية كان أفراد كل جماعة يعبدون إلههم الخاص، وعندما توحدت الجماعات، توحدت آلهتهم أيضاً. على سبيل المثال، في واحدة من المناطق كان الناس يعبدون إلهاً اسمه نينجيرسو Ningirsu، في حين عبد جيرانهم إلهة اسمها باو Baw (أو بابا Baba). وكان من مصلحة سكان المنطقة أن يتحدوا وينشئوا مدينة لجش (لكش) Lagash، واعتقد سكان المدينة بأن آلهتهم أيضاً توحدت لتشكل زوجاً إلهياً، فقد أصبح نينجيرسو وباو زوجاً وزوجه.

هكذا، وبالتدريج، تشكلت أنظمة دينية معقدة، وظهرت آلهة لعموم الشعب. أشهرها ثلاثة، هي آنو Anu، إيا Ea إنكي Enki، وإنليل Enlil. ويعتقد الباحثون أن الأول على ما يبدو كان إله السماء، واسمه يأتي من الكلمة السومرية «آن» وتعني السماء. وكان يعتقد أنه بعيدٌ وصعب المنال. إيا هو إله الماء، كان نصف إنسان ونصف سمكة، رعى صيد الأسماك وحمى

الصيادين من طوارئ الطبيعة، ودعاه الناس بالحكيم والمقدس. أما إنكي فقد تمثلت إحدى سماته المميزة في أنه كان إلهاً وبطلاً ثقافياً في آن واحد، كما اعتُبر حامي الناس أمام الآلهة. كان لإيا اسم أخر هو نيديمود Nidimmud. واجه إنليل على ما يبدو الناس في شكل الرياح القادمة من الجبال، وجلب معه الغيوم، والسحاب والفيضانات، الأمر الذي كان غاية في الأهمية بالنسبة للمزارعين. ووفقاً لروايات أخرى كان إنليل وإيا شقيقين، وولدَيْن لأنو وإلهة الأرض كي Ki. وغالباً ما كانت تتغير التصورات حول علاقات القربى بين الآلهة.

كقاعدة عامة، عبد سكان بلاد ما بين النهرين آلهة على شكل إنسان. أما الآلهة على شكل حيوان (حيوانات، أو نصف إنسان ونصف حيوان)، فقلَّما تُصادَف في أديان بلاد ما بين النهرين. وهي أولاً وقبل كل شيء إيا المحبوب والمبجل الرجل– السمكة، وكذلك نركال. كما تجدر الإشارة هنا إلى أنه في بلاد ما بين النهرين لم يكن هناك عبادة حيوانات متطورة. وتوصل العلماء استنادا للاكتشافات الأثرية إلى استنتاج مفاده أن الطوطمية لعبت دوراً صغيراً في الدين المحلي، إلا أن بعض الحيوانات (الثيران، والثعابين) اعتُبرت مقدسة هناك.

تتمثل أهم ميزة لأديان بلاد ما بين النهرين في أن عبدة الآلهة المختلفة تعايشوا هناك بشكل سلمي بما فيه الكفاية. ومع ذلك، كان يعتقد أن الآلهة ترعى حكام بلاد ما بين النهرين، الذين يحكمون باسم الآلهة. ووفقاً للأسطورة، فإن الملك حمورابي تلقى شريعته من الإله شمش. ولكن يتبين من هذه الشريعة أن الدين لم يقدم التأثير الكلي على القانون وغيره من المجالات الأخرى للحياة في بلاد ما بين النهرين.

قدم إلى بلاد ما بين النهرين شعبانساميان جديدان، هما الأموريون

والأكاديون. وحدث تغيير في النظام الديني، فإلى جانب الآلهة السومرية القديمة أضيفت آلهة سامية جديدة. شأنها شأن مثيلاتها السومرية، كانت هذه الآلهة في البداية آلهة لجماعات معينة، في حين تغيرت أسماء الآلهة: الإلهة إينانا Inanna(التي اعتبرت زوجته آنو) تحولت إلى عشتار Ishtar أو عشتروت Ashtarout، وبدأ نينجيرسو يُسمّى نينورتا Ninorta.

غالباً ما كانت تُنْظم في بلاد ما بين النهرين التراتيل الدينية التي تُؤدَّى في المعابد بوساطة مغنين خاصين. وحفظت النصوص التي نستطيع عن طريقها تتبع كيف بدا الإله العظيم شمش للناس. فهو يحكم الكون. إنه إله العدالة، لأنه يسحق الذي يُضمرون الشر، ويعاقب القضاة الظالمين، ويعدم الذين يتقاضون رشىً. لكن شمش رحيم تجاه أولئك الذين لا يتقاضون رشىً، ويعتني بالمضطهدين، ويساعد المسافرين والتجار والحجاج والصيادين ورعاة الماشية[1]. ومع مرور الزمن أصبح شمش مجرد إله الشمس.

ظهرت أولى النصوص الأدبية في اللغة السومرية في الفترة الممتدة من بداية القرن الثالث قبل الميلاد إلى النصف الأول من الألف الثانية قبل الميلاد، والأكثر شهرة من بينها هو نص «قصة الخلق البابلية» (إنوما إيليش Enūma eliš) الذي يتحدث عن آلهة بلاد ما بين النهرين، الذي لم يتم الحفاظ على عنوانه الأصلي، لذلك يسمى بالكلمات الأولى من النص، ما يعني حرفياً «عندما في الأعلى». في البداية، كانت هناك حالة من الفوضى، فلدى جهنم البدائية كان هناك شكلان: مذكرٌ (أبسو Apsu)، ومؤنثٌ (الوحش المجنح تيامات Tiamat)، أطاعهما روح مومو Mummu. أولى الآلهة كانت لامو Lahmu ولاحامو Lahamu. ومع ظهور الآلهة ظهر النظام في العالم. بدأت تيامات التي تجسد الفوضى الصراع ضد الآلهة. كان مردوخ هو الوحيد الذي تجرأ على

(1) الشعر والنثر في الشرق القديم. موسكو، 1973. ص 138.

مواجهتها. «اتفقت تيامات وأحكم الآلهة مردوخ. سارا إلى المعركة، واقتربا للقتال. نشر الإله شبكته وحاصرها؛ وأطلق الأعاصير التي كانت خلفه. عندما فتحت تيامات فمها لابتلاعه، أطلق الرياح فيه، ولم تتمكن من إغلاقه، فملأت الرياح العنيفة جسدها... أطلق سهماً اخترق جسدها، وانتصر عليها، ودمر حياتها[1]».

عندما رأت الآلهة التي ساعدت تيامات أن ميزان القوى ليس في صالحها، حاولت الفرار، إلا أنها وقعت في الشرك، ولم تتمكن من الهرب. قتل مردوخ الوحش وقطع جسده إلى نصفين متساويين، وأصبح القائد بين الآلهة. هذه الأسطورة هي مشابهة جداً للأسطورة اليونانية القديمة عن صراع الآلهة ضد الجبابرة. ومن شطري تيامات يخلق مردوخ السماء مع النجوم والقمر والشمس والأرض حيث تنمو النباتات وتعيش الحيوانات. وفي قصر عشتار المبني في السماء أُسكن كل من آنو وإنليل وإيا. «أنشأ مردوخ موقعاً لعظماء الآلهة، وأسكن فيه نباريسهم ككوكبة البرج. وقسم السنة إلى أجزاء، وأقر اثني عشر شهراً وفقاً للنجوم الثلاث[2]». ومع تطور علم الفلك بدأت آلهة بلاد ما بين النهرين تقترن بالكواكب والأجرام السماوية، وفي وقت لاحق تبنى هذا العرف كل من الإغريق والرومان. كما تم في بابل تطوير النظام الاثني عشري لحساب الزمن، الذي لايزال يستخدم حتى اليوم، وعليه تستند تعاليم الأرقام المقدسة (3،7،12،60).

كان في أساطير بلاد ما بين النهرين قصص ضمها فيما بعد الكتاب المقدس. خلق الإله إيا أول إنسان، أدَبا/آدابا Adapa. «أجمع الدم وآخذ العظام... سأخلق إنساناً ليعيش (على الأرض). ليخدم الآلهة، وأولئك (يرتاحون)[3]».

(1) كتاب حول تاريخ العالم القديم/ رئيس التحرير ف. ف. ستروف. موسكو، 1956. ص 57–58.
(2) كتاب حول تاريخ العالم القديم/ رئيس التحرير ف. ف. ستروف. موسكو، 1956. ص 57–59.
(3) كتاب حول تاريخ العالم القديم/ رئيس التحرير ف. ف. ستروف. موسكو، 1956. ص 57–59.

وبسبب خطأه يفقد أدبا نعمة الخلود.

تمثل ملحمة جلجامش Gilgamesh الملحمة الأقدم التي تم الحفاظ عليها إلى يومنا هذا، فقد ظهرت أولى الأغاني والقصص حول هذا البطل في الألف الثالثة قبل الميلاد. يبكي جلجامش صديقه المخلص إنكيدو Enkidu الذي فقده، فيقرر البطل العثور على زهرة الشباب الأبدي لشعبه، فيهيم في العالم طويلاً. وتتحدث الملحمة أيضاً عن الطوفان العظيم الذي أثارته الآلهة الغاضبة، فقد أظهر الناس العصيان لإرادة الآلهة، فأرسلت الطوفان على الأرض. وحده أوت نابيشتيم Utnapishtim الورع أُنقذ مع عائلته، يحذره إيا من الفيضان الوشيك. ومثلما فعل نوح Noah، يبني أوت نابيشتيم سفينة أنقذته مع أسرته والحيوانات.

تتحدث أسطورة الطوفان بشكل مفصل كيف جاءت سحابة سوداء لتحول الضوء إلى ظلام، حتى أن «الآلهة خافت من الفيضان، ونهضت، وذهبت بعيداً إلى السماء». بعد غضب الآلهة والفيضان العظيم لم يبق شيءٌ، في حين «أصبحت البشرية كلها من الطين». رأى أوت نابيشتيم جزيرة، فتوقفت السفينة. كانت الحمامة أول من أُطلق، إلا أن المياه لم تهدأ، فعاد الرسول ثانية. لم يجد السنونو أرضاً فرجع. وحده الغراب طار بعيداً، فلما رأى الماء قد انحسر لم يعد[1]». ومن السهل أن نرى التشابه في هذه الأسطورة مع قصة الكتاب المقدس عن الطوفان العظيم.

آمنَ سكان بلاد ما بين النهرين بالحياة الآخرة، ولكن لم يؤمنوا بثواب الآخرة. كل الأرواح بعد الموت تجرفها حياة بائسة. لا يهم بعد الموت إن كان الرجل في الحياة صالحاً أو شريراً. فعالم الأموات تحكمه الشريرة والقاسية أريشكيغال Ereshkigal. من تجرأ وحده على تحديها هو إله الحرب نركال

(1) كتاب حول تاريخ العالم القديم/ رئيس التحرير ف. ف. ستروف. موسكو، 1956. ص 57–59.

Nergal الذي تزوجها لاحقاً.

لعبت عبادة الخصوبة دوراً مهماً في دين بلاد ما بين النهرين، وكانت عشتار إلهة الخصوبة، أما إله جميع النباتات فكان تموز Tammuz (ديوموزي Dumuzi). وبقيت مقاطع تسمح بالحكم على أنه كانت هناك أسطورة عن موت وقيامة تموز، ورمز ذلك إلى الدورة السنوية، وتغير فصول السنة. القصة قريبة من ناحية المعنى لأسطورة أوزيريس Osiris المصرية. في رواية أخرى تأسر أريشكيغال الحاكمة الشريرة لعالم الرذيلة عشتار نفسها. والاسم الآخر لتموز هو أدوني Adoni (أدونيس Adonis). كذلك كان هناك أسطورة عن موت وقيامة مردوخ. وتروي الأسطورة البابلية كيف هبطت الإلهة عشتار إلى «البلد من دون عودة»، وقدمت على أنها المكان الذي من يدخله ينتظر عبثاً الضوء. على الأبواب والمغاليق ينتشر الغبار، وطعامهم هو الغبار والطين.

اعتقد سكان بلاد ما بين النهرين بالأرواح الشريرة التي تجلب للناس كل أنواع المتاعب، ومن بينها الدور الخاص الذي لعبته «أرواح جهنم السبع». واستخدم السحر والتعاويذ ضد الأرواح، وكان يعتقد أن الأرواح الشريرة تخاف من صورها الخاصة لأنها في غاية القبح. انتشر السحر والعرافة في بلاد ما بين النهرين بشكل واسع النطاق. أُطلق على الكهنة والعرافين تسمية بارو Baru. تكهنوا ببقع الزيت على الماء، وباتجاه طيران الطيور، وبالحيوانات، وفسروا المنامات. وغالباً ما كانت تستخدم قراءة البخت بأحشاء الحيوانات (قراءة البخت بالكبد hepatoscopy)، التي اقتبسها عن سكان بلاد ما بين النهرين كل من الإتروسكان Eutruscan (الإترورين) والحثيين Hittites والرومان Romans.

كان منصب الكاهن في بلاد ما بين النهرين وراثياً، وكان عدم وجود عيوب بدنية والصحة الجيدة متطلبات أساسية ينبغي على المرشح لمنصب الكاهن

تلبيتها. من بين المسؤوليات العديدة للكهنة كان الإشراف على عمل أنظمة الري، ومن أبراجهم العالية راقب الكهنة حركة الأجرام السماوية، واستناداً إلى ذلك حصلوا على استنتاجات حول الفيضانات الموسمية للأنهار. كان علم الفلك في بلاد ما بين النهرين متطوراً. وبالإضافة إلى الكهنة الذكور كان في بلاد ما بين النهرين كاهنات، وخادمات المعابد، وبغايا المعابد.

لم تخضع مجالات الحياة جميعها للمعتقدات الدينية، والمثال الصارخ على هذا تمثله قوانين حمورابي. وعلى الرغم من الهيمنة شبه المطلقة للفكر الديني في المجتمع السومري–البابلي، ظهرت وسط الناس المتعلمين آراء فلسفية حرجة. يؤكد واحد من الآثار الأثرية المكتشفة، الذي يحمل عنوان «حوار السيد والعبد حول معنى الحياة»، عدم الجدوى من الأمل برحمة أو مغفرة الملك. «سيرسلك إلى مكان يصعب الوصول إليه. إلى البلد الذي لا تعرفه، وفي النهار وفي الليل سيريك الويل». كما يُعبِّر هذا الحوار عن شك في أن الآلهة سوف تقدم المساعدة، حتى ولو طلبها الإنسان. «هل تعتقد أن الإله سوف يعلمك المشي، كالكلب، أو بأمر الطلب (أي بالسحر)، أو بدون طلب (أي بالصلاة)، أو تنفيذ كل ما يطلبه منك؟[1]». ولا يقل عدم جدوى الأمل في ثواب ما بعد الموت في الآخرة: «... اصعد إلى أنقاض المدن المدمرة، وتجول بين أنقاض العصور القديمة، وانظر إلى جماجم الناس الذين عاشوا قبل وبعد: من كان منهم مدبر الشر، ومن كان منهم مدبر الخير؟[2]».

انتشرت المدارس منذ العصر السومري على نطاق واسع، ففيها تعلم كتبة المستقبل. كان التلاميذ يكتبون على ألواح الطين، ويقرؤون منها. وكانت المدرسة نفسها تسمى «بيت الألواح». وكانت التربية في تلك الأيام صارمة

(1) الشعر والنثر في الشرق القديم. موسكو، 1973. ص 213–215.
(2) توررايف، ب. أ.، تاريخ الشرق القديم. لينينغراد، 1935. ص 143–145.

للغاية، وهذا ما يثبته أحد النصوص المكتوبة باللغة السومرية، وهو عبارة عن شكوى تلميذ يكشف كل ما يختلج في صدره، ويتحدث عن نصيبه الصعب على درب التعليم. اقتضى التأخير العقوبة، كما عوقب التلاميذ على ملابسهم الممزقة وسلوكهم المتهور في الشارع. «وجه لي رجل يحمل عصاً من قصب ملاحظة: « يجب أن تكون حذراً في الشارع، وممنوع تمزيق الملابس!» – وضربني». وينطبق الأمر ذاته على البطل والحارس في المدرسة: «لماذا انحنيت بدون إذن؟» – وضربني.... والبواب قال: «لماذا خرجت بدون إذن؟» – وضربني. قال الرجل ذو العصا: «لماذا مددت يدك بدون إذن؟» – وضربني...». وليس بالمستغرب أن يقول البطل: «لقد كرهت مصير الكاتب[1]».

كانت السلطة في بلاد ما بين النهرين في الفترة من القرن الثامن إلى القرن السابع قبل الميلاد بيد الإمبراطورية الآشورية Assyrian Empire. ولم يجلب الآشوريون (الآثوريون) Assyrians معهم ديناً جديداً جذرياً، وإنما على العكس من ذلك، اقترضوا الآلهة من الشعوب المهزومة. الاستثناءات قليلة، على رأسها آشور Assur الإله القبلي للآشوريين، فقد أصبح مذهبه مذهب الدولة، في حين اعتبر هو راعي الملك، إلا أنه لم يكن مؤثراً بشكل خاص وسط الناس، إذ كانت معروفة لدى الآشوريين عبادة آلهة العواصف رامّان Ramman. في هذا الوقت تمتع إله آخر بشرف واحترام عظيمين، هو نابو Nabu، ابن الإله مردوخ البابلي، وهو إله حكيم يرعى الكتابة والحساب.

تميزت بابل التي غزاها الآشوريون بثقافة عالية، فقد تعلم الغزاة الشيء الكثير من المهزومين، وليس العكس. وفي نينوى Nineveh عاصمة آشور أنشأ الملك آشوربانيبال Ashurbanipal مكتبة غنية ضمت أكثر من ثلاثين ألف لوح

(1) دوموكوش فراغا، الشرق القديم. عند بدايات تاريخ الكتابة. بودابست. 1979. ص 10–11.

طيني كتبت عليها نصوص الأساطير، والمدونات الأدبية، والوصفات السحرية والطبية. ووصلت إلينا المخطوطات التي تعرفنا عن طريقها على ثقافة تلك الأزمنة. وسرعان ما نُسيت الآلهة الآشورية في بلاد ما بين النهرين فور انتهاء حكم آشور.

اتسمت نهاية القرن السابع قبل الميلاد بإنشاء مملكة بابل الجديدة Neo– Babylonian Empire، التي بلغت أوج مجدها إبان حكم الملك نبوخذ نصر Nebuchadnezzar. وفي عام 538 قبل الميلاد، ونتيجة للحملات المظفرة للملك كورش (قوروش) Cyrus، فقدت بابل استقلالها وأصبحت مقاطعة من الدولة الأخمينية (الأخمينيدية) Achaemenid Empire.

الفصل الثالث

ثقافة مصر القديمة

يعطي المؤرخ اليوناني القديم ديودورس الصقلّي Diodorus Siculus الوصف التالي لموقع مصر الجغرافي. تمتد بشكل رئيسي من الشمال إلى الجنوب، أما الغرب فتحميه بشكل أمين الصحراء الليبية التي تمتد لمسافة طويلة والمليئة بالحيوانات البرية، التي من الصعب العيش فيها. والجزء الشرقي من البلاد محمي بالنهر، وفي بعض الأماكن بالصحراء ومناطق المستنقعات التي يطلق عليها اسم «جهنم». والجهة الرابعة لمصر يغسلها البحر(البحر الأبيض المتوسط). ويصعب للغاية النزول على الشاطئ وذلك بسبب التضاريس الساحلية. هناك منفذ آمن وحيد هو فاروس Pharos. بالإضافة إلى ذلك، تمتد الرمال المخفية تحت المياه على طول الساحل البحري. وعليه، يخلص المؤرخ إلى أن مصر محمية من جميع الجهات بالطبيعة نفسها.

المكانة الخاصة في حياة المصريين يشغلها نهر النيل Nile الوافر، في حين أن الأنهار الأخرى جميعها «تبدأ بالتراجع خلال فترة الانقلاب الصيفي، وفي الوقت اللاحق من فصل الصيف تصبح أكثر ضحالة، إلا هو يبدأ عندها بالارتفاع يوماً بعد يوم إلى أن يغرق في نهاية المطاف مصر كلها[1]».

عند الفيضان يجلب نهر النيل معه الكثير من النباتات والقطع الصغيرة من الصخور التي بقيت بعد فترة انحسار المياه مكوناً طبقة خصبة من التربة. لم تكن السهول التي امتدت عليها مصر القديمة واحدة، فعلى المرتفعات انتشرت

(1) كتاب حول تاريخ العالم القديم/ رئيس التحرير ف. ف. ستروف. موسكو، 1956. ص 4–7.

الصحراء، لأن المياه لا تصل إلى هذا الارتفاع. أما في المناطق المنخفضة، فقد تراكمت الرطوبة لتشكل المستنقعات التي اعتبرت أماكن جيدة لنمو البردي. مع مرور الزمن «تمت السيطرة على تعنت الطبيعة بجهد الإنسان؛ أُفرغت المستنقعات، وأحيطت بالأسوار، وحولت إلى حقول. وظهرت الحضارتان المصرية والسومرية[1]».

حدث في مصر في الألف الرابع قبل الميلاد تغيير في أدوات العمل، إذ أصبحت الزراعة تشكل النشاط الرئيسي، الأمر الذي تطلب المحاريث والأدوات النحاسية. وظهرت الحِرف والمقايضة، فقد أعطت التربة الخصبة محاصيل وفيرة سمحت للمصريين إطعام كمية كبيرة من الناس، فلم يقتل السجناء، وإنما تركوا عبيداً يسمون بـ«الأموات الأحياء». وفي الوقت نفسه ظهرت دول صغيرة خاضت فيما بينها حروباً لا نهاية لها. وفي النهاية توحدت جميع أقاليم nome جنوب مصر تحت سلطة حاكم واحد، وأقاليم الشمال تحت سلطة حاكم آخر. إلا أنها خاضت فيما بينها حروباً لم تنته تقريباً إلا في زهاء عام 3200 قبل الميلاد. تم اكتشاف لوح يصور انتصار المملكة المصرية الجنوبية على الشمالية، ويظهر الملك المنتصر وهو ممسك بالعدو المهزوم من شعره، وفي الزاوية رُسم الصقر، راعي المنتصرين، ويجلس الطير الإلهي على ستة من سيقان البردي، ترمز إلى الستة آلاف أسير، وفي الأسفل أعداء فارون مذعورون.

هكذا توحدت دول الأقاليم البدائية المصرية القديمة في دولة مركزية واحدة، كان يرأسها فرعون Pharaoh، وكانت عاصمتها منف (ممفيس Memphis). كان لدى الفرعون طاقم كبير من الموظفين الذين ساعدوه في تدبير الأمور. وعلى رأس كل إقليم كان هناك موظف أو حاكم الإقليم Nomarch، شملت مهامه جمع الضرائب، وبناء وإصلاح السدود والقنوات. حقق حكام الأقاليم

(1) توينبي، أ. ج.، فهم التاريخ. موسكو، 1991. ص 114.

أهدافهم، وتعاملوا بشدة مع العاصين وكل من لم يمتثل لتعليماتهم. في إحدى الصور المصرية القديمة يظهر مشهد يضرب فيه الحراس الجاني بالعصي. وتمثل الجانب الإيجابي في إقامة دولة واحدة مركزية في التوقف الكامل فعلياً للحروب والمواجهات العسكرية بين شبه الدويلات الصغيرة المستقلة السابقة.

في البداية كان يعتقد أن الآلهة لا ترعى إلا حكام مصر – الفراعنة. وبعد ذلك، وبدءاً من السلالة الخامسة، كان الفرعون مؤلهاً، وعبدوه كابن لإله الشمس، وهو على وجه التحديد قام بكل الطقوس الهامة وقدسها. وتَمثَّل واحد من هذه الطقوس على وجه الخصوص في عملية الحرث الأول. فقد شق فرعون الثلم الأول، وكان ذلك بمثابة رمز لتخصيب الأرض نيابة عن الآلهة التي كانت ترعى فرعون[1]. وحده الفرعون كان بإمكانه أداء الطقوس الرئيسة، وتقديم القرابين للآلهة. إلا أنه، ونظراً لصعوبة القيام بذلك عملياً، فقد قدم الكهنة الأضاحي.

قبل توحيد مصر كان لدى كل قبيلة (إقليم) إلهها الراعي الخاص. ويعتقد الباحثون أن الديانة المصرية القديمة تمثلت بالعبادات المحلية، وكان الاعتقاد في الآلهة المحلية قوياً لدرجة أن المصريين استمروا بعبادتها حتى سقوط مصر القديمة. الاعتقاد في الآلهة المحلية مرتبط بشكل وثيق مع عبادة الحيوانات المقدسة، إذ تمثل الإله الراعي في شكل حيوان أو نصف حيوان ونصف إنسان. وكانت البقرة ضمن الكائنات المقدسة، وابن آوى، وأبو قردان، وأبو منجل، والبابون، والتمساح، والقطة، والحدأة، والثعبان، والنحلة. كما عرفت أيضاً نباتات مقدسة.

جرى تشكل تصورات عن آلهة لعموم مصر قبل الوحدة السياسية للبلد، واعتبر حورس (الصقر) Horus أول هذه الآلهة، فقد كان يُعبد في نهاية الألف

(1) انظر فاسيلييف، ل. س. تاريخ الأديان في الشرق. موسكو، 1983. الفصل 4.

الرابعة قبل الميلاد، في عهد السلالتين الأولى والثانية.

على أعتاب الألفيتين الثالثة والرابعة قبل الميلاد، في عهد السلالة الثالثة شغل بتاح Ptah مكانة الإله المصري الرئيس. وتفسير هذا التغيير بسيط: فقد انتقلت عاصمة مصر إلى ممفيس حيث كانوا يعبدون هذا الإله تحديداً.

يمثل عام 2700 قبل الميلاد بداية حكم السلالة الخامسة، فقد شيدت مدينة هليوبوليس Heliopolis (أون On)، وأصبح الإله الأعلى هو أتوم Atum (Ra رع) الذي كان يُعبد في هذه المدينة. رع – إله الضوء والحرارة والشمس. عندما يغلق رع عينيه يحلُّ الليل، وعندما يفتحها يأتي النهار. يدير رع جميع الآلهة والأرض. كما اعتقد قدماء المصريين أيضاً في إله النيل الذي يجلس في كهف ويصب الماء. ولكي لا ينتصر إله الجفاف الشرير ست Set ، لا بد من الصلاة لإله النهر العظيم.

في عصر السلالتين الحادية عشر والثانية عشر أصبحت طيبة Thebes مركز مصر (زهاء 2100–1800 قبل الميلاد)، والإله آمون Amun الإله الرئيس. اختلطت التصورات عن الإلهين رع وآمون، فسُمِّي الإله الرئيسي آمون–رع Amun–Ra.

الدور الكبير في القرن السابع قبل الميلاد (فترة السلالة السايسية Sais السادسة والعشرين) يعود إلى الإلهة نيت Neith.

تغير كذلك دور الكهنة، ففي عصر المملكتين القديمة والوسطى، لم يكن لدى الكهنة الكثير من القوة، وأدى الفراعنة أنفسهم المراسمَ الدينية أو بوساطة حاشيتهم، في حين تغير وضع الكهنة في فترة السلالة الثامنة عشرة، فابن الكاهن هو الذي استطاع أن يصبح كاهناً. وظهرت مؤسسة روحية عامة ترأسها كهنة معبد آمون في طيبة. وأدت حروب الغزو التي خاضها فراعنة السلالة الثامنة عشرة إلى مزيد من إثراء الكهنوتية.

لم تعجب العديد من الفراعنة السلطة الكهنوتية التي تعززت، فحاول الفرعون أمنحوتب الرابع Amenhotep IV (أخناتون Akhenaten) (1419–1402 ق. م.) الحد من نفوذهم، فأصبح مكان الإله آمون يشغله إله أعلى آخر هو آتون Aton، وعُبد في هليوبوليس، أما أمنحتب نفسه، فأخذ اسم أخناتون («آمون اقتنع Amun is Satisfied»). إلا أن سلطة الكهنة كانت لها جذور عميقة، ولم تحظ إصلاحات أخناتون بالتأييد. وبعد وفاته استعادت الكهنوتية مواقعها. ومع ذلك، لم يذهب نشاط الفرعون سدى، فعلى الأرجح في الفترة نفسها تقريباً عاشت قبائل من العبرانيين القدماء شبه الرُّحَّل، اعتنقت الأفكار التوحيدية التي وجدت فيما بعد تجسيداً لها في الديانة اليهودية.

بلغت الدولة المصرية في الألفية الثانية قبل الميلاد أوج قوتها، فقد قُطِّع وادي النيل بالعديد من القنوات. وإلى الجنوب الغربي من مدينة ممفيس، كانت هناك مساحات شاسعة تمتلئ بمياه نهر النيل عند الفيضان. وباستخدامهم لمعارفهم العملية الواسعة، بنى المصريون سداً جيد التحصين لحجز جزء من السهول. وبهذا الشكل أنشأوا خزان مياه اصطناعي اكتسب تسمية بحيرة قارون Lake Moeris، وتم تجفيف ما تبقى من السهول، وكانت قادرة على إعطاء المحاصيل مرتين في السنة.

رُبيت في مصر القديمة الخيول والإبل، الأمر الذي سمح بقيام تجارة مع الأماكن النائية من البلاد. وفي المدن الكبيرة طوّرت الحرف اليدوية المختلفة. وفي الألفية الثانية قبل الميلاد شنَّ الفراعنة حروب الغزو. وتمثلت إحدى ميزات القوات المصرية في استخدام العربات الحربية، في حين تمثل الانتصار الأهم في الاستيلاء على بلاد النوبة Nubia، التي اشتهرت منذ القدم باحتياطيات وفيرة من الذهب. كان تحتمس الثالث III Thutmose (زهاء 1500 ق. م.) أحد أبرز الفراعنة، فقد قام بأكثر من خمس عشرة حملة عسكرية على آسيا، فغزا فلسطين

وسوريا، وبأمر منه شُيّدت قلعة على ضفة نهر الفرات، سُمّيت «تحتمس موحد الغرباء». وحوليات تحتمس منقوشة على جدران المعابد في طيبة. والآن، في مكان طيبة السابقة أصبحت تقع بلدة الكرنك Karnak، ولذلك فقد تم تسمية المعبد المكتشف بمعبد الكرنك Karnak Temple Complex. في مجمع مباني العبادة يدخل معبد آمون– رع Precinct of Amun–Re الضخم ومعابد الآلهة القديمة. وسُمّي المعبد ابيت– سوت Ipet–isut.

وهذا ما يُذكر في المدونات المصرية القديمة التي تؤرخ معركة مجيدو Megiddo، حيث ظهرت دول مجاورة أخرى في مواجهة تعزز قوة مصر، فقد توحد حكام كل من دولة فلسطين وفينيقيا وسوريا لمواجهة مصر، وترأسهم ملك مدينة قادش Kadesh، إلا أنهم لم يستطيعوا مجابهة قوات المصريين المدربة جيداً. وتروي المدونات القديمة نهاية المعركة: «وها هم مالكو هذا البلد يزحفون على بطونهم لينحنوا لقوة صاحب الجلالة ويسألونه عن النفس لأنوفهم، لأن قوته عظيمة، ولأن سلطة آمون عظيمة هي السلطة على جميع البلدان الغريبة...، وها هم المالكون قد جلبوا أمام جبروت صاحب الجلالة مع الجزية الفضة والذهب واللازورد والفيروز، مقدمين الحبوب والنبيذ والبقر والغنم لقوات جلالته...[1]».

تتمثل خاصية ثقافة مصر القديمة في الطقوس الغريبة للدفن. في البداية (في عصر ما قبل السلالات) كان المصريون القدامى يدفنون موتاهم بالطريقة ذاتها التي تستخدمها الشعوب الأخرى. بعد ذلك تغير كل شيء، إذ دفن فراعنة السلالتين الأولى في أهرام صغيرة مقطعة (مصاطب)، وبدءاً من السلالة الثالثة في أهرامات كبيرة. ويعود الهرم الأكبر إلى عصر المملكة القديمة (السلالة الرابعة)، في حين أصبحت الأهرامات في عصر المملكة الوسطى (السلالتين

(1) كتاب عن تاريخ الشرق القديم. موسكو، 1980. ص 67–70.

الحادية عشرة والثانية عشرة) أصغر. بعد ذلك تخلى المصريون القدماء كلياً عن بناء الأهرامات، وبدأوا بدفن الفراعنة في معابد منحوتة في الصخور.

كانت ممارسة التحنيط متطورة، ففي البداية حُنِّط الفراعنة فقط، إلا أن ذلك أصبح فيما بعد متاحاً للشرائح المتوسطة من السكان.

زار المؤرخ اليوناني العظيم هيرودوت (هيرودوتس Herodotus) مصر، واهتم في ممارسة التحنيط، وصفها بالتفصيل في كتابه «التاريخ The History of Herodotus في تسعة مجلدات»، وتحدث فيها عن وجود خبراء متخصصين درسوا حرفة التحنيط دراسة وافية. قام هؤلاء الخبراء بمناقشة أولية مع أقارب المتوفى، وعرضوا عليهم أفضل طريقة للتحنيط، وأبسطها وبالتالي أرخصها، وأخيراً أسهلها. وبعد الاتفاق على الكلفة، بدأ الخبراء بعملهم الشاق.

كتب أوسفالد شبنجلر Oswald Spengler يقول: „المومياء المصرية هي رمز من الطراز الأول. خلدوا جسد المتوفى، وفي الوقت نفسه تحدثوا عن تخليد شخصيته وروح قرينه „كاه Ka» عن طريق التماثيل الأيقونية غالباً في أداء متكرر مع تشابه عظيم ذي مغزى ربطها[1]».

إن تصور المصريين القدماء عن الروح والحياة بعد الموت هو أكثر تعقيداً من الذي تمتلكه غالبية الشعوب الأخرى. الجسد يموت، ولكن يحفظ اسم الشخص (رين Ren)، وروحه (با Ba)، وروح القرين (كا). تأخذ «با» شكل طائر، وتطير من الجسم، وتندفع إلى السماء. ترتبط «كا» ارتباطاً وثيقاً مع الجسم، وتحتاج إلى الأكل والشرب، وهناك حاجة أيضاً للتمائم، أي الحماية من المسوخ التي تنتظر الروح في الآخرة. لذلك، ينبغي تجهيز المتوفى كما يجب في مملكة الموتى.

مع مرور الوقت تغير تصور قدماء المصريين عما ينتظر الإنسان بعد الموت.

(1) شبنجلر، أ. أفول أوروبا. موسكو، 1993. ص 140.

في فترة المملكة القديمة اعتقد الناس أن «كا» تُرسل إلى «حقول إيارو The fields of Aaru»، حيث تستمر حياة الإنسان دون تغيير، فالأغنياء في عالم الآخرة يبقون أغنياء. واعتبر رع وأوزوريس Osiris حماة الموتى في هذه الفترة. تصعد الروح إلى قارب إله الشمس رع، وتتحرك معه إلى السماء. تقع أرض الموتى في مكان ما في الغرب. واعتقد المصريون القدماء أن الشمس تهبط في الليل إلى «دوات Duat» – أرض الظلام، حيث تقيم أرواح الموتى.

الدور الأكثر أهمية في العبادة الجنائزية لمصر القديمة لعبه أوزوريس (وخصوصاً في عهد المملكة الوسطى)، على الرغم من أنه في البداية لم يكن مرتبطاً بها ولا بأي شكل. وبما أن أوزوريس وفقاً للأسطورة توفي وبُعث، فإن شفاعته بدت بالنسبة للناس قيمة بشكل خاص. وكان الناس بذلك يأملون بتمكنهم من خداع قوى الشر التي تنتظر أرواح الموتى، إذ لم تجرؤ هذه القوى على مس الإله العظيم. في البداية وحده الفرعون كان قادراً على التماثل مع أوزوريس، وفيما بعد سُمح بذلك لمثلي الطبقات البسيطة من المجتمع. المملكة الوسطى هي الفترة التي ظهر فيها الاعتقاد في الحساب بعد الموت، إذ تمثل الروح بعد الموت أمام محكمة أوزوريس الذي يزن قلب الميت بميزان محدد، تكون في الكفة الأخرى للميزان إلهة الحقيقة. وساعد أوزوريس في ذلك إلهان آخران، هما أنوبيس Anubis وتحوت Thoth، وكذلك الوحش الجهنمي (الذي تتمثل مهمته في التهام المدانين) بالإضافة إلى اثنين وأربعين إلهاً محلياً.

يتحدث «كتاب الموتى Book of the Dead» عما يحدث للروح بعد الموت. يضم هذا الكتاب أكثر من 180 فصلاً، وكغيره من غالبية الكتب الدينية، فقد تكون من نصوص مكتوبة في أوقات مختلفة، ويرتبط الجزء الأقدم منه بما يسمى بـ«متون الأهرامات Pyramid Texts» (فترة السلالتين الخامسة والسادسة)، التي تضم مختلف التعويذات السحرية التي كانت تؤلف للفراعنة

بشكل خاص. وبالنسبة للنبلاء والأثرياء المصريين كانت تؤلف «متون التوابيت Sarcophagus Texts»، التي شكلت فيما بعد أساس كتاب الموتى.

لم يصبح الاعتقاد في الحساب بعد الموت سائداً في مصر القديمة، فقد اعتقد الناس أنه يمكن تسهيل مصير الروح بطرق مختلفة، أولها بمساعدة كتاب الموتى ذاته، إذ اعتبر فصله الخامس والعشرون بعد المائة سحرياً. وضع بجوار المتوفى (أو في أكثر الأحيان على صدره) كتاب الموتى وأوشيبتي Ushabti (مواد سحرية)، وسمحت بعض تعويذات كتاب الموتى لروح المتوفى باتخاذ شكل حيوانات.

كانت هناك آلهة حامية للمهن، فالإلهة سخمت Sekhmet كانت إلهة الحرب، في حين عبد العلماء والكتبة الإله تحوت. وارتبط الكثير من الآلهة في نظر الناس بالأجرام السماوية، بالشمس (أنوم رع Anum–Ra، حورس، أوزوريس، آمون، آنخير Ankher، سوبك Sobek، مونت Monthu)، وبالقمر (تحوت، إيزيس Isis، خونسو Khonsu)، وبالسماء (حتحور Hathor، نوت Nut)، وبالأرض (مينMin ، جب Geb). صُوِّرت الكثير من الآلهة على شكل أشخاص مع رؤوس حيوانات، فقد كان لحورس رأس صقر، ولباستت Bastet رأس قطة، ولسوبك رأس تمساح، ولإيزيس رأس بقرة.

ظهرت مجموعات من الآلهة وحدت العديد من الآلهة الرئيسة، وكانت هذه المجموعات متباينة في المناطق المختلفة، برز من بينها ثالوث الآلهة (الثلاث)، وتاسوع (التسع) الآلهة. من الثالوث يمكن تسمية آلهة ممفيس (بتاح، سخمت، نفرتوم Nefertum)، وآلهة طيبة (آمون، موت، خونسو). والتاسوع الأكثر شهرة كان تاسوع هليوبوليس الذي وقف على رأسه رع، في حين توزعت بقية الآلهة في أزواج: شو Shu (إله الهواء) وتفنوت Tefnut (إلهة الرطوبة)، جب (إله الأرض) ونوت (إلهة السماء)، أوزوريس (إله عالم

الموتى) وإيزيس (إلهة الخصوبة، ورمز الوفاء الأسري)، ست (إله الرياح الجافة والصحراء والجفاف) ونفتيس Nephthys (سيدة المنزل). في كثير من الأحيان «دمجت» عدة آلهة في واحد، فآتوم وآمون وسوبك تماثلوا مع رع، وتفنوت مع حتحور. وكذلك تماثلت معها الإلهات الأخريات إخيت Ikhet ونوت وموت.

لعبت العبادة الزراعية في مصر القديمة دوراً مهماً في الدين. وتقول الأسطورة إن ملك مصر الإله أوزوريس قتل على يد شقيقه ست. وقطعت جثته إرباً ووزعت على أنحاء مصر جميعها، وجمعتها الإلهة إيزيس وأنجبت لأوزيريس ابنهما حورس. انتصر حورس على ست وأنعش أوزوريس. وهذه القصة تجسيد للمعتقدات عن الدورة السنوية (الطبيعة تموت وتولد من جديد)، وعن الزراعة (من أجل أن يرتفع القمح، لا بد أولاً من الحفر له في الأرض و«دفنه»). يظهر أوزوريس أيضاً كبطل ثقافي، ووفقاً للأسطورة كان ملكاً على مصر، وعلم الناس زراعة الأرض. أما نوت في الأساطير المصرية القديمة فهي إلهة السماء، التي تصورها على شكل بقرة ضخمة. كذلك كان هناك آلهة شريرة، مثل ست وسخمت ارتبطا في عيون البشر مع الصحراء والجفاف.

نجد في الأساطير المصرية القديمة روايات مختلفة عن حدوث العالم، ويرجع ذلك في المقام الأول إلى حقيقة أن الدور الرئيس في خلق العالم يعود في كل منطقة إلى إلهها الخاص. وتلعب عبادة الشمس دوراً مهماً، إذ ترتبط بها عبادة الحيوانات المقدسة (القط، الخنفساء السوداء، الثعبان، الصقر).

وجدت دورة اليوم (غروب وشروق الشمس) تجسيداً في الأسطورة عن كيفية تقاتل إله الشمس رع مع الأفعى الشريرة أبوفيس Apep.

على الضفة الغربية لنهر النيل تم العثور على نص أسطورة ضد طيبة تروي قصة خلق العالم. ووفقاً لهذه الأسطورة، يعلن إله الشمس (Khepri خبري)

نفسه رب الكون أيضاً. حينها لم يكن هناك سماء ولا أرض. كل هذا خلقه الإله العظيم نون Naun، من العدم. نون هو تجسيد للفوضى الأولية التي ظهر منها إله الشمس، ففي الأسطورة يقول إله الشمس: «نون والدي».

في مقابر الفرعونين سيتي الأول Seti I ورمسيس الثالث Ramesses III (على الضفة الغربية لنهر النيل) تم العثور على نص عن إبادة الناس، فقد غضب إله الشمس على الناس العاصين والمتمردين، وأمر بمعاقبتهم على خطاياهم. وبتأمله في جحود الإنسان توجه رع بالمشورة إلى الإله الأكبر الذي جاء منه. «عندها قال صاحب الجلالة نون:»ولدي رع، أنت الرب الأرفع مكانة من خالقه والأكثر قدرة من الذين أنجبوك، خذ مكانك ثانية على عرشك، مهابتك عظيمة بمجرد نظرك إلى هؤلاء الكافرين بك[1]». هذه «العين» كانت حتحور (سخمت) التي أُمرت بتدمير البشرية. ثم قرر الإله العظيم أن يرحم وينقذ الناس، فأمر بطحن المعدن الأحمر ديدي didi (الطفل الأحمر)، وطحن الشعير ووضع ديدي في عصير. «ومع طلوع الفجر كانت إبادة الربة للبشر ظهيرة فرارهم إلى الأعلى مع النيل. عندها قال صاحب الجلالة رع :»آهٍ، كم هو رائع، سأنقذ به البشر[2]». شربت الإلهة العصير فسَكِرت، وهكذا تمكن الناس من الفرار.

أنشأ المصريون القدماء العديد من المدونات الأدبية من أساطير وحكايات وقصص وأغانٍ وعظات دينية. وكان للمؤلفات الشعرية والنثرية شكل إيقاعي. وعلى مدى آلاف السنين بقيت المواضيع التقليدية القديمة والأفكار الرئيسة والأنواع والأشكال المرتبطة بالدين بشكل وثيق. بلغ أدب مصر القديمة ذروة ازدهاره في عصر المملكة الوسطى، فقد ظهرت في تلك الفترة أعمال ذات

(1) ماتيا، م. إ. أساطير مصر القديمة. لينينغراد، 1940. ص 75–76.
(2) ماتيا، م. إ. أساطير مصر القديمة. لينينغراد، 1940. ص 75–76.

طابع علماني. وحفظت معلومات عن قصص وروايات تتحدث عن مغامرات في بلاد بعيدة. ولم يكن في مصر القديمة مفهوم التأليف.

تتحدث إحدى القصص المعروفة الباقية عن نبيل من مصر اسمه سنوحي Sinuhe، الذي بدأت متاعبه بعد وفاة الفرعون، فخوفاً من الأحداث المتصاعدة فرَّ إلى آسيا التي واجه فيها مآسٍ رهيبة. بعد النجاة العجيبة انخرط في خدمة الحاكم، وفعل الكثير لملكه الجديد، وأصبح ثرياً. إلا أن ما عذبه كان الاعتقاد بأن لا يصنعوا مومياء من جسده بعد موته. حصل على السماح، وعاد إلى مصر، حيث ركع عند قدمي الحاكم إلى أن رفعوه. صفح الفرعون عن سنوحي، وأمر ببناء ضريح له بالقرب من القصر.

يمكن ذكر أمثلة أخرى للمدونات الأدبية التي تمت المحافظة عليها، منها «حكاية الأمير وأقداره»، و«حكاية الصدق والكذب»، و«أغنية العازف على القيثارة»، و«حكاية فتح جوبي أو الاستيلاء على يافا» وغيرها.

اعتبر المصريون الأدب التعليمي أحد أهم فنون الأدب، وكان لبطله الرئيسي الذي كان يعلم الآخرين الحكمة أهمية خاصة، لذلك فقد تم الحفاظ على التأليف في الأدب التعليمي. وفي واحدة من أوراق البردي يمكن قراءة الثناء على مؤلفي العظات: «لم يصنعوا لأنفسهم أهرامات من النحاس، ولا تماثيل من البرونز. لقد تركوا خلفاء لهم من الأطفال الذين حافظوا على أسمائهم، إلا أنهم تركوا إرثهم في الكتابات، وفي التعاليم التي قدموها... وتجبرنا الكتابات على تذكرهم[1]».

لم يبخل الفراعنة المصريون في بناء المعابد والأهرامات، وعادة ما شيدوا أمام المعبد برجين مع صور للآلهة، ودُعم السقف بأعمدة ضخمة. وفي أحد المعابد كان هناك زهاء 140 عموداً، يعادل ارتفاع بعضها بناء من ستة طوابق،

(1) الشعر والنثر في الشرق القديم. موسكو، 1973. ص 102–104.

أما الأرضية فهي مغطاة بلوحات ذهبية وفضية تحمل مواضيع تقليدية وتصور آلهة الفراعنة الذين هزموا الأعداء. صور الجنود في اللوحات صغيرة الحجم، في حين كانت صور القادة العسكريين أكبر بمرتين، أما الفراعنة فيدهشون الناظر بأحجامهم العملاقة.

كذلك صور النحاتون الآلهة والفراعنة والأثرياء. وبهدف التأكيد على الأهمية الخاصة للفراعنة قربوها من الآلهة، وجسدوها على شكل أبي الهول Sphinx.

على الرغم من أن كل شيء في مصر القديمة كان مشبعاً بالمعتقدات الدينية، إلا أن ضرورات الحياة وضعت المصريين أمام ضرورة استثمار العالم، فظهرت المعارف العلمية الضرورية للحساب الصحيح لبناء السدود وشبكات الري والقنوات المائية. أما بناء الأهرامات العملاقة فقد تطلب معارف معمارية، فظهرت الهندسة. واكتسبت معرفة فيضان نهر النيل وانحسار مياهه أهمية كبيرة، فبحسابهم الوقت الذي يفيض فيه النهر، تمكن المصريون القدماء من ربطها ليس فقط مع التغيرات الموسمية، وإنما أيضاً مع مواقع النجوم في السماء، مما ساهم في تطوير علم الفلك. مع توطد الدولة أصبحت الحاجة إلى أناس متعلمين أكثر إلحاحاً، فتطورت الكتابة وتحسنت، ونقش المصريون الهيروغليفية hieroglyph على الحجر، كما استخدموا لذلك الأشجار في كثير من الأحيان. فيما بعد تعلموا في مصر تصنيع البردي الذي كتبوا عليه بطلاء أسود وأحمر.

وتحفظ في المتحف البريطاني وثيقة تاريخية مثيرة جداً للاهتمام، ويوجد ما يدعو للاعتقاد بأنها تدريبات مدرسية: التلاميذ ينسخون عظات تعليمية. ويعود زمن كتابتها على الأرجح إلى عصر المملكة الوسطى.

يُقدم في هذا المقطع وصف لمختلف المهن التي كانت سائدة في ذلك الوقت.

ويوجد في كل واحدة منها شيء غير سار، فأصابع النّحاس أسوأ من أصابع تمساح، ورائحته أسوأ «من بطارخ السمك»، والحرفي يتعب أكثر من الفلاح، والبنَّاء مرهق بعد العمل «فهو يجلس حتى المغيب حانياً ركبتيه وظهره». القائمة الحزينة تطول: بنَّاء الجدران يعمل في العراء في أي جو، لذلك فهو دائم المرض. «يستحم مرة واحدة فقط... يضرب ويضرب أطفاله».»المزارع دائماً ينهكه القلق، إنه يعيش بهدوء «كهدوء شخص تحت الأسد». والحذاء يتجول ويعيش بهدوء «كهدوء شخص بين أسماك ميتة». صياد الأسماك مجبر على العمل مع مجموعة التماسيح. هناك مهنة واحدة فقط تستحق الاحترام: «انظروا، لا توجد وظيفة ليس فيها رئيسٌ إلا وظيفة الكاتب، لأنه هو نفسه رئيس[1]».

كان الطب في مصر القديمة متطوراً بما فيه الكفاية، ومع ذلك، من أجل العلاج كان الأطباء في كثير من الأحيان يلجأون إلى الطرق السحرية، فقد انتشر بشكل واسع السحر الخبيث، في حين وضع سحر الطبيعة لنفسه هدف محاربة أعداء إله الشمس. واعتبر أطباء مصر القديمة الأفضل في تلك الأزمنة، وتضم بردية إيبرس الطبية Ebers Papyrus ما يقرب من 900 توصية لعلاج مختلف الأمراض.

أُدخلت في تلك الفترة بعض المصطلحات التشريحية، وحاول الأطباء المصريون القيام بالتعميمات الأولى في ممارستهم العلاجية، وحاولوا فهم ماهية الدورة الدموية وقيمتها بالنسبة لحياة الإنسان. وتحدث الممارسون عن أنه يخرج من القلب 22 وعاء تلعب برأيهم دوراً مهماً في صحة المريض. وتسمح العديد من الدراسات بالحديث عن أنه كان لدى الأطباء تخصص: جراحون،

(1) كتاب حول تاريخ العالم القديم/ رئيس التحرير ف. ف. ستروف. موسكو، 1950. المجلد 1. ص 51–53.

وأطباء عيون، وأطباء أسنان. واستخدمت على نطاق واسع المساحيق والعقاقير والأملاح والزيوت.

بمرور الوقت ضعفت سلطة الفراعنة تدريجياً، لتنتقل فعلياً في عصر السلالتين التاسعة عشرة والعشرين إلى أيدي الكهنة، وتفككت الإمبراطورية المصرية. وقريباً من عام 1050 جاء إلى السلطة في طيبة رسمياً الكاهن حريحور Herihor. وحكم الكهنة في طيبة لمدة أربعة قرون، ثم استولت المملكة الأشورية Assyrian kingdom على دولتهم.

في عام 525 ق. م. غزا جيش الفرس القوي مصر قادماً من آسيا. وخان الكثير من المرتزقة الفرعون، وانتقلوا إلى جانب العدو. واستولى الفرس على مصر التي فقدت استقلالها.

ويذكر شبنجلر أن «الثقافة المصرية هي تجسيد للقلق بشأن المستقبل، المكافئ الروحي للبعد، ويُعبَّر عنه في اختيار الجرانيت والبازلت كمادة فنية، وفي الوثائق المقطعة بالأزميل، وفي النظام المدروس بعناية لنظام الإدارة، وفي شبكة أدوات الري، وكذلك في القلق بشأن الماضي المرتبط حتماً بذلك[1]».

(1) شبنجلر، أ. أفول أوروبا. موسكو، 1993. ص 139–140.

الفصل الرابع

ثقافة الصين القديمة

في الصحراء التي أصبحت مهداً للحضارة الصينية أضيفت إلى المعاناة من الفيضانات معاناة من البرودة بسبب التغيرات المناخية الموسمية الكبيرة في هذه المنطقة، من الحرارة الشديدة صيفاً إلى البرودة القارصة شتاءً. ويبدو أن آباء الحضارة الصينية لم يختلفوا من حيث العرق بشكل ملحوظ عن الشعوب التي كانت تعيش على مساحات واسعة من الجنوب والجنوب الغربي من النهر الأصفر Yellow River إلى نهر براهمابوترا Brahmaputra River، ومن هضبة التبت Tibetan Plateau إلى بحر الصين China Sea.

إذا كان بعض أفراد هذا العرق الواسع الانتشار– الذين كانوا على مستوى ثقافي متدني جداً – قد كونوا حضارة، فإن ذلك لا يمكن تفسيره إلا بحقيقة أنهم كانوا قادرين على الاستجابة بشكل خلاق للتحديات، في حين لم يلاحظها الآخرون[1]».

تعود المعلومات التي تم الحصول عليها من التنقيبات الأثرية عن ثقافة الصين المبكرة إلى الألف الثانية قبل الميلاد، أي إلى الفترة ظهرت فيها – إلى جانب العلاقات القبلية – الملامح الأولى لدولة أبوية لمالكي العبيد. وكانت السلالة الحاكمة هي سلالة شانغ Shang Dynasty (سلالة إين Yin Dynasty)، التي وفقاً لمؤرخي الصين تعد الأقدم والأولى في التاريخ الطويل لحكم السلالات.

بالقرب من قرية سياوتون Sjaotun تم العثور على عظام العديد من الحيوانات

(1) توينبي، أ. ج.، فهم التاريخ. موسكو، 1991. ص 115.

وأصداف السلاحف بعضها مغطى بكتابات هيروغليفية وبتوسلات إلى الإله (دي Di أو شاندي Shandi) بشأن الطقس والصيد والتضحية وما إلى ذلك. ويعتقد أن الكاهن العراف نطق ردود الإله على شكل الشقوق التي تظهر على هذه الأشياء الملقاة في النار.

تشير المصادر المكتوبة اللاحقة إلى وجود إله طوطمي، وطير سيوان نياو Xuan Niao. ومارس بعض الكهنة (بو bu) العرافة، في حين راقب آخرون (شي shi) الطقس، وسميت مجموعة خاصة بالسحرة (أو u)، كما كان هنالك مسؤولون عن الشعائر الدينية (تشو chu).

بشكل عام، إن المعلومات عن ثقافة تلك الفترة محدودة للغاية، وعلى النقيض من ذلك يبدو الأمر مع عهد سلالة تشو Dynasty Zhou (1122—249 ق. م.)، حيث في البداية تأسست دولة قوية بما فيه الكفاية، كما حصلت العلاقات الاجتماعية على تطور جديد. وفي القرن الثاني عشر قبل الميلاد تمكنت قبيلة تشو المحاربة من توجيه ضربة ساحقة لقوات دولة شانغ – إين Shang—Yin، ونتيجة لذلك تعززت سلالة تشو التي تمكنت من البقاء إلى الألف الثالثة قبل الميلاد.

ومع ذلك، جرت في الفترة من القرن السادس إلى الثالث قبل الميلاد تغيرات كبيرة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية هناك، فقد استحدثت الملكية الخاصة للأراضي، وظهرت الأدوات المصنوعة من الحديد، وجرى تغيير نوعي في زراعة الأراضي، واستخدمت العبودية بشكل أوسع ليس فقط في تربية الماشية والزراعة، ولكن أيضاً في تشييد قنوات الري، والأعمال الحرفية، وما إلى ذلك.

في النصف الثاني من عهد تشو ظهرت المذاهب الفلسفية التي شكلت فيما بعد الأساس لتشكل الكونفوشيوسية Confucianism والطاوية Daoism. ووفقاً للروايات، فقد صاغ لاو تسو Laozi في فترة القرنين السادس – الخامس

قبل الميلاد تعاليمه التي دوَّنها أتباعه وجمعوها في كتاب بعنوان «كتاب الطريق والفضيلة Tao Te Ching (Dao De Jing)». «تاو Dao» تعني الطريق، إلا أنها في فلسفة لاو تسو تمتلك معنى أوسع، وتمثل مفهوماً ومبدأ حياة. «من الوجود والعدم جاء كل شيء؛ من المستحيل ومن الممكن جاء الإنجاز؛ ومن الطويل والقصير جاء الشكل. المرتفع يُخضع المنخفض؛ الأصوات العالية سوية مع المنخفضة تشكل الانسجام؛ السابق يُخضع اللاحق[1]».

يعلن الفيلسوف أنه «عندما يصل الإنسان إلى اللافعل، فإن شيئاً لن يكون دون أن يُفعل»؛ «من يعلم عمق تعليمه ويبقى جاهلاً، سيصبح أمثولة لعالمه[2]».

هذه الأقوال وغيرها من الأقوال المماثلة تعلن فكرة المبدأ الأخلاقي للتقاعس عن العمل، ومنع السعي إلى تغيير حياة المجتمع أو الطبيعة. وينحني لا تسو أمام فكرة السلطة الحاكمة، ويقدمها على أنها أبوية محضة ومقدسة وجامدة، في حين يدين السلطة القائمة وفقر الشعب. تتمثل الفضيلة الرئيسة في كبح الشهوة، التي تعد الدرجة الأولى من الفضيلة، وبداية الكمال الأخلاقي. في هذه العقيدة التي أصبحت أساس الدين الطاوي وجدت انعكاسها في تطلعات الكهنوتية الأبوية التي توقف وجودها على ثبات القوانين التي كانت قائمة.

يضم «كتاب الطريق والفضيلة» تعاليم لاو تسو كما عرضها تلميذه تشوانغ تسو Zhuangzi (القرن الرابع قبل الميلاد)، حيث الإنسان هو جزء من العالم، ويجب أن يجد لنفسه مكاناً في النظام العالمي. وتتمثل مهمة الإنسان الحكيم في تحديد كل شيء في مكانه وفقاً لمهمته الطبيعية. «طاو» تعني طريق الطبيعة، و «دي» هي القوة التي تمنح الحياة لكل شيء حي، التي لا تنتهك الشرط الأساسي (طاو).

(1) لاو تسو. كتاب الطريق والفضيلة، أو كتاب عن الأخلاق، موسكو، 1913. سانت بطرسبورغ. ص 6.

(2) المرجع السابق. ص 9، 19.

تنقسم دولة سلالة تشو في الواقع إلى عدة مقاطعات مستقلة، كما تشكلت عدة إمارات مستقلة خاضت صراعاً متواصلاً من أجل السلطة والقيادة داخل البلد. ولم يعترف بعضها بقيادة أباطرة تشو إلا شكلياً. وكانت هذه الفترة هي زمن الممالك المتحاربة، فقد حدثت داخل كل واحدة منها اضطرابات اجتماعية متواصلة. أنشأت كل دولة نظاماً بيروقراطياً للإدارة خاصاً بها، مما أدى إلى تشكل طبقة من الموظفين المتعلمين الذين أدوا وظائف إدارية، وشكلوا تركيزاً للتعليم والثقافة الناشئة.

قريباً من منتصف الألف الأولى قبل الميلاد تشكلت النظم السياسية والفلسفية والدينية والأخلاقية. وتمتعت بعض التعاليم الناشئة بطبيعة مادية، مثل المدرسة الشرعوية Legalism برئاسة هان فاي Han Fei (القرن الثالث قبل الميلاد).

في النصف الثاني من القرن الثالث قبل الميلاد توحدت الصين مرة أخرى في دولة واحدة قادها أول ملك صيني هو تشين شي هوانغ دي Shih–Huang Di. وتجسد الصراع السياسي المحموم وتضارب مصالح الطبقة الأرستقراطية القبلية والمجموعات الاجتماعية الجديدة في صراع الأيديولوجيات وتطور المذاهب الفلسفية والدينية والسياسية.

قسّم شى هوانغ دي إمبراطوريته إلى مناطق، وكلّف موظفين بإدارتها، ولخشيته من انتفاضة شعبية، أمر بتجريد الجميع ما عدا الجنود من الأسلحة. وبرأي المتعلمين الصينيين فقد كسر الملك القوانين القديمة جميعها، وعندما تحولوا من التحدث إلى الكتابة عن ذلك أمر شى هوانغ دي بحرق الكتب ودفن 460 عالماً. ويذكر المؤرخ توينبي أن «التعبير التقليدي للمستقبلية في الميدان الثقافي تمثل بالعمل الرمزي لإحراق الكتب، ففي العالم الصيني أحرق الإمبراطور شى هوانغ دي الأعمال الفلسفية الأدبية التي ازدهرت في الأوقات

العصبية، لأنه خشي من أن الأفكار الخطيرة يمكن أن تشوه مشروعه للنظام الاجتماعي الجديد (وشكلت «الأفكار الخطيرة» التي حاربها شى هوانغ دي إحدى صيغ الكونفوشيوسية)[1]». إلا أن كل هذه القسوة لم تحمل التأثير المطلوب.

في الفترة ما بين عامي 202 قبل الميلاد و220 ميلادي قامت إمبراطورية هان Han الضخمة. وأدى الصراع على السلطة والعداوات والانتفاضات الشعبية إلى إضعاف الصين، مما سمح للبدو الرحل من الاستيلاء على الجزء الشمالي من الصين في بداية القرن الرابع.

تسمى الفترة ما بين القرنين السادس والثالث قبل الميلاد بالعصر الذهبي للفلسفة الصينية، إذ تشكلت مدارس، مثل الطاوية Taosim، والكونفوشيوسية، والموئيزم Moism، والشرعوية Legalism، والفلسفة الطبيعية Natural philosophy.

تتمثل خصوصية الفلسفة الصينية في أن المكان الرئيسي فيها احتلته قضايا الطقوس، والأخلاق، والإدارة، والعلاقات بين الحكام والمحكومين وما شابهها، الأمر الذي تجلت نتيجته في الطبيعة العملية للفلسفة ذاتها. وكقاعدة عامة فقد استندت التصورات حول التنظيم السليم للدولة والمجتمع والعلاقات الحكومية إلى الرجوع إلى السابق الذي وصف بأنه العصر الذهبي حيث حكم «عظيمو الحكمة» ياو Yao، وشون Shun، ووين- وانغ Wen–Wang.

تجدر الإشارة إلى أن فلسفة الصين (باستثناء مدرستي موئيزم والفلاسفة الطبيعيين اللتين تفككتا بعد عصر تشو)، اعتبرت من غير المقبول أن تستخدم في نتائجها خبرة العلوم الطبيعية، مما تسبب في أضرار لكل من العلم والفلسفة. كما ينبغي أيضاً أن نأخذ في الاعتبار أن نظام الكتابة الهيروغليفية في الصين

(1) توينبي، أ. ج.، فهم التاريخ. موسكو، 1991. ص 431.

عقَّد التعبير عن المفاهيم المجردة والمنطقية.

يعتبر كونفوشيوس Confucius (كونغ تسو K›ung–tzu) الذي عاش في الفترة ما بين عامي 551 و479 قبل الميلاد المؤسس لإحدى الديانات الصينية الثلاث الكبرى. وتنقسم المراجع الكونفوشيوسية الكلاسيكية إلى «الكتب الخمسة» («وو– جينغ Wujing») و«الكتب الأربعة» («سيشو Si Shu»).

تتضمن المجموعة الأولى من الأعمال تعويذات سحرية («كتاب التغيرات Classic of Changes» – «أي تشينج I Ching»)، وتاريخ أشهر الأباطرة («التاريخ القديم Classic of History» – «شو جينغ Shu Jing»)، وأساطير وشعر قديم وتراتيل لبعضها طابع ديني (كتاب الأناشيد (شي جينغ Shi Jing)، ووصف طقوس مختلفة («كتاب الطقوس Classic of Rites» – «لي جي Li Ji»)، وسيرة إحدى الإمارات («كتاب الربيع والخريف Spring and Autumn Annals» – «تشونغ كيو Chun Qiu»).

تتألف المجموعة الثانية من كتب عن الكمال الذاتي للإنسان («التعليم العظيم Great Learning» – «دا سيو Daxue»)، وعدم جواز التطرف، والحاجة إلى الانسجام العام («كتاب عن الانسجام المركزي Center of Harmony»–»تشونغ يونغ Zhong Yong»)، والكتاب الذي يحتوي على أفكار وأمثال الفيلسوف نفسه وأتباعه («المنتخبات Analects» «لون يو–Lun Yu »()، وكذلك تعاليم الفيلسوف منسيوسMencius الأكثر شهرة من بين تلاميذ كونفوشيوس («كتاب منسيوس Book of Mencius»).

تعتبر تعاليم كونفوشيوس في أساسها مجموعة من قواعد السلوك ومنظومة أخلاقية، فقد أولى صاحبها القليل من الاهتمام للميتافيزيقية ونشأة الكون متجهاً إلى مبادئ التربية، وإدارة الدولة، وإدارة النظام الجيد في الأسرة. في هذه الأثناء لا نستطيع أن نتفق مع الرأي الذي يقر بعدم وجود علاقة للكونفوشيوسية

بالدين، إذ تحتوي بعض الكتب على عناصر دينية خاصة ما يتعلق منها بما فوق الطبيعة والأرواح وغيرها، هذا وكان الفيلسوف نفسه يؤدي الشعائر الدينية، ويعلمها للآخرين.

لا تتضمن الكونفوشيوسية مفهوم الكهنوتية بوصفها مجموعة مفرزة للعبادة والطقوس توكل واجبات الطقوس إلى المديرين الحكوميين وزعماء القبيلة والأسرة.

بمطالبته بتقديس الأسلاف،لم يتطرق كونفوشيوس إلى مسألة ردة فعلهم، أي ما إذا كان الأسلاف سيفهمون التقديس المقدم إليهم، لأنه رأى ذلك غير منطقي. الشيء الرئيسي هو أداء الشعائر (لي Li)، الأمر الذي يمثل القاعدة العليا للحياة والأساس للمجتمع القائم. ويذكر في «كتاب الطقوس» أن «إدارة الدولة من دون الالتزام بـ «لي» تماثل الأعمى من دون دليل؛ وتشابه البحث عن شيء ما في غرفة مظلمة من دون شمعة»؛ و«تمثل «لي» الشرط الضروري للوجود الوطني، فعندما لا يكون هناك «لي»، لا يمكن خدمة أرواح الأرض أو السماء بشكل صحيح،؛ وعندما لا يكون هناك «لي»، لن يكون هناك ما يميز السيد عن التابع، والرفيع عن الوضيع (من ناحية الوضع الاجتماعي)، والكبير عن الصغير (من ناحية العمر)[1].

يتمثل أساس الكونفوشيوسية في السلامة والحفاظ على العلاقات الهرمية والأبوية القائمة، وعلى مجمل النظام القائم عموماً. ويشير «كتاب الوسطية» إلى وجود خمسة أنواع من العلاقات: الحاكم والموظف، والآباء والأبناء، والزوج والزوجة، والإخوة الكبار والصغار، وبين الأصدقاء.

تطلب شغل وظيفة موظف حكومي اجتياز اختبار في كتب الفيلسوف.

من أجل صد الخطر الذي أحدق بالطبقة الأرستقراطية من جانب الطبقات

(1) انظر : غيورغييفسكي، س. مبادئ حياة الصين. سانت بطرسبورغ، 1888. ص 342.

المتشكلة من التجار وملاك الأراضي، ومن أجل تماسكها الداخلي دعا كونفوشيوس الأرستقراطية إلى التنفيذ الصارم للطقوس، مما يسهل عليها قيادة الشعب. كما حث أولئك الذين يحكمون المجتمع على اتباع مبدأ جين Zhen، أي الإنسانية. ومع ذلك اعتبرت الإنسانية ممكنة فقط وسط المجموعة الحاكمة، في حين لم تستطع الطبقة الأدنى من الناس امتلاك مثل هذا الشعور. ويساعد تقديم القرابين على تمتين روابط قرابة الدم، ولا يمتلك الأرواح سوى النبلاء الذين عليهم تشييد المعابد على شرفها. ولا توجد أرواح لدى العوام، وبالتالي تسقط عنهم ضرورة تشييد المعابد لأسلافهم. واعتبر كونفوشيوس أن قيادة البلاد مستحيلة على أساس الأعراف السائدة، وإنما ينبغي أن تتم بالاسترشاد بالتشريع الموحد. وتمثلت إحدى المسلمات الأساسية للأخلاق الكونفوشيوسية في مبدأ الطاعة التي ينبغي أن يقوم بها من هو في الدرجات الدنيا لمن هو في الدرجات العليا لمختلف أشكال التسلسل الهرمي، مثل تقديس الوالدين وطاعتهم (سياو Sjao)، وطاعة واحترام الإخوة الصغار لإخوانهم الأكبر (دي Di)، وتنفيذ الرعية الصارم لأوامر الحاكم. وبهدف تعزيز مكانة النبلاء، نصح كونفوشيوس الحكام بتخفيض المصادرات والضرائب، واتخاذ التدابير اللازمة لتطوير الزراعة.

يمثل مبدأ تصحيح الأسماء تكييفاً للمفاهيم الموجودة لوصف الحقائق الجديدة. وحدد كونفوشيوس نوعية المعارف على النحو التالي: العليا وهي الفطرية، وأدنى وهي المكتسبة بالتعليم، والأدنى وهي المكتسبة بخبرة الإنسان. إن هذه الميزة إلى جانب مبدأ تصحيح الأسماء وأطروحة كونفوشيوس عن أنه لا يؤلِّف وإنما يتبع القِدم، أدت جميعها إلى تناول المشاكل التي ظهرت على مدى القرون عن طريق وضعها ضمن إطار القوانين القديمة التي حاول المفكرون بوساطة التعليق عليها تقديم آراء ونظريات جديدة. وأعاق ذلك

تطوير العلوم في الصين، وخاصة العلوم الطبيعية. لم تقيم الكونفوشيوسية دور المنطق، وعلاوة على ذلك لم تتمكن من خلق منطق خاص بها. ووفقاً لها فإن الشعر ودراسة الطقوس والموسيقى هي أنواع الفنون الأهم. واعتبر تطوير الزراعة والحرف والتجارة مهمة الطبقات الدنيا. ويولي كونفوشيوس اهتماماً خاصاً لمفهوم «الرجل النبيل» (تشون تسو Junzi) الذي ينتمي إلى الطبقة الحاكمة، الذي يفي بمتطلبات جميع الفضائل، ويجلب المنفعة للمجتمع، إذ تحدد «الأقوال» صفات «الرجل النبيل» من إخلاص للواجب، وتبجيل لكل ما هو سام، وولاء للتقاليد، والتزام صارم بالطقوس.

في المقابل، لا يدرك «الإنسان الوضيع» (سياو رين Xiao ren) مفهوم الواجب و«إرادة السماء»، ويسعى إلى منفعته الخاصة، كما أن تعاليم الحكماء غريبة عنه، وما إلى ذلك. وهو ليس فقط إنسان غير جدير (من الناحية المعنوية)، وإنما وضيع أيضاً من جهة وضعه الاجتماعي وأصله.

شرح كونفوشيوس نفسه نظريته بشكل شفوي، وعلى شكل حوارات أيضاً.

منذ العصور القديمة مثّلت عبادة الأجداد جزءاً من المعتقدات الدينية، ففي الصين القديمة اعتقدوا أن لأرواح الموتى تأثيراً على حياة الأحفاد. كما أصبحت هذه العبادة جزءاً أساسياً من الكونفوشيوسية، إذ أكد الفيلسوف على أنه لم يخلق مذهباً جديداً، وإنما أكد باستمرار على ضرورة اتباع القوانين القديمة وطقوس الأسرة والأجداد. وكان لكل عائلة وسلالة ومجموعة سلالات معبد مكرّس للأجداد ومؤسسي السلالات، تؤدى فيه طقوس القرابين والعبادة، وتقدم القرابين للموتى في معابد صغيرة بالقرب من قبورهم.

في عهد سلالة هان Han Dynasty حُدِّد بناء المعابد بشكل صارم وفقاً للحالة الاجتماعية للشخص، فقد قدم ممثلو الطبقات الدنيا من المجتمع القرابين

لأجدادهم في أكواخهم، في حين حددت أعداد المعابد للبقية وفقاً للمكانة التي يشغلونها في المجتمع. وارتبطت خطب الصلاة للأجداد بالأحداث الاحتفالية في الأسرة، والأعياد، وأيام محددة، على سبيل المثال تقديم القرابين الإلزامي يكون في الشهر المتوسط لكل ربع من العام.

تعلن المعتقدات الدينية الصينية الواجب الرئيسي للإنسان في احترام الوالدين ورعايتهما في حياتهما أو بعد موتهما على حد سواء. وكانت هناك طقوس خاصة بالنسبة لتقديس الموتى الذين لم يتركوا خلفاً. ووجب على الإمبراطور قبل اتخاذ أي قرار هام زيارة معبد الأجداد والحصول على نصيحتهم بعد أداء طقوس معينة.

إلى جانب تعاليم كونفوشيوس تشكل مذهب الطاوية الذي مثلت مصدره نظرية لاو تسو. وتمثل منفذو متطلبات العبادة للمذهب الطاوي بالكهنة المنظمين بشكل هرمي برئاسة «تيانشي Tianshi – «المعلم السماوي»»، الذي وفقاً للأسطورة لم يخضع له الكهنة فقط، وإنما أيضاً الأرواح التي كانت تزور مقر إقامته الواقع في جبال لونغوشان Longhushan (جبال التنين والنمر (Dragon–Tiger Mountain) في مقاطعة جيانغشي Jiangxi. وكان الكاهن الأعلى ينتمي إلى كهنة العائلات، كما كان عدد كبير من الكهنة الملوك. وتمثلت المهمة الرئيسة للكهنة في العرافة والتعاويذ السحرية والطقوس وما إلى ذلك.

يمكن العثور في الديانة الطاوية على آثارٍ للمعتقدات الطوطمية، على سبيل المثال قصة الحمل العذري التي تقول إن الإمبراطور ياو Emperor Yao جاء من التنين الأحمر، في حين جاء هوانغ دي Huangdi (الإمبراطور الأصفر Yellow Emperor) من بريق البرق.

تعلن الطاوية عن وجود روحين لدى الإنسان: تشي – الحياة المرتبطة بالجسد، ولين – الروح المنفصلة عن الجسد. وبحسب مميزات الإنسان، بما

في ذلك النبالة والتعليم، تتحول لين بعد الموت إلى غوي، أي شيطان، أو إلى شين، أي إله.

تكاد الآلهة الكونفوشيوسية لا تنفصل عن الطاوية، إذ يُعبد إله الثروة، والآلهة الحامية للمهن، وفي بعض المناطق قدس المزارعون الآلهة الزراعية والروح- التنين التي تتحكم بالمطر وينابيع المياه.

تقتضي كل من الكونفوشيوسية والطاوية تقديم القرابين لأرواح الشخصيات البارزة، وحلت الرموز الورقية تدريجياً محل الأشياء المقدمة كقرابين في مناسبات مختلفة. وبصفة عامة، تتميز ديانة الصين بعبادة الأسرة والعرق والأجداد، التي تؤيدها الكونفوشيوسية، في حين يولى القليل من الاهتمام لكل من التصوف والميتافيزيقيا ورابطة الإنسان مع عالم الآخرة. ولا تتميز الديانة الصينية بالتعصب والزهد وقتل الجسد.

تميزت الثقافة المبكرة للصين بهيمنة الأيديولوجيا الأسطورية، في حين تشابهت الآلهة والأرواح الأسطورية مع الحيوانات أو الطيور أو الأسماك (تصوير الآلهة بالحيوانات zoomorphism).

تعود أولى المعالم الأثرية للأدب الصيني إلى الفترة الممتدة من العصر البدائي المتأخر إلى القرون الأولى بعد الميلاد. وتعود الأهمية الخاصة في هذا الأدب إلى الأساطير التي تتجسد فيها تصورات الصينيين القدماء عن نشوء العالم والبشر، وقصص عن الأبطال الذين تغلبوا على الشر من أجل خير الناس. وتتميز أساطير الصين بعبادة الحجارة، وعلى وجه الخصوص ما يشكل منها الجبل المرتبط بفكرة الخصوبة، لأنها قريبة من السماء، وتُخصب الأرض. كما ترتبط بعبادة الخصوبة أيضاً أشكال الثعابين والتنين. وترتبط خصوبة الأرض مع الثعبان المستلقي على الأرض، في حين يعيش التنين في الغيوم وأحواض المياه على الأرض. وكما تذكر الأساطير، فإن آلهة الخصوبة تعيش في الجبال والبحيرات

وغيرها.

يشتمل «كتاب الجبال والبحار Collection of the Mountains and Seas» (شان هاي جينغ Shan Hai Jing») على تصورات حول آلهة الصين وجبالها وأراضيها والحيوانات التي تعيش فيها، كما يتضمن معلومات عن الطب الشعبي والمعتقدات. ويعود هذا الأثر إلى فترة القرن الثالث – القرن الثاني قبل الميلاد.

يعد شاندي الإله الأعلى المماثل للسماء، والأباطرة فقط هم المخولون بتقديم القرابين له، واعتبره الصينيون القدماء المؤسس والحامي الذي يتحكم بالآلهة والأرواح كافة.

هنالك عدة روايات عن أصل العالم. في البداية لم يكن هناك شيء، وكان الكون فوضى. بعد ذلك وُلد في هذه الظلمة روحان (إله) – ين ويانغ Yin and yang اللذان قررا تنظيم العالم، إلا أنهما تقاسما في البداية مناطق النفوذ، فسيطر يانغ على السماء، في حين كانت السيطرة على الأرض من نصيب ين.

ثمة رواية أخرى عن نشوء العالم، استل وفقها الإنسان الأول بانغو Pangu بلطة وضرب بها الظلام، ليرتفع كل ما كان صافياً مشكلاً السماء، في حين شكل كل ما سواه الأساس لخلق الأرض.

لعبت الزراعة في الصين القديمة دوراً مهماً، ولذلك تكتسب الديانة الزراعية ملامح ديانة الدولة. وشُيّد في بكين مذبح للإمبراطور شين نونغ Shennong، الذي وفقاً للأسطورة علّم الناس الزراعة، وقدم الإمبراطور نفسه القرابين له. عبد الصينيون الأرواح المحلية، تودي Tudi، التي توسلوا إليها بشأن المحصول والنجاة من المصائب. وكان لكل مدينة حاميها الخاص.

ووفقاً للطاوية، تتمتع كل منطقة بصفات خاصة بها مستمدة من تأثير قوى الشر والخير، التي تعتمد نسبتها على التضاريس. ويعرف تاريخ الصين حالات

كان ترك السكان مدناً وقرى بأكملها بعد إعلانها معادية بأمر من الكهنة الطاويين.

استخدمت الفلسفة الناشئة الأساطير بغرض تبرير نظرياتها، مما استدعى ضرورة تحويل الأبطال الفاعلين فيها إلى شخصيات تاريخية حقيقية، والأحداث الأسطورية إلى أحداث وقعت فعلاً في العصور القديمة. وهذا ما مكن الفلاسفة، وعلى وجه الخصوص الكونفوشيوسيين، من تحويل الأساطير إلى واقع ملموس، وبالتالي تأكيد شرعية كل ما يستند عليها من استنتاجات فلسفية وأخلاقية.

إذا كانت بعض التصورات عن نشأة الكون تقوم على فكرة قوى يين ويانغ، فإن ممثلي المعتقدات الأخرى اعتقدوا أن في أساس كل شيء تكمن خمس بدايات، هي الماء والنار والمعدن والتراب والشجرة. فالبدايات التي ظهرت تصبح أساس كل شيء. إلا أن المذاهب الفلسفية الطبيعية لم تحصل على التطور في الصين القديمة.

كانت لدى الصين كتابة متطورة، لم تخضع فعلياً لأية تغيرات جوهرية طوال فترة تطور البلد. ويمثل كل حرف فيها فكرة في الكتابة الصينية، وتتوزع الرموز فيها على خمسة أشكال. وتعرضت ثقافة الصين كلها لتأثير الكتابة الهيروغليفية التي اعتبرت بحد ذاتها نوعاً من الفن.

وضعت في فترة حكم سلالة تانغ Tang Dynasty ثلاث موسوعات للمعارف الصينية، وكان ملاحظاً تأثير الهيروغليفية في العمارة حيث يتوافق شرط التناسب ومبادئ الكتابة الهيروغليفية، وتميز الأدب الصيني باللغة المحكية الحية، كما تطورت الرياضيات والطب والشؤون العسكرية. فمثلاً تحدث المنظّر العسكري سوون تزو Sun Tzu عن العلاقة بين الفنون العسكرية وكل من السياسة والاقتصاد، وعن التحول المتبادل لقوة وضعف القوات،

والجبن والشجاعة.

لم تقم مدارس بداية الألف الأولى قبل الميلاد بتدريس الفتيان الصينيين الرماية من القوس وركوب العربة فحسب، وإنما فن الغناء أيضاً. واعتقد كونفوشيوس أن للأغاني أهمية تربوية، وافتتح بنفسه أول مدرسة خاصة تمثلت المادة الرئيسية فيها بالفلسفة الهادفة إلى بناء الشخصية ومهارات الإدارة، في حين انتشر نظام التعليم في منتصف الألف الأولى قبل الميلاد في الصين بشكل واسع.

تميزت فترة القرنين السادس والخامس قبل الميلاد بظهور الاهتمام بقضايا دور السماء، وسبب نشوء كل ما هو موجود. وقبل القرن السادس هيمنت تصورات عن السماء كحاكم أعلى يعتمد على إرادته كل من الإنسان، والدولة، والطبيعة. وتمثل تجسيد إرادة السماء في حاكم الأرض وكأنه ينوب عن السماء على الأرض. وحول ذلك تتحدث صفحات «كتاب الأغاني Book of Songs» (شي تشينغ Shih Ching) و«كتاب التاريخ Book of History (شو تشينغ Shu–Ching)». وإرادة السماء ليست مفهومة للشخص العادي، إذ لا يستطيع تفسيرها إلا ابن السماء، زعيم الدولة، بمساعدة من مختلف العرافين. وهي تماثل القدر الذي لا يمكن فهمه أو تغييره.

إن المسلمة عن الأصل السماوي لحاكم الأرض، التي بدونها يستحيل أن نفهم إرادة السماء، استخدمتها الكونفوشيوسية لتبرير مشروعية تركيز السلطة في أيدي الطبقة الأرستقراطية الوراثية.

أجبرت أزمة دولة تشو وفرز الدول المستقلة التي تعترف شكلياً فقط بسلطتها، والخسائر في الأرواح إبان الاقتتال الداخلي والصراعات الاجتماعية على التشكيك في عدالة السماء التي تعاقب الإنسان العادي على خطيئة الحكام.

جرى في فترة القرن الثامن– القرن السادس قبل الميلاد التعبير عن رأي

مفاده أن رفاهية الإنسان تعتمد عليه هو فقط، في حين أن الأمراض والكوارث الطبيعية وغيرها من الظواهر تولدها الطبيعة. ولا يمكننا القول أن الاعتقاد في السماء انهار، إلا أنه أخذ بدرجة متزايدة يمثل خوفاً من السماء واعتقاداً في القدر.

عن طريق إعلان كونفوشيوس السماء كعقاب ومكافأة للناس يحددان مصيرهم، أكتسبت بعض صفاته المجسمة، إذ إن سلطة ابن السماء على الأرض، التي تتجسد فيها إرادة السماء المقدسة، هي الدعامة الوحيدة لحياة المجتمع والدولة.

في الوقت نفسه يتحدث كونفوشيوس في كتابه «تعاليم كونفوشيوس Analects of Confucius (لون – يو Lun Yu» عن السماء مناقشاً تبدل فصول السنة وظهور كل ما هو موجود، أي الطبيعة نفسها.

رأى الطاويون (القرن الرابع – القرن الثالث قبل الميلاد) في السماء جزءاً من الطبيعة، وجردوها من الصفات الإنسانية من عدالة وإنسانية،كما نفوا وجود القدر، لتصبح السماء جزءاً من الطبيعة وتخضع لتاو الذي هو سبب كل شيء، إلا أنه في حد ذاته غير مادي، وإنما أبدي وموجود في كل مكان. و لا يعني اتباع تاو تمني الكثير، وإنما الرضا بما هو موجود. وينبغي على الإنسان التحرر من الانفعالات، في حين يتعين على الحاكم السعي لجعل الشعب يتمتع بالمعارف، ومن يمتلكها من الناس لا يجرؤ على استخدامها.

كذلك أيد موتزو Mo Tzu (زهاء 480–400 قبل الميلاد) الاعتقاد في السماء، إلا أنه اعتبر أن إرادة السماء تتمثل بالحب والمنفعة المتبادلة. وكتاب «موتزو Mo Tzu» الذي تقدم فيه آراء أتباع موتزو، قام بوضعه على مدى أكثر من قرنين من الزمان مختلف أتباع الفيلسوف. وترى هذه المدرسة في السماء نموذجاً للحكم، فبالنسبة لها جميع الناس سواسية، وهي تطعم الجميع، وتجلب المنفعة، لكنها

تعاقب أيضاً الظلمة والقساة. ويجب على الحاكم أن يرعى محاربيه، ويصغي إلى كلمات الحكماء ويستخدمها في إدارة دولته بغض النظر عن درجة النبل وعلاقات القربى. وبانتقاده لأتباع الكونفوشيوسية، يعتقد موتزو أن تعاليمهم وتأملاتهم وطقوسهم لا تساعد الناس العاديين. فمن وجهة نظره يستخدم أتباع الكونفوشيوسية الفن من غناء ورقص، لإرباك الناس.

شدد مو تزو على ضرورة المعارف التي تسمح بتعزيز القدرة على إنتاج أدوات العمل للزراعة، وعلى الحرف والقدرة على التجارة وما إلى ذلك. وفي المرتبة الأولى وضع دراسة العالم الحقيقي، وأعلن الأساليب الدقيقة للحرفيين نموذجاً يحتذي به القادة العسكريين.

إذا كان كونفوشيوس يعتقد أنه ينبغي أن تقتصر معارف ممثلي الطبقات الدنيا من المجتمع على عملهم المباشر، وأنه لا ينبغي عليهم معرفة خطط الحاكم، فإن موتزو اعتقد بأن الإدارة السليمة للدولة هي مستحيلة دون معرفة أسباب الخلل، وينبغي أن تكون مثل هذه المعرفة متاحة للجميع.

وفقاً لفيلسوف الطبيعية تساو ين Zou Yan (القرن الرابع قبل الميلاد)، فإن العالم كان موجوداً كوحدة – تشي – أدت كتلتها المركزة إلى تشكل السماء من جزيئات خفيفة ومضيئة (يان تشي)، والأرض من جزيئات ثقيلة وداكنة (إين تشي). ثم ولد تفاعلها خمسة عناصر رئيسة مثلت الأساس المادي للأرض. ويُعتقد أن تساو ين وصف جغرافية الصين وثرواتها الطبيعية.

لم تكن الفلسفة الصينية مقسمة إلى نظريات منفصلة بشأن هذه القضية أو تلك، في حين صورت المادة بشكل مجازي، غالباً على شكل حوارات، واستخدمت الأساطير القديمة والأمثال، الأمر الذي بسببه بدت المؤلفة الفلسفية عملاً فنياً.

قبل الصياغة الكتابية والتنظيم كانت نظريات الفيلسوف تنشر شفوياً عن

طريق تلاميذه، الأمر الذي تطلب مستوى عالياً من البلاغة. وكان هذا الفن قد تطور في الصين حتى قبل ظهور الفلسفة، الأمر الذي يجسده «كتاب الأساطير» الذي يعود إلى فترة ما قبل القرن الثامن قبل الميلاد، الذي يتضمن أمثلة على الخطب السياسية والعسكرية.

حددت ملاحظات كونفوشيوس عن «كتاب الأغاني» (القرن السادس قبل الميلاد) ولوقت طويل المبادئ العامة للفن. أولاً، يجب أن يخدم معنى الأغنية تعليم الفضائل الخمس التي حددها الفيلسوف. وينبغي أن يمثل التفكير السليم الميزة الثانية للأغنية، مما يسمح باستخدامها بغرض التربية. أخيراً، يمثل اعتدال المشاعر متطلباً إلزامياً، مما يخدم أهداف الانضمام إلى الانسجام العام. هذه هي المبادئ المنصوص عليها في «الحكم».

يسعى كل من الشعر الفردي الذي ظهر في فترة القرن الرابع – القرن الثالث قبل الميلاد، وقصيدة هان الغنائية، إلى التعبير عن المشاعر وإثارتها لدى المستمعين.

ظهرت في فترة القرن الرابع – القرن الثالث قبل الميلاد الأعمال التي تصف أحداثاً مختلفة، مثل «خطب الممالك Guoyu » الذي يصور أحداث فترة القرن العاشر– القرن الخامس قبل الميلاد.

تمثل مؤلفة سيما تشيان Sima Qian «السجل التاريخي Records of the Grand Historian» المؤلفة الأكثر قيمة، وتتألف من عدة أقسام: «السجلات الأساسية» – حوليات الأباطرة، و«الجداول التاريخية»، و«الفصول الثمانية» التي تحتوي على معارف في مختلف الميادين (علم الفلك والري وغيرها)، و«حوليات أمراء الإقطاع» – تاريخ مختلف فروع الارستقراطية، و«تراجم عظماء الرجال» – معلومات عن السيرة الذاتية للمشاهير.

أدى الموقع النائي للصين عن البلدان الأخرى إلى غياب التأثير الأجنبي على

تشكل ثقافة هذا البلد في العصور القديمة، وتجسدت فكرة «مركزية الصين Sinocentrism» بدرجات متفاوتة في جوانب التنمية الثقافية كافة.

تطور علم الفلك بحلول نهاية الألف الثانية قبل الميلاد، إذ استطاع الصينيون تحديد أوقات كسوف القمر، ووضعوا دليل النجوم وقاموا بوصف أكثر من 2500 نجماً وإدخالها ضمن الكرة السماوية. وفي عام 28 قبل الميلاد سجل الصينيون بقعاً على قرص الشمس، كما اخترع الصينيون البوصلة ومرسمة الزلازل البدائية، في حين استخدم علماء الرياضيات الأجزاء العشرية، وحددوا العدد « ط أو باي (π)».

اخترع الصينيون الورق والحبر مما مكنهم طباعة الكتب. وقد أدى ذلك إلى تغييرات في الكتابة وظهور «الكتابة النموذجية» التي كان من المفترض أن تلبي معايير معينة، كما وضعوا أسس فقه اللغة والمعاجم، وظهر الأدب الفني (سيما تشيان).

تمثل الدين الثالث في تعاليم فو Fu. هكذا يدعو الصينيون البوذية Buddhism التي ظهرت في هذا البلد في القرن الأول قبل الميلاد على شكل هينايانا Hinayana («العربة الصغرى»)، وهو مذهب يستطيع الإنسان وفقه بلوغ نيرفانا Nirvana (السعادة القصوى) فقط بجهوده عن طريق تحسين ذاته، ودون مساعدة من الآلهة والكهنة.

انتشر هذا النوع من تعاليم بوذا Buddha في الصين لمدة غير طويلة، فبحلول بداية القرن الخامس قبل الميلاد برزت البوذية في الصين على شكل ماهايانا Mahayana («العربة الكبرى») التي تقوم على حقيقة أنه من أجل بلوغ السعادة القصوى للإنسان هو بحاجة إلى مساعدة من الإله الذي تحول إليه تدريجياً مؤسس الدين بوذا. وظهر مذهب عن الجنة كان غائباً في البوذية المبكرة. ويمكن للرهبان فقط أن يعتبروا بوذيين، لأن عدداً محدوداً فقط من

الصينيين يعتبرون أنفسهم بوذيين. وفي الوقت نفسه تؤدى الطقوس البوذية إلى جانب طقوس الديانتين الأخريين فعلياً من قبل الصينيين المتدينين جميعهم.

على الرغم من اعتناق الناس الفعلي للديانات الثلاث جميعها، فإن المسؤولين، وفي انتهاك للمبادئ التي بشروا بها بأنفسهم، خاضوا حرباً مستمرة من أجل النفوذ السياسي والمناصب الحكومية وما إلى ذلك. على سبيل المثال، اعتبرت الإطاحة بسلالة هان الكونفوشيوسية (206 قبل الميلاد – 220 م) نتيجة لانتفاضات الفلاحين، التي جرت في عام 184م بقيادة الطاويين.

الفصل الخامس

ثقافة الهند القديمة

ترجع أقدم آثار ثقافة الهند القديمة إلى فترة الألف الثالثة – الألف الثانية قبل الميلاد، ففي حوض نهر السند Indus River كانت هناك الحضارة الهندية لموهنجو دارو Mohenjo–daro وهارابا وHarappa، وتسمح الاكتشافات الأثرية هناك بالتأكيد على وجود ثقافة متطورة جداً، فقد كانت حرف البرونز والمعادن على مستوى عالٍ، كما حُفظت بقايا مبانٍ من الحجارة الكبيرة.

كانت الكتابة معروفة في ذلك الوقت، إلا أن العلماء لم يتمكنوا إلى اليوم من فك رموز حروف الماضي البعيد. ويعتقد بعض الباحثين (سيرجي ألكساندروفيتش توكاريف Sergej Alexandrovich Tokarev) أن السكان ينتمون إلى الشعب ما قبل الآري Pre–Aryan أو الدرفيدي Dravidian.

حُفظت أختام تحمل رسوماً لحيوانات، فيل وثور ونمر ووحيد القرن. وكان هناك تقديس للنباتات، كما عثر على تماثيل صغيرة لأناس يعتقد أنهم آلهة. ويبدو أنه لم تكن هنالك معابد في تلك الفترة، ومع ذلك فقد بقيت في المباني البسيطة جميعها آثار لأحواض صغيرة للغاية، في حين بُنيت في المباني التي تبدو عامة أحواض كبيرة. ويعتقد العلماء أن طقوسا للاغتسال كانت هناك في تلك الفترة، ومن أجلها بنيت هذه الأحواض.

في أساس المعتقدات الدينية لقدامى الهنود كانت هناك توليفة من التقاليد الثقافية والمعتقدات البدائية للهنود القدماء (الشعوب الأصلية – الدرفيدي الأصلي Proto–Dravidian، وموندا Munda وغيرهما)، والآريين Aryans.

وكما يعتقد الكثير من العلماء، فإن الغزو الآري لعب دوراً كبيراً في عملية تسريع وتيرة تطور الحضارة الهندية القديمة.

يذكر ديودورس الصقلي أن معظم الأراضي الهندية مرويَّة، لذلك فهي تعطي المحصول لعدة مرات في السنة. وينوه المؤرخ إلى الدور الكبير في حياة الهند الذي لعبته الكثير من الحيوانات، وأبرزها الفيلة. وعلاوة على ذلك، فإن الفيلة الهندية أقوى بكثير من تلك التي كانت تربّى في ليبيا، فقد قام الهنود بتدريبها خصيصاً للمشاركة في الحملات العسكرية، إذ كان ظهور المحاربين على الأفيال في بعض الأحيان حاسماً في المعركة. وما يدهش المؤرخ القديم لا يتمثّل فقط بالأراضي الخصبة، وإنما أيضاً في الثروات المعدنية الدفينة من ذهب وفضة ونحاس وحديد وقصدير وغيرها من المعادن اللازمة لصنع الحلي والأسلحة والأدوات المنزلية. وفي وصفه لسكان الهند، كتب ديودوروس يقول: «وبالمثل، فإن وفرة الثمار التي تقدم الغذاء ساعدت الناس على التميز بالصلابة والضخامة. وإضافة إلى ذلك، ينبغي الإشارة إلى أنهم كانوا متمرسين في مجال الفنون، ربما لأنهم يتنفسون هواء نقياً، ويشربون ماءً رائع التركيب[1]».

على تخوم الألفيتين الثانية – الأولى قبل الميلاد وصل الآريون إلى وادي نهر الغانج Ganges واستوطنوا فيه، وأخذت أولى الدول بالتشكل.

يتمثل أحد أول معالم ثقافة الهند القديمة في مجموعات الفيدا Vedas (سامهيتا Samhita)، ففي الفترة من القرن العاشر إلى القرن السابع – السادس قبل الميلاد وضعت في مدارس كهنوتية خاصة نصوص أصبحت أساساً للشريعة الفيدية (فيدا – المعرفة). وتتضمن مجموعات الفيدا نصوصاً من تراتيل وتعويذات ورقيات وصلوات الآريين تنتمي إلى فترات مختلفة.

والمجموعة الأقدم هي ريج فيدا Rigveda (فيدا التراتيل)، وجمعت

(1) كتاب تاريخ الشرق القديم. موسكو، 1980. الجزء الثاني. ص 125–126.

النصوص فيها في عشرة أقسام، ماندالا Mandala، تمجد الآلهة وأفعالها. وتعطي الأساطير العديدة فكرة عن كيفية فهم الهنود للعالم المحيط. وتمثلت المواضيع المفضلة بتلك المرتبطة بالشمس. وتروي الأسطورة القديمة كيف يتبع الإله سوريا Surya (الشمس) الإلهة أوشاس Ushas (الفجر). وقد كُرِّست أساطير عديدة للإله إندرا Indra.

تسمى المجموعة الثانية ساما فيدا Samaveda (فيدا سامانات؛ سامان Saman هو ترتيل من نوع خاص). باستثناء 75 منها، فقد تكررت نصوص المجموعة الأولى جميعها تقريباً.

ياجور فيدا Yajurveda (فيدا ياجوس Yajus – صيغة القربان) – الكتاب الثالث من الفيدا. وهنالك صيغ عديدة له تختلف عن بعضها بعضا تبعاً لانتمائها لمدارس مختلفة. ويتكون محتوى الصيغ الأربع لياجور فيدا السوداء Black Yajurveda من تعويذات القرابين والتعليقات عليها، في حين تتشكل ياجور فيدا البيضاء White Yajurveda في الأغلب من التراتيل.

سميت المجموعة الرابعة آثارفافيدا Atharvaveda باسم كهنة آثارفان Atharvan.

كان الإله دياوس Dyaus إله السماء ووالد الآلهة الأقدم في كوكبة آلهة فيدا. وزوجته إلهة الأرض بريثفي Prithvi. ويعد هذان الزوجان من الآلهة أسلاف الآلهة والبشر. وُلِد لهما إندرا Indra، وهو أحد أقدم الآلهة القديمة، ويعد كبير الآلهة بالنسبة للآريين الهنود، هزيم الرعد، ومحارب، وبطل واحدة من الأساطير حول نشوء الكون. ووفقاً لها يرتفع وسط الماء الجبل الأساسي، وعليه يستلقي التنين فريترا Vritra الذي يجسد الفوضى، في حين يقوم هو بحراسة الجبل لأن فيه يكمن أثمن شيء للحياة – الشمس، ومياه الأنهار، والأبقار. وكان الجميع باستثناء إندرا يخافون التنين الفظيع. وفي نهاية المطاف

تنتهي المعركة الشرسة بانتصاره.

عندما قتلت يا إندرا أول تنين
وتغلبت على دهاء الماكرين
وولدت الشمس والسماء والفجر
عندها حقاً لم يوجد عدو يواجهك
إندرا قتل فريترا، أفظع الأعداء
بهراوة، بأعظم سلاح
التنين ممد، يشد نفسه إلى الأرض(1)

قام إندرا أيضاً بالعديد من المآثر كان من بين أهمها فصل الأرض عن السماء، كما قام بوضع نظام للكون ليبقى هذا الكون إلى الأبد. وصاحبت إندرا دوماً عواصف ماروتا Maruts، أبناء رودرا Rudra إله العواصف والأعاصير.

صحيح أن الدور الأساسي للإله يعود إلى الإله فارونا Varuna، إلا أنه حتى وبعد أن ظهر إندرا له، استمر فارونا بشغل المكانة الأهم في البانتيون، فهو حارس النظام (ريتا Rita)، ويراقب بتيقظ المعاقبة المستحقة لمنتهكيه. وبالإضافة إلى ذلك يعتبر فارونا إله المحيط الكوني الذي يولد منه الكون. وفارونا ليس مجرداً من الرحمة، لأنه عادل.

بحفظنا لعهود أديتي Aditi،
سوف نكون أبراراً أمام فارونا،
القادر على الصفح حتى عن مرتكب الإثم!(2)

قدس الهنود القدماء الشمس بشكل خاص، وظهرت دفعة واحدة عدة آلهة تجسدها، هي: سوريا – الشمس، سافيتر Savitr – المجدد والباعث، وبوشان

(1) أدب الشرق القديم. موسكو، 1984. ريجفيدا 32،1. ص 48.
(2) أدب الشرق القديم. موسكو، 1984. ريجفيدا 87،7. ص 51.

Pushan – حرارة الشمس، وحارس الماشية، وحامي الناس. وأوشاس هي واحدة من الإلهات القليلات. وترتبط بعض الآلهة ارتباطاً وثيقاً مع الممارسة الدينية. آجني Agni – إله النار. وفي أكثر من 200 من التراتيل يُمجَّدُ ريجفيدا الإله الشاب، حامي الأسرة والمنزل والذرية السليمة. وفي بعض الحالات يلعب آجني دور الوسيط بين البشر والآلهة. سوما Soma – إله الشراب المقدس المسكر.

إلى جانب تقديس الآلهة جرى تقديس الأجداد – بيتريس Pitris وبيتاراه Pitarah (الآباء). وفي مجمع الأرباب الآرية كان هنالك أشباه أرباب، فقد أغوت أبسارا Apsara الناس والآلهة، وخاصة النساك والزهاد.

تضمنت آثارفافيدا نصوص رقيات مختلفة، مثل الرقية ضد الجروح والكسور (آثارفافيدا 4،12)، «الرقية لنيل حب المرأة» (آثارفافيدا 6،8)، الرقية لنمو الشعير (آثارفافيدا 6،142). على سبيل المثال، في الرقية ضد الديدان (آثارفافيدا 2،32) يوجه النص ضد الديدان التي تعشش في جسم البقرة، التي تظهر في صورة عدو رهيب وقاس، له أربعة عيون شريرة وقرون حادة.

سأحطم لك قرونك

فأنت تطعن بها

سأمزق لك الكيس

فهو مخزن السم لديك[1].

ينظر إلى تقديم القرابين بوصفه الجزء الأهم لتواصل البشر مع الآلهة، وكان لتقديم الهدايا طابع المنفعة المتبادلة: هذا الزيت، فأين هي عطاياك؟

تشكل في هذه المرحلة المبدأ الأهم في العلاقات مع الآلهة والمتمثل بالامتثال الدقيق لقواعد تقديم القرابين المنصوص عليها جميعها. وينبغي الحرص على

---

(1) المرجع السابق. ص 56.

لفظ جميع التعويذات بشكل صحيح، عندها لا تستطيع الآلهة رفض رجاء الإنسان[1].

المكانة الرئيسة في الديانة الفيدية مخصصة لتقديم القرابين، في حين تمثل الآلهة في معظمها ظواهر الطبيعة، ويمكن أن تمثل الظاهرة الطبيعية ذاتها آلهة مختلفة، والآلهة المهيمنة هي الآلهة المذكرة. كما تجدر الإشارة إلى أنه يغيب فعلياً أي ذكر للمعابد أو الأضرحة أو الكهنة. وبعد مرور بعض الوقت استبدلت بالآلهة الفيدية آلهة الأخرى.

يتحدث جزء لاحق من ريجيفيدا عن خلق العالم من جسم من العملاق بوروشا Purusha الذي قتل وذهبت أجزاء جسده لخلق العالم المرئي. بيد أنه لدى الهنود القدماء أساطير أخرى عن خلق العالم. ووفقاً لإحداها لم يكن في البداية هناك شيء، ومن الفوضى البدائية ولدت المياه التي ولّدت النار. والدفء ولّد في المياه البيضة الذهبية Golden Egg التي عامت هناك نحو سنة. ثم ظهر من هذه البيضة براهما الأب Brahma.

في البداية عندما نظر براهما من حوله فوجد نفسه وحيداً تماماً انتابه الخوف، وتساءل كيف له أن يكوّن ذريّة. وبقوة تفكيره خلق ستة أبناء، ستة سادة عظام. الابن السابع كان داكشا Daksha، الذي خلافاً لأشقائه خرج من الإصبع الكبير لقدم براهما اليمنى. ومن إصبع القدم اليسرى خرجت الابنة فيرين Virin (الليل) التي أصبحت زوجة لداشكا.

يلي ذلك سرد مفصل عن حياة الآلهة. ومن المثير للاهتمام في هذه الأسطورة هو أنها بحديثها عن المآثر العظيمة لأبناء وأحفاد براهما الأب، تذكر أنه... من فاق الجميع كان فيشنو Vishnu الابن الأصغر لأديتي، وحارس الكون، ورب

(1) توكاريف س. أ.، الدين في تاريخ شعوب العالم. موسكو، 1964. ص 256.

الفضاء»[1].

عرف الهنود القدماء أيضاً أسطورة الفيضان، ومن المرجح أن ظهورها تأثر بأسطورة بلاد ما بين النهرين، فقد جُلبت للإنسان الأول مانو Manuالمياه للاغتسال، فوقعت في يديه سمكة. تحدثت السمكة بصوت إنسان محذرة إياه من خطر وشيك، وكان عليه مساعدتها على النمو، ومن ثم إطلاقها. وفي اللحظة المناسبة ستأتي لمساعدته. وهذا ما حدث، ففي الموعد المحدد هيأ مانو السفينة وانتظر المساعدة الموعودة. وعندما بدأ الطوفان سبحت السمكة، وسحبت السفينة إلى الجبال الشمالية. قالت السمكة: لقد أنقذتك. اربط الآن السفينة إلى الشجرة، وعندما ستصبح على الجبل، احذر أن تجرفك المياه. فقط عندما تبدأ المياه بالانحسار تعقبها. وخطوة خطوة هبط مانو... وفي الوقت نفسه جرف الفيضان معه كل ما هو حي، وبقي مانو وحيداً على الأرض»[2].

حدثت في بداية الألف الأولى قبل الميلاد تغييرات كبيرة، فقد أسست قبائل الآريين على ضفاف السند والغانج عدداً من دول الرق الأولى، حيث اشتدت التناقضات الاجتماعية بين الفاتحين والسكان الأصليين، في حين غابت الوحدة بين الفاتحين أنفسهم.

جلب الآريون معهم عاداتهم وآلهتهم، وأثارت تركيبة المعتقدات السابقة والجديدة مجموعة من التغييرات الهامة، فقد ارتقى السحر إلى الصدارة. وأصبح نجاح الوساطة بين الناس والآلهة يعتمد على قداسة الكاهن الذي يؤدي مراسم تقديم القرابين، في حين تتحدد القداسة بمدى دقة امتثال الكاهن لجميع متطلبات الزهد، فظهرت عبادة تاباس Tapas (التقشف)، إذ امتاز الزاهدون بقوة لا مثيل لها، وكلما كبر الالتزام بالزهد، كانت القوة التي يتمتع بها الزاهد

(1) تيمكين إ. ن.، إيرمان ف. غ.، أساطير الهند القديمة. موسكو، 1982. ص 15—17.

(2) الشعر والنثر في الشرق القديم. موسكو، 1973. ص 399—400.

أكبر. ونظر إلى الزهد على أنه قوة يمكن أن تهز عروش الآلهة.

تغيرت ممارسة تقديم القرابين فأصبحت لا تقدم للآلهة قرابين دموية، واتخذت القرابين طابعاً رمزياً. كما تم استبدال طقس إراقة شراب سوما، وأصبحت بديلة عن الشراب المقدس حفنة من الأرز المسلوق يقطر عليها الزيت والحليب المذاب.

انضمت إلى البانتيون آلهة جديدة يعتقد العلماء أنها آرية الأصل. وثمة سمة مميزة تتمثل في أن المكانة الهامة وسطها احتلتها الإلاهات، كما يمكن أن تكون خيرة أو شريرة، والآلهة الجديدة كانت ذات طبيعة خيالية مجردة. من الإله فينا Vena ينشأ وينتهي كل شيء. الآلهة كالا Kālá (الزمن)، وكاما Kama (الحب وممارسة الجنس)، وسكامباها Skambha (الحياة). وفي فترة الفيدية المتأخرة ارتقى إلى المرتبة الأولى وسط هذه الآلهة–المفاهيم براهمان Brahman (براهمان – المطلق، براهمان – القربان، براهمان – السحر ورمزية الطقس)[1]. انتقلت الآلهة القديمة التي كانت تجسيداً لقوى الطبيعة إلى الخلف، لتدخل بعد ذلك في غياهب النسيان، ولتشغل مكانها آلهة طبقية جديدة. وأصبح براهما المعبود الرئيسي.

البراهمانية Brahmanism هي نظام معتقدات دينية وطقوس عبادات، وتعتبر الوريث المباشر للديانة الفيدية. الآلهة الرئيسية للبراهمانية هي: براهمان، وأتمان Ātman، وتحوت Thoth، وبوروشا Purusha، وبراهماناسباتي Brahmanaspati – تجسيد الصلاة المذكور في الفيدا، وتحول في الفترة البراهمانية إلى الإله الأعلى للكون.

لصلاة البراهمانيين المرتبطة بتقديم القرابين وطقوس عبادتهم قوة هائلة يخضع لها العالم بأسره، وتتجسد هذه القوة في شكل الإله براهما Brahma

(1) انظر: ل. س. فاسيلييف، تاريخ الديانات الشرقية. الفصل 12. موسكو، 1983.

الذي يشمل كل شيء[1].

كانت هنالك أربع مناطق انقسم إليها المجتمع الهندي القديم، وكانت تسمى فارنا Varna. وداخل الفارنات كان هنالك العديد من الطبقات المحلية المغلقة المختلفة. وتبقى العلاقاتِ بين أعضاء الفارنات والطبقات مسألة غير مدروسة. ومن المؤكد أن الانتماء إلى هذه الفارنا أو تلك حدد عند الولادة. وتميزت مجتمعات قديمة أخرى بالتقسيم إلى طبقات مختلفة، ولكن ربما في الهند القديمة وحدها تم الاحتفاظ بهذا التقسيم بشكل صارم ودقيق. ويكمن سبب ذلك في أن الظروف الطبيعية المواتية سمحت للهنود بتجنب العديد من الصعوبات التي رافقت سكان البلدان التي تنتشر فيها الأراضي الجرداء القاحلة أو المستنقعات. ولا عجب أن يذكر ديودورس الصقلي أن الهند لم تعرف الجوع قط. لذلك توجب خلق سبب للتحفيز القوي للناس من شأنه إلصاق بهم واجب العمل لمن هم أعلى منهم بالولادة. وقد كرَّس الدين التقسيم إلى طبقات.

وفقاً لشريعة مانو قام براهما بنفسه بتقسيم الناس إلى طبقات، وفرض على كل منهم القيام بنوع من النشاط، محدد ومصمم له وفقاً لانتمائه إلى هذه الطبقة أو تلك.

شريعة مانو هي مجموعة من التعليمات عن الواجب وقواعد السلوك في الحياة الخاصة والعامة. وتنسب صياغة القوانين إلى مانو الأب الأسطوري للناس. ومع ذلك، وكما أثبت الباحثون، فقد تمت صياغة هذه القوانين على مدى عدة قرون في واحدة من المدارس البراهمانية.

نشأت الطوائف من أجزاء مختلفة من جسد براهما، ووفقاً لمولدها كانت كل واحدة منها مدعوة للقيام بنشاط معين. يُخلق البراهمان من الشفاه، فهم

(1) توكاريف س. أ.، الدين في تاريخ شعوب العالم. موسكو، 1964. ص 261.

يدرسون الفيدا، ويعلّمون البراهمان الشباب النصوص المقدسة. وعلاوة على ذلك، يدخل ضمن مسؤوليتهم القيام بتقديم القرابين من أجل أنفسهم والآخرين، واستقبال وتوزيع الصدقات. والبراهمان هم كهنة يتركز في أيديهم مجال العبادة والمعارف الروحية.

يُخلق كشاتريا Kshatriya من الأيدي، وينبغي عليهم حماية الرعايا، ودراسة الفيدا، وتوزيع الصدقات والقرابين. وكشاتريا هم محاربون، ومن هذه الطبقة جاء الأمراء والملوك.

يُخلق فايشيا Vaishya من الوركين، وبالإضافة إلى دراسة الفيدا وتوزيع الصدقات والقرابين، ينبغي عليهم الانخراط في التجارة والربا والزراعة. هم مزارعون ورعاة وتجار، وهم سكان أحرار. وسميت الطبقات النبيلة الثلاث بالمولودين مرتين.

يُخلق شودرا Shudra من رجلي براهما، وواجبهم خدمة الطبقات الثلاث من غير تردد، ولا يعتبرون جزءاً من المجتمع، فمن المرجح أن هؤلاء كانوا أناساً فقدوا كل اتصال مع عشيرتهم وقبيلتهم. وفي حال عملوا بشكل جيد قد يحصلون على قطعة صغيرة من الأرض يكون العمل فيها مصدراً لوجودهم. ومع ذلك، يمكن لممثلي الطبقات العليا سلب شودرا كل ما جنوه من سنوات العمل الشاق. لم تكن حياة ممثلي الطبقة الرابعة تزيد قيمتها على حياة القطط.، فعلى تهمة قتل شودرا لم يتعرض الناس إلا لكفارة دينية صغيرة. في حين لم يعاقب شودرا على الجريمة نفسها فحسب، ولكن أيضا على الغضب الذي دفعه لارتكاب الجريمة.

النشاط الرئيسي للبراهمان هو دراسة نصوص الفيدا المقدسة، وحددت في القوانين أربع فترات لحياة براهمان. يبدأ كل شيء بدراسة الفيدا بتوجيه من المعلم. ثم تأتي اللحظة الحاسمة في حياة براهمان، إذ وجب عليه الزواج،

وتربية الأطفال، والعمل في الزراعة. الفترة الثالثة هي وقت العزلة في الغابة، ووقت الوحدة والسعي إلى المعرفة. وتختتم الدورة الطويلة بحياة الزاهد الذي يتخلى عن ممتلكاته ويعيش على الصدقة.

في الهند القديمة كانت هناك فئة أخرى من الناس هي فئة المنبوذين الذين يرتبط أصلهم على الأرجح بالمحرمات. ويبدو أنه في العصور القديمة ظهر تصور عن عدم الطهارة الطقوسية. وكان وضعهم أسوأ من وضع شودرا، وكان هؤلاء هم شاندالا Chandala وشواباش Shwapach، ولم يستطيعون العيش في القرية، فقدرهم التجول باستمرار، وتوجب عليهم الأكل من الأطباق المكسورة، وسمح لهم بارتداء الحلي المصنوعة من الحديد فقط. ولم يسمح للمنبوذين بدخول القرية إلا بعد الحصول على الإذن من أعلى المستويات. ومن بين واجباتهم كان نقل جثث الناس الذين لم يكن لديهم أقارب. وبأمر من الملك تمكنوا من العمل كجلادين ومنفذين لحكم عليه بالإعدام. وكان للجلاد الحق بأخذ ملابس وحلي المنفذ بهم حكم الإعدام.

كانت للطبقات آلهتها الخاصة، فبراهما إله براهمان، وإندرا إله كشاتريا، في حين قدَّس المزارعون إلههم القديم رودرا Rudra الذي تطابق لاحقاً مع شيفا Shiva، وكان لشودرا آلهتهم الخاصة.

لم يتمثل العبيد في الهند القديمة في السجناء الذين يتم أسرهم في الحرب فقط، إذ تحوَّل إلى عبيد أيضاً الأشخاص الواقعون في عبودية الدين، الذين باعوا أنفسهم أو عوقبوا على جرائم. وفقاً لقوانين مانو كانت هناك 7 أصناف من العبيد، هي: الأسير، والمقتنى، والمولود في بيت عبد، والمشترى، والمهدى، والوارث، والعبد بحكم العقوبة.

في الفترة ما بين القرنين العاشر والسابع قبل الميلاد وضع براهمان نصوصاً خاصة تمثل تعليقات على نصوص الفيدا اكتسبت تسمية «البراهمة». وحصل

براهمان – الكهنة على وضع الحصانة، إذ لم يستطع حتى الملك المساس بهم. وكان على كل براهمان المراعاة بورع لأربع قواعد: المنشأ البراهماني النقي، والسلوك الصحيح، والتحسين المستمر للمعرفة، ومساعدة الناس. والمقصود هو أن براهمان هو من كان يقدِّم القرابين، أي أنه كان وسيطاً بين البشر والآلهة. وساد براهمان–الكهنة في المجتمع. ولتعزيز مكانتهم وتحسين حالة معرفتهم الدينية، وضع براهمان وبعناية أساس البراهمانية.

في الفصل الأخير لشريعة مانو وصف لعقيدة انتقال الروح، فروح الإنسان لا تموت بعد موته، وإنما تنتقل إلى جسم مادي آخر. وعلى مدى دقة تنفيذ الشخص لقوانين الطائفة أثناء الحياة، تعتمد الوجهة التي ستنتقل روحه إليها. حتى شودرا الذي قدَّس في حياته قوانين الطائفة، يمكن أن يصبح بعد الموت شخصاً آخراً من طبقة أعلى.

وضعت في البراهمانية قواعد الحساب على الآثام، فالإنسان المرتكب للإثم بشكل متعمد يجب أن يتجسد ثانية في عضو لطبقة أدنى، ويعاقب على الخطيئة اللفظية في التقمص في حيوان، ونجم عن الفعل الآثم التحول إلى مادة غير حية.

بروحها «وأساسها الطبقي المحض» تختلف البراهمانية عن الفيدية بشكل حاد. ويرتبط الجزء الكبير من البراهمانية بالمعتقدات الدينية ما قبل الآرية أكثر منه من الديانة الفيدية للآريين»[1].

أوليت في العهد البراهماني أهمية كبيرة للمؤلفات الدينية–الفلسفية، وتعتبر نصوص الأوبانيشاد Upanishads الأساس الذي تقوم عليه معظم التعاليم والأديان اللاحقة في الهند. «تمثل الأوبانيشاد الفكرة الختامية من

(1) توكاريف س. أ.، الدين في تاريخ شعوب العالم. موسكو، 1964. ص 265.

الفيدا، ولذلك تسمى فيدانتا Vedanta، أو نهاية الفيدا»[1]. ووفقاً لتعاليم الأوبانيشاد، لا ينبغي أن ينحصر للإيمان في إطار الكنيسة. فذلك غير كاف. «يتمثل تطور الأوبانيشاد بالمقارنة مع الفيدا في التأكيد المشدد على التفسيرات الأحدية للتراتيل الفيدية، وفي نقل المركز من العالم الخارجي إلى الداخلي، وفي الاحتجاج ضد ممارسة الشعائر الخارجية للممارسة الفيدية، وفي عدم الاكتراث بقدسية الفيدا»[2].

الأوبانيشاد تعني «الجلوس بالقرب» و«الاستماع إلى المعلم» الذي دخلت ضمن واجباته تفسير أسرار النص لتلاميذه.

تمثّل مصدر الأوبانيشاد في تعليقات البراهمان وأرانياكا Aranyaka (كتب الغابة) للنساك والزاهدين. ووضعت في الأوبانيشاد عقيدة الدورة الأبدية للحياة، والسلسلة اللامتناهية من التغير. ولا يتعبر الموت أكثر من كونه مجرد عنصر ضروري للدورة المتواصلة، إذ تكتسب الروح بعد الموت مظهراً جسدياً جديداً.

تعرف كارما Karma على أنها مجموعة الأفعال الخيرة والشريرة التي يقوم بها الكائن الحي على مدى حياته، وتسمح كارما الجيدة له أن يصبح براهماناً أو أميراً، في حين تسمح كارما المتوسطة للإنسان بالعودة إلى الوضع ذاته الذي شغله قبل الموت، أما كارما السيئة فتعاقب الإنسان فيصبح عبداً، أو منبوذاً، أو نجساً، أو حيواناً وما إلى ذلك.

تعتبر الهند مهد الديانة البوذية Buddhism التي ظهرت في الألف الأولى قبل الميلاد. وفي أواسط القرن السادس قبل الميلاد ظهرت في المجتمع الهندي أزمة اجتماعية–اقتصادية وثقافية حادة. وكان على أراضي الهند في الفترة

---

(1) رادهاكريشنان س. الفلسفة الهندية. موسكو، 1993، المجلد 1، ص 112.

(2) المرجع السابق. ص 118.

الممتدة بين القرنين السادس والثالث قبل الميلاد عدد كبير من الدول الصغيرة. وخاضت الجمهوريات والممالك القبلية حروباً متواصلة فيما بينها، وأدت الاشتباكات الحربية والصراع المتواصل على أراضي الغير إلى إضعاف الأطراف المتحاربة، وفي نهاية المطاف أدى ذلك إلى استيعاب معظمهم من قبل دولتين كبيرتين، هما ماغادا Magadha وكوسالا Kosala.

إن ما يميز فترة ظهور البوذية (القرن الرابع–القرن الخامس قبل الميلاد) هو الصراع الحاد بين جميع شرائح المجتمع في الإمارات الهندية الشمالية، فقد انتهك حرمة التقاليد المتبعة كل من التناقض بين الثروة والفقر، وبين الطبقات العليا والدنيا، والصراع على السلطة فيما بين الأمراء، والبراهمان وكاشتاريا، وسعي السلالات العسكرية الناشئة إلى السلطة. وبدا كل ما عدا البراهمان في وضع الثانوي، في الوقت الذي تركزت في أيدي البراهمانيين «حكمة الحياة بأكملها». وكان الناس الذين لا ينتمون إلى طبقة البراهمان بأمس الحاجة إلى دين يستطيعون منه استقاء الحكمة الروحية والعثور على إجابات على الأسئلة الأبدية للمعيشة، ومثلت البوذية هذا المذهب الديني.

الحياة وفقاً لتعاليم بوذا Buddha كلها معاناة، ويعتبر مسار حياة كل إنسان من الولادة حتى الموت معاناة. والسبب هو شغف الحياة، وتلبية الرغبات، والارتباط بشيء ما، وعدم القدرة على تلبية رغباته طالما أن كل شيء في العالم هو عابر وزائل. وإنهاء المعاناة ممكن في التخلي عن رغبات وشغف الحياة. لم تقم البوذية بتحديد سبب المعاناة فحسب، وإنما بينت أيضاً وسيلة الخروج منها، وسبيل تحقيق السعادة القصوى. ولاقت هذه العقيدة انتشاراً واسعاً ليس في الهند وحدها، بل وخارج حدودها أيضاً.

تنتمي الهند القديمة إلى البلدان ذات الثقافة العالية، فالهنود القدماء كانوا على دراية جيدة بعلم الفلك، إذ بقيت أدلة على أن عالماً هندياً قديماً خلص

بشكل مستقل إلى استنتاج عن أن لدى كل من الشمس والأرض محور خاص للدوران. وكان لدى الهنود كتابة تقوم على 50 رمزاً، وهي أسهل من المسمارية أو الهيروغليفية. وكان النحو واحداً من أهم العلوم التي قدسها الهنود. وفي الهند القديمة اخترعت الأرقام التي اعتدنا على تسميتها بالعربية، بيد أن العرب اقتبسوها عن الهنود، وعن طريق العرب عرفتها الشعوب الأخرى. كما اخترع الهنود لعبة الشطرنج. وفي الهند القديمة شيدت المباني الرائعة، والتماثيل الجميلة للحيوانات والبشر. واشتهرت الهند دائماً بالرقصات والأغاني، وكان لدى الهنود القدماء أدب غني ومتنوع.

حفظ كتاب الإرشادات والنصائح والحكمة، وكان يسمى بالكتاب التعليمي للأمراء. هذه هي مجموعة من القصص من 5 كتب «بانتشاتانترا Panchatantra/ كليلة ودمنة Kalila and Dimna». وتعود النسخة الأولى من المجموعة إلى القرن الرابع قبل الميلاد. ولكل كتاب منها عنوان: «شقاق الأصدقاء The Separation of Friends»، و«اكتساب الأصدقاء The Gaining of Friends»، و«الغربان والبوم Of Crows and Owls»، و«فقدان المكتسب Loss Of Gains»، و«السلوك الطائش Ill–Considered Action / Rash deeds». وإلى الملاحم الهندية القديمة تنتمي كل من «ماهابهاراتا Mahabharata» و«رامايانا Ramayana».

الفصل السادس

ثقافة الشعوب القديمة لأمريكا الوسطى

وسط القبائل التي قطنت أمريكا في حقبة ما قبل كولومبوس Pre-Columbian era لوحظ المستوى الأعلى للثقافة لدى شعوب المنطقة الوسطى من البلاد، التي تميزت بالدين المبتكر، والتطور المبكر للدولة، والعلاقات الاجتماعية.

وكتب توينبي عن أن المعرفة عن ثقافة الدول الأمريكية القديمة تم الحصول عليها جزئياً من معطيات التنقيبات المعمارية، وتستند أيضاً إلى الشهادات الأدبية التي خلفها الغزاة الأسبان أو أعضاء المجتمعات المقهورة، والمنجزة حتى قبل ذلك عن أن تقاليد المجتمعات المحلية دُمرت مع هذه المجتمعات»[1].

لا يجد الاعتقاد بأن إنجازات ثقافة هذه الشعوب تدين لتأثير العالم القديم أي تأكيد موضوعي. بلغت شعوب أمريكا الوسطى نجاحات في الزراعة باستخدام الري الاصطناعي، وتطوير الحرف المتخصصة، بما في ذلك صناعة الفخار والحلي والأقمشة، كما انتشر بشكل واسع التبادل داخل المجتمع وخارجه، وتشكلت سلطة الدولة. ويلاحظ المؤرخ والأثنوغرافي توكاريف أن وصول الأوروبيين وجد في أمريكا الوسطى أربعة مراكز ثقافية رئيسية، فقد نشأت وتطورت على أراضي المكسيك الوسطى ثقافة آزتك Aztec، في حين استقرت مايا Mayans في غواتيمالا وشبه جزيرة يوكاتان Yucatán Peninsula، وفي كولومبيا عثر على آثار ثقافة قبائل التشيبتشا الموسكيين

(1) توينبي، أ. ج.، فهم التاريخ. موسكو، 1991. ص 72.

Chibcha-Muisca، وفي بيرو حفظت المعالم الثقافية لقبائل كيشوا Qhichwa وعلى رأسها قبائل إنكا Inca.

وبنتيجة البحوث الأثرية خلص العلماء إلى استنتاج أن هناك ظاهرة عامة تميز جميع المراكز الثقافية التي تم العثور عليها، وتتمثل هذه الظاهرة في اقتران الأشكال القديمة جداً التي تذكر بالمعتقدات الدينية لشعوب أمريكا الأقل نمواً مع الأشكال المعقدة لعبادة الدولة التي أدخلتها القبائل الفاتحة.

إلى جانب الديانة الزراعية للفلاحين تطورت أنظمة مصطنعة وغريبة للكهنة اللاهوتية-الأسطورية»[1]. نشأت دولة أناهواك آزتك Aztec Anahuac الواقعة في وسط المكسيك في القرن الرابع عشر وسيطرت سياسياً على أراضي البلد حتى ظهور الفاتحين الأسبان. بعد وصول الأزتيك لم يتمكن المجتمع العرقي في المكسيك منع التقسيم الطبقي الاجتماعي، وتشكلت طبقة النبلاء، والعوام المحاربين، والعبيد بأعداد صغيرة. تشكلت كذلك طبقة التجار، التي إلى جانب التجارة نفذت بعض المهام الاستطلاعية. وتمثل أحد الأشكال الرئيسية لعمل الآزتك في الزراعة التي تطلبت الكثير من النفقات والجهد إذ كانت الأراضي تُحرث بالحراب بسبب عدم القدرة على تصنيع معادن أخرى ما عدا الذهب والفضة. وفي زراعة الخضروات استخدمت القوارب المفروشة بالتربة. وأطلقت على هذه «الحقول» العائمة تسمية تشينامبا Chinampa، وكانت تعوم في بحيرة تكسكوكو Texcoco التي تشكلت حولها المدن الآزتيكية.

استخدمت ثمرة الكاكاو بمثابة النقود، وزرع الكاكاو على أراضي المايا في الغابات الاستوائية في شبه جزيرة يوكاتان.

أعاق عدم القدرة على النقل الذي يميز أمريكا الهندية تنميتها الشاملة، وبشكل مباشر تطور الآزتيكيين، كما أعاق ظهور العلاقات السلعية-النقدية

(1) توينبي، المرجع السابق. ص 216.

والتجارة باستخدام المال كمكافئ شامل، وحدَّ من ناتج العمل المؤدى يدوياً، من دون استخدام الحيوانات في النقل والعمل في الحقل.

اشتهر الآزتيكيون بفنون القتال، وكما سبق ذكره لم تستخدم في الحملات حيوانات الركوب، لأنها ببساطة لم تكن موجودة. كان الحمالون يرافقون الحملات العسكرية، ولم يسع الجنود لقتل العدو، وإنما أسره، وذلك لتقديمه فيما بعد قرباناً للآلهة. ومثل عدد السجناء المقدمين كقرابين مقياس شجاعة المحارب.

توسعت إمبراطورية الآزتيكيين على حساب الشعوب المقهورة التي فرضت عليها الضريبة وزودت بمحاربيها جيش المنتصرين، هذا بالإضافة إلى فرض عليها تشييد معابد للآلهة الأزتيكية إلى جانب معابدها الخاصة.

قلص الآزتيكيون بشكل مقصود عدد الشعوب الخاضعة تاركين أعداء محتملين للمعارك للحصول على الأسرى المقدمين قرابين للآلهة. لم يكن بمقدور المجرمين والعبيد الحصول على شرف الموت على المذبح.

كغيرهم من شعوب أمريكا الهندية، لم يكن لدى الآزتيكيين أبجدية، وكانت لديهم الكتابة الهيروغليفية. وكان معدل معرفة القراءة والكتابة عالياً جداً، وكان هناك مدارس، وازدهرت لديهم فنون الشعر والخطابة. وشيد المهندسون المعماريون المهرة الكنائس والمنازل والتماثيل. وكان هناك علماء فلك جيدون عرفوا جيداً النجوم في السماء، وكان لديهم في تلك الفترة خرائط جغرافية.

تمثلت مواضيع العبادة لدى شعب المكسيك الزراعية قبل احتلالها من قبل الآزيتيكيين في الآلهة الراعية للخصوبة. ولعب الكهنة دوراً خاصاً في المحافظة على معرفة المفكرة والتقويم والكتابة الهيروغليفية ونقلها لخلفهم. في المدارس جرى تعليم الأطفال من طبقة النبلاء. وكانت الكهنوتية تخضع لنظام هرمي صارم يستوجب الالتزام بالانضباط والزهد، وكان بإمكان أفراد

العائلات النبيلة فقط أن يصبحوا كهنة. وفي البيئة الكهنوتية كان يمارس تعذيب الذات. وبالإضافة إلى مهمتها الدينية، اعتبرت المعابد نتاجاً لفن معماري فريد، إذ كانت تبنى على شكل هرم تقود إلى ساحته العليا المفتوحة درجات. وسميت هذه الأهرامات ذات الأدراج تيوكالي Teocalli. وعبد المكسيكيون الآلهة التي كانت ترعى مختلف الحرف، هذا فضلاً عن التي كانت تجسد قوى الطبيعة. وسمي الإله الذي كان يُنزل المطر على الأرض تالالوك Tlaloc. ووفقاً لمعطيات أخرى لم يكن هذا إلهاً واحداً، بل آلهة كثيرة، وبالتالي تالالوكي هم آلهة المطر. وتمثل الذرة أحد أهم المحاصيل الزراعية لدى الشعوب التي كانت تقيم في وسط المكسيك، واعتبر الإله سينتيوتل Centeotl تجسيدها. وكان هناك أيضا ربة الخصوبة والولادة، لعبت دوراً مهماً في المعتقدات الهندية إذ كانوا يتوجهون إليها طلباً للمساعدة. وكانت هذه الإلهة تسمى تونانتسين Tonantzin التي تعني ترجمتها «والدتنا». وكان كويتزالكواتل Quetzalcoatl واحداً من الآلهة الثلاثة الأهم، ويقع معبده الرئيسي في مدينة شولولا Cholula المركز الثقافي الأقدم للمكسيك. ويعني اسم الإله الثعبان المكسو بالريش الذي يرتبط مع عبادة الثعابين التي مازالت لدى عدة قبائل حتى وقتنا الراهن. وتمثل الإله في صورة عجوز ذي لحية طويلة، ووفقاً لتأكيدات بعض الباحثين فقد تم اقتراضه من التولتيك Toltec.

يعتبر تيزكاتليبوكا Tezcatlipoca («المرآة الملتهبة») إلهاً صارماً، كان يقدم إليه الكثير من القرابين، وقد جسد حرارة الشمس المدمرة. كذلك كان إله الحرب ويتزيلوبوتشتلي Huitzilopochtli قاسياً ومطالباً بالقرابين. «في البداية كان إلهاً قبلياً لتينوشكا–مكسيكا Tenochca-Mexica الذين فور تزعمهم للدولة الآزتيكية جعلوا منه إلهاً للحرب وأحد الآلهة العليا»[1].

(1) توكاريف س. أ.، الدين في تاريخ شعوب العالم. موسكو، 1964. ص 218.

من أجل الحصول على الضحايا لتقديمها إلى الآلهة أبرم المكسيكيون اتفاقيات مع الدول المجاورة عن حروب دورية للاستيلاء على الأسرى. وكقرابين للإله الدموي لم يقدم الأسرى فحسب، وإنما الفتيان من العائلات النبيلة أيضاً. وعلى الأرجح لعب ويتزيلوبوتشتلي قبل إن يصبح إلهاً قوياً ورهيباً دوراً مهماً في الاحتفالات الرسمية المرتبطة بالحصاد والأنشطة الزراعية. وكان يجري الاحتفال بالأعياد مرتين في السنة حيث كانت تحضر صورة هذا الإله من الخبز الذي يقطع بعد ذلك إلى أجزاء يأكلها المشاركون في العيد. كانت عبادة الإله تلوكاإيناأواك Tloquenahuaque غائبة على الرغم من أن أسطورة الآزتيك تنسب إليه خلق الكون الذي تعاقبت في تطوره أربع فترات انتهت كل واحدة منها بالفناء نتيجة لحريق، أو فيضان، أو عاصفة، أو مجاعة. وينتظر الفترة الجديدة التي ظهرت بعد انهيار الأخيرة المصير ذاته.

تمثلت الركيزة الأساسية للملك الذي يقف على رأس الدولة في مجلس الكهنة وهيئة كبار العسكريين. ولم يتم التأمين بشكل مركزي إلا لاحتياجات الجيش والبلاط، وتكدست في المخازن الحكومية الأسلحة والحبوب والسبج والأقمشة، ومن الرعية إلى قصر الملك جلب الذهب والفضة والنحاس وحبوب الكاكاو، ولحديقة حيوانات القصر الطيور الحية والثعابين. وكانت ذخيرة الآزتيك المحارب عبارة عن ثوب سميك وخوذة مصنوعة من القطن ومزينة بمخالب وناب الحيوانات، وسكين، ورمح، وعصا أو فأس. تطورت صناعة المجوهرات من الذهب والفضة للكهنة والنبلاء، ومن النحاس للناس العاديين. كما صنعت الحلي من النفريت والفيروز والسبج وريش الطيور الملون وجلود الحيوانات، وصنعت أدوات العمل من السبج والصوان. ولم تكن تربية الماشية متطورة لدى الآزتيك، إذ تركز جل اهتمامهم على الزراعة.

اعتبر سكر الأفراد – ما عدا كبار السن – جريمة، في حين اعتبر استخدام

المخدرات (عصير الصبار) وسيلة للتواصل مع الآلهة.

في القرن السادس عشر جاء الغزاة الأسبان، وحدث ذلك في عهد مونتيزوما Montezuma (الأكثر دقة هو نسخ موتيكوزما Motecuhzoma «الإله الغاضب»)، الذي اعتبرهم الأحفاد الحصينين للآلهة. سقطت تينوتشتيتلان Tenochtitlan دون قتال، وأُسر الملك. وبدأت المعارك في وقت لاحق وذلك لعدم مشاركة الجميع رأي الملك، فقد أُعتقد أنه يمكن قهر الأسبان باستخدام مواردهم ومهاراتهم التي ينبغي إتقانها. وعلى الرغم من شجاعة المقاومين، إلا أنهم هزموا لأنهم لم يجدوا الدعم لدى القبائل المهزومة، ولا لدى الحلفاء الذين كان حكم الآزتيك أو الأسبان سيان بالنسبة لهم.

مثلت التعويذات المختلفة مضمون غالبية مخطوطات الآزتيك التي أحرقها الكهنة الأسبان جميعها. ومع ذلك فقد درس من بقي على قيد الحياة من الكهنة الأبجدية اللاتينية، وأعادوا كتابة قصصهم وأساطيرهم والكثير غيرها من المصادر المتلفة.

لقد حاول الأسبان محو جميع أثار ثقافة الآزتيك بما في ذلك مدينة تينوتشتيتلان عاصمة الأزتيك المعروفة بأهراماتها وتحفها المعمارية.

«كان ظهور حضارة المايا استجابة للتحدي الذي فرضته الغابة الاستوائية»[1]. ويورد توينبي كلمات المؤرخ سبينديد Spinden عن أن ثقافة المايا أصبحت ممكنة فقط بفضل استصلاح الأراضي المنخفضة الخصبة. ثقافة المايا معروفة للباحثين بشكل أقل من إرث الشعوب المكسيكية، ولا يرتبط تراجعها بشكل مباشر مع الاستيلاء على الدولة من قبل الأسبان، فقد بدأ قبل فترة طويلة من ظهورهم حيث تم التخلي عن كثير من مدن قبيلة المايا من قبل سكانها قبل وصول الفاتحين.

(1) توينبي، أ. ج.، فهم التاريخ. موسكو، 1991. ص 116.

تم اكتشاف الكتابة الهيروغليفية للمايا في شكل «رموز» درسدن وباريس ومدريد، وتتضمن معلومات دينية. اعتبر الإله إيتزامنا Itzamna الذي أسند إليه الدور الرئيسي في كوكبة آلهة المايا مؤسس مدينة إيتزمال Izamal، فضلاً عن كونه خالق مختلف أنواع المعرفة، بما في ذلك الكتابة.

اعتبر كوكولكان Kukulkan حامي مدينة مايابان Mayapan ومؤسس سلالة حكامها. ومعنى اسم الإله كوكولكان، »الثعبان المريش»، يتطابق مع اسم الإله الآزتيكي كويتزالكواتل، وهيئة هذين الإلهين متماثلة. والإله كوكولكان نفسه هو عبارة عن نصف إنسان ونصف ثعبان.

أقدم الكتب ذات المضمون الأسطوري هما كتابا «بوبول فوه –Popol Vuh» و «تشيلام–بالام Chilam –Balam»، إذ يستعرضان خلق العالم من قبل الإلهين الأم العظيمة والأب العظيم، وحقب تطوره وانهياره الحتمي. ووفقاً للأسطورة فقد خلقت الآلهة في البداية الأرض والحيوانات، ومن ثم الناس. وحاولت الآلهة خلق الناس من الطين والخشب، إلا أنه في كلتا الحالتين اتضح أن تجربة الآلهة لم تكن ناجحة تماماً. عندها خلقت الآلهة الناس من حبوب الذرة المطحونة. ويعتبر رقم أربع سحرياً، فبداية خلقت الآلهة أربعة رجال، ومن ثم أربع نساء.

مثلت مدن يوكاتان المراكز الدينية والمعمارية الرسمية، فقد شيدت فيها أضخم المعابد التي تمثل أهرامات ذات أدراج.

لم تصل القرابين المقدمة إلى الآلهة الحجم الذي بلغته في ثقافة الآزتيك، ويعبر عن رأي مفاده أن هذه العبادة ظهرت نتيجة لغزو الآزتيك في القرن الخامس عشر. وانتشرت على نطاق واسع المعتقدات الشعبية في شاك، أي الأرواح التي يعتمد المحصول عليها، وترتبط بالجهات الأربع للعالم. واعتقد هنود المايا في غواتيمالا في وجود لدى قرين لكل إنسان من حيوانات الغابة

ترتبط حياته ومماته بحياة الإنسان ومماته. وموت الإنسان هو حتمي عند موت الحيوان القرين ناهوال Nahual. وسمي هذا الاعتقاد بالناهوالية Nahualism.

استنادا إلى الخصائص النسبية للاكتشافات الأثرية، فقد مر تاريخ قبائل المايا القديمة في ثلاث فترات رئيسية: ما قبل الكلاسيكية (1500 قبل الميلاد – 300 م)؛ الكلاسيكية (300–900)؛ ما بعد الكلاسيكية 900–1530)، وتنقسم كل منها إلى عدة مراحل. وهذا التقسيم هو شرطي إلى حد ما، إذ فيما يخص فترات تطور المايا هناك وجهات نظر أخرى تمتلك جميعها المعدل ذاته تقريباً من الموثوقية. يشير مصطلح «المملكة القديمة» الذي غالباً ما يذكر في المراجع إلى الفترة الكلاسيكية التي كانت فيها مدن المايا تقع في مناطق غابات غواتيمالا الشمالية. وبينت الدراسات أن بعضها كانت موجودة في القرن التاسع، في حين تم التخلي عن أغلبيتها في نهاية القرن الثامن – بداية القرن التاسع. وفي بداية القرن العاشر ولأسباب سياسة على ما يبدو فرَّ ملك التولتيك كويتزالكواتل مع مجموعة من أنصاره من البلاد، وبمساعدة من قبائل يوكاتان بدأ بغزو مدن مايا يوكاتان. وفي القرن العاشر – بداية القرن الحادي عشر تشكلت المدن–الدول التي أدارها التولتيك الذين توحدوا تدريجياً مع المايا. واشتملت ثقافة المايا المهيمنة في هذه المدن على العديد من الميزات الثقافية المكسيكية.

من بين أشهر المدن في عصر المملكة القديمة كانت مدينة بالينكي Palenque التي تقع على هضبة في الغابات المجاورة لنهر أوسوماسينتا Usumacinta River. وتجسد نقوش قصر بالينكي الصورة الحزينة للأسرى الذين كان يتم قتلهم في القصر باقتراحات من الباحثين. ومن بين المدن الأخرى للمملكة القديمة يمكن تسمية تيكال Tikal وكوبان Copán.

هناك عدة فرضيات بشأن أسباب اندثار المملكة القديمة، فمثلاً وفقاً لنظرية

عالم الآثار الأميركي سيلفانوس مورلي Sylvanus Morley فقد أدت زراعة القطع والحرق لدى المايا إلى انقطاع الزراعة عن المدن، مما أدى إلى ظهور المجاعة والحاجة إلى الانتقال إلى يوكاتان.

إلى جانب ذلك هناك فرضية عن فرار المايا نتيجة لهجوم القبائل من غرب المكسيك، فقد خاضت مدن–دول المايا الحروب فيما بينها، وهذا ما تثبته دراسة الجداريات التي اكتشفها علماء الآثار على جدران القصور، فقد تم جزئياً فك رموز نصوص هيروغليفية تحتوي على المعلومات ذات الطابع التقويمي والسحري.

وفقاً لتوينبي كان مجتمع المايا مسالماً لدرجة كبيرة، ومورس فن القتال فقط في الجزء الشمالي–الغربي منه حيث جرت مواجهات مع البربر. كان معدل التطور عالياً لدى كل من علم الفلك ونظام التسلسل الزمني الذي تميز بدقة خاصة»[1]. ومع ذلك يعتقد الباحثون المعاصرون أن الإنسانية التي تخص ثقافة المايا، التي تميزها عن ثقافة القبائل الأخرى، مبالغ فيها جداً لأن التضحيات البشرية جرت في الفترات المبكرة للتطور، وخاصة في الفترة التولتيكية. وكانت قبائل المايا ماهرة في فن النقوش. وعثر على برج من خمسة طوابق، يعتقد أنه استخدم كمرصد. وبالقرب من القصر تم العثور على ثلاثة أهرامات تحتوي على ملاجئ في قممها. وفي أحد المعابد هناك صورة لاثنين من الكهنة يقفان على الجثث ويقدمان القرابين. وفي المناطق الجافة تمكنت قبائل المايا من نحت في الصخور تشوليون chuliun وهي أماكن لتجميع المياه.

يمكننا استقاء المعلومات حول المدن القديمة للمايا من كتب « تشيلام–بالام» (حرفياً– «كتب النبي جاغوار Books of the Jaguar Prophet»)، التي كتبها هنود يوكاتان المعمدون بحروف لاتينية ولكن بالميانية.

(1) انظر توينبي، أ. ج.، فهم التاريخ. موسكو، 1991. ص 75.

تتكون مباني المايا من ألواح حجرية عديدة، الأمر الذي تطلب مهارات معالجة الحجر والنحت. ويفترض أن هنود المايا اخترعوا الهياكل الجاهزة. ولم يعرف هنود المايا المعادن المناسبة لصنع الأدوات، فاستخدموا في جميع أعمال البناء المنقاش الحجري. وكانوا وحدهم من استخدم المحلول الكلسي في البناء. تم العثور على بقايا ملاعب لكرة السلة من نوع خاص، حيث كان اللاعبون يرمون كرة مطاطية في حلقات حجرية محصنة. وارتبط الفن لديهم بشكل مباشر بالعمارة والنحت والتماثيل الحجرية المختلفة التي تصور طبقة النبلاء والآلهة، واستخدم الحجر أيضاً لتجهيز الصور.

كان سيد المدينة هو الحاكم، وكان يعتمد على الكهنة الذين أطلق عليهم تسمية «خادمي الشمس Servants of the Sun». ورغم خضوعهم للحاكم إلا أن الكهنة حافظوا على استقلالية معينة في المسائل الدينية. وكانت هناك ثلاث مجموعات للكهنة هي: أهكين Ahkin وتشيلان Chilanوناكوم Nacom. كان كهنة المجموعة الأولى يؤدون الطقوس لخدمة الإله، في حين كان كهنة المجموعة الثانية عبارة عن عرافين، وقدم كهنة المجموعة الثالثة القرابين البشرية. ووقف في القمة رئيس الكهنة الذي إلى جانب التوجيه في مسائل العقيدة كان حارس المعرفة والكتابة الهيروغليفية.

كان الطب لدى المايا بدائياً يستند بشكل رئيسي على تعويذات السحر وعقاقير من نوع خاص. وكانت ساحات تقديم القرابين أيضاً منصات لتأدية المسرحيات الدينية والكوميديا، ولم تُحفظ سوى مسرحية واحدة، هي «رابينال أتشي Rabinal Achi».

عثر على ملجأ تحول إلى مرصد شيد بشكل يمكن عن طريقه مشاهدة الأحداث الفلكية الرئيسية، فبفضل تصميم الفتحة الغربية كانت الشمس في يومي الاعتدال الربيعي والخريفي تقع مباشرة أمام المراقب. واستخدم علماء

الفلك المايانيين التقويم المزدوج والرياضيات المزدوجة المعتمدة عليه.

عاشت قبائل تشيبتشا Chibcha (مويسيكا Muisca) في موقع العاصمة الحالية لكولومبيا والأراضي المجاورة إلى الغرب من النهر. وتمتاز هذه الأمة بمستوى عال من الثقافة، وبناء المعابد التي تعتبر مراكز العبادة الدينية، وتشكل الكهنوت الوراثي. واعتبرت بحيرة غواتافيتا Lake Guatavita مركز العبادة الدينية، وتجسيد الإله الذي قدمت إليه القرابين في شكل مجوهرات، وبشرية نادراً. وأوليت أهمية كبيرة للشعائر المرتبطة بعبادة الآلهة الراعية للحرب، ولطقوس الحرب أيضاً. ونقلت محنطات جثث الجنود القتلى في المعارك الجديدة إلى أرض المعركة، كما لو أنها تعرض من جديد مثال البطولة. وعلَّم إله الشمس الأسطوري بوتشيكا Bochika الناس الحرف والفنون. ويشبه بوتشيكا بمظهره الخارجي الإله كويتزالكواتل، فهو عجوز أبيض ذو لحية طويلة.

إنكا Inca – قبيلة هندية من مجموعة كويتشوا Quechua اللغوية، عاشت على أراضي بيرو. وفي دولة الإنكيين المؤسسة في القرن الخامس عشر كونت الطبقة الحاكمة ثقافة عالية استمرت حتى قدوم الأوروبيين. نشأت دولة الإنكا التي وحدت عدداً كبيراً من قبائل مجموعة كويتشوا على سلسلة جبال أنديز Andes في أمريكا الجنوبية.

كان من الصعب تواصل سكان الجبال وذلك لعدم توفر الطرق التي استعيض عنها بمنحدرات وجسور عبر الهاوية. ومع وضع ذلك في الاعتبار، ونظراً للحاجة إلى تعزيز السلطة المركزية، فرض الإنكيون احتكار الدولة على النقل مما استبعد إمكانية وجود تجارة وإنتاج سلع ومال، فالدولة وحدها، باستخدام حيوانات اللاما، ضمنت مقايضة الصوف والبطاطا المجففة المنتجة في الجبال على الملح المنتج في الساحل.

طبقت الدولة الضمان الاجتماعي، فقد تم حفظ في المستودعات الحكومية

المنتجات التي يتم الحصول عليها من الفلاحين على شكل ضرائب، وفي حال الضرورة، على سبيل المثال في حالة المحل، وزعت على المحتاجين. وبشكل مستمر كان يتم إعادة توزيع الأراضي على العاملين في المجال الزراعي مع مراعاة التغيرات التي تحدث في أسرهم. واستبعد ذلك عملياً إمكانية المجاعة وما يصاحبها من عصيان. وفي محاولة لتوحيد البلاد أسس الإنكيون بنية حكومية مركزية صارمة. وتوجهت العبادة الرسمية للإنكيين إلى تنظيم آلهة مختلفة في منظومة عبادات موحدة كانت تُكمَّل بكهنة ينتمون إلى مستويات هرمية مختلفة. كما كان هناك كهنة يتبعون إلى الكاهنة السامية. إلى جانب ذلك بقي المعالجون العرافون والسحرة والمنجمون.

في عاصمة الدولة مدينة كوسكو Cusco كان المعبد الرئيسي المكرس لإله الشمس الذي كان يعتبر راعي الإنكيين. واعتبر رئيس الإنكيين الابن والكاهن السامي للآلهة. وجُسد الإله على صورة قرص ذهبي مع أشعة ووجه إنسان. وجسد زوج الآلهة باتشا كاماك Pacha Kamaq وباتشا ماما Pachamama الأرض الخصبة، وكانت هناك آلهة العواصف الرعدية والأمطار وغيرها من قوى الطبيعية الأخرى. واعتبر سليل الشمس ومؤسس سلالة الإنكيين مانكو كاباك Manco Cápac نصف إله خرج من تحت الأرض مع ثلاثة أشقاء وأربع شقيقات. وتضمنت بعض الطقوس قرابين بشرية، على سبيل المثال عندما تغير رئيس الدولة.

على غرار القبائل الأخرى، إلى جانب الدين الرسمي كانت تعبد أرواح الأجداد والأماكن المقدسة. ومثّل الذهب والفضة زخارف المعابد في العاصمتين كوسكو وكويتو Quito.

إلا أن الإنكيين تمكنوا من معالجة الذهب والفضة كالأزتيك فقط، وإنما أيضاً البرونز الذي استخدم في تصنيع الأسلحة.

الجيش القوي المنظم الذي قهر القبائل الغربية أكسب الإنكيين إمكانية الانتقال إلى أماكن أخرى، مما حال دون توحدهم ومنع العصيان.

كانت الكتابة الهيروغليفية محظورة، واستخدمت فقط كيبيو Quipu، أي الكتابة العقدية وهي عبارة عن عقد على أسلاك مختلفة قامت بدور تراكيب صناعية تساعد على التذكر.

إذا كانت الارستقراطية العسكرية قد تشكلت لدى الأزتك، ففي دولة الإنكيين تشكلت الملكية البيروقراطية. ومن المفترض أن أسباب ذلك تعود إلى الظروف البيئية المختلفة من إمكانية للتبادل الحر للسلع باستخدام الطرق العادية في الحالة الأولى، وحركة جبلية محدودة مع احتكار الدولة للنقل في الثانية.

مثلما فعل الآزتك لم يتعامل الإنكيون مع الطرف الخاسر كعبيد، لأن ذلك لم يكن مربحاً من الناحية الاقتصادية وذلك نظراً لأدوات العمل البدائية للغاية. وعادة ما كان يعاد السجناء، وتفرض الجزية المنتظمة لصالح المنتصرين. وكان محارب جيش الإنكيين محمياً بخوذة جلدية، ويرتدي رداءً صوفياً، ومسلحاً بحربة وسكين أو فأس برونزية.

مع ظهور الأسبان ضعفت دولة الإنكيين بسبب الحرب الأهلية التي بدأت بعد وفاة الحاكم هواينا كاباك Huayna Capac الذي خاض أبناؤه (من أمهات مختلفات) صراعاً من أجل السلطة. فقد انتصر أحدهم وهو آتاهوالبا Atahualpa على الآخر هواسكار Huáscar وأسره. واستغل الأسبان الفرصة فقتلوا الأخوين وأنصارهما. وسقطت دولة الإنكيين في عام 1532م.

الفصل السابع

ثقافة اليونان القديمة

مازالت اليونان القديمة إلى يومنا هذا تثير اهتماماً كبيراً لدى الباحثين، والمساهمة الهامة في دراسة ثقافتها قدمها فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche الذي كتب عن أنه قدكان هنالك مبدآن: أبولوني (انسجامي) وديونيسوسي (عفوي ومتوحش). في البداية لم يتم قبول نظرية نيتشه، في حين أصبح نيتشه نفسه منبوذاً في الأوساط العلمية. فقد اعتاد خبراء العصور القديمة رؤية المبدأ الأبولوني وحده في اليونان القديمة، إلا أن صواب نيتشه لا يستدعي اليوم أي شك.

نبدأ من الفترة المبكرة جداً لتاريخ اليونان القديمة التي تحمل اسم الكريتية – الميسينية، فقد تشكلت على جزيرة كريت Crete وفي مدينة ميسيني Mycenae دولتان تشبهان في الدكتاتوريات الشرقية نواح كثيرة، واختلفتا اختلافاً جذرياً عن اليونان القديمة التي اعتدنا تصور مدنها ودولها. ومعرفتنا بهذه الحقبة محدودة للغاية. لفترة طويلة من الزمن لم يتم فكّ رموز الكتابة الإيجية (نسبة إلى بحر إيجه Aegean Sea)، في حين وصلت إلينا الكثير من الآثار المادية لهذه الثقافة، إلا أنها كانت عاجزة عن التحدث عن الشيء الكثير. في عام 1953 فقط تمكن الباحث الإنكليزي فينتريس Ventris من فك شفرة الكتابة الكريتية «ب»، وهي شكل من أشكال الكتابة التي كانت موجودة آنذاك، فأصبحنا نعرف أكثر قليلاً عن ثقافة تلك الفترة.

كان الناس في تلك الحقبة يعبدون زيوس Zeus، واحتلت الفأس المزدوجة

Double Axe مكانة هامة في عبادتهم، والعلماء ليسوا متأكدين ما إذا كانت الفأس في حد ذاتها هدفاً للعبادة، أم أنها جسدت إلهاً ما.

سمي قصر ملوك كريت «المتاهة (التيه) Labyrinth»، ما يعني وفقاً لبعض الفرضيات «بيت الفأس ذات الرأس المزدوج The house of the Double Axe». ربما في تلك الفترة عُبد الدرع المزدوج Double Shield إلى جانب الفأس ذات الرأس المزدوج. كذلك انتشرت عبادة الحيوانات على نطاق واسع، ويتجلى ذلك في العديد من صور الحيوانات والطيور والثعابين. كما تم العثور على العديد من صور لأشخاص ربما كانوا آلهة دخلت فيما بعد إلى بانتيون الآلهة اليونانية. وتوجد أيضاً مؤشرات تدل على أنه وجدت هناك عبادة الشمس والصخور والأشجار. وتتمثل الخصائص الرئيسة للفترة الكريتية - الميسينية في وجود «ثقافة القصور»، والمركزية الصارمة في مجالات الحياة الاقتصادية والدينية والعسكرية - السياسية، والوضع الخاص للكهنوت، والبيروقراطية القوية، والديانة الأرضية Chthonic religion (أي دين الأرض والخصوبة).

شيدت في تلك الفترة قصور- قلاع قوية ومحصنة، وكانت عبارة عن مجمعات معمارية ذات أحجام ضخمة تحتوي حتماً على مخازن وأماكن للأغراض الدينية والإدارية. وتطلبت الغرف العديدة التي تركزت فيها حياة القصر رعاية وإشرافاً مستمرين. واكتسب الكادر البيروقراطي المتنامي أهمية كبيرة في الفترة الكريتية- الميسينية. وعلى رأس القلعة كان الملك - الكاهن، وتمثلت مهمته الرئيسة في حفظ النظام المقدس وصيانته. وبالقرب من القلاع بنيت مستوطنات جماعية، في حين كانت بعض المباني في معزل عن المجمع الرئيسي. وضمن واجبات الملك كانت أيضاً مهمته كقائد أعلى للعسكر الذين يعملون على حماية المستوطنات.

بدأت المرحلة الثانية من تطور الثقافة اليونانية القديمة مع سقوط النظم

المركزية لكريت وميسيني، إذ تسبب الزلزال المدمر بموت الحضارة في جزيرة كريت، في حين وقع الميسينيون تحت ضربات الغزاة البرابرة. يسمى سكان جزيرة كريت وميسيني بالإغريق الآخائيين Achaeans، وقد كونوا حضارة رفيعة دُمرت كغيرها بعد غزو قبائل الدوريين Dorians والإيونيين Ionians الأكثر البدائية.

الديانة المبكرة لتلك الشعوب تشبه إلى حد بعيد غيرها من الديانات المبكرة الأخرى. وينبغي قبل كل شيء الحديث عن العبادة الزراعية، إذ مثلت ربة الخصوبة ديميترا Demeter، وكانت هناك أيضاً طقوس مرتبطة بالصيد (مهنية).

عبد الناس كلاً من أرتميس Artemis وزيوس Zeus، وقرأوا التعويذات لميديا Medea، في حين أن الشيء الهام في هذه الفترة جسده مفهوم عن الأصل الإلهي للمهن– التقنية techne.

قلما آمن اليونانيون القدماء بالسحر، وانتشر عندهم السحر الشرير على نطاق واسع، لكنه لم يكن سحراً في شكله الخالص حيث يتواصل الساحر بشكل مباشر مع عالم ما فوق الطبيعة. افترض هذا السحر المساعدة الإلهية (في المقام الأول هيكات Hecate)، ولذلك كان هذا أقرب إلى الصلوات منه إلى الطقوس السحرية.

اعتقد الإغريق بالآلهة الأطباء وعلى رأسهم أسكليبيوس Asclepius. كذلك مارس العلاج كل من هيراكليس (هرقل) Heracles، وبان Pan، وأبولو Apollo، ديونيسوس Dionysus، وديميترا وغيرهم من الآلهة والحوريات.

العصر الهومري Homeric Period (الذي يمكن تحديده زمنياً في الفترة بين القرنين الحادي عشر والتاسع قبل الميلاد) هام بسبب أن مقدمته لا تبرز فيها معايير الثقافات القبلية، وإنما المعايير الشخصية. ولاحظ الباحثون وجود فجوة بين العصرين الكريتي–الميسيني والهومري. «الحقيقة أن ثقافة المجتمع

الهومري تتراجع من حيث تطورها عن سابقتها – ثقافة المجتمع الميسيني». من المجتمع الميسيني بقي بالوراثة كل من المحراث، وعجلة الخزاف، والسفينة الشراعية، وعربة العجلات. وكما يذكر الباحثون فإن لدى الكثير من أبطال هوميروس Homer ماضٍ كريتي – ميسيني. و«يتسم المجتمع الهومري الذي حافظ على بقايا النظام القبلي بالشكل الأبوي (البيتي) للعبودية».

قاد تدمير القلاع – القصور إلى تغير دور الملك – الكاهن، وأصبح هيكل السلطة في المجتمع الهومري على النحو التالي: المجلس التشريعي (بولي Boule)، والجمعية الشعبية (أغورا Agora)، والرئيس العسكري (باسيلي Basileus)، والملك، وشيخ القبيلة، والكاهن. ووفقاً لجان بيير فيرنان Jean–PierrVernant كان للملك الميسيني لقب «واناكا» أو أناكسو Anaxo. وأعطى فك رموز الكتابة «ب» المفتاح لفهم باسيلي. أناكسو– لقب الملك الذي كان باسيلي يتبع له. وهكذا، بعد أن اختفت القلاع – القصور اختفى معها أيضاً مفهوم «أناكسو» ذاته، أي «الملك». ولا يعتبر باسيلي ملكاً، وإنما ممثلاً لطبقة النبلاء الرفيعة.

وبالنسبة للعصر الهومري أصبحت البسالة العسكرية هامة، وأصبح الرجل يتبع في نشاطه معايير «القانون البطولي». وأصبحت لبلوغ المجد أهمية رئيسة، كما لعبت روح المنافسة دوراً بارزاً في الثقافة. «إن روح المنافسة تدل على أن المجتمع الهومري جاء من الحالة التي تُسحق فيها إرادة الفرد ومبادرته بالتقاليد الجماعية والراكدة، ومع ذلك فهو مازال لا يعرف التطرف الفردي (على الرغم من أن أخيل Achilles أخذ يُظهر بالفعل علامات واضحة على الفردية)... يسعى أخيل الهومري «لبلوغ المجد بين البشر». وينبغي في هذا الصدد تناول مفاهيم أكثر أهمية تميز الزمن الهومري، إذ يقيم الأبطال بما يبدون من شجاعة (الفضيلة arete). ويمكن للتقييم أن يكون إيجابياً أو سلبياً، وهذا ما

يحدده سلوك البطل في المعركة. ووفقاً لما يبديه من شجاعة يمكن التحدث عن الشرف (timē). ولا يحصل الرجل على الشرف الروحي الرفيع فحسب، وإنما على حوافز مادية أيضاً، وقسط كبير من الجوائز، ومركز اجتماعي واحترام.

يربط الإنسان بالمجتمع مفهوم مثل العار (aidos). وتشكل كل من البسالة والشرف والعار القواعد لإغريقيّ العصر الهومري.

ميزة أخرى ذات أهمية كبيرة أشار إليها أرسيني نيكولايفيتش تشانيشيف Arseny Nikolayevich Chanyshev: «... بسبب معرفة الأبطال الهومريين بأن عملهم محكوم عليه بالفشل، فضلاً عن علمهم بموتهم الوشيك، فإنهم يتصرفون كما لو كانوا خالدين وواثقين من انتصارهم»[1].

يلي العصرُ الأرخي (العتيق) Archaic Period العصرَ الهومري، ويؤرخ في الفترة ما بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد، إذ حدثت في تلك الفترة إعادة تقييم للقيم والمعايير الأخلاقية. ويبين هيسيود Hesiod في مؤلفته «أعمال وأيام Works and Days» النظرة الجديدة إلى القيم الأخلاقية، فالفضيلة – وفقاً له – تتمثل في العمل الذي يجلب الثروة والشرف. ويدعو المؤلف للاستماع إلى «صوت الحق»، ونسيان العنف. والنعمة الأرفع هي الحقيقة، فقد «وهب كرونيدKronid الحقيقة للناس كأسمى نعمة»، فإذا كذب الرجل فإنه يؤذي نفسه، «وستكون له ذرية مثله بائسة ووضيعة». ويشدد هيسود على أن «الفضيلة يفصلها عنا آلهة خالدون بعمل شاق: الطريق إليها عالية وطويلة وصعبة في البداية». ولكن عند بلوغ القمة تصبح الطريق التي كانت شاقة في البداية ممهدة وسلسة. ويدعو هيسيود إلى الاستماع إلى النصائح الخيرة، ومعرفة مختلف الحرف. وينبغي على الإنسان أن يحب العمل الذي يزاوله من الأعماق، «عندها ستشق العنابر طريقها من المخزون لديك». «ليس هناك

(1) أ. ن. تشانيشيفا. ما قبل الفلسفة الإيجية. موسكو، 1970. ص 80.

أي عيب في العمل،وإنما العيب في التقاعس عن العمل. إذا عملت ستصبح غنياً بسرعة، وستصبح موضع حسد الكسالى. وبعد الثروة تأتي الفضيلة مع الشرف»، «الخجل السيئ يرافق الفقير في كل مكان – الخجل الذي يتسبب للناس بالكثير من الضرر، ولكن بالفائدة أيضاً. الخجل – نصيب الفقراء، وعيون الغني جريئة»[1].

اكتسب الإقليم الجبلي في الجنوب الشرقي من آسيا الوسطى المسمى بأتيكا Attica أهمية متزايدة في نهاية العصر الهومري، إذ تشكلت هناك الظروف المواتية للزراعة، ففي جزئه الغربي توزعت الأراضي الخصبة، وساهمت الاحتياطيات الوفيرة من الفضة والرخام والطين في تطوير الحرف. وكانت شواطئ أتيكا مناسبة لرسو السفن، وفي الجزء المنبسط منه كانت مدينة أثينا التي قُدِّر لها أن تلعب دوراً كبيراً في حياة الإغريق. ومع ذلك، وعلى الرغم من توافر الظروف الطبيعية الجيدة، كان القحط يصيب هذه المنطقة. ونصب المزارعون الحاصلين على القروض من الرجل النبيل حجر الديون الذي نحتت عليه أسماء كل من الدائن والمدين وموعد تسديد الديون.

حكم في أتيكا مجلس شيوخ وتسعة حكام (أرخون Archon) منتخبين. وبفضل موقعها الجغرافي الملائم سرعان ما ازدهرت التجارة فيها. وفي القرن السادس قبل الميلاد بدأت أثينا بإنتاج النقود الفضية التي سكت عليها صورة رأس الربة أثينا Athena. وأطلق على السكان الأحرار جميعهم تسمية «ديموس demos» أي الشعب، وهم المزارعون والبحارة والعاملون وما إلى ذلك. وإليهم أيضاً ينتمي كل من تمكن من أن يصبح ثرياً نتيجة لعمله كالتجار وأصحاب السفن، إلا أنهم، وعلى الرغم من أموالهم، لم يتمكنوا في البداية من المشاركة

(1) كتاب نصوص حول تاريخ العالم القديم/ رئيس التحرير ف. ف. ستروف. موسكو، 1956. ص 153–155.

في الإدارة.

يرتبط تكوين الديمقراطية اليونانية مع ظهور وتعزيز السياسات (القرن الثامن– القرن السابع قبل الميلاد)، وصراع الشعب ضد الأرستقراطية. وانتهى الصراع في القرن السابع قبل الميلاد، وأدى إلى صدور القوانين المكتوبة، واكتسب «تقنين العرف» أهمية كبرى، وانحسر تعسف طبقة النبلاء القبلية، وبالتالي تغير مفهوم العدالة نفسه. «إذا كان العرف في السابق أمراً إلهياً يسمى ثيميس themis، فالآن يتحول العرف المحرر من العقوبة الإلهية إلى أمر وضعه الإنسان – نوموس nomos (القانون واللوائح)، وإلى قاعدة قانونية خاضعة للمناقشة»[1].

في نهاية القرن السادس قبل الميلاد تأسست ما تسمى بمحكمة المنبوذين المستقلة (الإبعاد ostracism). وتم استحداث هذا الإجراء لتجنب إمكانية ظهور الطغيان في أثينا. ولا يعتبر الإبعاد عقوبة على كل ما هو غير صحيح، فالهدف الرئيسي له،كما يلاحظ بلوتارك Plutarch، هو «تهدئة وكبح جماح» الغرور والسلطة. وتجدر الإشارة بشكل خاص إلى إصلاح صولون Solon (زهاء 640–560 قبل الميلاد) الذي باقتراح منه أجريت في عام 594 قبل الميلاد تغييرات هامة في إدارة الدولة. ومن بين أول القوانين التي أصدرها صولون كان قانون شطبت بموجبه الديون جميعها، ومنع إعطاء الديون المالية بكفالة الجسد، كما أنه ألغى الكثير من القوانين القديمة. ونتيجة لذلك أصبح من المستحيل إدخال الأثينيين إلى العبودية، في حين حصل الشعب على الحق في المشاركة في إدارة الدولة.

قام صولون أيضاً بتقييم ممتلكات المواطنين، حيث ضمت المجموعة الأولى بنتاكوسيوميديمني pentakosiomedimni، وهم الأثينيون الذين بمقدورهم

(1) ف. خ. كيسيدي. سقراط. رستوف، 1999. ص 99.

إنتاج زهاء 500 مقدارٍ من المنتجات الجافة والسائلة. المجموعة الثانية (مربو الخيول)، أي من بمقدوره تربية الخيل أو إنتاج 300 مقدارٍ من المنتجات. زيوغيتاي Zeugitae هم أناس الفئة الثالثة، وكان لديهم 200 مقدارٍ، وسمي كل ما تبقى فيتا feta، وهم من لم يتمكنوا من شغل أي عمل، واقتصرت مشاركتهم في الإدارة على الحضور، إلا أنه كان بإمكانهم أن يصبحوا قضاة. وكان للحالة الأخيرة أهمية كبيرة، فقد كان يحول الجزء الكبير من القضايا المعقدة إلى القضاة للدراسة[1].

بعد إصلاحات صولون شكل مجلس أريوباغوس Areopagus (المجلس القضائي) الذي تألف من الأَرْخُون Archon[2] الذين كان يجري تغييرهم كل سنة. كذلك تأسس مجلس ثان تألف من 100 رجل من كل واحدة من الفئات الأربع. وأجرى هذا المجلس مناقشة أولية للحالات قبل أن تصل إلى الجمعية الوطنية.

نظر المعاصرون بتشكيك بالغ إلى إصلاحات صولون معتبرين إياها نصفية. صولون نفسه اعترض على هذه الاتهامات مؤكداً على أنه تمكن بدرعه القوي من تغطية هؤلاء وغيرهم.

لم يكن صولون مشرعاً فحسب، وإنما شاعراً أيضاً، ففي مرثيته «وصية لصولون The reflective elegy of Solon» و«وصية للأثينيين Elegy to the People of Athens» يدين الأساليب غير العادلة في الصراع التي يستخدمها الناس للحصول على الثروة.

لم تضع إصلاحات صولون وكلايسثينس Cleisthenes (509 قبل الميلاد) الأسس للنظام الديمقراطي وحسب، وإنما عززت الفكرة حول القوانين أيضاً،

(1) بلوتارك. التراجم المقارنة. في ثلاثة مجلدات. موسكو، 1961. المجلد 1.

(2) أَرْخُون Archon – لقب أهم المسؤولين الإداريين الرئيسيين التسعة في أثينا القديمة. (المترجم)

فأصبح من الممكن مناقشة القواعد القانونية، وتعديلها، وحتى استبدالها بقواعد أخرى تتوافق بدرجة أعلى مع التغييرات التي جرت أو كانت تجري في المجتمع.

تتحول مناقشة القوانين إلى مناقشة للتقاليد التي تتم إعادة النظر فيها من الجانب النقدي. في السابق – وببساطة– كان من الممكن التذرع بإرادة الآلهة، والاعتماد على قوة التقاليد وتعاليم الآباء، في حين أصبح الآن على كل من يريد بلوغ شيء ما أن يأخذ في الاعتبار ظروفاً كثيرة، إذ كان من الضروري مراعاة توزع القوى في الجمعية الوطنية، ومزاج المواطنين، والوضع في العلاقات الدولية وما إلى ذلك، وأصبحت القدرة على الإقناع في أنك على صواب بالغة الأهمية.

لعبت ميول اليونانيين إلى المجادلة وحبهم للمعارضة دوراً كبيراً. لم يكن في محكمة الإغريق القدماء محام ولا مدعٍ عام: وكان من يوجه الاتهام هو المدعي، في حين كان على المدعى عليه أن يدافع عن نفسه بنفسه.

ليس من قبيل الصدفة أن ارتقى فن الخطابة إلى المقام الأول في تلك الفترة، وظهرت مهنة السوفسطائي sophist، أي المعلم الذي كان يعلّم البلاغة والفلسفة والقدرة على الكلام وإقناع المحاور. كما سمي بالسفسطائيين أيضاً الأشخاص الذين تميزوا بمعارفهم وقدراتهم ومواهبهم. وكان من بين هؤلاء الفلاسفة والأطباء والشعراء والشخصيات العامة البارزة. ولكن مع مرور الوقت اكتسبت هذه الكلمة معنىً مختلفاً قليلاً، فأصبح السفسطائيون الأشخاصَ الذين يعلمون البلاغة والفلسفة لقاء رسوم محددة. كما اكتسبت كلمة «السفسطائي» أيضاً معنى سلبياً كالمتلاعب والمشعوذ والساحر. ولا ينظر إلى السفسطة على أنها علم الإقناع. «كانت السفسطة فناً خطابياً – جدلياً (فن الجدال) قام على اصطدام الأطروحات المتعارضة، وسمح بوزن الحجج

واتخاذ القرار المدروس بشأن القضية التي تقبل وجهات نظر مختلفة»[1].

اقترح السفسطائيون نظرية الاتفاق الاجتماعي مؤكدين على أن لنشوء الدولة طابع تعاقدي. لقد أثاروا كذلك مسألة مدى موثوقية المعرفة الإنسانية مدعين أن للمعرفة الإنسانية والتصورات طبيعة ذاتية. وقالوا أن ما يبدو لشخص ما رائعاً، يراه الآخر قبيحاً. ونفى السفسطائيون منطقية ومعقولية البحث عن الحقيقة والعدالة بشكل عام.

لم يقبل سقراط Socrates فردية وذاتية ونسبوية السفسطائيين. ومع ذلك فقد كان لدى السفسطائيين وسقراط شيء مشترك، «إذ لم تغدو المشكلة الرئيسة للفلسفة تتمثل في المشكلة الكونية كما كانت لدى أسلافهم، وإنما في المشكلة الأنثروبولوجية، أي ليس العالم والنظام العالمي، وإنما الإنسان وحياته»[2].

رأى السفسطائيون وسقراط في الإنسان مركزاً للكون، بيد أن آراء السفسطائيين وسقراط تباينت في الكثير من الأمور، فقد اعتقد السفسطائيون أنه بما أن جميع الناس مختلفون، فليس بمقدورهم إذاً التوصل إلى فهم موحد لموضوع ما، في حين اعتقد سقراط أن هناك شيء ما «يمكن التعبير عنه عن طريق مفهوم موحد أو فكرة موحدة»[3]. وحاول السفسطائيون إيجاد معنى معقول في بعض الأساطير، في حين اعتقد سقراط أنه من غير المجدي القيام بتفسير أساطير عن الآلهة والأبطال. وبالنسبة لسقراط كان الأكثر الأهمية هو فهم الناس من حيث طبيعتهم ووظيفتهم، وماهية الإنسان في جوهره وماذا يساوي عموماً». (أفلاطون، فايدروس Phaedrus، Plato، 230 أ).

في الجنوب الشرقي لشبه جزيرة بيلوبونيز Peloponnese تقع منطقة لاكونيكا Laconia التي يقع في مركزها وادي لاكونيا، والمحاطة بالجبال من

(1) ف. خ. كيسيدي. سقراط. رستوف، 1999. ص 125.

(2) ف. خ. كيسيدي. سقراط. رستوف، 1999. ص 125.

(3) المرجع السابق. ص 125.

ثلاث جهات، وقد تشكلت فيها ظروف مواتية لتطوير الحرف والزراعة، إلا أن العائق الوحيد تمثل في البعد عن البحر، واستحالة بناء السفن. فتحت إحدى القبائل اليونانية لاكونيا. وتدريجياً اندمجت بعض مستوطنات الغزاة في مدينة واحدة اكتسبت تسمية إسبارطة Sparta. واعتبر الفاتحون التواصل مع السكان المحليين الذين تحولوا كلهم فعلياً إلى عبيد (هيلوتيين helots) أمراً مخزياً.

كان على رأس إسبارطة مجلس للشيوخ انتُخبَ إليه نبلاء الإسبارطيين ممن لا تقل أعمارهم عن 60 عاماً. وقاد الجيوش في الحروب ملكان اثنان دخلا أيضاً في تشكيلة المجلس. وكان الإسبارطيون جميعهم محاربين، وجرى إعدادهم منذ الطفولة لحماية الدولة. كانت تربية الأطفال تتم في ظروف قاسية، إذ كان يجري تدريبهم على عدم الخوف من الحر أو البرد، ولتنمية الخشونة والقسوة لديهم كانوا يكلفون بتعقب الهيلوتيين المتمردين وقتلهم. واعتقد الإسبارطيون أن الأمن لا يعتمد على ارتفاع الجدران والقلاع التي تسور المدينة ومتانتها، وإنما على القوات. واستطاعت إسبارطة إجبار مدن بيلوبونيز كافة على إبرام تحالف عسكري سُميَّ بالبيلوبونيزي.

في العصر الأرخي (العتيق) تقريباً ظهرت المستعمرات الإغريقية خارج حدود اليونان. وعند انتقالهم إلى بلدان أخرى، استقر الإغريقيون قريباً من البحر وبالقرب من الخلجان، وذلك عن طريق احتلال أراضٍ جديدة وتحويل السكان المحليين إلى عبيد.

بدأت في نهاية القرن السادس قبل الميلاد الحروب اليونانية – الفارسية، فقد قامت فارس بغزو المدن اليونانية في آسيا الصغرى، وهاجمت أراضي السكيثيين Scythians. وباستخدامهم لتكتيك التراجع والإغراء، أجبر السكيثيون الغزاة على الاستسلام. ومثلت هزيمة الفرس إشارة للشعوب المقهورة الأخرى، فقد تمرد الملتيسيون Miletus ضد مضطهديهم، وقدمت أثينا المساعدة للمتمردين،

ما شكل بدوره ذريعة للملك الفارسي داريوس Darius لمهاجمة الإغريق. لكن اليونانيين تمكنوا من الانتصار في معركة ماراثون Battle of Marathon. وبنت أثينا أسطولاً لمواصلة القتال ضد الفرس، وفي عام 480 قبل الميلاد غزت قوات الفرس اليونان وانتصرت في معركة ترموبيل Battle of Thermopylae.

احتلّ الأعداء أثينا وأحرقوها، ووقف أسطول الإغريق في مضيق سلاميس Salamis. وكان لمعركة سلاميس Battle of Salamis أهمية كبيرة بالنسبة للإغريق، إذ أنهم لم ينتصروا فيها فقط، وإنما طردوا الفرس من اليونان أيضاً. دشنت الحرب مع فارس بداية توحيد المدن اليونانية الساحلية التي أبرمت فيما بينها حلف أثينا البحري (حلف ديلوس Delian League).

يمتد العصر الكلاسيكي Age Classical على مدى القرن الخامس – القرن الرابع قبل الميلاد، وفيه تمكن الإغريق من تحقيق مستويات عالية وغير مسبوقة في الفن والعمارة والأدب والفلسفة والعلوم. إنه عصر بريكليس Pericles وتعاليم أفلاطون وأرسطو Aristotle.

كان أفلاطون (428–347) تلميذاً لسقراط، وفي كتابه «الدولة The State» يبرر آراءه الاجتماعية الخاصة مستنجداً بسقراط: اعتقد المعلم دوماً أنه ينبغي أن يكون الأفضل في قيادة الدولة، وينبغي تقسيم السكان إلى ثلاث مجموعات: الحكام يديرون الدولة معتمدين على العقل والحكمة، في حين تدخل في واجبات الجنود حماية سلامة وحرمة الدولة، ويجب أن يكونوا شجعاناً وحازمين، أما الحرفيون وغيرهم من الناس العاملين فينبغي أن يكونوا حكماء ومعتدلين، وواجبهم هو الاهتمام بالرفاه المادي. وتختلف المجموعة الأولى عن الثانية بالقدرات الطبيعية، وهي تمثل مساراً طويلاً من التطوير الذاتي الذي يمكن أن يكتمل في سن الخمسين عاماً فقط. ويجب أن يتمتع الحاكم أيضاً بمزايا وراثية. ويشير أفلاطون إلى ضرورة تعليم الحساب والرياضيات والهندسة

وعلم الفلك، وبشكل خاص إلى أهمية الجدلية، أي القدرة على الدفاع عن الحقيقة في الجدال.

كان أرسطو (384–322) في البداية عضواً في أكاديمية أفلاطون، ومن ثم أسس مدرسته – لوكيون Lykeion (مدرسة عليا lyceum)، واعتقد أنه من الضروري جداً دراسة شاملة للحقائق كافة. «وبمجادلته مع أفلاطون، رفض أرسطو الوجود المستقل للأفكار خارج أو حول الأشياء، في حين لم يعارض فكرة العالم الحسي للأشياء، كما فعل أفلاطون، وإنما رأى فيها تلك الأسباب المادية والشكلية الفعالة والهدفية التي تشكل مجتمعة ذلك الشيء بعينه الذي يحتوي بفضلها على صورة مرئية لجميع إمكاناته الداخلية»[1]. وكان أرسطو معلم الإسكندر المقدوني Alexander III of Macedon.

شارك كل رجل راشد في المدن – الدول في اتخاذ القرارات بشأن القضايا الحيوية. وكانت مجموعة القضايا واسعة جداً: الحرب والسلام، وتوزيع الرسوم، وتوزيع الأموال على المحتاجين، والأعمال العامة. وكانت السياسة هامة بالنسبة للمواطنين، إذ لم يكن بمقدور هذا المواطن أو ذاك التصرف بما يكسب من ممتلكات ولا المحافظة عليها فحسب، وإنما مضاعفتها أيضاً. وإذا لم يكن قادراً على الحفاظ على شؤون ممتلكاته الخاصة، فإنه لا يمكن أن يصبح سياسياً جيداً.

الدور الرئيس لتطور الدين الإغريقي في المراحل الأولى اضطلعت به العبادات الجماعية، ثم – وبحكم تطور العلاقات الاجتماعية – خرجت العبادات السياسية إلى الطليعة. وكان هناك أيضاً عبادة الأبطال، وكان أشهرهم هرقل الذي أصبح مؤلهاً في وقت لاحق. ولكن لا ينبغي الخلط بين عبادة (تأليه) الأبطال والأساطير عن الأبطال الثقافيين الذين علموا الإنسان الحرف

(1) ن. أ. تشيستياكوفا، ن. ف. فوليخ. تاريخ الأدب القديم. فيشايا شكولا، 1972. ص 188.

والزراعة وغيرها، فمن عاداتهم أن كان الإغريق ينسبون هذه الإنجازات إلى الآلهة حماة هذه المهن (ديميتر، ديونيسوس Dionysus، أبولو Apollo، هيرميس Hermes). وبشكل منفصل تقف أسطورة بروميثيوس Prometheus الذي ساعد الناس ضد إرادة الآلهة، الأمر الذي عوقب عليه بشدة من قبل زيوس. كذلك تقترب من الأبطال الثقافيين شخصيات أسطورية وشبه أسطورية (ديدالوس Daedalus، بجماليون Pygmalion، أورفيوس Orpheus، وحتى هوميروس نفسه).

طبقاً للأساطير اليونانية كانت في البداية حالة من الفوضى، ثم منها ولدت الأرض (غايا Gaia) والسماء (أورانوس Uranus) والليل والنهار والضوء. وخلافاً للآلهة-الأولومبيانية الجلية والملونة، تمثل هذه الآلهة على الأرجح مفاهيم مجردة. وتمثل الجيل الثاني بالجبابرة وعلى رأسهم كرونوس Cronus الذي أطاح بوالده أورانوس وأصبح الحاكم. وكان كرونوس يخشى من حقيقة أن مصيراً مماثلاً قد ينتظره، لذا قام بالتهام أطفاله، إلا أن زيوس تمكن من النجاة. وهكذا ظهر الجيل الثالث من الآلهة. وأطاحت الآلهة الأولمبيانية بالجبابرة، وأصبح أهمها زيوس Zeus إله الرعد، وكانت زوجته هيرا Hera. وعبد قدامى الإغريق بشكل خاص أرتميس Artemis، وكرس لها زهاء 80 معبداً - أكثر مما كرس للآلهة الأخرى.

كانت أثينا آلهة الحكمة ومحاربة في الوقت ذاته، وعُبدت بشكل خاص في أثينا. ومن المثير للاهتمام الإشارة إلى أن المدينة لم تُسمَّ،كما يعتقد الباحثون، تكريماً للإلهة، وإنما على العكس من ذلك، فقد سميت هي تكريماً للمدينة. كان لأثينا أسماء أخرى، مثل بالاس Pallas («الرهيبة بالرمح»)، ومن حيث عدد المعابد والمزارات (زهاء 73) كانت في المرتبة الثانية بعد أرتميس.

كان إله الشمس أبولو شقيقاً لأرتميس، واعتبره الإغريق حامي التداوي

والموسيقى وحتى النبوة (معبد أبولو الشهير في دلفي Delphi). وفي معظم الأحيان «اصطفى» أبولو لنفسه مهام وصلاحيات الآلهة الأخرى، في حين اعتبر بوسيدون Poseidon إله البحار، وآريس Ares إله الحرب. وكانت أفروديت Aphrodite إلهة الحب من أصول شرقية، ولا يستبعد أن صورتها ترتبط بعشتروت Astarte، لذلك فالشهوانية لدى أفروديت أكبر مما كانت عليه لدى الآلهة اليونانية الأخرى. ابن أفروديت هو إيروس Eros، في حين كان هفستئس Hephaestus راعي الحدادين، ورعت هيستيا Hestia الدفء المنزلي.

كانت في اليونان القديمة مدارس دينية، فقد آمن الفيثاغوريون Pythagoreans بالتناسخ Reincarnation، وأولوا اهتماماً خاصاً بعبادة النار. ولم يكن ذلك مجرد تيار ديني، وإنما مدرسة فلسفية أيضاً. واستند الأورفيوسيون Orpheuseans إلى تعاليم المغني الأسطوري أورفيوس Orpheus الذي يُفترض أنه عاش قبل هوميروس. واعتقدوا بأن الجبابرة قتلوا ديونيسوس الذي بُعث ثانية، في حين أحرق زيوس الجبابرة، ومن رمادهم خلق الناس.

قدم الناس للآلهة القرابين التي عادة ما كانت من الفاكهة والحبوب. وفي الحالات الاحتفالية قاموا بذبيحة المئة ذور hecatomb – أي ذبح مئة حيوان. كما تمثل جزء من العبادة في الاهتمام بمذابح وتماثيل الآلهة وتزيينها، ونظمت في العديد من المدن الأعياد الدينية. ولم يكن لدى كهنة اليونان القديمة فعلياً أية سلطة. وكان منصبهم وراثياً أو انتخابياً وذلك وفقاً للمدينة!

وأولى الإغريق أهمية كبيرة لدفن الموتى في الأرض، وذلك بعد أن كانوا في البداية يحرقون موتاهم، إلا أن هذه الطقوس قد ولّت. وكان يعتقد أن أرواح الموتى تشعر بالجوع والعطش، لذلك ينبغي الاهتمام بها. ولم تكن فكرة الحساب مميزة لقدامى اليونانيين، فبعد الموت ينتظر الإنسان مصير بائس ليصبح خيالاً في عالم الموتى. وتتحدث الأساطير عن أن عظام الأبطال من الموتى كانوا

يفضلون حياة العبد البائس على الأرض على أن يصبحوا خيالاً في مملكة الموتى هاديس Hades.

كثيراً ما تتحدث الأساطير عن العذابات التي تنتظر في العالم الآخر، إلا أنها أُعدت أولاً وقبل كل شيء لمن أمضى حياته آثماً ومغضباً للآلهة. وهنا لم يكن لمفاهيم العدالة والعدل مكان، فكل شيء يقرره تعسف الآلهة.

بايديا Paydeyya (التربية) وفقاً لفيوهاري هارلامبييفيتش كيسيدي FeoharyHarlampievich Cessidy هي نتاج للديمقراطية الإغريقية، وتجمع هذه الكلمة مفاهيم عديدة، مثل التربية والتعليم والتثقيف والثقافة والتنوير. و«مع عملية دمقرطة المعارف والثقافة يرتبط ظهور أولى الأعمال المكتوبة للفلاسفة والمؤرخين والشعراء وقصائد هوميروس وهيوسيد وغيرهم. وباكتسابها طابعاً علمانياً، وضعت الثقافة اليونانية بدلاً من سلطة التقاليد (القانون العرفي) سلطة القانون، وبدلاً من السلطة الدينية سلطة العقل البشري»[1].

تتمثل أولى معالم الأدب اليوناني القديم في القصيدتين الملحمتين «الإلياذة Iliad» و«الأوديسة Odyssey» المشتملتين على زهاء 30000 بيت. ولاحظ أرسطو أنه قبل هوميروس «لا يمكننا تسمية قصيدة من هذا النوع لأحد، على الرغم من كثرة الشعراء بالطبع»[2].

تمثل فترة القرن الخامس قبل الميلاد – الرابع قبل الميلاد ذروة الأدب الإغريقي، فبحلول منتصف القرن الخامس قبل الميلاد حصلت أثينا على الحق في أن تسمى «مدرسة هيلاس The School of Hellas». ويجسد أحد المعالم المدهشة لعصر بريكليس Age of Pericles (عصر الملوك) مجمع الأكروبوليس Acropolis of Athens، الذي شيده البناءون في المركز، ومن المدينة إلى

(1) ف. خ. كيسيدي. من الأسطورة إلى المنطق. موسكو، 1972. ص 125.

(2) أرسطو. الشعر. موسكو، 1958. الفصل 4، 1488 ف.

الأكروبوليس ينتصب درج عريض من الرخام، وإلى الجنوب يقع معبد المعبودة أثينا نيكى Temple of Athena Nike. وتصور النقوش قليلة البروز مشاهد انتصارات الإغريق المجيدة على أعدائهم. ويشمل مجمع أبنية الأكروبوليس أيضاً إريختيوم Erechtheum، وهو المعبد المخصص لحفظة أثينا الثلاث، الإلهة أثينا نفسها وبوسيدون والملك الأسطوري إريختيوس Erechtheus. ووفقاً للعرف كان المعبد محاطاً بالأعمدة، فمن ناحية كانت هنالك ستة تماثيل أنثوية – كارياتيد caryatids. وتشكل انطباع عن أن كارياتيد تخطو بسلاسة وأمان نحو مركز الأكروبوليس – بارثينون Parthenon (معبد أثينا). وما يدهش هنا هو التمثال البرونزي لأثينا المحاربة الذي يبلغ ارتفاعه زهاء 10 أمتار، حيث تقف الفتاة مع رمح بيدها وكأنها تقطع الطريق على كل من يجرؤ على زعزعة سلام المدينة وهدوئها.

في اليونان القديمة على وجه التحديد تكوّن نظام الأوامر المعمارية: الدوري Dorian، الأيوني Ionic، الكورنثي Corinthian.

ينبغي أن نذكر بشكل خاص فن المسرح، إذ يعتبر الإغريق مبدعي المسرح. وكلمة مسرح «دراما Drama» تعني «الفعل»، «وعليه فإن هذه الأعمال تسمى «مسرحيات» لأنها تصور الناس الفاعلين»[1]. وفي نهاية القرن السادس قبل الميلاد ولد أول مسرح. وتنقسم الدراما الأدبية إلى المأساة tragedy، والدراما drama، والدراما الساخرة satiric drama، والملهاة comedy. وتمثل المسرح الرئيسي بساحة دائرية الشكل مضروبة (قطرها زهاء 27 م)، يرتفع في وسطها مذبح الإله ديونيسوس. ومثلت درجات المذبح أماكن للموسيقيين، في حين تحركت الجوقة من حوله. وكان الموقع يسمى بالأوركسترا («الرقص»). ويقود إلى الفرقة الموسيقية الممران (الصفان) من

(1) أرسطو. الشعر. موسكو، 1958. الفصل 4، 1488 أ.

الغرب والشرق. وفي البداية زينا بالهدايا التكريسية، لتستبدل بعد ذلك بمنحوتات الشعراء البرونزية. وفصل الأوركسترا جدار منخفض عريض، ارتفع منه الدرج الذي جلس المتفرجون على درجاته. وسميت أماكن المتفرجين بالمسرح. وكان وراء الأوركسترا غرفة إضافية صغيرة حفظت فيها مستلزمات المسرح. وسميت هذه الغرفة (وبدأ بناؤها فيما بعد من الحجر) ب سكين Skene، وفي وقت لاحق أضيف إليها جناحان– paraskenii. كان المسرح من ثلاثة مستويات، فعلى الصفوف الثمانية والسبعين تمكن من الجلوس أكثر من 17000 متفرج، وفي الصف الأول كان يجلس الكهنة والحكام وكبار المسؤولين، وسجلت الأسماء على الأماكن، أما مكان الشرف المركزي فكان يعود إلى كاهن الإله ديونيسوس.

كان الممثلون يلعبون أدوارهم من خلف أقنعة، في حين أدى الرجال الأدوار الأنثوية جميعها. وكان على الشخصيات الأسطورية أن تكون فوق الناس العاديين، لذلك ارتدى الممثلون أحذية خاصة – جزمة نصفية buskins.

يعد اسخيليوس Aeschylus أبَ التراجيديا الإغريقية، إذلم نكن هناك أية أعمال تراجيدية قبله. ويعود إلى اسخيليوس الفضل في أنه أدخل ممثلاً آخراً بدلاً من الممثل الواحد، وقلل من دور الكورس، وأبرز الحوار في المقام الأول. ووفقاً لما حفظ من معلومات فإن اسخيلوس أنجز زهاء 70 مسرحية جلبت إليه 13 انتصاراً (وكانت قدرته التنافسية ذات أهمية كبيرة بالنسبة لرجالات الفن)، ومن مسرحياته «الضارعات Suppliants»، و«الفُرس Persians»، و«سبعة ضد طيبة Seven Against Thebes»، و«أبو الهول Sphinx»، و«بروميثيوس مصفداً Prometheus Bound»، والثلاثية الدرامية «الأورتيسيا Oresteia».

في عام 468 هُزم اسخيليوس من قبل كاتب مسرحي آخر هو سوفوكليس Sophocles، وأصبح هذا الانتصار مهماً بالنسبة للتراجيدي الجديد، إذ لم

يعرف على مدى 60 عاماً منذ ذلك الحين أي هزيمة. لم يكن سوفوكليس الذي عاش زهاء 90 عاماً مجرد كاتب مسرحي فقط، وإنما كتب الشعر أيضاً، ومارس الطب، وشغل مناصب حكومية هامة. لقد فعل الكثير لتطور المسرح لاحقاً، فبيده الخفيفة أدخل الرسم المزخرف، وكتب بحثاً عن تاريخ الثقافة العالمية والجوقة، وأدخل الممثل الثالث، وزاد عدد أعضاء الجوقة إلى ثلاثة أشخاص.

«ركز اسخيليوس في إبداعه على مصير الشعب، ففي تراجيدياته يبرز ممثلو أجيال متباينة، أما سوفوكليس فقد جذب انتباهه مصير شخص معين في مأساة واحدة كاملة، وعادة ما كان يقترض المواضيع من الأساطير، مثل «أجاكس Ajax»، و«أنتيجون Antigone»، و«نساء ترشينيات Trachinian Women»، و«أوديب ملكاً Oedipus the King»، و«إلكترا Electra». ويعد سوفوكليس شاعر ذروة المأساة اليونانية.

إذا كان اسخيليوس وسوفوكليس قد خلقا المأساة الكلاسيكية، فإن إبداع يوريبيديس Euripides أثار ذهول المعاصرين، في حين لم يحظ يوريبيديس أثناء حياته بالاعتراف. «دافع اسخيليوس وسوفوكليس في أعمالهما بشكل خاص عن الأسس الفكرية للسياسة الأثينية، وأعلنا قدسية المبادئ الاجتماعية المبنية على التركيبة المتناغمة للمطامح الشخصية والمجتمعية. أما يوريبيديس فقد كان مهتماً بالفرد في المقام الأول، مثله في ذلك مثل السفسطائيين»[1]، وما شغل يوريبيديس هو تجسيد صراع الإنسان مع نفسه. ومن بين ما حفظ من مسرحياته الدرامية « الكستيس Alcestis» و«ميديا Medea»، و«هيبوليتوس Hippolytus»، و«إلكترا Electra» وغيرها.

من بين أفضل ممثلي فن الكوميديا يمكن ذكر كل من كراتينوس Cratinus، وأيوبولوس Eupolis، وأرستوفانيس Aristophanes. ويعد كراتينوس مبدع

(1) ن. أ. تشيستياكوفا، ن. ف. فوليخ. تاريخ الأدب القديم. فيشايا شكولا، 1972. ص 141.

الكوميديا السياسية، في حين لجأ أيوبولوس إلى الكثير من الخيال في أعماله التي اعتبرت جريئة جداً من حيث مواضيعها ومضامينها. وللأسف يبدو تكوين تصور كامل عن إبداع هؤلاء المسرحيين غير ممكن، إذ لم يحفظ إلا القليل منه. ولم يحظ بالتقديم الكامل إبداع أرستوفانيس الذي ألف العديد من المسرحيات الكوميدية التي لاقت النجاح، منها «أهل أخارناي The Acharnians»، وترنيمة للسلام ولجيل محاربي الماراثون «الفرسان The Knights»، وتعرية لسياسة كيلون Cleon الجبار، وفي «السحب The clouds» يسخر الكاتب من الفلاسفة، وفي «السلام Peace» يمجد السلام القادم، في حين كرس للنساء اثنتين من كوميدياته، «ليسيستراتا Lysistrata» و«احتفال النساء في مهرجان ثيسموفوريا Thesmophoriazusae (Women Celebrating the Festival of the Thesmophoria)».

حدثت مع بداية الفترة الهلنستية تغييرات مهمة في النمطين الاجتماعي والسياسي لحياة الإغريق، وانعكس ذلك على وضع المسرح. «لا يتوقف نجاح المسرحية في كثير من الأحيان على الجودة الأدبية للمؤلفة بمقدار توقفه على أداء الممثلين والإخراج المسرحي»[1]. فقدت المأساة أهميتها الأولى، في حين تركز اهتمام المشاهدين على قضايا الحياة الخاصة، وظهرت الكوميديا الأتيكية الجديدة والفنون الكوميدية الخفيفة من مسرحيات إيمائية Mime، وعمبق إيمائي Mimiambi ، وعمبق لحني Meliambi ، وتمثيل إيمائي Pantomime. وينقسم الممثلون المتجولون إلى جيلارود (فنانين تراجيديين) وماجود (مؤدو المشاهد الهزلية)، في حين تمتع التقليد الساخر بشعبية كبيرة.

من المتعارف عليه اعتبار العصر الهلنستي Hellenistic age (نهاية الرابع — القرن الأول قبل الميلاد) نقطة التحول الأهم في تاريخ اليونان القديمة، فقد أدت

(1) س. إ. رادتسيغ. تاريخ الأدب الإغريقي القديم. موسكو، 1969. ص 444.

الحروب، وثورات العبيد، وسحق الفلاحين، والاستخدام غير الرشيد للأرض إلى هبوط الاقتصاد. وبدأت أزمة طويلة الأمد طالت شتى مجالات المجتمع، وأصبح الفقراء مرتزقة يتنقلون بسهولة من مالك إلى آخر تبعاً لمن يدفع أكثر. وكان الكثير من أعضاء طبقة النبلاء يأملون في أنه بمساعدة ملك قوي يمكن الحفاظ على السلطة واستعادة مجدها السابق. ولاحت في الأفق – منذ زمن – فكرة «الرابطة الهيلينية العامة»، وتطلب تنفيذ هذه الخطة يداً قوية لشخص واحد – هو الملك. وفي هذه الفترة على وجه التقريب ازدهرت الدولة المقدونية التي تطلع إليها الإغريق وعلقوا عليها آمالهم، وأعربوا عن اعتقادهم بأن السلطة المقدونية القوية ستتمكن من توفير حماية أفضل لسلطتهم وثروتهم من العبيد. بيد أن إغريق آخرين عارضوا ذلك، وكان من بين المعارضين لتدخل الدولة المقدونية في شؤون اليونان الخطيب الشهير ديموسثينيس Demosthenes الذي درس فن الخطابة لفترة طويلة من الزمن، الا أن صوته كان ضعيفاً. وبالإضافة إلى ذلك، فإن عادة رفع الكتفين عند الحديث جعلت من خطاباته غير مقنعة. علق ديموسثينيس فوق كتفيه سيفاً حاداً للتخلص من هذه العادة المعيقة. وبعد التدريب الصارم تمكن من التغلب على عيوبه ليدخل التاريخ كخطيب عظيم. ومع ذلك لم تتمكن خطبه من وقف غزو المقدونيين، فقد أصبح العام 338 قبل الميلاد مأساوياً في تاريخ الإغريق، إذ دارت في وسط اليونان معركة بين المقدونيين واليونانيين أدت إلى الفقدان الكامل للاستقلال. ويصور ديودور الصقلي هذه المعركة الضارية بقوله: «كانت أكوام الجثث مكدسة... سقط من الأثينيين في المعركة أكثر من ألف، في حين وقع في الأسر منهم ما لا يقل عن 2000. وبالمثل، لقي الكثير من البويوتيين Boeotian مصرعهم، وأُسر العديد منهم أحياءً»[1].

(1) مجموعة مقالات عن التاريخ القديم، تحرير ف. ف. ستروف. موسكو، 1963. ص 424.

مع إبرام معاهدة السلام بين الملك فيليب Philip والمدن اليونانية (337 قبل الميلاد) بدأت الفترة الهلنستية (أو الهيلينية) التي انتهت بهزيمة الدولة الأخيرة لما بعد الاسكندر. وخلال فترة الهيمنة المقدونية نشأ النظام الملكي لتصبح السلطة وراثية. ووقف على رأس الدولة الملك الذي كانت تدعم سلطته قوات يونانية – إغريقية وجيش كبير من الموظفين. وحلت المدن تدريجياً مكان المدن – الدول، وتطورت التجارة، وأصبح البحر الأبيض المتوسط مركزا للتجارة العالمية. وارتفع إلى مكان الصدارة في الفترة الهلنستية تطوير علوم الرياضيات والفلك والميكانيكا والفيزياء والجغرافيا والطب وعلم وظائف الأعضاء.

حدثت في العصر الهلنستي اكتشافات عديدة لم يكتب لأسماء أصحابها البقاء، فقد اخترعت العدسات البصرية، والساعات المائية، والمطاحن والعديد من الآليات الأخرى.

ظهرت في القرن الثالث نظرية أريستارخوس الساموسي Aristarchus of Samos الذي أعلن أن مركز الكون يتمثل في الشمس وليس في الأرض كما كان يعتقد سابقاً. بيد أن اكتشافه لم يلق أي دعم أو تطوير لاحق. كما تطور علم الهندسة بشكل ناجح، فقد ألف إقليديس Euclid كتابه «أصول الهندسة Euclid›s Elements» التي تعتبر أحكامها نموذجاً حتى أيامنا هذه.

في القرن الثالث قبل الميلاد قام عالم الرياضيات والمهندس أرخميدس Archimedes ببناء أول قبة سماوية. كما يعد أرخميديس مؤسس علم الميكانيكا النظرية ومخترع آليات الحصر المتقدمة والمنجنيق. وحدد اراتوسثينس Eratosthenes للمرة الأولى طول محيط الأرض، وإليه تحديداً يعود الاعتقاد عن أنه يمكن الوصول إلى الهند من أسبانيا وذلك بالالتفاف على إفريقيا. وشهد الطب تطوراً سريعاً، فقد فهم الأطباء أن الدم ينتقل في جسم الإنسان، وربطوا تواتر النبض بضربات القلب، وفي تلك الفترة بلغ الجراحون مرحلة متقدمة،

وتم اكتشاف علم التغذية.

بقيت أثينا كسابق عهدها مركزاً للفكر الفلسفي، فقد نشطت أكاديمية أفلاطون ومدرسة أرسطو، وظهرت نظريات جديدة.

مؤسس المدرسة الرواقية Stoicism هو زينون الرواقي Zeno of Citium. واعتقد الرواقيون في وجود الحكيم القادر بحجج العقل على التحكم بجميع المشاعر والعواطف. وتمثل العقل الأول logos أو العقل العالمي بالنسبة إليهم في أدق شكل للجوهر الذي تتغلغل بدايته الإبداعية في كل مكان.

كان ديوجينيس Diogenes أبرز ممثلي مدرسة الشكاكين Cynicism، ولُقب «بالكلب المسعور». ويتمثل غرض الشكاكين في فضح زيف جميع القيم الإنسانية الموجودة، وبنيت عظاتهم على شكل محادثات (خطب لاذعة)، وجسدوا أفكارهم وعلى نطاق واسع في الأعمال الأدبية.

كان أبيقور Epicurus مؤسس مدرسة أخرى سميت بالمذهب الأبيقوري Epicureanism نسبة له، وكانت مؤلفته الرئيسية بعنوان»عن الطبيعة On Nature«. واعتقد أبيقور أن الآلهة لا تشارك في تطوير العالم، ولا تتدخل في مصائر الناس. فقط الرجل الحكيم وحده هو القادر على الاستمتاع بالحياة، واللذة الأسمى لا تتوفر إلا له. وهذه اللذة الأسمى هي الصفاء، ويتم الحصول عليها أثناء عملية معرفة الحقيقة. وصفاء الروح يعطي الإنسان استقلالاً داخلياً، وراحة البال، ويخلصه من الأخطاء والضلال.

تم نقل مركز الثقافة الهيلينية والتجارة العالمية إلى الاسكندرية، حيث شيد هناك متحف الإسكندرية Mouseion at Alexandria (معبد ربات العلوم والفنون)، كما تم إنشاء مكتبة الإسكندرية Library of Alexandria الغنية.

ظهر علم جديد هو فقه اللغةPhilology ، وفي القرن الثاني قبل الميلاد وضع ديونيسيوس ثراكس Dionysius Thrax أول نحو. وابتعدت القضايا العالمية

إلى الخلف في الأدب، وظهر أدب التسلية – الخيال.

يمكن تناول العصور القديمة المتأخرة كمرحلة انتقالية، فقد انتهت بالفعل العصور الكلاسيكية القديمة التي شكلت انجازاتها واكتشافاتها أرضاً خصبة لظهور العالم الجديد.

«عندما فقدت المدن – الدول الإغريقية استقلالها، ووقعت اليونان تحت سيادة مقدونيا في البداية ومن ثم روما، لم تسقط الثقافة اليونانية، إنما على العكس من ذلك، مع فتوحات الإسكندر المقدوني، وعندما أصبحت هلنستية، اكتسبت طابعاً عالمياً وذلك بعد تعرضها للتأثير المعروف للثقافات الشرقية. والنهاية للثقافةِ اليونانية الكلاسيكية والهلنستية وضعتها الديانة المسيحية»(1).

(1) ف. خ. كيسيدي. من الأسطورة إلى المنطق. موسكو، 1972. ص 92.

الفصل الثامن

ثقافة روما القديمة

على مدى فترة طويلة من الزمن شنّت روما حروب غزوٍ كان نتيجتها ضم أمم جديدة بثقافاتها وقيمها الأخلاقية. ويرى الرومان في تأسيس روما في عام 751 قبل الميلاد بداية لتاريخهم. ويبقى التاريخ المبكر لروما يشكل لغزاً بالنسبة لنا إلى حد ما، فهناك وجهة النظر التي تفيد بأن روما تدين بظهورها لسقوط طروادة. «على ما أعرف فإن مدينة روما أسسها وقطنها في البداية الطراودة الذين فرّوا بقيادة اينياس من بلادهم وتجولوا من مكان إلى آخر، ومعهم السكان الأصليون والقبائل الهمجية، الحرة والعصية عن سيطرة أي أحد»[1]. ويواصل المؤلف مشيراً إلى أن هذا الحشد غير المتجانس لأناس افتقروا لأي شيء مشترك فيما بينهم وتوحدوا خلف سور المدينة سرعان ما انصهر في مجتمع مدني واحد.

رواية أخرى رواها المؤرخ الروماني تيتوس ليفيوس Titus Livius، وفقها، وكسراً لإرادة الأب وحق الأقدمية، سيطر على العرش أموليوس Amulius الذي لم يقم بتجريد أخيه الأكبر من السلطة فقط، وإنما قتله أيضاً. وأجبر هذا المطالب بالعرش ابنة أخيه أن تصبح راهبة، وذلك لأنه كان عليهم الحفاظ على عهد العزوبية. إلا أن الكاهنة انتهكت العهد، وقالت إن والد أولادها كان الإله، بيد أن ذلك لم ينقذها من غضب الملك. ألقي بالأولاد في النهر، وأمهم في السجن. إلا أن الوارثين تمكنوا من النجاة ليترعرعوا وينتقموا من المذنب، لكنهم فشلوا في تقاسم السلطة فيما بينهم. ووفقاً لإحدى الروايات

(1) غاي ساليوستي كريت، الأعمال. موسكو، 1981. ص 7.

رأى ريموس Remus ستة نسور، واعتقد الجميع أن هذا يعتبر دليلاً على فضل الآلهة. إلا أن رومولوس Romulus رأى في وقت لاحق إثني عشر نسراً. نشب خلاف حول أي منهما علامته صحيحة من حيث وقت ظهور الطيور أو من حيث عددها، ودارت معركة قتل فيها روموس. ووفقاً لرواية أخرى، ضحك ريموس على أخيه وقفز من فوق الجدران الجديدة للمدينة. غضب رومولوس وقتل شقيقه على تجرؤه، وقال إن المصير نفسه ينتظر كل من يجرؤ على القفز من فوق جدرانه[1].

وهذا ما يكتبه مؤرخ يوناني آخر من معاصري تيتوس ليفيوس هو ديونيشيوس الهلكرنسي Dionysius of Halicarnassus. فصل رومولوس الطبقة العليا عن السفلى، وينبغي إرسال الأشراف إلى «المناصب القضائية والكهنوتية»، في حين يقوم العوام بفلاحة الأرض وتربية الماشية ومزاولة الحرف. ويترأس الملك الطقوس الدينية وتقديم القرابين، ويصون قوانين الآباء وأعرافهم، وفي عهدته تقع أهم وأعقد الجرائم، في حين يكلف مجلس الشيوخ بكل ما لا يمثل صعوبة، كما يمتلك الملك السلطة العليا في زمن الحرب، وفي حال الضرورة يدعو مجلس الشيوخ إلى الانعقاد حيث يناقش ويصوت على القضايا التي يطرحها الملك. وينتخب الشعب القضاة، ويجيز القوانين، ويحل مسائل الحرب. ويتم التصويت حسب الكوريا curia (العشيرة). والكوريا هي وحدة من المواطنين الرومان تتألف من 10 جماعات، وتتألف تريبوس Tribus (القبيلة) من 10 كوريات[2].

حتى القرن السادس قبل الميلاد تقريباً كانت جميع شؤون الدولة تدار من قبل الملك الذي يعتمد على مجلس الشيوخ (الزعماء) المتكون من 300 عضو.

(1) مجموعة مقالات عن تاريخ روما القديمة. موسكو، 1962. ص 43–45.

(2) المرجع السابق. ص 48–49.

وسمي هذا المجلس أيضاً بالسنات senate. وفي حال الأمور الهامة جمع الملك ومجلس الشيوخ النبلاء. ووفقاً للأسطورة التي يمكن اعتبارها مبنية على أحداث حقيقية، فإن الملك الحاكم لروما كان يثير سخط المواطنين. وطفح الكيل عند الرومان الغاضبين من تصرفات الملك فطردوه لتصبح إدارة شؤون روما شأناً عاماً.

في عام 510 قبل الميلاد تقريباً تأسست الجمهورية الأولى، وقد جاءت إقامتها استجابة للتحديات الجديدة. كان بإمكان الارستقراطيين وحدهم مزاولة الإدارة، على مدى العام حكم البلاد حاكمان رشحهما اجتماع الارستقراطيين. زاول الحاكمان القضاء والأمور العسكرية زمن الحرب. أما في زمن السلم فقد كان عليهما التشاور مع مجلس الشيوخ بشأن القضايا كلها. وبقيت ضمن اختصاص مجلس الشيوخ الأمور العسكرية، والعلاقات مع البلدان الأخرى، والمالية. انحدر أعضاء مجلس الشيوخ من طبقة النبلاء، شأنهم في ذلك شأن الحاكمين. كان العوام غير راضين عن الوضع المتشكل، فقد تبين أنهم بعيدون عن الشأن العام، لذلك شكلت مجموعة كبيرة من العوام جيدي التنظيم والتسليح معسكراً قرب المدينة بعد مغادرتهم لها. هب الارستقراطيون لمواجهة المعضلة الصعبة، فمن ناحية أولى كانوا يخشون من أن يقوم الأعداء الخارجيون بمهاجمة المدينة العزلاء فعلياً بعد أن يدركوا أن القوات الرومانية تقلصت. ومن جهة أخرى لم يكونوا متأكدين من أن العوام أنفسهم لن يحتلوا روما من أجل نيل حقوقهم. كما كان هناك أيضاً خطر إبرام تحالف بين العوام والأجانب. اضطر ذلك كله الحكام إلى منح العوام حق المشاركة في إدارة الجمهورية، إذ تمكنوا في كل عام من اختيار المناصب العامة Plebeian Tribune، وكان لديهم حق النقض الذي ألغى قرارات الحاكمين ومجلس الشيوخ في القضايا التي تمس العوام بشكل مباشر. وسرعان ما أصبح

العوام يعقدون الاجتماعات العامة التي يقومون فيها بصياغة مطالبهم تجاه مجلس الشيوخ. ومع مرور الوقت نجحوا في جعل اختيار أحد الحاكمين يتم من قبل العوام. وبناء على طلبهم ألغي القانون الذي يسمح بالاسترقاق مقابل الديون. وتميز مطلع القرن الثالث قبل الميلاد بانتصار آخر تمثل في اكتساب قرارات اجتماعات العوام وضع قانون الجمهورية.

اعتبر أثرياء العوام والأسر النبيلة أرستقراطيين (نبلاء)، وكانت الجمهورية في روما أرستقراطية. ولم يكن لدى النبلاء الحق في مزاولة التجارة والحرف التي أعطيت بالإيجار إلى الفرسان، أي الذين امتلكوا المال لشراء الخيول. وزاول الفرسان المسائل التنظيمية البحتة في إدارة الجمهورية، وكان بإمكانهم الحصول على الحق في فرض الضرائب لصالح روما، وكان معظمهم يقدم إلى الخزينة أقل بكثير مما كانوا يجمعونه في الواقع.

بدأ الرومان بحملات الغزو، ففي القرن الثالث قبل الميلاد احتلوا شبه الجزيرة الإيطالية Italian Peninsula، وفي نهاية القرن الأول قبل الميلاد «احتلوا محيط البحر الأبيض المتوسط، وحتى بداية القرن الثاني فرضوا عليه طوقاً واستمروا على هذا الشكل قرابة ثلاثة قرون»[1].

بعد فتحها لشبه الجزيرة الإيطالية، لم تتوقف روما عن حملات الغزو، فقد استمرت الحرب بين روما وقرطاج Carthage فعلياً قرابة عشرين عاماً (القرن الثالث قبل الميلاد). وقد سمى الرومان القرطاجيين بالبونيينPunics ، لذلك اكتسبت الحرب الأولى اسم الحرب البونية الأولى First Punic War، وانتهت بنصر كامل للرومان. بعد ذلك احتلت روما كلاً من صقلية Sicily وسردينيا Sardinia وكورسيكا Corsica.

(1) إ. ف. كوليسنيكوفا، لمحة موجزة عن تاريخ الثقافة القديمة/ الغرب والشرق. التقاليد والحداثة. موسكو، 1993. ص 17.

في الحرب البونية الثانية Second Punic War (القرن الثالث قبل الميلاد) قابل الرومان خصماً عنيداً تمثل في القائد العسكري هانيبال Hannibal. إلا أنهم تمكنوا من الانتصار في هذه المرة أيضاً واضعين الخصم في موقف استراتيجي حرج للغاية. بعد انتصارهم وإضعافهم لقرطاج، لم يهدأ الجنرالات الرومان، فقد عبروا عن مخاوفهم من أن الموقع الجغرافي المتميز للعدو سيسمح لهم بإحياء التجارة واستعادة الوضع السابق. بدأت الحرب البونية الثالثة Third Punic War التي هدفت إلى تدمير قرطاج بأكملها (القرن الثاني قبل الميلاد). ووصف الموقع الذي كانت تقف فيه المدينة المدمرة بالملعون. وبعد أن ظفر الجنرالات بفوز آخر، عادوا إلى روما بالغنائم، وسمي الدخول المهيب إلى المدينة بالغنيمة. ووزعت غنائم الحرب جميعها على أثرياء الرومان.

شملت الثقافة الرومانية بشكل محدود إنجازات ثقافات الشعوب الخاضعة جميعها. في البداية كانت الشعوب التي قطنت شمال إيطاليا (الأتروسكان Etruscans)، ثم اليونان، وأخيراً الشرق. وكانت لدى الأتروسكان زراعة وحرف متطورة، وشيدوا المدن المحصنة في أماكن يصعب الوصول إليها، وكان نظامهم الاجتماعي وفقاً للكثير من الباحثين أرستقراطياً، وقفت على رأسه الارستقراطية العسكرية– الكهنوتية - لوكومون Lucumo. واحتلت المرأة مكانة بارزة في المجتمع.

تعرضت ثقافة الأتروسكان لتأثير الثقافة الإغريقية الكبير، ففي التقاليد الثقافية للأتروسكان والإغريق الكثير من الأمور المشتركة. لذلك، ونتيجة للبحوث الأثرية، عثر في التوابيت الحجرية الأتروسكانية على مشاهد أسطورية صور في أحدها وجود أوديسيا في هاديس (مملكة الموتى)، وإصابة الصقلوب Cyclops بالعمى. كما عثر كذلك على تمثال طيني صغير يصور إينياس Aeneas الذي يخرج أباه من طروادة Troy الميتة.

أصبح الأتروسكان من أوائل الشعوب التي غزاها الرومان، وعند مقارنة ثقافة الرومان والأتروسكان تجدر الإشارة إلى أن الفاتحين الأخيرين اعتمدوا بعض المؤسسات السياسية، والموسيقى، وطريقة تصوير الأرقام. وهذا هو السبب في أن الرومان بعد إخضاعهم للمدن اليونانية كانوا على استعداد لقبول العديد من معايير الإغريق الثقافية، التي كانوا قد اقترضوها من الأتروسكان.

لا يعرف الكثير عن الفترة الأولى من تطور روما، وما حفظ بشكل رئيسي هو فقط بعض معلومات متعلقة بالشعائر الدينية والأعياد. وكانت عبادة أرواح الأجداد Manism على ما يبدو واحدة من أقدم أشكال المعتقدات الدينية عند الرومان القدماء، وهي عبارة عن عبادة أرواح الموتى التي ترعى الأحياء. وسميت الأرواح التي تساعد الناس آلهة البيت، واعتبرت حامية للمنزل. كما سميت الأرواح الحامية أيضاً بالآلهة الحارسة lares التي تقوم بالدفاع عن الناس في الحياة المنزلية وفي الطريق وفي الحرب.

تمثل التراتيل المقدسة أقدم الآثار التي وصلت إلينا، واستخدم واحداً منها في شعائرهم (الميدانية) الإخوة أرفالThe Arval Brethren الذين كانوا ينتمون إلى أقدم هيئة كهنوتية. توجه الإخوة أرفال إلى إله الحرب مارس Mars، وإلى الأوصياء على الآلهة الحارسة، وإلى آلهة الخصوبة سيمون. وناشد الكهنة أسيادهم لإبعاد الحرب والمرض عن المجتمع. وعلى الأرجح صاحبت التراتيل المقدسة رقصات لم يكن معناها مفهوماً بشكل جيد للرومان. وإلى جانب التراتيل المقدسة كانت في العصور القديمة أغانٍ عمالية وطقوسية، وأغانٍ للزفاف، ومرثيات.

كان تقديس الأرواح - الراعية عبارة عن عبادة قبلية وأسرية، فقد قدست كل قبيلة روحاً خاصة بها. وفي وقت لاحق تحولت بعض الأرواح إلى آلهة مشتركة، كما هي الحال في بلدان أخرى. ومع ذلك بقي الاعتقاد في الآلهة

الحارسة وآلهة البيت في روما لفترة طويلة حتى بعد اعتناق المسيحية، ليحظر بمرسوم إمبراطوري في أواخر القرن الثالث الميلادي. ولم تكن الأرواح - الراعية موجودة لدى العائلات فقط، وإنما لدى كل فرد أيضاً. وسمي رعاة الرجال جينيوس Genius، في حين سميت راعيات النساء جونو Juno.

لعبت عبادة النار أيضاً دوراً مهماً في تلك الحقبة، وقد صورت الإلهة فيستا Vesta على شكل لهب، ولم تقدم على شكل الإنسان قط. وكان على نارها أن تبقى مشتعلة في المعبد المخصص لها. بالإضافة إلى ذلك، كان الرومان القدماء قد اعتقدوا في الحقبة الأولى بالآخرة والعقاب بعد الموت. هناك عالم تحت الأرض حيث يحكم أوركوس Orcus الشديد، وهنالك أرواح الموتى جميعهم. يذهب الصالحون إلى الجنة (Elysium الفردوس). وبعد الوفاة تعتمد روح الرجل على كيفية تعامل الأحياء معها. إذا لم يهتم أحد بالمتوفى، تتحول روحه إلى روح شريرة دعيت باليرقة larvae أو ليمور lemur، أو تم التخلي عنها مؤقتاً، ونظمت مراسم خاصة - ليموريا Lemuria. وروعيت الطقوس الخاصة بالدفن، فقد كان هناك أقنعة جنائزية خاصة للجدود المتوفين الذين كانوا يشاركون في الطقوس أثناء الجنازة وكأنهم أحياء.

انتشرت العبادة الزراعية بشكل رئيس وسط العوام وبسطاء الناس. وفي البداية ارتبط بعبادة الخصوبة العديد من الآلهة التي بدأت فيما بعد بلعب دورٍ هامٍ في هيكل الآلهة الرومانية - جوبيتير Jupiter وفينوس Venus وساترون Saturn وحتى مارس. وبالإضافة إليها قدس المزارعون أيضاً كلاً من فون Faun وليبرا Libera وسيريس Ceres وتيرمينس Terminus وكونسوس Consus وباليس Pales وغيرها. وكرست لهذه الآلهة مهرجانات دينية: لوبيركاليا Lupercalia في 17 شباط/فبراير تكريماً لفون، ساتورناليا Saturnalia في شهر كانون الأول/ديسمبر تكريماً لساترون، سيرياليا Cerealia في شهر نيسان/

أبريل تكريماً لسيريس، فيناليا Vinalia في شهري نيسان/أبريل وآب/أغسطس تكريماً لجوبيتير، كونسواليا Consualia في شهر آب/أغسطس، وتيرميناليا Terminalia في شهر شباط/فبراير. ووقتت جميعها مع هذه الأحداث أو تلك في حياة الفلاح: البذر، الجمع، الحصاد وغيرها.

تعرضت الأساطير الرومانية لتأثير كبير من الديانات الأخرى، وقد ميّز الرومان أنفسهم بين الآلهة المحلية والأجنبية. ويعتقد بعض الناس خطأً أن جزءاً كبيراً من هيكل الآلهة الرومانية تم اقتباسه من الإغريقي. لم يكن الأمر على هذا النحو، إلا أن أساطير روما القديمة كانت فقيرة للغاية. وبعد تعرفهم على الثقافة اليونانية، أخذ الرومان ينسبون إلى آلهتهم الصفات والمغامرات التي اشتهرت بها آلهة اليونان القديمة. وعليه، لم يقتبس الرومان هيكل الآلهة ذاته (فآلهة الرومان كما رأينا كانت مرتبطة في البداية مع عبادة الخصوبة)، وإنما اقتبسوا مضمون الأساطير والخرافات اليونانية القديمة، ومحتواها العاطفي والمضموني، أي الشيء الذي لم يكن الرومان أقوياء فيه.

إذا كان هذا التأثير الشديد قد تعرض إليه قدماء الرومان من ثقافة اليونان القديمة، إذن ماذا يمكننا القول عن ثقافة الشرق القديم. لقد اختلفت اختلافاً كبيراً في عيون الروماني العادي عن ثقافة روما القديمة باتجاه الأفضل. هنا يمكننا أن نميز نقطتين: أولاً، لم تساعد آلهة روما القديمة الإنسان البسيط بشيء، لذلك بدأ بالبحث عن المدافعين عنه بين الآلهة الشرقية. وانتشرت في روما على نطاق واسع العبادة الميثرائية Mithraism، ومن ثم المسيحية. ثانياً، كشفت الطبيعة الباطنية للديانات الشرقية القديمة جانباً جديداً من الحياة، هو الجانب العربيدي. ويرتبط تقديس الآلهة الشرقية عند الرومان القدماء وبشكل وثيق مع الاحتفالات المخمورة الفاحشة (باكهاناليا bacchanalia)، وكان ذلك ردة فعل طبيعية على الجفاف المفرط والطابع العملي للديانة الرومانية. وسعت

السلطات الرسمية للتغلب على تأثير الآلهة الشرقية، وحظرت عبادتها، ولكن دون جدوى.

جرى أيضاً تقديس آلهة «اللحظة» التي كانت مسؤولة عن مختلف أحداث حياة الإنسان. ولكل من هذه الأحداث كان هنالك إله منفصل، على سبيل المثال للصرخة الأولى للطفل. عندما يجري الحديث عن شيء أكثر أهمية، مثلاً عن الطبيعة، عندما يتعلم الطفل الكلام، أو عن نضجه الجسدي، فقد أشرف على ذلك العديد من تلك الآلهة معاً. قادت إلهة خاصة الطفل إلى المدرسة، في حين أعادته أخرى إلى البيت.

كانت هناك أيضاً آلهة تجسد بعض الفضائل والمفاهيم، مثل السلام، والأمل، والبسالة، والعدالة، والسعادة. فعندما نتكلم اليوم عن إلهة الحظ فورتونا Fortune، فإننا نقصد تحديداً إحدى تلك الإلهات. ولا يوجد فعلياً أساطير حول تلك الآلهة، وفي وعي الرومان هي على الأغلب مجسدة في مفاهيم تختلف عن الألهة التي اعتدنا على رؤيتها في الأديان الأخرى، بشخصيات وضاءة ومصائر مثيرة وما إلى ذلك. أساطير روما القديمة بشكل عام هي شحيحة للغاية وغامضة.

في العصر الكلاسيكي تصدرت الآلهة راعية المدن. وكما هي الحال في العديد من الأديان الأخرى، كان في روما القديمة اعتقاد بأن الآلهة تساند الحكام. وجرى تأليه الأباطرة، بداية بعد وفاتهم (قيصر Caesar، أوكتافيان Octavius)، ولاحقاً في حياتهم (كاليجولا Caligula).

كانت للمراسم الدينية في روما القديمة خصوصيتها، فالشخص المؤمن لا يحاول التواصل روحياً مع الرب، ولا الاندماج معه، ولا الاقتراب منه. وفي المقابل، حمل التواصل مع الإله طابع المفاوضات التجارية والصفقات. وجرى تركيز جل الاهتمام على السلامة الشكلية لتأدية المراسم. وجب أن

تكون الصلاة دقيقة جداً، وجرى الحديث عن الصيغ القانونية. على سبيل المثال، عندما كان الشخص ينطق اسم جوبيتير، كان عليه أن يرفع يده إلى السماء. وكما هي الحال في الصفقات الاعتيادية، سعى الناس إلى خداع آلهتهم والحصول على الكثير وإعطاء القليل وذلك باستخدام حيل مختلفة، مثل غموض بعض الكلمات.

عند شروعهم في قطع الأشجار في البستان المقدس، توجه الإخوة أرفال إلى الآلهة بالدعاء. كانت هناك ثلاث ربات باستطاعتهن المساعدة في هذا العمل، وكان من الواجب أن يتم التوجه إليهن في تسلسل صارم، ونطق الكلمات المحددة بشكل واضح. كانت ديفيروندا Deferunda مسؤولة عن سقوط الشجرة، وكوموليندا Commolenda عن قطعها، وأدوليندا Adolenda عن حرقها. واعتقد الرومان القدماء أنه لا يمكن الحصول على دعم الآلهة إلا عند التوجه إليها في الوقت المناسب.

لم يلجأ الرومان فيما مضى إلى السحر قط، فقد كانوا بالغي العقلانية، لكنهم علقوا أهمية كبيرة على العرافة. وكانت الأكثر شيوعاً هي العرافة عن طريق تحليق الطيور (الطيرة أو مراقبة الطيور Auspices)، وعلى الدواخل من الحيوانات (Haruspices)، كما تكهنوا أيضاً بكيفية نقر الطيور في الحبوب، أو بالبرق.

في البداية لم يعرف الرومان صور الآلهة أو المعابد، وبدلاً من تماثيل الآلهة استخدموا الأشياء العادية، فقد رمز لمارس بالرمح، وقد نشأت عادة بناء المعابد على الأرجح بتأثير قدامى اليونانيين. ومع ذلك، فإن الأهمية الخاصة في تركيبة معتقدات الرومان القدماء أوليت لصور الأموات التي ترتبط مع عبادة الأرواح - الراعية التي تحدثنا عنها سابقاً.

لم يلعب الكهنة دوراً ذا أهمية خاصة في الحياة السياسية لروما، إذ لم تعرف

روما الصراع بين السلطتين الدينية والدنيوية، واعتبر الكهنة أنفسهم موظفين حكوميين. وكان هناك مجالس مختلفة للكهنة، وأدار أعضاء مجلس الكهنة الأعلى (بونتيفيكس pontifex) التقويم وتنظيم المهرجانات، وكانوا مؤرخين أيضاً. وقام أعضاء هيئة الكهنة الرومانية (فيتالي fetiales) بدور السفراء والدبلوماسيين، في حين مارس العرافون (أغور augur) قراءة البخت.

حافظت عذراوات فيستا Vesta على النار في معبد فيستا. وبما أن فيستا اعتبرت الإلهة الحامية، فقد تمتعت عذراوات فيستا بنفوذ كبير في روما. وكان ثمن ذلك التزام صارم بالعزوبة والعفة. وهناك العديد من القيود التي فرضها العرف أيضاً على الفلامين flamines، وهم الكهنة المسؤولون عن آلهة معينة (مثل جوبيتير، مارس). وكان لديهم ما كان لعذراوات فيستا من نفوذ كبير. وفي البداية لم يكن بالإمكان إلا للأرستقراطيين أن يصبحوا كهنة، وكان بإمكانهم وحدهم فقط المشاركة في العبادة. فيما بعد أصبح ذلك متاحاً للعوام أيضاً، وبمرور الوقت أصبحت مناصب الكهنة بالانتخاب.

لم يكن لدى العبيد الحق بتقديم القرابين والمشاركة في المهرجانات الدينية، مع استثناءات نادرة (ساتورناليا Saturnalia – عيد الإله ساتور Satur). كان العبيد الرومان مفصولين عملياً عن الدين الروماني، لذلك فليس من المستغرب أن اعتنق هؤلاء العبيد المسيحية بسهولة. «في عهد الجمهورية (510 – الثلاثينيات قبل الميلاد) بدأت الديانة الرومانية تشبه اجتماع الآلهة من مختلف أنحاء العالم، وتغلغل تأثير الإغريق بشكل أعمق، على الرغم من أن الآلهة برأي الرومان ليست بحاجة إلى مشاعر الناس، وإنما «لرشوة» محددة على شكل نبيذ مسكوب، وعلى شكل حبوب مبعثرة، وعلى شكل دم ودخان الأحشاء والعظام المحروقة للأضاحي...»[1]. واتسم الرومان بتسامح ديني كبير.

(1) إ. ف. كوليسنيكوفا، لمحة موجزة عن تاريخ الثقافة القديمة/ الغرب والشرق. التقاليد والحداثة.

يشير العلماء إلى الفرق بين أساطير الإغريق والرومان، ففي مركز الأسطورة اليونانية تقع أعمال الآلهة وعلاقتها مع بعضها بعضاً ومع الناس. أما بالنسبة للرومان ففي قلب جميع اهتماماتهم كانت روما نفسها وشعبها. وأصبحت أهم الفضائل تتمثل بالانضباط الصارم والشجاعة والرجولة والولاء. وبالنسبة للروماني تبدأ أي مهنة من مهنة الجندي، فالأب يعلم ابنه مهنة المحارب والمزارع، ويعرفه على مسؤوليات المواطن. ويعتقد أنه على الرغم من أن الرومان لم يخلقوا كالإغريق أساطير متماسكة، إلا أنهم أصبحوا مبدعين للعديد من الأساطير التاريخية يتمثل أبطالها الرئيسون في الملوك والأبطال العسكريين والقادة.

قبل فترة طويلة من القرن الثاني قبل الميلاد ظهرت في الثقافة الرومانية ثنائية اللغة، إذ تحدث النبلاء اليونانية، بينما جرى في الوقت نفسه وضع أسس وأحكام اللغة اللاتينية. وينبغي الإشارة إلى السمة التي تميز الأسماء الرومانية، فالأول هو الاسم الشخصي، والثاني الاسم القبلي، والثالث تبجيلي موروث[1].

اكتسب فن الخطابة أهمية كبيرة، إذ قام الرومان في عهد الجمهورية بحل أمور الدولة في الجمعية الوطنية ومارسوا المناقشة على نطاق واسع. وبالمقارنة بين الإغريق والرومان نرى أنه بالنسبة للرومان احتلت السياسة والقانون دوماً مكان الصدارة، في حين اعتبر كل من الفن والأدب ظواهر ثانوية. وتعود البلاغة الرومانية بجذورها إلى لغة القوانين، والمناقشة في المحكمة ومجلس الشيوخ والجمعية. وكان بإمكان كل روماني حر الكلام في المحكمة، وانتشر فن الخطابة على نطاق واسع، وقدِّر تقديراً عالياً، وحمل طابعاً شعبياً لدرجة معينة. وكان التأثير الكبير عليه من نصيب فن الخطابة اليونانية.

موسكو، 1993. ص 19.

(1) المرجع السابق. ص 18.

بلغ ماركوس توليوس شيشرون Marcus Tullius Cicero (106—43 قبل الميلاد) ذرى هائلة في مجال فن الخطابة، وكان محامياً مطلعاً ورجل دولة بارز. وما خطاباته ضد والي صقليا فيرِّس Verres إلا أمثلة رائعة على فضح النخبة الرومانية برمتها. فقد قام الحكام المفتقرون للخجل بغرف مداخيلهم عن طريق سرقة المحافظات وقتل المدنيين الأبرياء. واستخدم شيشرون مثال شخص محدد ليواجه فوجاً كاملاً من أمثاله. واعتقد شيشرون أن أمام كل خطيب «تعلو ثلاث مهام، هي: 1) إثبات أحكامه، 2) تقديم المتعة للمستمعين، 3) التأثير على إرادتهم وإجبارهم على قبول الحل المقترح»[1]. وينبغي على الخطيب ألا ينسى أن حل كل واحدة من المهام الموضوعة يستوجب استخدام الأسلوب المناسب، فقد استخدم الأسلوب الهادئ والواضح والبسيط للإثبات، أما الأسلوب المنمق والرزين فللمتعة، والأسلوب الجياش والمحزن للتأثير على الإرادة. وكان شيشرون آخر ممثلي فن الخطابة الرومانية الكلاسيكي، وانتهى عصره مع موت الجمهورية.

أخذت الخطابة السياسية نفسها بالانحسار تدريجياً، والسبب الرئيس في ذلك هو إقامة الحكم الرئاسي Principatus وما نجم عنه من قضاء على الحريات الديمقراطية. وفي عهد الإمبراطورية لم يعد لفن الخطابة ما كان لديه في السابق من تأثير على الحياة السياسية، فقد تغير بشكل حاسم دور الخطيب الذي كان يأخذ في السابق خلفية سياسة حيوية كأساس لخطبه، وأخذت بالتشكل البلاغة الخطابية والاستعراضية، وأصبحت الأهمية الكبرى تولى للشكل والأدوات التعبيرية. ومع ذلك، كان لفن الخطابة بالغ التأثير على تطور الأدب والتأريخ.

في القرن الثاني قبل الميلاد تشكلت في روما حالة صعبة، وأصبح وضع العبيد لا يطاق حيث اعتبروا «أدوات ناطقة». وكان الكثير منهم (وخاصة

(1) ن. أ. تشيستياكوفا، ن. ف. فوليخ. تاريخ الأدب القديم. فيشايا شكولا، 1972. ص 321.

الإغريق) متعلمين بشكل أكبر بكثير من أسيادهم. وقد تم تقسيم العبيد إلى فئات عبيد المنازل، والعاملين في العقارات والممتلكات، والجلادين. وفي النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد بدأ العبيد صراعاً ضد ظروف معيشتهم القاسية، واستمر التمرد في جزيرة صقلية زهاء ستة أعوام لينتهي بهزيمة المتمردين. ونتيجة لهذا التمرد أنهكت القوات الرومانية، وشكل ازدياد عدد العبيد وتخريب الفلاحين تهديداً كبيراً لروما.

بدأ الأخوان غراخوس Gracchus، تيبيريوس Tiberius وغايوس Gaius، المنحدران من عائلة عامة نبيلة، بالنضال من أجل إعادة النظر في قانون الأراضي. وحصل تيبيريوس على قرار بشأن تخصيص الأراضي العامة، إلا أن معارضي الإصلاحات قتلوه مع أنصاره، وألقيت جثثهم في نهر تيفيري Tevere بالطريقة نفسها التي كان يتم التعامل بها فقط مع جثث المجرمين المتأصلين. كذلك باءت بالفشل محاولات غايوس غراخوس في مواصلة قضية شقيقه.

إلى جانب المشاكل الداخلية، واجهت الجمهورية الرومانية باستمرار صراع الشعوب الخاضعة الساعية للتخلص من نير الأجنبي. وانتهى الوضع الداخلي الصعب بإقامة ديكتاتورية سولا Sulla الذي حكم روما لمدة ثلاث سنوات مليئة بالفوضى والغياب الكلي للقانون والعدل. وفي ذلك الوقت قمعت بوحشية انتفاضة العبيد بقيادة سبارتاكوس Spartacus. وتطلب الوضع السياسي الداخلي المعقد إصلاحاً للسلطة، وفي هذه الأوقات حاولت السلطات القبض على كل من يوليوس قيصر Iulius Caesar وبومبي Pompey وكراسوس Crassus الذين لم يتمكنوا من العمل منعزلين لافتقارهم إلى القدرة على القيام بذلك، مما حملهم على إبرام اتحاد ثلاثي فيما بينهم.

ذهب قيصر مع قواته إلى روما (عام 49 قبل الميلاد)، وأعلن صراحة أنه

ضد الجمهورية. وتمكن من هزيمة حليفه السابق بومبي ليصبح ديكتاتوراً مدى الحياة. إلا أن كثيرين لم يكونوا راضين عن ديكتاتورية قيصر. ومن بين المدافعين المتحمسين عن الجمهورية كان الخطيب الشهير شيشرون. وعلى الرغم من تحقيق جحافل قيصر العديد من الانتصارات الرائعة، ومع أنه كان يحظى بالتكريم الملكي، إلا أنه كان يخشى إعلان نفسه ملكاً. كان بالإمكان تسمية كرسيه عرشاً مصنوعاً من الذهب والعاج، وطبعت صورته على القطع النقدية، ووضعت تماثيله إلى جانب تماثيل للآلهة. دبرت مؤامرة ضد قيصر، وسقط في أيدي المتآمرين.

بعد موت قيصر تولى قيادة جحافله كل من أنطونيوس Antonius وأوكتافيوسOctavius حيث تمكنا من الاتفاق على تقاسم السلطة. لكن الاتفاق لم يدم طويلاً، وانتهى بحرب أهلية جديدة وانتصار نهائي لأوكتافيوس الذي حكم في الفترة من عام 30 قبل الميلاد إلى عام 14 ميلادي، وتحولت روما في عهده إلى إمبراطورية. حاول أوكتافيوس الحفاظ على تقاليد وعادات عصر الجمهورية تجنباً للمقاومة من جانب مؤيديها، فأبقى على مبدأ انتخابية المناصب ومجلس الشيوخ والقناصل والمنابر الشعبية. ومن مجلس الشيوخ حصل على اسم أغسطس Augustus («المقدس»). ومع ذلك، سعى أوكتافيوس لتعزيز سلطة الفرد الواحد، إذ لم يكن مجرد إمبراطور فقط، وإنما عضواً لمجلس الشيوخ أيضاً، وتريبوناً شعبياً، وقنصلاً لبعض الوقت.

بدأ بالتدفق إلى روما الحرفيون والفلاحون المدمرون، فخشي أغسطس من أن يقوم هذا الكم الهائل من العاطلين عن العمل بالثورة، وحاول استرضائهم. رأى الناس الفقراء أن العمل مهين جداً بالنسبة للرجل الحر، وهو قدر العبيد، ورفعوا مطلب: «الخبز والمسرحيات». اضطر أغسطس لتنظيم المسرحيات لإلهاء الناس عن المشاكل الملحة، فيما حصل الفقراء على الخبز المجاني،

والمصروفات النثرية، والمشاهدة المجانية في السيرك.

انتهت الحروب الأهلية الطويلة بإنشاء الإمبراطورية، وأحاط أوكتافيان أغسطس نفسه بالمؤيدين والأدباء، وحاول أن يحظى برضى شرائح المجتمع جميعها، الأمر الذي كان في غاية الصعوبة.

واجه الحكم الرئاسي معارضة شديدة من جانب الجمهوريين. ومن أجل تبرير سلوكه، كتب أغسطس وصية توضع على ضريحه بعد وفاته، وفيها لا يخل أوكتافيان في توجيه عبارات الثناء إلى نفسه، ويؤكد أن فضله الرئيس يتمثل في أنه جلب لروما السلام والهدوء الذين طال انتظارهما.

يعلن الحكم الرئاسي حلول العصر الذهبي، فبفضل عمله الماهر توقفت الحروب والخراب. وبالفعل حلَّ السلام المنشود، وساهم إنهاء الحرب في تطور الأدب والعمارة والفن، فتم إعادة بناء روما التي انغمست كلياً في خضرة الحدائق والبساتين. وفي ميدان أغسطس شيد معبد مهيب لمارس – المنتقم الذي ساعد أوكتافيان على الانتقام لمقتل قيصر من الخونة. وحول المعبد يقع معرض لتماثيل نصفية لكبار القادة العسكريين. وإلى هذه الفترة يعود تشييد معبد أبولو والمكتبة الغنية التابعة له حيث نصب تمثال نصفي لأغسطس يعطيه ملامح الإله أبولو.

كما يشير الباحثون، فقد شكل كل من رسم وعمارة وشعر القرن الأول قبل الميلاد – بداية القرن الأول الميلادي وحدة فنية متكاملة[1]. وإلى هذه الفترة تحديداً تنتمي أعمال مؤيد أغسطس غايوس كلنيوس ميكيناس Gaius Cilnius Maecenas الذي جمع في منزله رجالات الفن الموهوبين، وقدم لهم الدعم، إلا أنه حاول في الوقت نفسه توجيه إبداعهم إلى خدمة أغسطس أوكتافيان. كذلك يعود إلى تلك الفترة إبداع بوبليوس فيرجيلوس مارو Publius Vergilius

(1) ن. أ. تشيستياكوفا، ن. ف. فوليخ. تاريخ الأدب القديم. فيشايا شكولا، 1972. ص 329.

Maro الذي كتبت مؤلفته الأولى «الرعويات Bucolica» بفن الأنشودات الرعوية، إلا أنها اختلفت بشكل كبير عن النماذج اليونانية، فالعالم المحيط بالبطل مليء بالألغاز والأسرار، وأفكار الأبطال مفعمة بالمعنى الخفي. والشيء المثير لاهتمام فيرجيل تمثل في التغلغل في أسرار الكون، ومعرفة معنى الحياة، وفهم جوهر النفس البشرية. وفي مؤلفة أخرى «الزراعيات The Georgics» يتناول الكيفية التي يتفاعل بها الإنسان مع الطبيعة. وبرأي فيرجيل، لا ينبغي إدراك العالم المحيط فقط، وإنما التأثير فيه بشكل فعال: «العمل ينتصر على كل شيء».

ملحمة فيرجيل الأشهر هي «إينياذة Aeneid» التي تتألف من 12 كتاباً، وينقسم مضمونها إلى قسمين. يروي القسم الأول (الكتب 1–5) قصة هروب إينياس من طروادة، حيث يعاني البطل العديد من الكوارث، ويجوب العالم، ويأتي إلى قرطاج حيث يلتقي بديدو Dido. ويكرس القسم الثاني (الكتب 7–12) للحديث عن الحروب في إيطاليا. ويرى نقاد الأدب في الكتاب السادس حلقة وصل يجري فيها الحديث عن تجوال إينياس في العالم الآخر. «في أواسط القرن اعتبر فيرجيل حكيماً تنبأ بولادة المسيح، وعثر في إبداعاته على استعارات متعددة المعاني والتفسيرات»[1]. وكان لفيرجيل تأثير كبير على تطور الملحمة الأوروبية والرعويات.

كذلك ينبغي توجيه الاهتمام إلى أعمال هوراس Horace، الذي لا يتفق مع فيرجيل إزاء بداية العصر الذهبي والموقف الساخر من الشعر الرعوي. ينتقل من فن قصائد الإيبود Epode الغنائية إلى الهجاء، إلا أن الهجاء لدى هوراس لا يحمل طابعاً اتهامياً، وإنما هو «حوار مستنير» على الأصح. وتكشف كل مقطوعة من مقطوعات هوراس الهجائية موضوعاً معيناً، في حين يؤكد هو

(1) ن. أ. تشيستياكوفا، ن. ف. فوليخ. تاريخ الأدب القديم. فيشايا شكولا، 1972. ص 345.

على أنه ينبغي على كل شخص أن يصبح حكيماً وفناناً لحياته الخاصة.

ينتمي إلى كوكبة أشهر الأدباء اللاتينيين أيضاً ماركوس فالريوس مارتياليس Marcus Valerius Martialis الذي نشط في فن قصائد الإبيغرام epigram القصيرة الساخرة الذي كان يلقى رواجاً. ويطرح الشاعر واحداً من الأحكام الرئيسة، ومفاده أنه ينبغي على الحياة – على وجه الحصر – أن تصبح المادة الوحيدة للأدب الإبداعي، فمنذ زمن حان الوقت لترك «المعالجات الجامدة» للأساطير.

بعد وفاة أغسطس تعززت السلطة الإمبراطورية في روما، وعادة ما تسمى هذه الفترة حتى نهاية عهد تراجان Traianus بالعصر الفضي للأدب الروماني. «تمثلت تلبية الثقافة الرومانية للمتطلبات الاجتماعية (التطلعات) للأرستقراطية في الرواية وفي الأدب (كشكل يفترض موقفاً موسعاً للمؤلف)، والصورة المنحوتة التي ارتقت من قناع الدفن إلى مستوى غير مسبوق في العصور القديمة من البصيرة النفسية... وبعد تغلغلها في العالم الداخلي للإنسان، هيأت الثقافة الرومانية الوعي الاجتماعي في العصور القديمة لاستيعاب العقيدة المسيحية»[1].

واصلت أراضي الامبراطورية توسعها عن طريق الحملات العسكرية، إلا أنها كانت آنذاك الحملات الأخيرة. وفي أواخر القرن الميلادي الأول جاء إلى السلطة الإمبراطور تراجان الذي بدأ حرباً في آسيا، إلا أن الشعوب المقهورة في المؤخرة لم توقف نضالها ضد الغزاة. ويعتقد الباحثون أن حملة الإمبراطور الأخيرة الفاشلة على آسيا شكلت البداية لنهاية انتصارات الرومان العسكرية الرائعة. تعزز الضغط من جانب الجرمان، وفي القرن الميلادي الثاني انتقلت

(1) إ. ف. كوليسنيكوفا، لمحة موجزة عن تاريخ الثقافة القديمة/ الغرب والشرق. التقاليد والحداثة. موسكو، 1993. ص 23.

الإمبراطورية بشكل نهائي من الهجوم إلى الدفاع. وبالتدريج توصل العديد من الأثرياء الرومان إلى استنتاج يفيد بأن عمل العبيد غير فعال بتاتاً، بل إنه مضر بالتطور اللاحق للاقتصاد.

لم يدم طويلاً التعزيز المؤقت للإمبراطورية في عهد كل من دقلديانوس Diocletianus وقسطنطين Konstantin، ففي عام 395 انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى شرقية وغربية، وأدت الانتفاضة المتواصلة من جانب العبيد والشعوب المقهورة والهجمات البربرية إلى انهيار الإمبراطورية الغربية. ويؤرخ سقوط روما في عام 476 كنهاية للعصور القديمة.

الفصل التاسع

ثقافة بيزنطة

تعرضت الإمبراطورية الرومانية في عام 395 للانقسام، وأصبحت مدينة القسطنطينية Constantinople (بيزنطة Byzantine Empire) عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية. ولعبت القسطنطينية دوراً مهماً في التجارة البحرية، لذلك فقد ازداد غناها عاماً بعد عام. وساعد الموقع الجغرافي في ازدهار المدينة إلى حد كبير، فهي تقع على مضيق البوسفور Bosphorus الذي يربط البحر الأسود Black Sea وبحر مرمرة Sea of Marmara، وعبر الأخير مر بدوره الطريق البحري (عن طريق مضيق الدردنيل Dardanelles) إلى بحر إيجة Aegean Sea، حيث تنتشر عدة جزر يونانية تعد كريت Crete أكبرها وربما أشهرها حيث تفصل بحر إيجة عن البحر الأبيض المتوسط. وبالتالي يقود العديد من الطرق التجارية في نهاية المطاف السفن التجارية إلى الإمبراطورية البيزنطية.

شكل نهرا فولخوف Volkhov ودنيبر Dnieper الضخمان «الطريق الشهيرة من الفرنجة Varangian إلى الإغريق»، التي بوساطتها كان النورمانديون Norman يصلون إلى القسطنطينية للتجارة. وامتدت هذه الطريق التجارية عبر الأراضي التي كان يقطنها السلافيون Slavs، ولعبت دوراً مهماً في تطوير المدن الروسية القديمة. وكانت بيزنطة تقوم بتصدير مجموعة متنوعة من المنتجات من المجوهرات إلى النبيذ والحرير والخزف، وكذلك الفواكه ومواد حرفة الحدادة والكثير غيرها.

إذا ما قارنا مصير كل من القسطنطينية وروما يصبح من الواضح أن الأخيرة كانت مركزاً تجارياً مهماً فقط طالما كانت عاصمة للإمبراطورية العظيمة. وبعد سقوطها انخفضت أهمية روما، وحدث تغيير في طرق التجارة. أما بيزنطة فهي في وضع أفضل بغض النظر عن التغييرات السياسية. وإلى حد ما تفسر ذلك حقيقة أن الإمبراطورية الرومانية الشرقية استمرت لفترة طويلة على الرغم من العديد من الهزات. واليوم تحتفظ المدينة بذلك الدور الهام الذي لعبته في التجارة والسياسة منذ عدة آلاف من السنين، وتحمل اليوم اسم اسطنبول Istanbul، وهي عاصمة تركيا.

تأسست بيزنطة نفسها قبل فترة طويلة من ظهور الإمبراطورية الرومانية، وحدث ذلك في العام 658 قبل الميلاد إذ استقرت في الخزينة البيزنطية الأموال التي كانت تجبى في تلك الفترة على شكل رسوم من السفن التجارية. وكان للموقع الجغرافي البالغ الأهمية وجه آخر بالنسبة لسكان المدينة، إذ أثار باستمرار حسد الجيران الذين أرادوا وضع اليد على المنفذ التجاري الغني.

انتمت الإمبراطورية البيزنطية لبعض الوقت إلى الفرس، ثم استولى على المدينة الإغريق القدماء (الأثينيون والأسبرطيون)، ولكن سرعان ما بدأ سكان أثينا واسبرطة أنفسهم القتال فيما بينهم. ومع ذلك، فقد لعب التأثير القديم على وجه التحديد دوراً مهماً في تطور ثقافة بيزنطة، في حين كان تراث الفرس لا يذكر.

عندما بدأ الرومان يحكمون العالم (على الأقل ذلك العالم الذي كان معروفاً للأوروبيين في تلك الأيام)، تمكنت الإمبراطورية البيزنطية من الحفاظ على استقلالها النسبي لفترة طويلة. ونجح حكامها في ذلك بفضل سعيهم للحفاظ بكل ما أمكن على بيزنطة. إلا أن مثل هذا الوضع ما كان ليستمر إلى الأبد، فالإمبراطورية الرومانية كانت وحشاً متعطشاً للدماء، حتى مع من نجح في

كسب صداقتها.

قام سيبتيموس سيفيروس Septimius Severus الذي حكم في روما في نهاية القرن الميلادي الثاني – بداية القرن الميلادي الثالث بزج جيشه ضد الإمبراطورية البيزنطية. تمكنت المدينة من الصمود ضد الحصار لمدة ثلاث سنوات، إلا أن التغلب على روما كان مستحيلاً. أعقبت ذلك هجمات البرابرة، مما زاد في إضعاف الإمبراطورية البيزنطية، إلا أن المدينة التي تقع بشكل مواتٍ جداً على مفترق العديد من الطرق التجارية لا يمكن أن تموت بهذه البساطة. في بداية القرن الرابع لفت إليها الانتباه الإمبراطور الروماني قسطنطين، وأصبحت بيزنطة عاصمة للإمبراطورية، وفي عام 330 حصلت على اسم جديد هو القسطنطينية Constantinople تكريماً لهذا الإمبراطور. وتجدر الإشارة إلى أن قسطنطين على وجه التحديد منح شعوب روما حرية اختيار دينهم، الأمر الذي وضع حداً لاضطهاد المسيحيين. ومن المتعارف عليه اعتبار أنه في عام 313 تم الاعتراف بالمسيحية كدين رسمي للإمبراطورية. وثبتت هذه الخطوة بوثيقة خاصة هي مرسوم ميلانو Edict of Milan، إلا أنها لم تدم، حتى إن الكثير من العلماء يشككون في وجودها. وأيد الإمبراطور المسيحية، واعتبر نفسه ممثلاً للسيد المسيح، إلا أنه لم يتحول إلى الدين الجديد. ومع مرور الوقت أصبحت بيزنطة عاصمة للأرثوذكسية.

في تلك الأيام كانت «بيزنطة» تعني فقط عاصمة الدولة، وفي القرن السادس عشر فقط أصبح المؤرخون الغربيون يسمون بها كامل الإمبراطورية الرومانية الشرقية. وأطلق سكان الإمبراطورية البيزنطية على أنفسهم اسم الرومان (رومايوس romayos)، وكانت لغتهم هي اليونانية، وعقيدتهم هي الأرثوذكسية.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا سقطت الإمبراطورية الرومانية الغربية

تحت ضربات البرابرة، في حين استمرت الشرقية بالوجود؟ يبدو أنه ينبغي البحث عن أسباب ذلك في الاختلافات الاجتماعية – الثقافية بين الدولتين، ففي الإمبراطورية الرومانية الغربية ازدهرت المزارع الإقطاعية (لاتيفونديا Latifundia)، في حين لم يبق مكان للمزارعين الأحرار. أما في الإمبراطورية الرومانية الشرقية فقد كان الوضع مختلفاً تماماً، حيث لم يفقد المزارعون الأحرار مواقعهم، ولم يكونوا مستعدين للتنازل عن الحصص التي عملوا فيها لسنوات عديدة بكل حماس لأي غاز أجنبي . وحمل العمل في الإمبراطورية الغربية طابعاً عبودياً، ولم يرغب العبيد بحماية أسيادهم من البرابرة، وعلى العكس من ذلك فقد أسعدتهم مصائب مضطهديهم.

في القرن الخامس جاء البرابرة إلى بيزنطة، إلا أن محاولاتهم لتحطيم الإمبراطورية الرومانية الشرقية لم تكلل بالنجاح. وفي الوقت نفسه لم يعتبر حكام البلد البرابرة أعداءً عنيدين. بل على العكس من ذلك فقد سمحوا عن طيب خاطر للأغراب في الإقامة على أراضيهم لتعزيز حدود بيزنطة.

في القرن السادس بدأ الإمبراطور البيزنطي جوستينيانوس الأول Justinian I بشن حروب عدوانية بنفسه. وكانت ضربته موجهة – في آن واحد – إلى هدفين معاً: البربر في الغرب، والفرس في الشرق. وحققت قوات الإمبراطورية البيزنطية سلسلة من الانتصارات في أوروبا وإفريقيا، إلا أن ثمن هذه النجاحات كان باهظاً. اضطر الإمبراطور لرفع الضرائب مما أدى إلى انتفاضة شعبية. ضعف الجيش، وأفرغت الخزينة، وحولت فتوحات جوستينيانوس بيزنطة من دولة قوية غنية إلى لقمة سائغة للغزاة الأجانب.

في حياة المؤمنين العاديين لعبت الكنيسة دوراً أقل أهمية مما كانت تلعبه في الكاثوليكية. وكان يعتقد أن الإنسان يمكنه الحصول على النجاة بمفرده. وخلافاً للإمبراطورية الرومانية الغربية، لعبت الكنيسة في بيزنطة دوراً تابعاً

للدولة. وبهذا تحديداً يفسر العديد من الباحثين الانتشار الواسع للبدع في هذا البلد (الأريانية Arianism، النسطورية Nestorianism، الوحدانية (المونفيزتية Monophysitism– مذهب الطبيعة الواحدة). وهكذا لم تكن المذاهب الابتداعية موجهة ضد الكنيسة نفسها فقط، وإنما ضد الدولة التي كانت هي تمثل خادمة لها أيضاً.

1. الأريانية (القرن السادس)، سميت باسم القسيس آريوس Arius من الإسكندرية. واعتقد ممثلو الأريانية أن الله الابن لا يمكن أن يكون على قدم المساواة مع الله الآب God the Father، لأن الله الأب أبدي، في حين كان الله الابن مولوداً، وفقاً للإنجيل. لذلك فالمسيح ليس مساوٍ في الجوهر لله الأب، وإنما مماثلاً فقط. ولاقت الأريانية انتشاراً واسعاً في مصر. ويعزو الباحثون المعاصرون (مثل سيرجي ألكساندروفيتش توكاريف Sergej Alexandrovich Tokarev) ذلك إلى الوضع السياسي، إذ لم يحارب سكان البلاد ضد العقائد الدينية، وإنما ضد سلطة الإمبراطورية الرومانية محاولين حماية استقلالهم.

هذا هو تحديداً سبب تدخل الإمبراطور قسطنطين نفسه في النزاعات الكنسية. ولم يتمكن من منع الانقسام الأيديولوجي في البلاد، وذلك لأن الانقسام السياسي أعقبه لا محالة. في عام 325 دعا لاجتماع مجمع نيقية الأول First Council of Nicaea، أي المجمع المسكوني الأول First Ecumenical council لرجال الدين. عقد الاجتماع في مدينة نيقية Nicaea، ومنها اكتسب تسمية مجمع نيقية. وفيه أدينت الأريانية باعتبارها بدعة، وطرد ممثلوها من الكنيسة. وتأسست آنذاك عقيدة الثالوث، أي أن الله موجود في ثلاثة أشخاص: الله الأب، والله – الابن، والله – الروح القدس God the Holy Spirit.

يشير الباحثون إلى أن العقيدة المسيحية بذلك (على الرغم من أنها بقيت

دين توحيد) قامت بخطوة باتجاه الشرك. ويذكر كارل غوستاف يونغCarl Gustav Jung أن الروح القدس تجسد في فجر المسيحية على شكل امرأة، مما شكل – على حد تعبير الفيلسوف– «أسرة في السماء». وفي وقت لاحق أصبح الروح القدس ذاته يتجسد على شكل حمامة، في حين وُهِب دور المرأة وسط الشخصيات المسيحية لمريم العذراء Ave Maria.

لم تهزم الأريانية تماماً، فقد واصلت انتشارها لبعض الوقت وسط البرابرة أيضاً (القوطيون Goths، اللومبارديون Lombards، الفانداليون Vandals).

2. النسطورية هي شكل من أشكال البدع المسيحية، وحصلت على اسمها من اسم أسقف القسطنطينية نسطور Nestorius. وتتمثل تعاليمها في أن يسوع المسيح لم يكن إلهاً على الإطلاق، وإنما رجلاً بسيطاً. الله – الابن موجود منفصلاً عن المسيح، ولم يرتبط به إلا بالشكل الخارجي. لذلك لا يمكن لمريم العذراء أن تسمى بوالدة الله، بل ينبغي أن يطلق عليها اسم والدة المسيح، أو والدة الإنسان.

في عام 431 وصمت النسطورية بالبدعة من المجمع المسكوني الثالث في أفسس Ephesus، ولكن لم يتم القضاء عليها، وإنما اكتسبت انتشاراً أوسع من الأريانية. وفي العصور الوسطى كانت إحدى الديانات الكبرى في آسيا الوسطى، وحفظت النسطورية في الوقت الحاضر لدى بعض شعوب الهند ولبنان.

3. الوحدانية (المونوفيزتية): أسس هذا المذهب الأرشيمندريت أوطاخي Eutychian، ويعتقد ممثلوه أنه كان ليسوع المسيح طبيعة واحدة إلهية (ومن هنا جاءت التسمية)، في حين قمعت تماماً الطبيعة البشرية للسيد المسيح. وفي القرن الخامس انتشرت الوحدانية على نطاق واسع في بيزنطة. وفي عام 451 وصم المجمع المسكوني الرابع في مدينة خلقيدونية Chalcedon الوحدانية بالبدعة.

وفي هذه المرة أيضاً تمكنت البدعة من تجاوز الحظر، وانتشرت في العديد من البلدان، ولا تزال موجودة إلى يومنا هذا في أرمينيا ولدى الأقباط والأثيوبيين.

جرى في مجلس الكنائس تكوين العقائد الكنسية، وأصبح المفكرون الذين قدموا مساهمة كبيرة في إنشائها يعرفون باسم «آباء الكنيسة». ومن بين الزعماء الدينيين الغربيين يمكن ذكر كل من جيروم Jerome وأمبروز Ambrose. ودخل المؤلفون الشرقيون الثلاثة الأكثر شهرة في القرن الرابع التاريخ باسم «المشاعل الثلاثة لكنيسة كابادوكيا Cappadocia». وكابادوكيا هي منطقة في أسيا الصغرى.

وعلماء اللاهوت أولئك هم:

1. غريغوري نازيانزين Gregory Nazianzen، المعروف أيضاً باسم غريغوري اللاهوتي Gregory the Theologian. درس الفلسفة في أثينا مع يوليوس الذي أصبح إمبراطوراً. شغل منصب أسقف القسطنطينية، ولكن ليس لفترة طويلة.
2. فاسيلي العظيم Basil the Great، أسقف قيصرية Kayseri.
3. المطران غريغوريوس النيصي Gregory of Nyssa. وكان المؤلفان الأخيران شقيقين.

في بداية القرن الثامن أسس الإمبراطور البيزنطي ليو الثالث الإسوري Leo III the Isaurian حركة تحطيم الإيقونات Iconoclasm. وتم حظر عبادة الأيقونات ومساواتها بالأوثان. بيد أن مثل هذا الإصلاح لم يرق لعامة الناس.

ماذا تمثل الأيقونة، وما هو الدور الذي تلعبه بالنسبة للمؤمنين؟

الإجابة الموسعة على هذه التساؤلات أعطاها عالم اللاهوت والشاعر يوحنا الدمشقي John of Damascus الذي لم يحاول إنشاء نظرية مبتكرة، وإنما على العكس من ذلك فقد وضع هدفه في تنظيم المعتقدات التي كانت موجودة قبله

بالفعل. وكان شعاره عبارة: «أنا لن أقول أي شيء من نفسي».

صاغ جون الدمشقي سبع سمات هامة للأيقونة، هي:

1. تقوم الأيقونة بوظيفة الكتاب بالنسبة لمن لا يجيد القراءة. الأيقونة – كتاب مقدس للأميين.
2. تقوم الإيقونة بوظيفة الخيط الذي يربط بين الماضي والحاضر، إنها تساعد الإنسان على تذكر تاريخه، وإدراك حقيقته.
3. تزين الأيقونة الغرفة التي توجد فيها (وظيفة تزينية).
4. عندما ينظر الشخص إلى الأيقونة، فإن الحديث يمكن أن يدور بداية عن «تأمل جسدي» فقط، إلا أنه يتحول تدريجياً إلى «تأمل روحي»، وإدراك باطني لله وأسراره.
5. الأيقونة – وما يصور فيها – حاملة لما هو سام. إلا أنه لا ينظر إلى «السامي» كفئة جمالية بمقدار أنه فئة لاهوتية.
6. النعمة الأسمى هي الممنوحة للأيقونة.
7. تلعب الأيقونة دوراً مهماً في العبادة الدينية إذ يقدسها المؤمنون[1].

في عام 843 تقدم مقدسو الأيقونات على محاربي الأيقونات. وبالاستناد إلى نظرية الدمشقي صاغ اللاهوتيون المسيحيون ثلاثة جوانب رئيسة تميز الصورة الأيقونية.

1. تلعب الأيقونة دور الكتاب لمن لا يجيد القراءة.
2. تثير الأيقونة لدى المؤمن مشاعر سامية مرتبطة بالعبادة الدينية.
3. تلعب الأيقونة دور «المساعد البصري»، وتساعد على ترسيخ العقيدة الكنسية وتمتين الإيمان لدى المؤمنين العاديين.

---

(1) انظر ف. أ. كوندراتوف ف. أ. علم الأخلاق. ي. أ. تشيتشينا. علم الأخلاق. روستوف نا دونو، 1998، ص 399.

قبل القرن التاسع لم ترسل الكنيسة البيزنطية الدعاة إلى البلدان الأخرى، لذلك تمكنت الكنيسة الكاثوليكية من شغل موقع المسيطر في أوروبا.

تتمثل الخاصية البارزة للثقافة البيزنطية في أنها تمثل انصهاراً لثقافات مختلفة. قبل كل شيء، تحافظ الإمبراطورية الشرقية على تقاليد العصور القديمة. وفي الوقت نفسه هي دولة أرثوذكسية يمكنك العثور فيها على آثار الثقافتين المسيحية واليهودية. وكان التأثير الكبير على الإمبراطورية البيزنطية قد لعبه جيرانها – المسلمون. ولا يخلو الأمر من تأثير الثقافات البربرية، في المقام الأول ثقافتا السلاف والجيرمان. وكما ذكرنا آنفاً فقد سمح للبرابرة بالسكن بحرية على أراضي بيزنطة، مما أدى إلى إثراء متبادل للثقافتين.

لم تنتقل السلطة الإمبراطورية في بيزنطة بالوراثة، وكثيراً ما يصبح حكاماً للدولة أناس أظهروا أنفسهم كقادة عسكريين مهرة. ويمكن للإمبراطور أن يكون منتمياً إلى أي جنسية، إذ لم تكن هناك أية أهمية لأصل الملك في الإمبراطورية الشرقية. وحملت سلطة الإمبراطور طابعاً إلهياً مقدساً، كما تميزت الإمبراطورية البيزنطية بالبيروقراطية المتقدمة. وتمثلت أعلى القيم الروحية في الزهد ونبذ المتع الدنيوية. وتعتبر الفترة الممتدة من القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر فترة ازدهار بيزنطة.

كثيراً ما يمكن في دراسة تاريخ بيزنطة مصادفة مصطلح «البزنطية Byzantinism » الذي يعني مجموعة المبادئ التي أعيد بتأثيرها إصلاح الإمبراطورية الرومانية تدريجياً[1]. في معجم بروكهاوس وإفرون الموسوعي الجديد Brockhaus and Efron Encyclopedic Dictionary توضح الملامح الرئيسة التالية للبيزنطية[2]:

(1) انظر علم الثقافة في أسئلة وإجابات. روستوف نا دونو، 1997، ص 202.

(2) انظر ف. أ. كوندراتوف ف. أ. علم الأخلاق. ي. أ. تشيتشينا. علم الأخلاق. روستوف نا دونو، 1998، ص 384.

1. القرن السادس إلى القرن السابع – القرن الثامن يجري استبدال تدريجي للغة اليونانية باللاتينية.
2. الطبيعة المتعددة الجنسيات للدولة البيزنطية.
3. توليف الأفكار والأيديولوجيات الهلنستية والشرقية.
4. الدور الكبير للتعاليم الصوفية في الحياة الروحية للبلد.
5. المحافظة.

الدور الهام في تطوير ونشر العقيدة الأرثوذكسية لعبه إنشاء الكتابة السلافية القديمة. وهناك أبجديات سلافية مختلفة:

1. الأبجدية السيريلية Cyrillic alphabet: مؤسسها هو الراهب كيريل Cyril (الذي كان اسمه قبل الرهبنة قسنطين). ووفقاً لرواية أخرى فقد قام بتطوير الأبجدية مع شقيقه ميثوديوس Methodius، حيث دخل الاثنان التاريخ كفقيهين عظيمين، فقد قاما بترجمة الكتب وإنشاء المؤسسات التعليمية. ويعتقد البعض أن كيريل وميثوديوس كانا سلافيين، في حين يعتقد آخرون أنهما كانا إغريقيين. وكانا في الأصل من مقدونيا، من مدينة ثيسالونيكي Thessaloniki. ووصلت الأبجدية السيريلية إلى الأراضي الروسية عن طريق بلغاريا. وفي عام 1708 أصدر بطرس الأكبر Peter I of Russia مرسوماً يقضي بتحويلها إلى ما يسمى بـ«الحروف المدنية».
2 •Glagolitic alphabet، وكتبت فيها معالم ثقافية–تاريخية، مثل «دستور زوغراف Codex Zographensis»، وكتاب «قداس كييف Kiev Missal». وانتشرت أبجدية غلاغوليستا في مورافيا Moravia وغرب البلقان في القرنين العاشر – القرن الحادي عشر.
3. أولي التعليم أهمية كبرى في بيزنطة، وتضمن التعليم الابتدائي دراسة

الأساطير الوثنية. وفي وقت لاحق استبدلت الوثنية بالمسيحية. وشمل التعليم الثانوي مقررات مثل القواعد، والإملاء، ونظم الشعر، كما دخلت في البرنامج الفلسفة النظرية والعملية وعلم وظائف الأعضاء. وتناولت الفلسفة النظرية اللاهوت، و«المربع الرياضي» الذي شمل الحساب والهندسة والفلك والموسيقى. وتكونت الفلسفة العملية من علم الأخلاق والسياسة والاقتصاد، في حين تمثل علم وظائف الأعضاء في دراسة الطبيعة.

أخذت المدارس العليا في الإمبراطورية البيزنطية بدايتها من العصور القديمة. والمكانة الرائدة احتلتها المدرسة العليا في القسطنطينية التي اندثرت في القرن الثامن، ولكن التقاليد التعليمية الغنية للإمبراطورية البيزنطية بقيت حتى سقوطها. ومنذ بداية القرن الثالث عشر انتقلت الوظيفة التعليمية إلى الأديرة.

تركت الإمبراطورية البيزنطية لنا آثاراً غنية في الفنون، بما في ذلك الهندسة المعمارية والرسم والفسيفساء. وأحد أروع آثارها العظيمة هي كنيسة كاتدرائية القديسة صوفيا (آيا صوفيا) Church of Hagia Sophia التي اكتمل بناؤها عام 538 في عهد الإمبراطور جستنيان.

هنالك عدة مداخل لتقسيم الثقافة البيزنطية إلى فترات، فيقترح ألكساندر بافلوفيتش مويسييف Aleksandr Pavlovich Moiseyev وسفيتلانا ميخايلوفنا بيتكوفا Svetlana Mikhailovna Petkova أربع مراحل أساسية لتاريخها، هي:

القرن الرابع – القرن السابع، وهي الفترة التي تم فيها تحول الثقافة القديمة إلى ثقافة العصور الوسطى. ظهر اللاهوت المسيحي، إلا أنه تم المحافظة على مبادئ الفكر العلمي القديم. وفي الوقت نفسه جرى تشكل المبادئ الجمالية الأساسية المميزة لفن بيزنطة (الذي يحمل الطابع الديني).

القرن السابع – منتصف القرن التاسع، وهي مرحلة الركود الاقتصادي،

فقد فقدت بيزنطة جزءاً كبيراً من أراضيها، وجرت عملية «تحويل المدن إلى ريف ruralization».

منتصف القرن التاسع – منتصف القرن الثاني عشر، وهي مرحلة الصعود الجديد.

منتصف القرن الثالث عشر – القرن الخامس عشر، وهي مرحلة الهبوط الجديد[1].

يبرز مؤلفون آخرون خمس فترات في تاريخ ثقافة بيزنطة:

القرن الرابع – القرن الثامن، وهي مرحلة الكفاح الناجح ضد غزو البرابرة واستيعاب جزء من القبائل البربرية، مما قاد إلى تمتين الإمبراطورية.

1. القرن الثامن– القرن التاسع، وهي مرحلة صراع محاربي الأيقونات مع مقدسي الأيقونات، وفيه يرى المؤلف انعكاساً للصراع بين النزعات الهيلينية والسلافية في ثقافة بيزنطة من جهة، والنزعات الشرقية والآسيوية من جهة أخرى، إذ تعرضت الأخيرة للهزيمة.
2. نهاية القرن التاسع – القرن الحادي عشر، حين انتشرت الأفكار البيزنطية في جنوب – شرق أوروبا. ويرجع ذلك – إلى حد كبير – لأنشطة كيريل وميثوديوس، وإنشاء الأبجدية السيريلية. ودخلت في تركيبة الإمبراطورية البيزنطية بلغاريا (التي انتقلت عن طريقها الأبجدية السيريلية إلى روسيا). وطور البطريرك فوتيوس Photios الأسس النظرية الكفيلة بحصول بيزنطة على الاستقلال الكنسي عن روما.
3. نهاية القرن الحادي عشر – بداية القرن الثالث عشر، فترة الحروب الصليبية.
4. القرن الثالث عشر– منتصف القرن الخامس عشر، فترة إمبراطورية

(1) انظر حلقات بحث في تاريخ الثقافة الروحية العالمية. روستوف نا دونو، 1984. ص 130.

نيقية Empire of Nicaea. بدت بيزنطة بين عدوين – روما في الغرب والمسلمين في الشرق. وسرعان ما تموت[1].

5. كانت بيزنطة محاطة بشعوب مختلفة لم يصبح أي منها حليفاً أميناً لها. وللوهلة الأولى بقيت البلدان الإسلامية عدوها الأول. وعندما كانت تضعف دولة إسلامية، تظهر دولة جديدة. في البداية، هدد القسطنطينية العرب، ومن ثم البربر، وبعد ذلك السلاجقة–الأتراك Seljuq الذين تمكنوا من سحق الجيش البيزنطي وأسر الإمبراطور. ووحده دعم روما الذي ساعد القسطنطينية على الصمود. بيد أن العلاقة مع الإخوة في الإيمان، أي المسيحيين الآخرين، تطورت بشكل ليس جيداً تماماً. وتمكنت بيزنطة من الحصول على حليف موثوق به في شخص بلغاريا، إلا أن الصراع على السلطة بينهما قاد إلى حربين لم يتم الحديث بعدهما عن أية صداقة. أما أمراء كييف الوثنيون فقد توجهوا إلى القسطنطينية تارة بحرب، أو أيدوا أباطرتها تارة أخرى. وبعد تعميد الروس أصبحت الروابط بين البلدين أوثق، ولكن لم يكن بالإمكان الحديث عن تحالف عسكري ضد أعداء بيزنطة.

بقيت روما العدو الخطير للقسطنطينية، إذ لم تكن الفاتيكان مستعدة لمشاركة بيزنطة لها في السيطرة على عقول الناس. في واقع الأمر الحروب الصليبية التي كانت تهدف إلى استرجاع كنيسة القيامة Church of the Holy Sepulchre في القدس من أيدي المسلمين سعت إلى تحقيق أهداف مغايرة تماماً، كان أهمها الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الأرثوذكسية. ومع ذلك، وفي فترة ألكسيوس الأول كومنينوس Alexios I Komnenos تمكنت بيزنطة من التعايش السلمي مع الصليبيين، إلا أن ذلك لم يدم طويلاً. وفي عام 1204، وخلال الحملة

(1) انظر علم الثقافة في أسئلة وإجابات. روستوف نا دونو، 1997، ص 203–205.

الصليبية الرابعة، أقدم الفرسان الغربيون على احتلال القسطنطينية ونهبها.

في مكان بيزنطة أنشأ الصليبيون الإمبراطورية اللاتينية Latin Empire، واحتفظت القسطنطينية بدور العاصمة، الأمر الذي ليس مستغرباً نظراً لموقعها الجغرافي. ودخل في الإمبراطورية اللاتينية كل من دوقية أثينا Duchy of Athens، وإمارة أخايا Principality of Achaea، ومملكة تسالونيكا Kingdom of Thessaloniki وعدد من البلدان الأخرى. وفي عام 1261 تمكنت بيزنطة من استعادة الاستقلال (مما أدى إلى تدمير الإمبراطورية اللاتينية)، إلا أنها فقدت أهميتها السياسية إلى الأبد.

أدى سقوط القسطنطينية إلى تغيير طرق التجارة التي كانت تمر عبر البحر الأبيض المتوسط، فقد أصبح التركيز ينصب على جنوب إيطاليا. ولا عجب أن تبدأ النهضة في هذه المناطق تحديداً، فبفضل التجارة مع الأغنياء، ونمو المدن والحرف، أثبتت أنظمة العصور الوسطى نفسها هنا قبل البلدان الأوروبية الأخرى بكثير. وفي عام 1453 استولى الأتراك العثمانيون على القسطنطينية، ولم تعد الإمبراطورية البيزنطية موجودة. قبل ذلك بـ 15 عاماً اعترفت بنفسها تابعة لروما والكنيسة الكاثوليكية عن طريق توقيعها الاتحاد. أمل بابا روما في أن تعترف روسيا أيضاً بهذه الوثيقة، لكن ذلك لم يحدث.

الفصل العاشر

ثقافة الخلافة العربية

عاشت منذ زمن بعيد في شبه الجزيرة العربية القبائل السامية، أسلاف العرب الحاليين، كما كان هنالك أيضاً عدد كبير من الجاليات اليهودية والمسيحية. وتفاعل الناس من مختلف الأديان فيما بينهم مثرين ثقافاتهم.

يبدأ أهم فصول تاريخ ثقافة شبه الجزيرة العربية في فترة القرنين الخامس والسادس، إذ بحلول هذه الفترة خرجت الدول القديمة من المشهد التاريخي، وانهارت العلاقات التجارية بين قوى الماضي، وظهرت دول تختلف عن أسلافها. عاش هناك البدو الرحل والسكان المستقرون، على الرغم من هيمنة الأولين. والدور الرئيس لم تلعبه التجارة الخارجية، وإنما الاتصال البيني داخل شبه الجزيرة العربية. في هذا العالم المضطرب، حيث كان الخطر يهدد الحجاج من كل حدب وصوب، كان الناس في حاجة إلى مناطق محايدة يسودها النظام، ويشعر كل شخص فيها بالأمان. ولعبت هذا الدور مناطق المراكز التجارية المقدسة (الحرم).

حملت العلاقات التجارية مع كل من بلاد ما بين النهرين وسوريا وفلسطين ومصر والحبشة طابع المنفعة المتبادلة. والأكثر أماناً في تلك الفترة كانت طرق التجارة في الجنوب. وعبر شمالي شبه الجزيرة العربية مرت أيضاً طرق القوافل، إلا أنها كانت تحت سيطرة القوى المتنافسة، مما جعلها غير مريحة. وعبر مكة التي أصبحت مركزاً سياسياً مهماً سارت القوافل الغنية تحمل الخمور والتوابل والأحجار الكريمة والحرير الصيني. وسَمَت مكة أكثر بعد أن أصبحت المركز

الديني للقبائل العربية كافة.

في عام 570 أخضعت إيران اليمن كاملاً لسيطرتها، وأصبحت التجارة بأكملها تسير عبر الطريق الشمالية، وهُجرت طرق التجارة الجنوبية في شبه الجزيرة العربية. حدث انخفاض في التجارة، وتبدلت طريقة الحياة التقليدية بشكل جذري. وأثرت كل هذه العوامل بشكل سلبي على التنمية الاقتصادية للشعوب العربية. ومن ضمن العوامل السيئة ينبغي أيضاً ذكر الخلافات المتكررة بين القبائل التي أضعفتها وتسببت بتشتتها. وتطلب الوضع المتأزم توحيدها. الأمر الذي أصبح واحداً من الأسباب التي أدت إلى ظهور الدين الجديد، الإسلام، كفكرة موحِّدة.

ولد الإسلام عند نقطة تلاقي الثقافتين الأوروبية والشرق أوسطية، وهناك تأثير كبير على تشكل الإسلام لعبته الأديان الأخرى، إذ يمكن العثور في الإسلام على اقتباسات من كل من اليهودية، والمسيحية، والزرادشتية، والمانوية، والفلسفة اليونانية، والقانون الروماني، والنظام الإداري للإمبراطوريات الفارسية القديمة، وبقايا طقوس العبادة العربية القديمة. ومثَّلت الثقافة البدوية والعرق العربي ونظام الدولة الضعيف التطور أساساً لهذه التوليفة.

كان معظم العرب يعبدون الشمس، والقمر، والأجداد الموتى، وقوى الطبيعة. وكان لكل قبيلة آلهتها الخاصة بها. وانتمى إلى إحدى قبائل القرشيين حرم الكعبة Caaba القديمة المشرفة (مكعب)، حيث الحجر المقدس القديم. وتحول الحرم إلى مركز عبادة للعديد من القبائل التي كانت تعيش حول مكة المكرمة. وإجمالاً كان هناك ما يقرب من 500 إلهاً قبلياً، في حين تباينت الحالة الاقتصادية للقبائل التي كانت تعبدها. ومع مرور الوقت أصبحت عبادة آلهة القبائل الأقوى إلزامية للآخرين. وبعد أن أصبحت مكة المركز الديني الرئيس، وضعت في المكانة الأولى الإله القبلي لقرشيي مكة الله (باللغة العربية «الإله»).

فقد أعلنه المسلمون الإله الواحد القادر على كل شيء. وهكذا بدأت ديانة التوحيد لدى العرب.

في القرن السادس بدأت في جنوب شبه الجزيرة العربية حركة دينية جديدة. ولعب الأنبياء – الدعاة، أو الحنيفيون Hanifs، دوراً مهماً في تشكيل الإسلام، وذلك بتهيئتهم الأرضية للتعاليم الإسلامية. دعا الحنيفيون القبائل العربية المبعثرة إلى التخلي عن الشرك، والاعتراف بالإله الواحد. وعلى الأرجح كانت الفكرة التي روج إليها الحنيفيون مقتبسة من المسيحية واليهودية. ولم تحفظ معلومات عن هذه التعاليم، ومع ذلك، بإمكاننا من الكم اليسير المتبقي من الأدلة أن نستنتج أن المقصود لم يكن هنا يهوه Yahweh أو الثالوث Trinity، وإنما عن إله آخر واحد دعا الأنبياء – الدعاة إلى الإيمان به وحده.

استخدم بعض الأنبياء في خطبهم على نطاق واسع كلمة الله. «ال» (أو «إل») – الجذر السامي لمفهوم «الرب». ومن الناحية العملية لم يخرج الحنيفيون بشيء، إلا أن ترويجهم لفكرة الإله الواحد لعبت دوراً مهماً في تشكيل الإسلام. وأعلن جميع الأنبياء أنفسهم أشخاصاً مفوضين من الإله الجديد. إلا أن أهمهم كان النبي محمد.

ولد محمد في عام 570 في قبيلة هاشم الفقيرة. وبعد أن فقد والديه، اضطر إلى الانخراط في إدارة أموال الأرملة الثرية خديجة. وبمرور بعض الوقت، وبعد أن أصبح نبياً، تزوجها، وكان الزواج ناجحاً. في البداية أدار النبي شؤون تجارة زوجته، ولكن بعد ذلك بدأ بسماع صوت «إلهي». وبعد وفاة خديجة كان لدى النبي زوجات عدة، ما يعتبر إلى يومنا هذا معياراً بالنسبة للمسلمين. ومنذ عام 610 أصبح محمد النبي المعترف به.

يتمثل المغزى الرئيس لنبوة محمد في أنه لا يوجد سوى إله واحد، هو الله، وينبغي أن يكون الجميع مذعنين لمشيئته. وكانت عظات محمد واضحة

ومفهومة للجميع. وتحدث النبي عن أخوة المؤمنين، ودعا إلى مراعاة أبسط القواعد الأخلاقية. وتشكلت طائفة كبيرة من المؤمنين الذين دخلوا إلى فكرة الإله الجديد الذي تحدث إلى البشر عن طريق النبي محمد.

تزايد بشكل سريع عدد أتباع محمد في مكة. ولم يستطع ذلك ألا يثير الخوف لدى التجار الأغنياء الذين كانوا يؤمنون بالمعتقدات الدينية القديمة، إذ لم تر النخبة المكية معنىً للدين الجديد، ولم ترغب في أي تغيير في هذا الصدد، وكانت تخشى من تزايد شعبية الواعظ الجديد.

أثارت الدعوات إلى الحد من الربا، ومساعدة الفقراء استنكاراً أكبر من جانب سلطة ذوي الأملاك. وعارض كثيرون جداً تعاليم النبي الجديد الذي عندما لم يجد التأييد الواسع لأفكاره في مكة، بدأ بالتفاوض مع قبيلتين من يثرب Yathrib (التي أصبحت في وقت لاحق تسمى بالمدينة المنورة Medina – «مدينة النبي City of the prophet»). وبالنتيجة حصل محمد على إمكانية الهجرة مع أتباعه إلى هناك، حيث استقبلهم سكان المدينة بسعادة بالغة. في المدينة أسس النبي مجتمعاً مسلماً لم يكن مبنياً على أساس قرابة الدم، وإنما وفقاً لمعتقداتهم الدينية. ويعتبر عام 622 العام الأول للدين الإسلامي الجديد، ويبدأ الحساب الزمني الإسلامي من السنة التي هاجر فيها النبي إلى المدينة المنورة (باللغة العربية «هجرة» تعني «الانتقال»).

أصبح المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة مؤثراً، وظهر لديه أتباع كثيرون، وسرعان ما أصبحت المناطق الجنوبية والغربية لشبه الجزيرة العربية بأكملها تحت تأثير الدين الجديد. وبحلول ذلك الوقت حدثت تغييرات كبيرة في آراء النبي نفسه، فظهرت لديه الرغبة في فصل الإسلام عن غيره من المعتقدات الدينية، حتى القريبة منه.

وضع مجتمع المدينة المنورة نظامه الداخلي الخاص، والأشكال التنظيمية.

وكانت أولى القوانين واللوائح ذات صلة بالطقوس والعبادة، وكذلك قواعد الحياة اليومية. حث محمد أتباعه على المواظبة على أداء الصلاة لله يومياً، وترافقت الصلاة مع الأذان والوضوء. وكان لزاماً عليهم الصيام في أوقات محددة من السنة، ودفع ضرائب إلى خزينة المؤمنين العامة لصالح الفقراء. وتعود فكرة الإسلام عن يوم القيامة إلى الكتاب المقدس، والجنة والنار، والشيطان، والجن. وفي بداية نشاطه ناصر محمد الفقراء بشكل فعال.

كانت المقاومة الأطول للدين الجديد من قبل أشراف مكة. وبين مكة المكرمة غير الراغبة في تقبل النبي الجديد ودينه، والمدينة المنورة بدأ صراع طويل. واضطر المكيون للخضوع إلى النبي الجديد. وفي عام 630 دخل محمد مكة المكرمة منتصراً.

قوبل الدين الجديد بحماس كبير، لأنه أعطى العرب كل ما كانوا يحتاجون إليه. وفي القرن السابع كان من الضروري التوحد لمواجهة الأعداء المحيطين. وأصبح المذهب الجديد راية جرى التوحد حولها. ولم يظهر مجرد دين خاص ورب، وإنما تم تحديد تلك الطريق التي ينبغي أن يسلكها المؤمنون الحقيقيون. ويعتبر الناس غير المسلمين كفاراً ينبغي توجيههم إلى الايمان الحقيقي.

أصبحت مكة مركز العالم الإسلامي، في حين أصبحت الدولة الإسلامية تعرف باسم الخلافة العربية. وركز الخلفاء في أيديهم كامل السلطتين العلمانية والروحية. وقبل وفاته، أرسل محمد رسائل إلى حكام الحبشة وفارس وبيزنطة داعياً إياهم لاعتناق الإسلام. وبقيت هذه الرسائل دون رد. وبدأت الخلافة بالفتوحات لإخضاع الشعوب الأخرى.

في بداية القرن السابع فتحت قوات الخلافة العربية بلاد الشام ومصر، حيث كان يقوم حكم البيزنطيين. إلا أن الحرب الطويلة بين فارس وبيزنطة أضعفت بيزنطة، فظفر العرب بالانتصار بسرعة. ومثلت بلاد فارس الهدف

التالي، وانتهت معركتان داميتان بانتصار العرب الذين فتحوا فارس.

كان قهر بيزنطة نفسها أكثر صعوبة، فحاصرت قوات الخلافة القسطنطينية، لكنها لم تتمكن من الاستيلاء عليها. وهكذا عرفوا أن جيشهم لا يقهر. وفي الواقع، يرجع نجاح فتوحات الخلافة إلى حد كبير إلى حقيقة أن المسلمين دخلوا أراضي محتلة من قبل آخرين. ولم يكن السكان المحليون على استعداد لدعم غزاة في الصراع مع غزاة آخرين. وهكذا نجح العرب في فتح شمال إفريقيا وإيبيريا.

بعد ذلك غزت قوات الخلافة أوروبا، ووصلت إلى فرنسا، إلا أن الفرنجة تمكنوا من إيقافها في معركة بواتييه Poitiers. وفشلت أيضاً الحملة على الشرق، حيث واجهت جيش الصين، وتراجعت. وتمكن العرب من الوصول إلى تيان شان Tian Shan، إلا أن النجاح لم يحالفهم في الهند ومرد ذلك إلى الظروف الجغرافية غير المعتادة على الإطلاق. زهاء عام 750 كفت الخلافة عن فتوحاتها.

أدى توحد القبائل العربية تحت راية الإسلام إلى إنشاء مجتمع عرقي – ثقافي كانت له بنية سياسية قوية. ولم توسّع سياسة الفتوحات حدود هذا المجتمع فحسب، وإنما سمحت أيضاً بالأسلمة الإلزامية للشعوب المهزومة. من جهة أخرى تأثر الفاتحون بثقافة الشعوب التي انتصروا عليها.

ساعدت هذه العملية على إثراء التراث العربي – الإسلامي على حساب التأثيرات الثقافية الغربية العديدة عليه. وكانت كل من مصر وبلاد ما بين النهرين والهند وفارس وآسيا الوسطى وإفريقيا وأسبانيا تمتلك تقاليد ثقافية غنية استطاعت أن تؤثر على ثقافة الفاتحين. ويمكن التأكيد على أن التفاعل بين الثقافات مكّن الثقافة العربية – الإسلامية في القرون الوسطى من تزعّم الحضارة العالمية لبعض الوقت.

في عام 660 أصبحت دمشق التي تقع في سوريا عاصمة للخلافة. وفي

750 أسهم الفرس في إشعال تمردٍ في دمشق، أدّى إلى قتل الخليفة وأسرته بأكملها. وانتقلت العاصمة إلى بغداد الواقعة في العراق، بالقرب من أنقاض بابل. وهكذا تعاقب على الخلافة عدة أسر حاكمة: الأمويون (661–750)، والعباسيون (750–929).

في عام 929، وعلى أساس إمارة قرطبة، تأسست خلافة قرطبة Caliphate of Córdoba التي تميزت بمستوى عال من التطور الاقتصادي وتوحيد للناس الذين يعتنقون ديانات مختلفة مع المسلمين الأصيلين. وامتلكت الخلافة مكتبة غنية جمعت فيها مؤلفات في مختلف فروع المعرفة. وإلى جانب علم الدين والفقه درس الطلاب في جامعة قرطبة العلوم الدقيقة والطب. في عام 1031 سقطت خلافة قرطبة، إلا أن العالم الإسلامي واصل توسعه.

في الإسلام ثمة تيارات مختلفة، أهمها السنة والشيعة. السنة، بالاختلاف عن الشيعة، يعترفون بشرعية سلطة أول أربعة خلفاء، ويدعونهم «بالخلفاء الراشدين الأربعة»، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي. أما الشيعة فلا يعترفون إلا بعلي. ووضع السنة مبادئ إقامة الدولة الإسلامية. ووفقاً لمفهومهم يُبرم بين المجتمع الديني (الأمة) والمسلم الراغب في شغل منصب حكومي رفيع اتفاق.

وضع عالم الدين في العصور الوسطى الماوردي Mawardi شروطاً يجب توفرها عند كل خليفة في المستقبل. ينبغي أن يتمتع بسمعة طيبة ولقب عالم دين – أي عالم شريعة من أعلى رتبة، وينتسب إلى قبيلة قريش. ويجب على الخليفة أن يكون عادلاً، وحكيماً، ومهتماً برفاهية رعيته. وشكلت الصحة الجيدة الشرط الملزم للراغب في شغل منصب عالٍ.

اختلف وضع الخليفة، بوصفه رئيساً للدولة، اختلافاً كبيراً عن أوضاع حكام البلدان الأخرى في ذلك الوقت، فهو لم يعتبر إلهاً كفراعنة مصر القديمة، ولا ابن الله، ولا حتى نائبه على الأرض (كما كان الحال في جميع بلدان العالم

القديم تقريباً). الخليفة – هو رجل مسلم عادي ملزم برعاية المسلمين الآخرين ومتابعة تنفيذ الشريعة (القانون).

بالنسبة للمسلم الحقيقي هنالك مجموعة من التعاليم يجب أن يتقيد بها بشكل صارم في مراحل حياته جميعها، وبغض النظر عن الظروف. مبدأ الجهر بالإيمان بالله، إذ يكفي كي يصبح المرء مسلماً أن يلفظ عبارة: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، فبلفظه لهذه الكلمات يعلن المرء طاعته لمشيئة لله، ويصبح مسلماً. الله خلق كل شيء، فهو عظيم وقادر. الله واحد. وينبغي على المؤمن الحقيقي أيضاً مراعاة ما تبقى من تعاليم.

الصلاة هي عبادة إلزامية ينبغي أن يؤديها المؤمنون خمس مرات في اليوم. ويعفى من أداء هذه العبادة شديدو المرض، والضعفاء، والصغار. ولعبت الصلاة خمس مرات في اليوم دوراً كبيراً في ترسيخ أفكار الإسلام في وعي المسلمين. وتتكون الصلاة من أجزاء منظمة بدقة وهي إلزامية لكل مؤمن.

تجب تأدية الصلاة فجراً، وظهراً، وعصراً، وعند غروب الشمس، وعشاءً. وكقاعدة عامة تؤدى الصلاة فردياً، وإذا كانت في جماعة ففي المساجد تحت قيادة الإمام («الواقف في الأمام»). وعادة ما يجتمع نحو 40 رجلاً. ولا تصلي النساء في المساجد. وتتكون الصلاة عادة من ركعتين، والركعة هي الشعيرة المحددة بدقة بحركات للجسد أثناء الصلاة وترتيب للصيغ الدينية.

قبل التوجه إلى الله يجب على المصلي أن يقوم بالوضوء، وفي حال عدم وجود الماء يمكن القيام بذلك بمساعدة التراب. ويصلي المؤمنون بملابسهم، ويقفون على سجادة خاصة، ويتجهون باتجاه مكة المكرمة. كذلك يجب أن يكون مكان الصلاة طاهراً، ولا يجوز أداء الصلاة بالقرب من المقابر والمسالخ والمراحيض وغيرها من المواقع الملوثة، وتؤدى كذلك صلوات خاصة، على الميت، وعند ولادة المولود، وعند الشروع بعمل كبير وما إلى ذلك.

الصيام هو الركن الثالث الواجب على المسلمين. تتألف السنة القمرية الإسلامية من 354 يوماً (ويعيش المسلمون إلى اليوم وفقاً للتقويم القمري). ويجري تعاقب الأشهر في التقويم الإسلامي بغض النظر عن الفصل والتقويم المعمول به في جميع أنحاء العالم. قد يقع وقت الصوم في موسم عمل الحقول الثقيل، ومع ذلك يتقيد به الجميع بشكل صارم. يستمر رمضان لمدة شهر، ومن شروق الشمس إلى غروبها يمتنع المؤمنون عن تناول الطعام والشراب والدخان واللهو. ولا يستطيع المؤمنون في هذه الفترة تناول الطعام وحسب، وإنما شم الأكل أيضاً. وقبل غروب الشمس تجب صلاة الشكر إلى الله، وبعدها فقط يستطيع المسلمون البدء بتناول الطعام. ويعفى من الصيام الأطفال الصغار والمرضى، إضافة إلى المسافرين الذين يتوجب عليهم القضاء عند عودتهم. ويصوم المسلمون أيضاً عند النذر، وعند الجفاف، وقضاءً لأيام الإفطار من شهر رمضان.

الزكاة هي الركن الذي يقتضي أن يقدم المؤمنون الميسورون جزءاً من دخلهم إلى الفقراء. وينص القرآن الكريم على واجب دفع الزكاة التي تحدَّدَ حجمها وترتيبها في الشريعة بالتفصيل. بالإضافة إلى الزكاة الإلزامية، هنالك المزيد من الصدقات. وتقدم الصدقات إما للأفراد مثل المساكين، أو تعطى لبناء المساجد والمدارس والمستشفيات.

يعتبر الحج أقل أركان الإسلام إلزاماً، ويعتقد أنه يجب على كل مسلم قادر على زيارة الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والعبادة عند الكعبة. ويصل الحجاج إلى مكة المكرمة في أيام التضحية العظيمة إلى الله. وإذا كان المسلم يزور مكة المكرمة في أي وقت آخر، لا تحسب هذه الزيارة حجاً. يزور الحجاج الأماكن المقدسة في مكة المكرمة، والمدينة المنورة، والقدس، ويطوفون حول الكعبة سبعة أشواط، ويقبلون «الحجر الأسود»، ويضحون. و بعد أداء هذه

الفريضة يمكن فقط للمسلم الحصول على لقب حاج.

وفقاً لأحكام الشريعة ينبغي على الحاج تلبية مجموعة من المتطلبات: ينبغي أن يكون قد بلغ سنّ الرشد، وأن يكون سليم العقل، وأن يكون صحيح البدن. ويجوز تأجيل الحج في حال كانت الطريق خطرة، أو عندما يكون لدى المؤمن أعمال لا تحتمل التأجيل. وبالإضافة إلى ذلك، يجب أن يكون لدى الحاج الأموال الكافية للطريق والتنقل ولأسرته. ويستطيع الحاج التوجه إلى الحج فقط عندما يكون متأكداً من أن أملاكه لن تضيع في غيابه. والحج ليس ملزماً للفقراء. ويمكن أداء الحج بالوكالة، فإذا كان لدى المسلم الأموال، ولكن حالته الصحية لا تسمح له بأداء فريضة الحج إلى الأماكن المقدسة، يمكنه استئجار شخص آخر لأداء فريضة الحج عنه.

بالإضافة إلى هذه الأركان الخمسة، هناك أيضاً ركن سادس هو الجهاد – الحرب المقدسة ضد الكفار. ويشير مفهوم «العالم الإسلامي» إلى مجمل العالم الذي يقر بقوانين القرآن الكريم ويطبقها. والنقيض له هو «دار الحرب» – «منطقة الحرب»، أي المنطقة التي لا تعترف بقوانين القرآن، وينبغي أن تتحول إلى عالم يعترف بالقرآن الكريم ويعيش وفقاً لقوانينه. وسمي الجهاد بـ «الحرب المقدسة» لأنه يتوجب عليه تحويل «أراضي الحرب» إلى عالم الإسلام.

لا يعترف الإسلام من حيث المبدأ بالفروق القومية الصارمة، فوفقاً لعقيدة الإسلام ينقسم الناس إلى ثلاث فئات:

المؤمنون الحقيقيون، أي أولئك الذين يؤمنون بإله واحد، هو الله.

1. أهل الذمة، وهم اليهود والمسيحيون في العالم الإسلامي، ويسمون أيضاً «أهل الكتاب»، و«أصحاب الكتاب المقدس».
2. المشركون، وينبغي إما تحويلهم إلى سبيل المؤمنين، أو القضاء عليهم.
3. وثمة مجموعة من الطقوس في المجتمعات الإسلامية، أهمها:

الختان (سنَّة)، وهو طقس يرمز إلى نضج الصبي، وأنه لن يرجع إلى النصف الأنثوي، بل إنه ينضم إلى عالم الرجال.

- عقد القران، وهو طقس يؤديه أحد قيمي الإسلام. وعادة ما يقرأ السورة الرابعة من القرآن الكريم، التي تصف الأحكام الرئيسية للإسلام عن مكانة وحقوق ومسؤوليات المرأة في الأسرة والمجتمع.
- ولادة الطفل، لا سيّما الذكر.
- الجنازة، إذ يودع المؤمن الحقيقي إلى مثواه الأخير الأقارب ورجال الدين، حيث يقومون بقراءة صلوات الجنازة من القرآن الكريم. وهذا الطقس هو مكلف جداً. ويفسر ذلك أنه من أجل الحصول على مكان في الجنة، ينبغي دفع الكثير.
- يحتفل في الإسلام بالأعياد العائلية جميعها.
- يمثل عيد الفطر أحد الأعياد الدينية العامة، ويصادف اليوم الأول من شهر شوال بعد صيام شهر رمضان.
- العيد الكبير الثاني عند المسلمين هو عيد الأضحى، ويصادف اليوم الـ 70 بعد انتهاء الصيام.
- يحتفل بشكل رائع بعيد ميلاد النبي، ونهاية الصوم.

يتمثل الأساس القانوني للشريعة الإسلامية في القرآن والسنة. وفي فترة القرن الثامن – القرن التاسع تأسست أربعة مدارس للشريعة الإسلامية مازالت محافظة على تأثيرها حتى يومنا هذا.

1. المذهب الحنفي – الحنفية Hanifism. وتولي هذه المدرسة اهتماماً خاصاً للتفسير الفردي. وينبغي في معالجة القضايا المثيرة للجدل تطبيق طريقة القياس، مع ضرورة الاستعانة باقتباسات من آيات القرآن وأحاديث السنة. وتنتقد الحنفية بعض الأحكام لأحاديث معينة (الاستصلاح).

وتعتبر الشريعة الإسلامية الاتجاه الحنفي الأكثر مرونة، والأكثر قدرة على التكيف مع الوضع السريع والمتغير في العالم.

2. المذهب المالكي – المالكية Malikism. وتتمثل أسس هذا المذهب في القرآن والسنة والعادات. وفي أنشطتها تستند المالكية إلى منهجية نقد الأحاديث، ومن بين جميع الأساليب تستخدم الإجماع والرأي.
3. المذهب الشافعي – الشافعية Shafism، ويعترف الشافعيون بالقرآن والسنة كأساس للشريعة، ويستخدمون الإجماع والقياس في عملهم، في حين يرفضون الرأي والاستصلاح، وهم غير متسامحين مع المضاربات.
4. مذهب ابن حنبل – الحنبلية Hanbalism. وتعتمد هذه المدرسة في ممارساتها إلى حد كبير على الأحاديث، وتستخدم أساليب الرأي والإجماع والقياس بشكل محدود للغاية.
5. وتولى مذاهب السنة الأربعة أهمية متساوية.

الشريعة («السوي، الصحيح») – هي النظام الموحد للشريعة الإسلامية الذي يضم المدارس الأربع. وتتمثل ميزتها الهامة في أنها واحدة، يغيب فيها التقسيم إلى مدني وديني وجنائي. وتستند الشريعة على القرآن والسنة، فضلاً عن مجموعات الفقه، أي مجموعات الشريعة الإسلامية وموجزاتها التي طورتها المدارس الأربع على مدى أعوام طويلة، ولديها قوة القانون.

ويتمثل الهدف الرئيس للشريعة في تقييم الحالات الحياتية المختلفة من وجهة نظر الدين. ويمكن اعتبار قوانين الشريعة تنظيماً قانونياً لسلوك المؤمنين، والتزامهم تجاه الناس والمجتمع والله.

تقسم قواعد الشريعة إلى ثلاثة أجزاء:

الواجبات التي ترتبط بالعبادة الدينية،

– القواعد القانونية البحتة،

- نظام العقوبات.
- يسمى القانون العرفي بالعادات، ويمتاز بالمؤسسة التقليدية لثأر الدم.

ويحمل نظام العقوبات طبيعة قاسية جداً تجاه من يقوم بسرقة ممتلكات شخص آخر. والعقوبة قاسية جداً أيضاً حتى في قضية سرقة بسيطة. وفيما يتعلق بالقتل فإن الشريعة الإسلامية تظهر بعض المرونة، لاسيما عندما يتعلق الأمر بالقصاص. وينص القرآن الكريم على أن القصاص يجب أن يكون معادلاً في الطبيعة: الحر بالحر، والعبد بالعبد، والمرأة بالمرأة. ويدان الانتحار.

وفقاً لأحكام الشريعة هنالك خمس فئات رئيسة لأعمال الناس:

1. إلزامية، ينبغي تنفيذها بشكل صارم، ويستوجب عدم تنفيذها عقوبة عادلة.
2. مستحبة ولكن غير إلزامية، يتوقف تنفيذها أو عدم تنفيذها على المؤمن نفسه.
3. مباحة.
4. منكرة، يدان القيام بها، ولكن لا يعاقب عليها.
5. محرمة، يعاقب عليها.
6. لدى تقييم هذا العمل أو ذاك ينبغي، بل يجب، أن تؤخذ في الاعتبار نوايا الشخص. في بعض الأحيان ينبغي تقييم الوضع ليس فقط من حيث الأمر الواقع، بقدر الأخذ في الاعتبار النوايا التي كانت لدى الشخص. وإلى عداد تعليمات القرآن الكريم تنسب القواعد المتعلقة بحقوق المرأة ومكانتها، إذ يرد في القرآن الكريم: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ (على النساء) دَرَجَةٌ﴾ (سورة البقرة، الآية 228)، وتقتضي القواعد الإجرائية للشريعة وجوب شهادة امرأتين بشهادة رجل واحد (سورة البقرة، الآية 282).

وفي تقسيم الميراث ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾ (سورة النساء، الآية 175)، وللابن مثل حظ الابنتين (سورة النساء، الآية 12) وما إلى ذلك.

للرجل الحق في امتلاك أربع زوجات في حال كانت لديه الوسائل اللازمة لرعايتهن. وينبغي على الزوجة والأَمَةِ طاعة الزوج (السيد)، وتعاقب المرأة بشكل قاسٍ جداً على الخيانة. ﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَ﴾ (سورة النساء، الآية 34). وفي بعض المجتمعات الإسلامية المتشددة، يجب على النساء تغطية وجوههن، وطريق التعليم مغلقة أمامهن فعلياً. بيد أن القرآن الكريم والشريعة كرسا بعض حقوق المرأة، فمثلاً لا يمكن فصل الأم عن الأطفال حتى بلوغهم سن السبع سنوات، كما حددت حقوق معينة للمرأة عند تقسيم الأملاك، والميراث، والطلاق.

بالإضافة إلى ذلك، تفرض قيود معينة في إطار الشريعة الإسلامية على المؤمنين جميعهم، إذ يحرم على المسلمين شرب الخمر وغيرها من المشروبات الكحولية، وتناول لحم الخنزير، كما يحرم عليهم اللعب بألعاب الحظ، وهنالك حظر على تصوير الناس وحتى الحيوانات. ومع ذلك، ينبغي الإشارة إلى أن ذلك لا يطبق دائماً.

لعبت المساجد دوماً دوراً كبيراً في حياة المؤمنين، ففيها تحديداً جرى حل القضايا الحيوية والراهنة، وفيها تم جمع الصدقات والتبرعات، واتخاذ القرارات المختلفة التي تتطلب وجود عدد كبير من السكان المحليين. وكانت للمساجد أهمية كبيرة في تعليم الجيل الناشئ، إذ كان التعليم في الإسلام دوماً في أيدي رجالات الدين، وكان ذا طابع ديني. ويعتبر الإمام والفقيه في الوقت ذاته معلمين أيضاً. وكان يقبل للتعليم في المدارس التابعة للمساجد الأولاد في سن المدرسة.

في المدن الكبرى تأسست مدارس تابعة للمساجد، حيث درس فيها علماء

الدين والفقهاء والمشرعون. وأصبح كل من أنهى الدراسة في المدارس أو الجامعات علماء إسلام. ويعطي التعليم للمؤمنين الإمكانية لأن يصبحوا فقهاء (أئمة)، ومعلمين (رجال الدين)، وإداريين وقضاة (قضاة)، ومثقفين (علماء).

أصبح العالم العربي – الإسلامي مركزاً للعلم والفلسفة (الكندي Al–Kindi، الفارابي Al–Farabi، ابن سينا (Avicenna) Ibn Sīnā)، الغزالي Al–Ghazali، ابن رشد (Averroes) Ibn Rushd، وابن جبيرول Ibn Gabirol، ابن ميمون ben Maimon)، وحظي النشاط العلمي في البلدان الإسلامية في فترة القرن الثامن – القرن الثاني عشر بالتقدير العالي، نظراً لاعتباره وسيلة للارتقاء بالإنسان من الناحية الأخلاقية. وحصلت العلوم الطبيعية تدريجياً على الاستقلالية في علاقتها مع الدين.

عُرف عالم الرياضيات والفلك محمد الخوارزمي Muhammad Al–Khawarizmi كصاحب مؤلفة الرياضيات التي وضعت الأساس لعلم الجبر. وعن طريق مؤلفاته التي ترجمت إلى اللاتينية تعرف الأوروبيون على «الأرقام العربية» التي في الواقع اخترعت في الهند، وليس في شبه الجزيرة العربية.

كان عالم الفلك البتاني Al–Battani أول من استخدم الوظائف المثلثاتية التي تسمح بالقيام بعملية حسابية أكثر دقة عند مراقبة الأجرام السماوية. ووصفت قوانين انعكاس وانكسار الضوء في أعمال ابن الهيثمIbn Al–Haytham . وكان أحد أبرز العلماء هو البيروني Al–Beruni الذي عمل في مختلف مجالات المعرفة، وأعرب للمرة الأولى في منطقة الشرق عن فكرة أن الأرض تدور حول الشمس. وعلاوة على ذلك، حدد البيروني طريقة وضع خطوط الطول، وطول محيط الأرض.

يعرف الشاعر الكبير عمر الخيام Omar Khayyám أيضاً كعالم ربط حل المعادلات الجبرية في الهندسة، كما أنه أصلح التقويم، وكان قريباً من الفلسفة

الطبيعية القديمة، ورأى الأفكار عن الآخرة والجزاء بعد الوفاة خالية من المعنى، وأدان النفاق والتعصب.

على الرغم من اعتبارها اليوم علماً زائفاً، إلا أن الكيمياء أسهمت مساهمة كبيرة في تطوير العلوم الطبيعية، فقد تمكن الكيميائيون من اكتشاف بعض العناصر، التي اعتبرت معرفتها هامة جداً للكيمياء.

أدى انتشار المعارف في البلدان الشرق أوسطية كما في أوروبا إلى تطوير موقف حاسم تجاه الدين، فقد كان البيروني من مؤيدي التسامح الديني، وفصل العلم عن الدين، في حين أصر الفيلسوف والطبيب الرازي Al–Razi على أنه يمكن للفلسفة وحدها، وليس النظرية الدينية، بلوغ الحقيقة، وسخر من القصص عن معجزات الأنبياء.

اعتقد الطبيب والمفكر أبو علي حسين ابن سينا بأنه بإمكان المرء عن طريق تحسين معارفه التقرب إلى الله. ومؤلفاته الفلسفية الرئيسة هي «كتاب الشفاء The Book of Healing» و«كتاب الخلاص The Book of Deliverance». واعتقد ابن سينا أن المهمة الوحيدة هي شفاء جسد الإنسان وروحه، وأكد على أن العقل البشري قادر على فهم العالم، الأمر الذي يتناقض مع التوجه الديني لمحدودية الفهم البشري للأحداث التي تقع بمشيئة الله. ويقر ابن سينا بوجود الله «كحقيقة ضرورية»، في حين أن وجود كل ما تبقى من أشياء هو ممكن فقط. ويتطلب تحقيق هذه الإمكانية جوهراً، «فهناك لكل شيء أصبح موجوداً بعد عدم وجوده من حيث الوقت يوجد جوهر تتجسد فيه إمكانيته للوجود»[1].

تمثل المعرفة أساس النشاط الإلهي، ويؤكد ابن سينا على أن «مشيئة الحقيقة الضرورية لا يمكن أن تعتبر إلا معرفة الحقيقة، أي الطريقة التي ينبغي أن يكون

(1) ابن سينا، القانون/ترجمة أ. م. بوغوأوتدينوف. ستاليناباد. 1957. ص 171.

عليها نظام وجود الأشياء»[1]. وإذا كان العالم موجوداً وفقاً للترتيب الصحيح، يمكن استيعابه من قبل الإنسان. والروح خالدة، إلا أن خلودها ليس ذا طابع فردي، ولا يقتضي الاندماج مع الجسم في يوم القيامة.

في عام 1102 تقريباً أصبح الدين الإسلامي القوة الموحدة في مواجهة الحملات الصليبية المسيحية. وأصبح المعبّر عن تعزيز موقف الدين أبو حامد محمد بن محمد الغزالي Abu Ḥamed Muḥammad ibn Muḥammad al–Ghazali، الذي اعتبر من الضروري رفع مكانة الدين التي انتابتها بعض الشكوك مع تطور العلم. وفي عمله «تهافت الفلاسفة The Incoherence of the Philosophers»، يؤكد الغزالي عدم شرعية المزاعم عن أبدية العالم، باستثناء الله وحده من نطاق النشاط، وكذلك فهم الخلود فقط من الناحية الروحية التي تستبعد الوحدة الأبدية بين الروح والجسد، وأن علاقات السبب والنتيجة cause–and–effect relations التي أنشأها الإنسان بين الأشياء لا وجود لها في الواقع، إذ لا تحدث أية ظاهرة إلا بمشيئة الله. وإرادة الإنسان هي حرة فقط في ارتكاب الأعمال الآثمة، إلا أن السبب الحقيقي لهذه الأعمال أيضاً هو الإرادة الإلهية التي لا يفهمها الإنسان مطلقاً. وبدحضه لابن سينا، يؤيد المفهوم الديني التقليدي لخلود روح شخص معين، واتصالها اللاحق مع الجسد للعقاب، أو الثواب على الأعمال الصالحة. ولا ينبغي على الدين أن يتأثر بالفلسفة، لأن هذه الأخيرة لا يمكنها تفسير الإرادة الإلهية والأعمال، وهي تعمل على تشويهها فقط.

يعتقد أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد Abu ‹l–Walid Muḥammad ibn Aḥmad ibn Rushd أن معظم الناس غير قادرين على المعرفة، بل إنهم ببساطة يتبعون تقاليد موضوعة دون تعليل أو تشكيك. القدرة على المعرفة

(1) المرجع السابق. ص 191.

وإيجاد الأدلة عليها موهوبة فقط لمجموعة صغيرة من الناس. ومن هنا ينتج عدم جواز خضوع الفلسفة للدين، طالما أن علماء الدين بدون فهم جوهر المسألة، يقومون فقط بتضليل الجزء الأكبر من الناس، مما يؤدي إلى الانشقاق الذي يقوض وحدة المسلمين.

في الوقت نفسه يؤيد الفيلسوف بشكل تام التدين الذي يضمن الالتزام بالمعايير الأخلاقية للمجتمع، فالفلسفة والدين ليسا متنافرين، فهما فقط يستخدمان وسائل مختلفة لفهم الله ومخلوقاته. والمعارف الحقيقية تقدمها الفلسفة، لأن «المخلوقات تدل على الخالق فقط بقدر ما هي معروفة في طريقة خلقها، وكلما كانت معرفة طريقة خلقها كاملة، تكون معرفة الخالق أكمل»[1].

يستخدم الدين طريقة أخرى للمعرفة، مجازية، فمعنى العقائد الدينية، المفهوم حرفياً فقط، هو مصمم لمعظم الناس. أما المعنى الثاني، «الداخلي»، فيستطيع فهمه فقط «الناس ذوو المعارف الصلبة»[2].

إذا كان الفيلسوف حراً في القضايا النظرية، يجب عليه تنفيذ المتطلبات الشعائرية للدين بغض النظر عن الخلاف معها. وأشار ابن رشد إلى أن النفس البشرية تموت مع الجسد، في حين أن العقل النشط هو خالد، وينضم إلى العقل الكوني. إلا أن هذا لا ينطبق إلا على نخبة صغيرة من الناس. وفيما يتعلق بمشاكل الجهاز الحكومي، فقد أكد ابن رشد على الحاجة إلى مجتمع طبقي منظم هرمياً، مما يتطابق مع المستوى المتباين لتطور الناس. وهو يستبعد علماء الدين من عملية تربية الناس في الدولة المثالية. وينبغي أن ينتخب الرئيس العلماني للدولة على أساس قدراته واعتماده على القانون.

وعظ الفيلسوف الأندلسي ابن باجة Ibn Bajjah بموصولية الفلسفة فقط

(1) أ. ف. ساغاداييف. ابن رشد. ملحق. موسكو، 1973. ص 171.

(2) المرجع السابق. ص 179.

للمصطفين القادرين على فهم العالم والكاملين روحياً. يقنع معظم الناس بالتعاليم الدينية غير المبنية على استنتاجات العقل. ودخل الفيلسوف ابن طفيل Ibn Tufail التاريخ بوصفه مؤلفاً لرواية «حي بن يقظان Alive، son of Awake» التي يصف فيها ظهور طفل على جزيرة غير مأهولة من التفاعل بين العوامل الطبيعية، وبمساعدة القدرات الطبيعية أمن حياته. وكانت نتيجة التأمل هي فهم الله كمصدر لوحدة الطبيعة بكل تنوعها. وبذلك، يعد اليقين في وجود الله نتيجة لنشاط العقل. وهكذا يتشكل الدين الطبيعي، وعن طريق مغايرته لمعتقدات سكان الجزيرة المجاورة، يصل الفيلسوف إلى استنتاج مفاده أن معظم الناس لا يقبلون الدين الطبيعي، وهم بحاجة إلى الخرافات والطوائف التي بدونها تبدو حياتهم الاجتماعية - ببساطة – مستحيلة.

عكست تعاليمُ الفلاسفةِ المذكورين النمط الإقطاعي للحياة، الذي كانت الفلسفة والعلوم فيه متاحة لعدد قليل، في حين كانت غالبية الناس تتبع التعاليم الدينية دون تفكير.

يتمتع فن العالم العربي – الإسلامي بميزة هامة، تتمثل في أنه يحظر تصوير الحيوانات والبشر مع وجود استثناءات نادرة، فبالاختلاف عن المسيحية، لا يعرف الإسلام الأيقونات، ولا التماثيل. والفن مقدم هنا في المقام الأول بالعمارة، والأشكال الزخرفية–التطبيقية، ومنمنمات الكتب. ومن بين المعالم البارزة بشكل خاص ينبغي ذكر كل من مسجد قبة الصخرة في القدس Dome of the Rock، والجامع الأموي في دمشق Umayyad Mosque، ومسجد ابن طولون في القاهرة Mosque of Ibn Tulun. والدور البارز هنا تضطلع به الزخرفة المدعوة لملء استحالة تصوير الحيوانات والبشر.

للشعر أهمية خاصة في العالم العربي – الإسلامي، وتعود جذوره إلى الفنون الشعبية البدوية التي تشكلت قبل وقت طويل من ظهور الإسلام. وفتح الشعر

آفاقاً واسعة للصور والتلميحات والرموز التي ساعدت المؤلف في التعبير عن أفكاره مع عدم تدنيس المقدس، الأمر الذي اعتبر حرية فكر. وبالإضافة إلى ذلك حفظ الشعر بسهولة، وتناقلته الشفاه.

في النصف الثاني من القرن الثامن تشكلت القصيدة التي تتألف من أكثر من 24 سطراً، وتتحد السطور في شطرين (بيت). وكقاعدة عامة، تألفت القصيدة من 80– 120بيتاً. والميزة الخاصة للقصيدة هي أنها تتكون من عدة أجزاء مختلفة من حيث المضمون والأسلوب، إلا أنها تتمتع بوحدة داخلية.

إذا كان عدد الأبيات في المؤلفة الشعرية يقل عن 12، تسمى قطعة، وعادة ما كان عدد الأبيات فيها 8–12. كما نرى هنا أنه توجد علاقة انسجامية مع القصائد التي تتألف من 80–120 بيتاً، أي أنها كانت أكبر بعشرة أمثال. وبالاختلاف عن القصيدة، تتكون القطعة من كتلة دلالية واحدة، قد تكون إبيغرام (قصيدة قصيرة مختتمة بفكرة ساخرة) من نوع خاص، أو نقش تأبيني أو رثاء للمؤلف نفسه (وبطبيعة الحال تنطبق هذه المصطلحات القديمة على الشعر الشرقي مع تحفظات كبيرة). تشكلت أيضاً أنواع أخرى من الشعر، مثل الرباعيات (قصائد ذات طابع فلسفي)، والقصائد الغنائية، والغزل (شعر). وتكون مقياس الشعر من ثلاثة أجزاء، وشمل العروض (علم العروض، علم أوزان الشعر)، والقافية (السجع)، والبديع (الأشكال والمجازات الشعرية).

ملحمة أبي القاسم فردوسي Abu›l–Qasim Firdawsi «كتاب الملوك Book of Kings» («شاهنامه Shahnameh») مكرسة لحكام فارس (كذلك للشخصيات التاريخية الحقيقية، وشخصيات الأساطير). وتزخر قصائد الشاعر والفيلسوف والصوفي الجامي Jami بوصف الأضداد، مثل الحب والموت، والحياة والمعاناة.

أثرت منجزات الثقافة العربية على المراكز الثقافية في أوروبا القرون

الوسطى. ولفترة طويلة من الزمن كانت اللغة العربية هي السائدة في العالم الإسلامي، ففيها أنزل القرآن. ووفقاً للتعاليم، فقد حظرت لفترة طويلة ترجمة الكتاب المقدس إلى لغات أخرى، لأنه يجب على جميع المسلمين المتعلمين معرفة اللغة التي نقشت فيها كلمات الله.

الفصل الحادي عشر

ثقافة أوروبا القرون الوسطى

حقبة القرون الوسطى هي الفترة الممتدة لأكثر من ألف سنة من تشكل وتطور ثقافة المجتمع البشري، من انهيار العصور اليونانية – الرومانية القديمة إلى العصور الحديثة، والمتزامنة مع وجود الإقطاع في أوروبا الغربية.

يثبت التاريخ أن تطور البشرية في المناطق جميعها يجري من الوضع القديم للتوحد مع الطبيعة في المجتمع القبلي في اتجاه بناء مجتمع معاصر صناعي وما بعد صناعي. ويتم هذا التطور في عملية طويلة وصعبة من التأسيس الثقافي – التاريخي الذاتي للأشكال الاجتماعية لحياة الإنسان عن طريق تحلل الأشكال الطبيعية الأصلية لتنظيمها في ظروف المجتمع القبلي، وإبداع أشكال ثقافية جديدة في ظروف الحضارة. إلا أنه، ونظراً لكونه الاتجاه الرئيس لتطور البشرية، فقد حدث ذلك في مناطق مختلفة لأسباب عديدة في أشكال مختلفة وبدرجات متفاوتة الشدة مولداً نوعين من الحضارات القديمة – شرقية وقديمة (اليونانية–الرومانية).

استندت الحضارات الشرقية في المقام الأول على ملكية الدولة للوسائل الرئيسة للإنتاج التي تسببت في عدم إمكانية بروز الأفراد في المجتمعات القبلية، وفي وقت لاحق في المجتمع الإقليمي المجاور، فضلاً عن الاعتماد الكامل لكل من يعيش في منطقة معينة على السلطة الحكومية المركزية. ولدت العصور القديمة أيضاً الملكية الخاصة والاستقلال النسبي للمنتجين كأساس فردي ومستقل للشخصية، وتشكيل العلاقات التعاقدية في المجتمع.

إن انهيار الحضارة القديمة الذي حدث بسبب استنفاد الموارد الداخلية لتطوير العبودية القديمة والامبريالية، وتحت ضربات القبائل البربرية (الاستيلاء على روما من قبل القوطيين Goths في عام 410، والفانداليين Vandals في عام 455، وأخيراً المرتزق الجرماني أودواكر Odoacer في عام 476)، أعلنت نهاية الإمبراطورية الرومانية الغربية، ومعها كل المرحلة السابقة للتطور الثقافي – التاريخي.

لفترة طويلة غرقت أوروبا الغربية في فوضى مزيج القبائل الجرمانية (ألمان Alamanni، توتونيون Teutons، أنغلو Angles، ساكسون Saxons، فاندال Vandals، قوطيون Goths، بورغنديون Burgundians، فرنجة Franks، لومبارديون Lombards) التي كانت في نواح كثيرة تقف على مستوى الأسلوب المجتمعي للحياة مع ديمقراطية عسكرية وعلى رأسها قادة مع بقايا الحضارة الرومانية.

تراجع عالم «البرابرة» الذي وصفت به قبائل الجرمان والرومان شبه الوحشية، بكثير عن العالم اليوناني – الروماني من ناحية وجود الثقافة المدنية والقانونية – السياسية والروحية، إلا أنه تمتع بحيوية كبيرة. ولفترة طويلة اختفت هنا المؤسسات الحكومية، ودمرت المدن الرئيسية، وانقسم هذا العالم وتجزأ إلى أجزاء صغيرة. وأقصيت شعوب الإمبراطورية السابقة من الوضع المتحضر بعيداً إلى الوراء، إلى حالة ما قبل الدولة وفترة تفكك المجتمع القبلي، وكان عليها من جديد سلوك المسار الصعب لإقامة الدول الابتدائية وإقامة أسس الحضارة.

بدت الكنيسة المسيحية برئاسة بطريرك روما القوة الناجية الوحيدة من العالم القديم والمتمتعة بتنظيم مركزي ونفوذ روحي، مما حدد دورها في تشكيل النظام الجديد والارتقاء به، وكسب النفوذ السياسي والسلطة في جميع أنحاء

أوروبا الغربية.

مع ذلك، لم تستطع قرون وجود الحضارة القديمة المرور بدون فائدة بالنسبة لشعوب أوروبا، فقد حددت طبيعة نظام الإقطاعية الأوروبية الغربية في المقام الأول بالملكية الخاصة للأراضي، ومهارات إدارة الدولة، وتطوير القانون التعاقدي، ووجود الدين المسيحي والكنيسة، وكذلك الفلسفة الموروثة عن العصور القديمة. ومكّن ذلك الإقطاع الأوروبي الغربي من الاجتياز بوتيرة متسارعة لمرحلة إقامة الحضارة الجديدة، التي تشكلت فيها البنية الاجتماعية للمجتمع الإقطاعي، ووسائل نشاطه الحيوي التي تسمح بتوصيف الإقطاع الأوروبي الغربي كنوع ثقافي – تاريخي شمولي مكتمل – الحضارة الرومانية – الجرمانية المسيحية.

نظراً لهيمنة العلاقات الأبوية – القبلية وحتى العبودية فيها وتشابكها مع الإقطاعية، بدت حضارات القرون الوسطى الأخرى من عربية – إسلامية، وشرقية، وبيزنطية أقل ديناميكية وخصوبة في سياق الحركة الثقافية – التاريخية للبشرية باتجاه المجتمع الحديث. والخصائص النمطية الملازمة من ملكية عامة للأراضي، وسعي إلى المركزية السياسية، واستبداد للسلطة، وجموح للتابعين، وهيمنة للعادات والتقاليد المجتمعية كبحت لفترة طويلة إقامة هذه الحضارات، وأدت في نهاية المطاف إلى التأخر التاريخي عن العالم الأوروبي الغربي. لذلك في تاريخ الثقافة العالمية تمثل القرون الوسطى الإقطاع الأوروبي الغربي تحديداً كتنفيذ لمشروعية تشكل التنمية الثقافية – التاريخية للبشرية في شكل كلاسيكي أنقى.

هنالك طرق مختلفة لتقسيم حضارة القرون الوسطى، والأكثر قبولاً منها هي التي تقوم على مبدأ التطور الدوري للمجتمع الإقطاعي: إقامة الإقطاع، الإقطاع الناضج، أزمة العلاقات الاجتماعية الإقطاعية. وتطابق الفترة الأولى

القرون الوسطى المبكرة (القرن الخامس - القرن الحادي عشر)، والثانية تطابق القرون الوسطى الناضجة (القرن الثاني عشر - القرن الرابع عشر)، والثالثة توافق القرون الوسطى المتأخرة (القرن الخامس عشر - القرن السابع عشر) التي تتوافق من ناحية المضمون مع عصر النهضة والإصلاح.

1. ثقافة القرون الوسطى المبكرة (القرن الخامس - القرن الحادي عشر)

تتميز القرون الوسطى المبكرة بهيمنة الاضطراب والفوضى، حيث أنهكت روما المدينة العظيمة التي وفرت لقرون عديدة السلام والازدهار والنظام لعشرات البلدان والشعوب، روما التي كانت تجسيداً للحياة المتحضرة والثقافية. وتعرضت أراضي الإمبراطورية لغزو البرابرة المحاربين الذين لا يجيدون سوى الاحتلال والتدمير والنهب. وتفككت الإمبراطورية إلى مجموعة من التجمعات الإقليمية افتقرت إلى البنية المستقرة والسلطة المركزية، وتحدث سكانها بلهجات مختلفة من غير أن يفهموا بعضهم بعضاً. وفي بريطانيا استقرت قبائل الأنغلو والسكسون الجرمانية التي زاحمت البريطانيين المحليين والسلتيين Celts، وفي بلاد الغال Gaul - الفرنجة بقيادة كلوفيس الأول Clovis I (لودفيغ Ludwig)، وفي قلب أوروبا سيطر الألمان، وفي شبه جزيرة ابيناين - القوطيون الشرقيون Ostrogoths واللومبارديين والبورغنديون، وذهبت شبه جزيرة أيبيريا Iberian Peninsula إلى القوطيين الغربيين Visigoths، وفي شمال إفريقيا تأسست مملكة الفاندال وعاصمتها قرطاج. وظهر لدى سكان الإمبراطورية السابقة مُلَّاك جدد استخدموا معارف ومهارات المواطنين الرومانيين، وذلك عن طريق تعيينهم في مناصب مختلفة، ومنحهم الأراضي المنقلبة عليهم.

إن عملية جرمنة أوروبا الغربية التي كانت قد بدأت في القرن الرابع بغزو

الهونيين Huns لأوروبا الغربية واستمرت حتى القرن السابع، اكتسبت تسمية «الهجرة الكبيرة للشعوب»، وصاحبها تشكل وتفكك «الممالك» البربرية الكبيرة والصغيرة، التي قلما ذكرت بدولة الرومان المتحضرة. وكان قادة وزعماء القبائل الجرمانية التي حطمت روما والإمبراطورية الرومانية الغربية بأكملها أيضاً قادة فصائل نموذجيين، إذ لم تكن لديهم السلطة على قبائلهم الكثيرة العدد التي كانت تشغل الأراضي الضخمة التي كانت بجزئها الأكبر تعيش وفقاً للتقاليد المجتمعية القديمة، بمقدار سلطتهم قبل كل شيء على فصائل المقربين من «الناس الأقوياء» - فصائل المحاربين المتطوعين الذين اهتموا بشكل أساسي بالحملات العسكرية وعمليات النهب. وسادت في فصيلة ملوك البرابرة العادات القديمة من مساواة وأخوة العسكرية، فقد قاموا ولفترة طويلة بتقاسم الغنائم بالتساوي، ولم يختلف الملوك والقادة كثيراً عن غيرهم من المحاربين باستثناء البسالة الحربية والتوفيق، الأمر الذي بفقدانه لا يجردون من الرتبة فقط، وإنما من الحياة أيضاً. ولوقت طويل جداً لم تكن لهذه الممالك حدود معينة ومستقرة، وكثيراً ما كانت القوانين التي صدرت هناك («الحقائق البربرية») أشبه بقوانين الأعراف والعادات المجتمعية. واعتبرت الأراضي التي كانت تستولي عليها القبيلة غنيمة للملك، وفقاً للقانون العرفي للأقوى والأكثر حظاً، ويمكنه تقسيمها وإعطاؤها لفصائل المحاربين بشكل يماثل تشريحه بفأس لجثة وحش تم اصطياده.

بشكل عام كانت سلطة زعماء القبائل البربرية والملوك ضرورية وفعالة في فترة الغزو والحملات العسكرية، ولم تستطع هذه السلطة إقامة السلام والحفاظ عليه، وضمان النظام والاستقرار في البلاد، لأنه بعد أن اكتسب الرومان أسماء الحكام الرنانة وألقابهم، لم يكن بمقدورهم ترتيب نظام الدولة واستعادة النظام. لم يكن لدى الدولة تنظيم إقليمي، ولا جهاز إداري، ولا نظام جباية للضرائب

إذ جرت بدلاً منه ممارسة الاستيلاء والابتزاز.

بالتوازي مع إرساء الأسس للدول البربرية الإقطاعية المبكرة، تشكلت البنية الاجتماعية للمجتمع الإقطاعي الناتجة عن الفصل الاجتماعي للقبائل الجرمانية واندماجها مع السكان المحليين. وطوال الوقت جرى تحلل مكثف لهيكل النظام المجتمعي الجرماني، كما جرى ارتقاء وإثراء سريعان نتيجة للحروب الاحتلالية التي خاضها قادة وشيوخ القبائل والمقربون منهم من «الناس الأقوياء» الذين استولوا لأنفسهم على أراض جديدة مع الناس الذين يعيشون عليها. وكما قسم الملك الأراضي المستولى عليها كغنيمة، وزع القادة القبليون الأقوياء المتحكمون الأراضي المستولى عليها على المقربين منهم لقاء الخدمة الموالية ليصبحوا «ملاك» أراض. وانتشر في كل مكان وتجذر في الوعي بشكل عميق تصور نموذجي إزاء الإقطاع يفيد بأن «لا أرض بلا سيد». وشكلت عملية «منح الأراضي» هذه الأساس المادي لتكريس نظام السيادة والتبعية الإقطاعية بين أمراء الإقطاع، فعندما يصبح أحدهم سيداً إقطاعياً أعلى ومهيمناً (كبير، سيد)، والآخر مقْطعاً vassal (تابعاً) لسيده، يجب عليه تنفيذ مسؤوليات معينة لصالحه. ويعتبر الملك السيد الإقطاعي الأعلى لبقية الإقطاعيين، بيد أن السلطة المركزية بقيت حتى نهاية القرون الوسطى المبكرة ضعيفة للغاية.

جرى بشكل متزامن إفقار وتدمير الطليعيين من أبناء المجتمع الذين اضطروا للبحث عن حماية ورعاية «الناس الأقوياء»، والاستقرار في أراضي ملاك جدد، و«الالتصاق بهم» بتركيبة حياتهم. ووسط الكثير من الهائمين حول الفصائل المسلحة كان بالإمكان البقاء على قيد الحياة ومزاولة الزراعة فقط في حال وجود راع قوي يمكن الاعتماد عليه. وتجذر مثل هذا النظام لاستخدام الأراضي في نظام المزارعة الحرة المتشكل في الإمبراطورية الرومانية، حيث صار كبار ملاك الأراضي يقومون بتقسيم أملاكهم إلى قطع صغيرة ومنحها

للزراعة للعبيد المعتقين والفقراء والمزارعين المحطمين للرعاية لقاء مبالغ نقدية أو عينية محددة. وأجبر أصحاب الأراضي الصغيرة الأحرار أو شبه الأحرار المتبقين من عهد الإمبراطورية الرومانية على التخلي عن حقوقهم في ملكية الأراضي لإتاحة الفرصة لاستخدامها تحت حماية ورعاية سيد جديد. ولكن تبع فقدان الأراضي حتماً فقدان الحرية والاستقلال السابق، أما «الارتباط» بأرض الإقطاعي فقد تحول إلى استعباد وتبعية شخصية له.

هكذا جرى التقسيم الطبقي الاجتماعي بين سكان مجموعة «الممالك» البربرية التي ظهرت من جديد على أنقاض الإمبراطورية الرومانية — صعود الأرستقراطية العسكرية وملاك الأراضي التي تشكلت منها فيما بعد طبقة الإقطاعيين (feudalists الإقطاعيون من كلمة «Feudum إقطاع»)، وجرى إفقار متزايد وخراب لمن يعيش ويعمل في أرضهم من الفلاحين. وجرت هذه العملية بمشاركة الكنيسة المسيحية التي باركت سلطة الأسياد الجدد، في حين أصبحت هي أكبر إقطاعي في أوروبا وذلك بامتلاكها ثلث مجموع الأراضي. وكان على الفلاحين أن يدعموا بعملهم أمراء الإقطاع في أعمالهم العسكرية وتنظيم الدولة، فضلاً عن توفير وساطة وشفاعة الكنيسة في مسألة خلاص النفوس، وإيجاد الملكوت الإلهي.

بهذا الشكل تكونت الأسس المادية والاجتماعية للإقطاع المبني على ملكية الإقطاعيين الخاصة الكبيرة للأراضي، وتبعية الفلاحين الزراعية والشخصية للإقطاعيين، والإكراه المباشر على العمل (أي غير الاقتصادي، المبني ليس على المصالح الشخصية للفلاح، وإنما على العنف). وأولى الخطوات نحو إقامة دولة أكثر تحضراً وسط الممالك والإمارات البربرية العديدة بدون سلطة مركزية قوية، قام بها شارلمان Charlemagne ملك الفرنجة في ظروف التوسع والتعزيز الكبير لمملكة الفرنجة Frankish Empire، فقد ذهب إلى الاعتراف الكامل بالسلطة

الروحية لبابا روما ليو الثالث Pope Leo III، الذي بدوره توج شارلمان في عام 800 بالتاج الإمبراطوري للإمبراطورية الرومانية المقدسة التي أعيد إحياؤها رسمياً.

أصبح شارلمان الشخصية الأكثر بطولية وأسطورية في القرون الوسطى المبكرة، واشتهر بالعديد من حملات الغزو التي كانت تهدف إلى توحيد الأراضي، وتعزيز السلطة المركزية الموحدة، وإنشاء أول دولة مسيحية في أوروبا الغربية. وفي عهده على وجه الخصوص تمت إقامة تفاعل قوي بين السلطة العلمانية والكنيسة، حيث حصلت الكنيسة على قوة السلطة، في حين حصلت السلطة على التكريس الروحي. وسعى شارلمان بإخلاص لبناء دولته على أساس المبادئ والقيم المسيحية، وذلك بوساطة وضعه لقانون ليس مبنياً على الأعراف المجتمعية، وإنما على «روح الحقيقة»، على الأخلاق المسيحية. واعتقد أن قوة الدولة تعتمد على كل من قوة السلطة المبنية على الطاعة، وعلى ولاء الرعايا وثقتهم ومحبتهم. وقام شارلمان بإصلاح التنظيم الإقليمي للدولة، وذلك بتقسيم الأراضي التابعة لها جميعها إلى أقاليم (ولايات)، وتعيين أقوى الإقطاعيين المحليين كممثلين آمرين فيها. وبجعله أمراء الإقطاع ممثلين نافذين في المناطق، ضمن لهم حقوقاً هائلة وذلك بتحويليهم إلى ملاك كاملي السلطة لمناطق شاسعة مقيداً إياهم بيمين الولاء للملك. ومارس الولاة والأساقفة باعتبارهم ممثلين للملك السلطة على كامل الأراضي الممنوحة لهم، وجمعوا الضرائب، وقادوا القوات عند الضرورة، وأداروا المحاكم، وتابعوا تنفيذ المراسيم الملكية – سجلات الدير التي أصبحت تصدر للمرة الأولى بشكل مكتوب من أجل التفسير الموحد.

بعد إقامته لحكم مستبد قوي، أخضع شارلمان الكنيسة لسلطته مستخدماً لذلك طريقته المفضلة «العصا والجزرة»: فبتأسيسه الأبرشيات الكنسية وتعيينه

للأساقفة، طالبهم بالطاعة التامة مقابل منحهم أراضي ضخمة وتسهيلات. طور شارلمان – الذي عاش حياته أمياً – التعليم، وأسس لذلك العديد من المدارس التابعة للأديرة، وأنشأ أكاديمية اجتذبت العلماء من جميع أنحاء العالم، وكان يترأس اجتماعاتها بنفسه. وفي بعض الأحيان تطلق على فترة حكمه تسمية «النهضة الشارلمانية»، أي أول محاولة للتوجه إلى العصور القديمة المتحضرة على أساس العقيدة المسيحية. وأصبحت لتننة اسمه شارلمان إلى كارلوس Carolus Magnus مرادفة لتعيين الملك (كما في حالة يوليوس قيصر)، في حين أصبح هو البطل الأسطوري لملحمة القرون الوسطى.

كان شارلمان العظيم أول من حاول ترتيب الفوضى المتشكلة بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية، وذلك بالاستناد إلى رؤية تصورية للعالم: يطالب الله بالنظام والخدمة، وليس بالفوضى، وبالوحدة وليس بالانقسام، ومن أجل ذلك يعطي السلطة للملك. ونتيجة لذلك تتحول خدمة الرب إلى خدمة الدولة والملك الذي يجسده، الذي هو نفسه يتلقى الأرض والسلطة من الله. وعليه، فإن خدمة الدولة يجزى عنها من الملك باسم الله، وذلك بمنح الأراضي والسلطة لأتباعه، والأرض تحديداً تعطي السلطة على الناس الذين يتغذون منها. في هذه الفترة، ينبغي على القوة أن تكمل وتخفف بالتواضع الطوعي المتبادل والمحبة المسيحية بين الشعب والحاكم، الأمر الذي يتطلب الاعتماد على الكنيسة. وبهذا الشكل أعطى إطاراً وشرعية أيديولوجية لكل من الممارسة الإقطاعية الناشئة للإقطاعيين، واستعباد الفلاحين، ووضع التسلسل الهرمي الإقطاعي تحت الرعاية الروحية للكنيسة المسيحية.

بموجب هذا الترتيب، شكلت طبقة الإقطاعيين نظام التبعية الاجتماعية – التسلسل الهرمي المسمى بـ «السلم الهرمي». ويمثل «السلم الهرمي» ما يشبه الهرم الذي شكل قمته الإقطاعيون (العلمانيون والروحيون) الأكثر قوة

ونفوذاً وعلى رأسهم الملك.

كان الملك السيد الإقطاعي الأعلى بالنسبة للإقطاعيين جميعهم، وبسط سلطته على أنحاء أراضي الدولة كلها، ومنح الأراضي لرعاياه المقربين (الأمراء، الولاة، والدوقات) لاستخدامها مدى الحياة («مناصب»)، ولكن دون الحق في التوريث، الذين تمكنوا من ممارسة سلطتهم بقوة الدولة. كأن الدولة تنازلت عن بعض حقوقها بمنحها الإقطاعيين «الحصانة» في ممارستها. مقابل ذلك كان عليهم أداء يمين التابع لسيدهم، أي القسم على الولاء لتقبيل الصليب وخدمته. وشملت هذه الخدمة واجب الالتحاق عند الضرورة بالحرب مع المجموعة التابعة لهم، وتوفير الموارد اللازمة للمشاركة في الاحتفالات، وإقراض السيد الإقطاعي الأعلى المال، وإظهار الولاء الخاص وتقديمه له.

شكل منتصف الهرم الإقطاعيون الأصغر، من البارونات الذين كانوا أتباعاً للدوقات والولاة، الذين بنيت العلاقات فيما بينهم على الأسس ذاتها. وبدورهم، كان البارونات أسياداً للإقطاعيين الأكثر فقراً الذين احتلوا مكانهم في قاعدة السلم الهرمي، الذين كانوا يمتلكون فقط قرية واحدة أو اثنتين من الفرسان. وفي هذه الفترة اعتبر الإقطاعي نفسه سيداً للإقطاعي الأصغر وتابعاً للإقطاعي الأضخم، وكان عليه خدمة سيده فقط، وكان بإمكانه التحكم بالتابعين له فقط. وضَمن ذلك توزيعاً تدريجياً للسلطة ونظامها المنصوص عليه في قانون القرون الوسطى «تابع تابعي ليس بتابعي».

في الوقت نفسه تمثل الأساس الحقيقي للهرم الإقطاعي بالكادحين، الفلاحين الذين على الرغم من أنهم لم يندرجوا في السلم الهرمي إلا أنهم أمنوا وجوده. وبالنسبة للإقطاعيين شكلوا «السواد الحقير»، أي الجماهير القاتمة والجاهلة التي تمارس العمل الخام، وتقع عند قدمي السيد.

وفر التسلسل الهرمي الإقطاعي بعض الوحدة والتماسك للدولة، ولكنه

في الوقت نفسه شكل تهديداً لها. فالأراضي الممنوحة للإقطاعيين للاستخدام مدى الحياة (مناصب) مالت تدريجياً إلى التحول إلى ممتلكات، فبدأ الإقطاعي مع مرور الوقت يشعر بنفسه مالكاً مطلقاً، فأسس القوات، وأقر أنظمته، وحدد الضرائب والجزية، ونفذ العدالة والقصاص. ومع مرور الوقت تحولت هذه الأراضي إلى ممتلكات وراثية (إقطاع)، الأمر الذي خلق الأساس لاستقلالية أمراء الإقطاع، واستقلالهم عن السلطة الملكية المركزية، وأدى إلى تفكك الإقطاعية.

حتى القرن الحادي عشر وانتهاء القرون الوسطى المبكرة كان للتجزئة والحرية الإقطاعية تفوق واضح على السلطة الملكية في معظم البلدان الأوروبية، فعلى الفور بعد وفاة شارلمان انقسمت إمبراطوريته الرومانية المقدسة إلى دولة فرنجة الغربية (فرنكيا الغربية Francia occidentalis)، ودولة فرنجة الشرقية (فرنكيا الشرقية Francia orientalis) ومملكة إيطاليا Kingdom of Italy. وعلى أساس الأخيرتين نشأت في القرن العاشر الإمبراطورية الرومانية المقدسة Holy Roman Empire للأمة الجرمانية، وهي أكبر دولة في القرون الوسطى، ضمت أراضي كل من ألمانيا المعاصرة، وإيطاليا، والنمسا، والتشيك، والمجر، وبقيت رسمياً حتى احتلالها من قبل نابليون في القرن التاسع عشر. وفي أوروبا القرون الوسطى سعى الإمبراطور الجيرماني دوماً إلى القيادة والاستفادة من التحالف مع بابا روما الذي كان مكان إقامته على أراضي الإمبراطورية.

بدورها شهدت هذه الدول جميعها باستمرار ميلاً قوياً إلى المزيد من الانقسام. ونتيجة «للهبات» أصبحت ممتلكات الملوك أقل بكثير من ممتلكات التابعين لهم، مما أدى إلى إضعاف السلطة الملكية وتعزيز سلطة البارونات الإقطاعيين. وفي كثير من الأحيان لم يستطع الملك حتى التنقل بأمان عبر أراضي دولته، وبقي في الجزء الأكبر في إحدى قلاعه. ولاحقت حكمه المؤامرات

والمكائد والخصومات الدامية بين القوى المتقاتلة فيما بينها من أجل السلطة والنفوذ. وفي ظل هذه الظروف لم يبق للملك إلا الاعتماد على قسم الولاء، وذلك لعدم تمكنه من فرض الانصياع بالقوة.

تمثل رمز حقبة القرون الوسطى بقلعة القرون الوسطى - «عش القبيلة»، ومسكن الإقطاعي، ومركز الحياة الثقافية بمجملها. ونظراً لوجود العديد من القوى المتنافسة والحروب والنزاعات المتكررة، كان على كل شخص الاهتمام بسلامته وذلك من أجل الصمود في وجه التهديد المتواصل.

في البداية كانت هذه القلاع عبارة عن تحصينات خشبية متواضعة بالقرب من الموقع المريح للقرية، وبنيت في معظمها على تلة أو مرتفع حيث كان بالإمكان مراقبة المحيط. وإلى جانب القلعة كان هناك الفناء الاقتصادي مع مختلف الأبنية والإسطبلات وورش الحدادة والحظائر والآبار وغرف الخزن، وأحيطت جميعها بسور منيع، وفي وقت لاحق بخندق مملوء بالمياه. وكثيراً ما كان يقطع الخندق بجسر كان يدمر في حال وجود خطر. وفي منتصف القلعة ارتفع برج عال شكّل الملاذ الأخير للسيد الإقطاعي في حالة الاستيلاء القلعة المحصنة، وكانت له أقبية عميقة مع مخزون من المواد الغذائية في حال الحصار الطويل.

في فترة القرن العاشر- القرن الحادي عشر بدأ بناء القلاع الحجرية التي تحولت إلى حصون منيعة حقيقية. وأصبح السيد الإقطاعي يختار مسبقاً مكاناً على صخرة أو تلة يصعب الوصول إليه، ويحيطه بجدران وأسوار حجرية، ويحفر خصيصاً خندقاً مملوءاً بالماء ومجهزاً بجسر مرتفع على سلاسل. وتطلب البناء الداخلي للقلعة وجود دور سفلي حيث المباني الاقتصادية والخدمات (إسطبلات، عنابر، مخازن، مخابز، مصلى، سكن الخدم)، وعلوي يقع خلف جدار آخر، ويمثل قصراً حجرياً بجدران منيعة، وفتحات للرمي مكان النوافذ،

وبرج بسرداب عميق. وفي الدور العلوي سكن السيد الإقطاعي مع أقاربه، وخزنت الأسلحة، وفي القبو زنزانات للأشخاص غير المرغوب فيهم، ومخازن الغذاء لفترة مكوث طويلة في فترة حصار العدو، وممر سري تحت الأرض من أجل الفرار.

مثلت القلعة تجسيداً لقوة وسلطة السيد الإقطاعي، وجبروته ونبله، فهناك كان يختبئ في أوقات الاضطرابات والحروب، ومن هناك كان يقوم بالهجوم. ومثلت القلعة مركز المملكة «الخاصة» والاستبداد، ففيها جمع السيد الإقطاعي أتباعه وقواته قبل الحملة، وفيها كان مأوى السكان المحليين في حال وجود خطر غزو الأعداء، وإليها نقلت الإتاوات والضرائب، وفيها طبقت العدالة والانتقام.

في ظروف السلام الهش والقصير كانت حياة الإقطاعي رتيبة ومملة جداً، كرس معظمها للصيد والسباقات والمبارزات، والرمي بالسهام، وفي وقت لاحق نظمت دورات الفروسية، والمآدب كشكل رئيسي للترفيه. وخلال الحروب أصبحت حياة الإقطاعي أكثر مرحاً، إذ انشغل بجمع القوات والشؤون العسكرية والحملات، أو على العكس بقي وراء جدران القلعة الخاضعة للحصار. وحتى اختراع الأسلحة النارية والمدافع بقيت القلاع حصوناً منيعة ترمز إلى حرية الإقطاعي واستقلاليته عن غيره من أمراء الإقطاع.

ابتداءً من القرن الثاني عشر فقط، ومع انتهاء فترة الإقطاع المبكر، حدثت نقطة تحول حاسمة لصالح السلطة الملكية المركزية، إذ بدأ بالتكون عمود السلطة وتشكل الدولة الإقطاعية كقوة هائلة قادرة على تحطيم أي إقطاعي جامح. واستمرت هذه العملية لعدة قرون، فمثلاً في منتصف القرن الثاني عشر، ورداً على مطامح الإمبراطور الجرماني فريدريك الأول بربروسا Frederick I Barbarossa في قيادة أوروبا الإقطاعية، عبر الملك الإنجليزي عن قناعته بالحرية

الإقطاعية، فكتب يقول: «كل ملك هو إمبراطور في مملكته».

هنالك أسباب عدة لهذا التحول، هي أولاً وقبل كل شيء الاتساع الكبير للمدن التي سرعان ما وجدت فيها السلطة الملكية حلفاء أثرياء في صراعها ضد بارونات الإقطاع الجامحين، وفي ترسيخ علاقات التبعية التي تغلغلت في كامل هيكل المجتمع الإقطاعي وإضفاء الطابع الرسمي عليها في التشريع. فكلما أصبح تشابك حقوق السيد الإقطاعي الأعلى وواجبات التابعين أكثر تعقيداً، ازدادت الحاجة إلى وجود مركز موحد لهذه العلاقات يدمجها في نظام. ولم تقل أهمية حقيقة أنه تم الانتهاء من تشكيل نظام ناضج للاستغلال الإقطاعي استدعى نمو الإنتاج وضرورة تخفيف القيود الإقطاعية على طرق تشكيل الفضاء الاقتصادي الموحد مع مركز تحكم واحد، فضلاً عن حاجة الدولة لمواجهة التهديد الخارجي. ولعل من الأسباب المؤدية إلى تعزيز السلطة الحكومية المركزية التي ينبغي ذكرها تنافسها مع الكنيسة الكاثوليكية على السلطة العلمانية.

الشخصية الملونة جداً التي ترمز إلى نمط حياة مجتمع القرون الوسطى المبكرة والناضجة هي شخصية الفارس التي ألفت حولها العديد من القصص والأساطير. ومثل الفرسان كان هنالك كل من المحاربين الجسورين، والتابعين المخلصين، والمدافعين الأشداء عن الحق والعدل، والسادة النبلاء، والسيدات الرائعات، والمحاربين ضد القوى الشريرة. وفي الوقت نفسه مثلوا في كثير من الأحيان اللصوص الجشعين، والظالمين القساة، والمغتصبين الوحشيين. واعتبر الفرسان على وجه التحديد القوة الرئيسة والحقيقية الوحيدة في القرون الوسطى المبكرة والناضجة، والضرورية للجميع - للملوك من أجل محاربة التابعين المتمردين وخدمة الكنيسة والفلاحين، وللكنيسة من أجل حملات الغزو ضد الكفار والصراع على السلطة العلمانية، وللإقطاعيين من أجل

مواجهة الحكومة المركزية وغيرهم من الإقطاعيين.

سمي بالفرسان المحاربين المحترفون المدججون بالأسلحة الجيدة والعتاد على ظهور الخيل. وفي لغات العديد من الشعوب هنالك مفهوم مماثل يعني الفارس ذي الدرع مع ترس ورمح وسيف. وكان عليه أن يجيد تماماً استخدام السلاح وركوب الخيل، وهو ما يتدرب عليه منذ مرحلة الطفولة المبكرة دون كلل.

كان أول الفرسان قد ظهر في الدول البربرية: فالأساطير معروفة عن ملك الكلتيين آرثر King Arthur الذي عاش في القرن السادس، وفرسان الطاولة المستديرة. ولكنهم بالتحديد مع ازدهار العلاقات الإقطاعية في فترة القرن العاشر– القرن الحادي عشر تحولوا إلى طبقة ذات امتياز – طائفة الفرسان. عندها تطلب تكريس الشخص في الفرسان أصلاً نبيلاً تؤكده الشهادات، والتربية المناسبة، والصقل، والتدريب، والقدرة على توفير ذخيرة الفارس وسلاحه لنفسه.

شكل الجزء الأكبر من الفرسان متوسطو وصغار الإقطاعيين المجبرون لقاء الأراضي الممنوحة على أداء قسم الولاء للسيد الإقطاعي الأعلى وخدمته بإخلاص وصدق. وشكل الفرسان القوة الضاربة لجيش الإقطاعي، التي لم تستطع الصمود في وجهها لا القوات الراجلة المكونة من الفلاحين، ولا الفرسان ضعيفو التسليح. وسحقت مجموعات الفرسان وبسهولة العدو غير القادر على مجاراة الفرسان المدججين بالسلاح والمدربين بشكل جيد والمفعمين بشعور العظمة الذاتية والتفرد.

مع ذلك كانت لديهم نقاط ضعف استغلها خصومهم بمهارة، إذ لم يعترف الفرسان بأي أمر أو توجيه عسكري، لأن كلاً منهم محارب فردي محترف مع شعور عالٍ جداً بالكرامة الشخصية، ويعتبر نفسه مساوياً في الشأن العسكري

مع أي ممثل لسلكه بدون استثناء الملك أيضاً. وفي المعركة اعتمد على قوته ومهارته فقط مظهراً شجاعته ورجولته بكل وسيلة ممكنة. وتمثل الشيء الرئيس بالنسبة للفارس في قدرته على البروز ليصبح الأول وسط المتساوين بعد إظهاره لشجاعة استثنائية ومهارة وبراعة في استخدام السلاح والحصان، وكذلك متانة في دروعه، والصفات الجسمانية للحصان. وتحديداً الشجاعة الشخصية والمهارات القتالية هي التي شكلت ولدرجة كبيرة سمعة الفارس، واعتبر كل تشكيك فيها إهانة رهيبة للشرف والكرامة تستوجب الانتقام في المبارزة.

إن حماسة الفرسان هذه، وميولهم إلى العناد، وعدم قدرتهم على الانضباط أضعفت القدرة العسكرية لقوات الفرسان، مما تطلب من الكنيسة والدولة من أجل القيام بحملات الغزو تأسيس مؤسسات فرسان دينية مع نظام أساسي وترتيب. وظهرت هذه المؤسسات في فترة القرن الثاني عشر – القرن الرابع عشر، إلا أن مصيرها أصبح متبايناً. فلكونها أنشئت لتوفير الحماية والمساعدة للحجاج المسيحيين إلى «الأماكن المقدسة» في فلسطين، سرعان ما تحولت إلى قوة عسكرية – سياسية مستقلة. وبعضها، كمجموعة فرسان القبر المقدس Templars التي اكتسبت القوة تحت رعاية الكنيسة الكاثوليكية والحكام الأوروبيين، انخرطت ضدهم في مواجهة مفتوحة استمرت لعدة قرون وانتهت بهزيمتهم. والأخرى، مثل منظمة فرسان القديس يوحنا Hospitallers نجحت في البقاء حتى العصر الحديث، وفقدت أهميتها، وتحولت إلى نوع من المجتمع الأرستقراطي المغلق يمارس النشاط الروحي – الخيري، وتسمى في الوقت الراهن منظمة فرسان مالطة Sovereign Military Order of Malta.

الثالثة، مثل منظمتي فرسان تيوتون Teutonic Knights وفرسان ليفونيان Livonian Order، سرعان ما تركت الحجاج الفلسطينيين، وانشغلت «بالنشاط الإلهي» في الشمال الشرقي من الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وبدأت بالنار

والسيف إيصال كلمة الله إلى الوثنيين مؤسسة على أراضي دول البلطيق الحديثة دولة فرسان تيوتون، وانخرطت في الغارات العسكرية على أراضي السلاف الشرقيين. ومازالت منظمة فرسان تيوتون موجودة إلى اليوم في ألمانيا كمنظمة نخبوية أرستقراطية مغلقة.

الحياة الروحية في مجتمع القرون الوسطى المتشكل حددها بدرجة كبيرة الدين المسيحي والكنيسة وذلك من أجل طرد أو تحويل المعتقدات الوثنية للشعوب الجرمانية، وتكريس أفكارها عن الله، وخلق العالم والإنسان، وحول دعوته والخلاص القادم. وبعد أن ولدت في المنطقة البعيدة من الإمبراطورية الرومانية، فلسطين، وسط الشرائح الفقيرة والمظلومة للسكان، تحولت المسيحية في فترة قصيرة من الزمن من طائفة مضطهدة ومحتقرة من قبل الرومان إلى الدين السائد في الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وأصبح ذلك ممكناً بسبب طابعها العالمي المستجيب بالشكل الأفضل لتحديات الزمن – شرح كل البؤس والمعاناة في حياة الإنسان، وجميع مصاعبها وظلمها، وإعطاء الإنسان الأمل في النجاة والخلاص في المستقبل. ولم يتطلب هذا الخلاص للحياة الأبدية من الإنسان أكثر من الإيمان الذي في حالة اليأس الكامل ومأساة الوجود البشري مثل الأمل الوحيد في الخلاص العجيب.

استطاعت المسيحية أن تجد لنفسها صدى في قلوب الجماهير، لأنها أعطت إجابة بسيطة وواضحة على السؤال الملح: لماذا العالم فظيع، ومحزن جداً هو مصير الإنسان الذي يعيش فيه؟ رفض الوعي المسيحي للإثم العام كل محاولات تبرير الذات وإيجاد مذنبين، كما كانت تفعل الأديان الأخرى. نعم، فكل شيء يتم تحديداً بهذا الشكل، ولا يمكن أن يتم بشكل آخر: في الفساد الموجود في العالم المذنب هو أنت نفسك، المذنبون نحن جميعاً، فسادنا الداخلي الخاص! ولم يستطع أي إنسان الإفلات من الاعتراف بجزء من الذنب المسؤول عن

تعاستنا، وأصبح هذا الاعتراف في المسيحية شرطاً أساسياً للخلاص الروحي. وكان من الضروري فقط تحديد الطريق إلى الخلاص التي ينبغي أن تختلف عن الطرق التقليدية، وتكون سهلة الفهم للجماهير العريضة، وتدهش الخيال. بدلاً من التضحية بالأعداء أو بحيوانات التضحية استرضاءً لهذا الإله المهان أو ذاك، هنا الرب نفسه يضحي بنفسه في سبيل خلاص البشرية من الخطيئة!

بذلك يظهر عمق محبته للإنسان، فهي وحدها يمكن أن تثير – حتى لدى أشد الخاطئين – الشعور الحقيقي المتبادل والرغبة في التوبة وتنقية نفس الإنسان وكمالها. بدلاً من الإله القاسي والمطالب بالطاعة والاسترضاء والمشرف والمعاقب، كشفت المسيحية للبشرية عن رب التفاني والحب والإيثار، عن رب أخلاقي أصبح لقرون عديدة للملايين من الناس المعيار المثالي، ومعيار الخير والعدالة. وأصبح العيش بشكل إلهي يعني العيش مع التركيز – عن وعي – على الخير مع إبداء الرحمة والتعاطف مع القريب، مع الوعي الداخلي للنقص الخاص وضرورة التنقية الذاتية التائبة الصادقة.

لذلك تحديداً ما حصل هو أنه من بين آلاف الأنبياء والدعاة الذين أسسوا طوائف دينية تعد ولا تحصى على أراضي الإمبراطورية الرومانية، وحدها المسيحية كانت قادرة على جذب جماهير واسعة من الناس المنتمين إلى مختلف الكيانات العرقية والاجتماعية–الطبقية وإخضاعهم لتأثيرها، مكرسة نفسها على نحو متزايد كدين عالمي.

يتمثل المضمون الرئيس للدين المسيحي في الإيمان بالرسالة المطهرة ليسوع المسيح، المخلص، ابن الرب النازل إلى الأرض. المولود بمعجزة من مريم العذراء، وفي هيئة الإنسان يعتبر المنقذ الذي أشار إليه الأنبياء، الذي تكفيراً عن خطايا الناس استشهد على الصليب، ثم ارتفع ونقل إلى السماء. وفي المستقبل سيتم حتماً ظهوره الثاني على الأرض من أجل إدارة يوم القيامة على الأحياء

والأموات وإقامة ملكوت الله.

يبدو أن دمار الإمبراطورية الرومانية العظيمة وانهيارها أكدا وبشكل تام صحة العقيدة المسيحية، ودنو نهاية العالم، والظهور الثاني للمسيح. وتحسباً له سارع الأباطرة الرومان إلى تلبية الدين الجديد، بداية عن طريق الاعتراف به على قدم المساواة مع غيره من أديان روما الوثنية (مرسوم ميلان للتسامح الرسولي للإمبراطور قسطنطين في عام 313)، وبعد ذلك بجعله الدين الرسمي للإمبراطورية في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I (نهاية القرن الرابع). وأدى تقسيم الإمبراطورية إلى غربية وشرقية (عام 396) إلى بداية التقسيم الفعلي للكنيسة المسيحية إلى غربية مركزها روما، وشرقية مركزها بيزنطة.

ساهم انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية الذي سرعان ما عقب ذلك تحت ضربات القبائل الجرمانية، وانتشار الفوضى والاضطراب إلى حد كبير في تعزيز ورفع الكنيسة الرومانية. فقد شكلت في الواقع القوة المنظمة الوحيدة والدعامة للنظام، وفي الوقت ذاته تكريس التسلسل الهرمي المتشكل على أنقاض الإمبراطورية الإقطاعية. وحصل بطريرك روما على لقب البابا (من الكلمة الإغريقية «باباس πάππας»، وتعني الأب، الكاهن)، وكذلك لقب الحبر الأعظم Pontifex Maximus (وهو لقب الكاهن الوثني الروماني، ويعني «بناء الجسور الأعظم greatest bridge—maker»)، وفي الواقع أصبحت البابوية أحد الجسور الرئيسة بين العصور القديمة المحتضرة والقرون الوسطى.

سمح ضعف السلطة العلمانية وتشرذمها في الممالك البربرية للكنيسة الرومانية بالحفاظ على استقلالها النسبي، بل وحتى بالارتقاء والوقوف على مستوى واحد مع السلطة العلمانية، وبإظهارها ضرورتها وقوتها ونفوذها. وورثت الكنيسة المسيحية الرومانية عن الإمبراطورية الرومانية إحدى أهم

القناعات التي حددت وبدرجة كبيرة مصيرها في المجتمع الأوروبي الغربي، وفي الوقت ذاته سببت مواجهتها وانشقاقها عن الكنيسة الأرثوذكسية، وهي القناعة في أن الرفاه والازدهار مرتبطان بشدة مع القوة والسلطة.

وتحول هذا الاعتقاد الوثني تماماً إلى سياسة قوية للكنيسة الرومانية – الكاثوليكية في أن الكنيسة تحتاج إلى القوة والسلطة لفعل الخير وخلاص النفوس المسيحية. وطوال تاريخها، سعت الكنيسة الكاثوليكية دوماً لاتباع هذه السياسة وذلك عن طريق النشاط الفعال للمشاركة في الحياة الاجتماعية والسياسية في أوروبا الغربية. وفي الواقع، في ظروف المجتمع الإقطاعي الناشئ لعبت الكنيسة دور الإقطاعي الجماعي مع كل ما ينتج عنه من عواقب متمثلة في مطالبات بالتعويض عن الممتلكات والامتيازات، وصراع على السلطة، ومشاركة في المواجهات السياسية والعسكرية، وترسيخ للاحتكار الروحي الخاص، ومحاربة للمعارضين. وهكذا، في القرن الثامن لفق ديوان البابوية وثيقة (تسمى هبة قسطنطين Donation of Constantine)، زعم بموجبها بأن الإمبراطور قسطنطين Constantine I قد وهب في القرن الرابع البطريرك الروماني السلطة العلمانية على روما والمحافظات القريبة.

كان ملك الفرنجة شارلمان العظيم أول ملوك البرابرة الذين أدركوا مدى فائدة وضرورة التحالف مع الكنيسة لاستعادة أسس الدولة المتحضرة، فقد اعترف بالسلطة الروحية العليا للبابا ليو الثالث الذي توّجه في المقابل باسم الله على الإمبراطورية وبارك إحياء الإمبراطورية الرومانية المقدسة في عام 800.

جرى التاريخ اللاحق لتشكل الكنيسة في صراع مستمر للكرسي الرسولي Holy See (الإدارة البابوية، وديوان والجهاز المركزي للكنيسة الكاثوليكية) لتعزيز نفوذه وقوته في التفاعلات المعقدة مع غيره من مراكز السلطة الإقطاعية. وفي هذا الصراع الذي جرى بدرجات متفاوتة من النجاح تورطت الكنيسة

في التنظيم الدنيوي للسلطة – يتم تعيين الأساقفة من قبل الملوك العلمانيين، ويؤدون لهم قسم التبعية، ويؤدون الخدمة العسكرية، ويتقاضون لقاءها الأراضي التي يقومون بدورهم بتوزيعها على أتباعهم الخاصين.

إلا أن وراء كل هذه التقلبات تبقى المهمة الرئيسة في العمل على إنشاء مملكة عالمية للسلطة الدينية الشاملة، حيث تكون سلطة البابا الأعلى والوحيدة في العالم المسيحي بأسره. وباستغاثتها بأصول الكنيسة المسيحية المبكرة، غيرت البابوية في القرن الحادي عشر تدريجياً انتخاب باباوات روما، فبدلاً من تعيينهم من قبل الإمبراطور بدأ اختيارهم في الاجتماع السري للكرادلة المعينين بدورهم من قبل البابا نفسه. وأصبح البابا أيضاً يقوم شخصياً بتعيين الأساقفة بشكل مستقل عن الإمبراطور (ما يسمى بالتنصيب – إجراءات تعيين رجال الدين التي تخرجهم من التبعية للسلطة العلمانية)، ونظم وعزز داخل الكنيسة الكاثوليكية عمود السلطة الخاص مع المركز في شكل الكرسي الرسولي. وخفف عدم رضا الحكام العلمانيين على هذه التدابير لتعزيز سلطة الكنيسة بتهديدات البابا بفصل الساخطين من الكنيسة.

بوساطة كل هذه التدابير، وبتنظيم عمل الجهاز المركزي وإدارته والنظام الواسع النطاق للمؤسسة الكنسية على غرار إدارة الإمبراطورية الرومانية، أصبحت الكنيسة الكاثوليكية تتحول إلى دولة إقطاعية مستقلة وذات حكم ذاتي. وذهب البابا غريغوري السابع Pope St. Gregory VII (هيلدبراند Hildebrand) أبعد من ذلك بإعلانه أن أي سلطة من دون تفويض من الكرسي الرسولي تأتي من الشيطان، وطالب الحكام العلمانيين بالطاعة التامة. وعندما حاول الحاكم الأقوى في أوروبا الغربية الإمبراطور الجيرماني هنري الرابع Henry IV مجابهته، فصله البابا بالفعل من الكنيسة. وعندما لم يجد الدعم وسط أمراء الإقطاع المحليين الساخطين على استبداده، ولاهتزازه حتى أعماق

روحه من هذا الفصل، اضطر للذهاب شتاءً حافي القدمين لا تستره سوى خرقة إلى مقر إقامة البابا في كانوسا Canossa (الذي كان نفسه منغلقاً في القلعة من الخوف)، وعلى ركبتيه طلب منه الصفح (1077).

ترافق التمكين السياسي للكنيسة الكاثوليكية بزيادة مستمرة لتأثيرها الروحي-الأيديولوجي وخضوع كل أشكال الثقافة لها. ونُظر إلى النظام الحكومي - القانوني للمجتمع الإقطاعي وسلمه الوظيفي الشرطي كنظام منزل من الله وقفت الكنيسة المسيحية لحمايته، في حين مثّل خَدَم الكنيسة ورجال الدين بحكم وضعهم الخاص الفئة العليا الأولى من المجتمع الإقطاعي. وحدد هذا الوضع بمنح رجال الدين نعمة خارقة - النعمة الإلهية عند تنفيذ مراسيم الكهنوت (رسامة) التي تسمح لهم بالتوسط بين الإنسان والله.

انقسم رجال الدين أنفسهم فيما بعد إلى مجموعتين: دنيا ليس لديها لقب رفيع (خدم الكنيسة والرهبان العاديين)، وعالية لها لقب رفيع هو رجل دين. وللأخيرة تم تحديد ثلاثة مستويات من الكهنوت: شماس (كاهن، رئيس دير، قمص)، وأساقفة (أسقف، مطران، كاردينال، رئيس المطارنة)، وحكام الكنيسة، أمراء الكنيسة (بطرك، بابا). كما انقسم رجال الدين أيضاً إلى بيض (رجال الدين غير المرتبطين بوعود صارمة خاصة من الطاعة)، وسود (الرهبان الذين يتحملون مسؤوليات إضافية، وخصوصاً «الخروج من العالم»).

شكل الإقطاعيون العلمانيون الفئة الثانية المميزة التي رتبت أيضاً ترتيباً هرمياً بحيث وضعت الطبيعة الإلهية لسلطتهم وامتيازهم بالاعتماد على مباركة الكنيسة. وشكل الشعب الفئة الثالثة من المجتمع الإقطاعي، وبالترتيب المفروض من الأعلى حدد سلفاً انخراطها في العمل، وتنفيذها لمسؤوليات رعاية الفئتين الأوليتين.

لكونهم الطبقة المتعلمة الوحيدة، طور رجال الدين النشاط في وضع تشريع

القرون الوسطى المبكرة الذي شكلت أساسه مجموعة القوانين العامة المصاغة في «القوانين البربرية» بروح التعاليم المسيحية. وبشكل عام، كانت «الرؤية الكونية للعصور الوسطى لاهوتية في أغلبها»، في حين «شكلت العقيدة الكنيسة نقطة الانطلاق والأساس لكل تفكير». لذلك، «فعلم القانون، والعلوم الطبيعية، والفلسفة – وضع مجمل محتوى هذه العلوم وفقاً لتعاليم الكنيسة «(إنجلز).

التأثير القوي لعلم اللاهوت تعرضت إليه بشكل خاص الفلسفة التي أصبحت «خادمة اللاهوت»، التي تمثل هدفها الرئيسي في إدراك الله، وتبرير الأدلة على وجود الله، وكشف صفاته. وفي القرون الوسطى الأولى كانت الأفضلية في تكوين هذه المهمة من نصيب الاتجاه الصوفي في الفلسفة الدينية الذي يرجع إلى الاعتراف بالطبيعة ما فوق العقلية للعقائد المسيحية المفهومة بدرجة كبيرة عن طريق الوحي الإلهي، والتأمل ما فوق العقلي، والاستنارة الصوفية. ويعود إلى كل من ترتليان Tertullianus أحد أول المدافعين عن المسيحية الذي أعلن قائلاً: «أؤمن، لأنه مثير للسخرية»، وأوغسطينوس Augustine of Hippo أبرز آباء الكنيسة الذي اعتبر أنه من غير الممكن الوصول إلى الله بالمعرفة، لكنه يكشف عن نفسه في الوحي عندما يتحدث عن نفسه في العهد القديم: «أنا أنا».

انقسم الاتجاه الصوفي للفلسفة الدينية نفسه إلى أرثوذكسي (برنارد دي كليرفو Bernard de Clairvaux، القرن الحادي عشر – القرن الثاني عشر)، وغير أرثوذكسي (جون سكوتس إريجيا Johannes Scotus Eriugena، القرن التاسع). وتمسك الأول بالمبادئ الأساسية للمسيحية بقوة، ودعا عن عمد إلى الزهد، ونبذ الحياة الدنيا من أجل بلوغ حالة النشوة والاندماج مع الله. أما الثاني فقد استخدم الإشارة إلى الوحي والإلهام للوعظ بأفكار ألوهية الكون،

وأُدين من الكنيسة. وبحكم الطبيعة الصوفية لكل دين فقد أيدت الكنيسة البناء الفلسفي الصوفي الأرثوذكسي، ولكن لدخول الإقطاع إلى فترة النضوج أصبحت الفلسفة المدرسية Scholasticism الاتجاه السائد للفلسفة الدينية.

على عكس التصوف، رأت الفلسفة المدرسية السبيل إلى إدراك الله والعقائد المسيحية ليس في التأمل ما فوق العقلي والوحي، وإنما في الإدراك التأملي – الخيالي بوساطة التحليل الشكلي – المنطقي والتعليق على نصوص الكتاب المقدس وآباء الكنيسة التي تحتوي بالفعل على حكمة الكون بأكملها. ومنذ ذلك الحين التصقت بالفلسفة المدرسية قيمة المنطق الفارغ المنفصل عن الحياة، الصحيح شكلياً، ولكنه غير ذا معنى من ناحية الجوهر. وتعود الفلسفة المدرسية أيضاً إلى أغوسطينوس الذي ادعى أنه بعد أن أظهر الله نفسه للناس في الكتاب المقدس، فإن دراسة وتفسير نصوصه هي تحديداً الطريق الرئيسة لمعرفة الله وكل ما هو موجود.

اضطرت الكنيسة إلى التخلي عن الأفضلية للفلسفة المدرسية، وذلك بالدرجة الأولى لأن الاعتماد على الوحي الصوفي في فهم الله قاد المؤمنين إلى شك مبرر في الحاجة إلى وجود الكنيسة نفسها كوسيط لفهم الإنسان لله، كما أنها أصبحت عائقاً أمام مواصلة تطوير المجتمع الذي يحتاج إلى العقلانية كقوة محركة حقيقية.

أصبحت الفلسفة المدرسية الشكل المحافظة على العقلانية وتطويرها في العصور الوسطى، في زمن انتصار الايمان والوحي، والفهم الصوفي، والتنوير. نقل منطق تطورها مع الضرورة الإنسانية من فلسفة انسيلم كانتربري Anselm of Canterbury (القرن الحادي عشر – القرن الثاني عشر) بفكرتها المهيمنة «الايمان من أجل الفهم»، إلى فلسفة بيير آبيلارد Pierre Abailard (القرن الحادي عشر – القرن الثاني عشر) الساعية إلى «الفهم من أجل الايمان». وبعد

لعبها الدور الإيجابي في تطور حضارة العصور الوسطى، بلغت الفلسفة المدرسية فيما بعد ذروة ازدهارها في فترة القرن الثاني عشر- القرن الرابع عشر، وذلك باكتسابها التجسيد الكلاسيكي في إبداع «الطبيب الملائكي» توما الأكويني Thomas Aquinas (القرن الثالث عشر) الذي اعتبرته الكنيسة الكاثوليكية من أبرز القديسين. ولكن، وبسبب النجاحات الحقيقية للعقلانية في العصر الحديث، تحولت الفلسفة المدرسية على نحو متزايد إلى كابح على طريق التقدم الاجتماعي.

2. ثقافة القرون الوسطى الناضجة (القرن الثاني عشر – القرن الرابع عشر)

تتميز فترة القرون الوسطى الناضجة من الناحية الثقافية باكتساب الإقطاعية أشكالها الكلاسيكية المتطورة في المجالات الصناعية والاجتماعية والسياسية – القانونية، فضلاً عن التثبيت التام للعقيدة اللاهوتية. في هذه المجالات جميعها تشكلت ونضجت بشكل متزامن مقدمات التحول البرجوازي القادم للمجتمع، الفطرية بالنسبة للإقطاع، ولكن المسببة لهزيمته في نهاية المطاف.

واصلت الزراعة والإنتاج الزراعي امتلاك الأهمية الحاسمة من الناحية المادية–الصناعية، ففي كل مكان ترسخ النظام الثلاثي المتناوب لزراعة الأراضي، واستحدثت أدوات زراعية حديدية من محاريث وأمشاط وغيرها. وتزايد استخدام طواحين الهواء وطواحين المياه التي أصبحت رمزاً جلياً للاقتصاد الإقطاعي. وتطورت زراعة البساتين والكروم، وتربية الماشية. وساعد تطوير وسائل الإنتاج وتحسين أساليب صهر ومعالجة المعادن على إحياء الإنتاج الحرفي. وفي النهاية أدى التخصص المتزايد للإنتاج الحرفي وظهور المهن الموسمية في القرى إلى تحويل هذه الصناعة إلى مجال مميز من العمل، الأمر الذي أدى بدوره إلى إحياء المدن في القرون الوسطى.

بقي أساس النظام الإقطاعي في ملكية الإقطاعيين للأراضي التي مثلت أداة الإنتاج الرئيسة، فعلى أساس ملكية الأرض على وجه التحديد تشكل السلم المميز للإقطاعية لتبعية أمراء الإقطاع غير المستقلين لبعضهم بعضا، إذ حصل كل واحد منهم على الأراضي ممن هو أعلى منه رهناً بالتزامات معينة تجاهه (الحفاظ على الوفاء، وتأدية الخدمة العسكرية، وتقديم الموارد، وإظهار الولاء الشخصي). وإلى جانب الأراضي حصل الإقطاعي أيضاً على الناس الذين يعيشون عليها من الفلاحين المجبرين على تقديم كل أنواع الخدمة لقاء حقهم في العيش على أراضي السيد واستخدامها. وقسمت جميع الأراضي العائدة للإقطاعي إلى أراضي المالك، وأراضي الفلاحين. وبدا وكأن الفلاح هو مستأجر لأراضي السيد، إلا أنه يختلف عن المستأجر الحقيقي في وقوعه تحت السلطة الكاملة والتبعية للإقطاعي، إذ لم تكن لديه أية مصادر للعيش، وكان أعزلاً أمام سيده المسلح.

امتلك الفلاح أدوات العمل، ومواشي العمل والإنتاج، ومجموعة من الأدوات، وزراعة كفاف خاصة، ومنزلاً ريفي، وأدوات منزلية. ومع ذلك، من دون الأرض لم يعن كل ذلك شيئاً، فالأرض ليست ملكاً له، ولم يستطع أن يرمي كل رزقه، ولم يتمكن من استخدامه بالكامل لصالحه، وإنما كان مجبراً على العمل لصالح السيد.

وهكذا، في ظل العلاقات الإقطاعية كان الفلاح في تبعية اقتصادية إلى مالك الأرض، الإقطاعي، ذي الحقوق الكاملة، وعانى من الإكراه المباشر وغير المجدي على العمل في شكل سلطة السيد المباشرة عليه. جاء الاعتماد الشخصي والإكراه غير المجدي في مراحل مختلفة بأشكال متباينة – من وضع الفلاحين العبودي تقريباً في حال القنانة إلى الظلم الطبقي لهم، إلا أنه كان دوماً السمة المميزة الأهم للإقطاع.

تمثلت السمة المهمة للاقتصاد الإقطاعي في طبيعته الطبيعية، حيث تعيش كل مزرعة حياتها مستقلة، وتنتج بداخلها كل ما هو ضروري للحياة. واقترنت الزراعة مع الحرف المنزلية غير المتطورة والمرتبطة بإنتاج أدوات العمل، وتجهيز المواد الخام، والغزل، والنسيج، وصناعة الأدوات والأواني المنزلية. ونتيجة لذلك تمتع الإنتاج نفسه ولفترة طويلة بطابع الانغلاق والاكتفاء الذاتي، حيث حصل الإقطاعي في المدينة على تشكيلة محدودة جداً من المنتجات من أسلحة وذخائر ومجوهرات وبعض المنتجات والبضائع النادرة من سجاد وكؤوس وملح وتوابل أجنبية. زد على ذلك أن الاقتصاد الزراعي كان طبيعياً بدرجة كبيرة، لأن المزارع افتقر للإمكانيات التي كان يتمتع بها السيد، في حين وجب عليه العمل من أجل الأخير.

في البداية مارس الإقطاعي حقه في استخدام جهد الفلاح على شكل عمل من أجل سداد جزء الوقت الذي يقضيه في الإنتاج مباشرة في ملكية السيد على أرض الإقطاعي. وسمي ذلك بالسخرة، حيث يضطر الفلاح لقضاء الجزء الأكبر من الوقت في معالجة أرض السيد بأدواته الخاصة، وتنفيذ أعمال البناء وغيرها من الأعمال الضرورية للإقطاعي تحت الإكراه المباشر والمراقبة الصارمة من قبل السيد أو المشرف. ومن الواضح أن الفلاح، كالعبد، لم يكن على الإطلاق معنياً بالعمل الجيد طالما أنه لا يحصل من هذا العمل على شيء، الأمر الذي أملى ضرورة إثارة اهتمامه في نتائج عمله. وهكذا ظهر في الاقتصاد الإقطاعي مفهوم الضريبة، أي كمية المستحقات ونوع المنتجات الزراعية التي يوجب على الفلاح تقديمها للإقطاعي. ولا حاجة هنا للمراقبة المستمرة للمزارع، لأنه يعمل تحت مسؤوليته الشخصية منظماً قواه ووقته. لذلك، وبتلقيه مهمة قاسية، أصبح المزارع أكثر اهتماماً في رفع وتحسين إنتاجية وطرق وأساليب العمل، إذ يمكنه في ما يتبقى من الوقت العمل من أجل نفسه وأسرته.

جرى تحسين ثقافة الإنتاج في إطار دمج نظامي السخرة والضريبة الطبيعية لفترة طويلة إلى حين لم تثبت الأخيرة جدارتها بالنسبة للإقطاعي كما للمزارع. ومع ذلك، إن الطابع الإكراهي للعمل في مثل هذا التنظيم للإنتاج شكل مع طابعه الطبيعي عقبة كبيرة أمام تنميته، إذ لم يكن الفلاح مهتماً في تحسين الإنتاج وأدوات العمل وأساليب الإدارة، في حين لم يكن الإقطاعي بحاجة إلى المنتجات الزراعية بكميات أكثر من التي يستطيع استهلاكها في مزرعته.

لا يحتاج الإنتاج الطبيعي للتوسيع والتحسين، لأنه مخصص للاستهلاك الداخلي، وحددت درجة استغلاله ونطاقاته «بحجم معدة السيد الإقطاعي». وأخمدت الطبيعة القسرية والعبودية كل مصلحة لدى المنتجين «في تحسين كفاءة الإنتاج، أي طرق وتقنيات الإدارة، وخفض النفقات، وتحسين وسائل الإنتاج. وبهذا يفسر التطور البطيء للغاية للإنتاج الإقطاعي، وطبيعته التقليدية الراكدة، والمحافظة على كامل نظام الحياة.

ومع ذلك، أدى تحسين كفاءة الإنتاج إلى ظهور فائض في السلع كان من المفضل مبادلته بما هو أكثر ضرورة للاقتصاد، وعلى وجه الخصوص بالأدوات الصناعات اليدوية التي يقوم بتصنيعها المتخصصون على نحو أفضل وأرخص منه في المزرعة، كما ظهرت الحاجة إلى البيع والشراء، وتطلب ذلك وجود المال. وهكذا، استبدل الشكل الطبيعي للمستحقات تدريجياً بالنقدي، وأصبح السيد الإقطاعي يطالب بتقديم المستحقات ليس سلعاً، وإنما مالاً.

أعلنت العلاقات السلعية – النقدية في المدينة وفيما بعد في القرية ولادة علاقات جديدة بين السيد والفلاح في أحشاء الإقطاع، فتحولت هذه العلاقات تدريجياً من استعبادية إلى تعاقدية، إذ يستأجر الفلاح الأرض ويدفع المال، وفي حال المزيج الموفق للظروف يمكنه استرجاع أمواله والتحول إلى منتج مستقل. أما في حال السير غير الموفق للأمور فيكون غير قادر على دفع

أموال المستحقات، ويعلن إفلاسه، ويقوم باستئجار عامل آخر أكثر نجاحاً، أو يفر إلى المدينة. ويجري فرز اجتماعي سريع للفلاحين يظهر نتيجته ملّاك مستقلون أقوياء أصبحوا يعملون لأنفسهم وعلى أراضيهم الخاصة، والكثير من المحطمين المضطرين للعمل كأجراء لدى أولئك الملاك، بائعين بذلك قوتهم العاملة. وهكذا تشكل في إطار الإنتاج الزراعي أساس الإنتاج المميز للرأسمالية.

أدى كل من التحسين البطيء والتدريجي لأدوات ووسائل الإنتاج في الزراعة، ونمو تقسيم العمل، وتعميق التخصص إلى ظهور الحرف والمهن الموسمية ومعها فصل الإنتاج الحرفي عن الزراعة، وكذلك ظهرت التجارة كنشاط وسيط لهذا التقسيم.

في البداية تشكل الإنتاج الحرفي داخل الأملاك الإقطاعية، ولكن وبسبب الانتقال إلى نظام المستحقات، ظهرت المهن الموسمية، حيث بدأ أمهر وأدهى الفلاحين بمزاولة الإنتاج الحرفي لغايات لبيع، وبدأ هذا النشاط بالتحول تدريجياً إلى نشاط رئيس بالنسبة لهم، فهم يخدمون عدداً متزايداً من السكان ليس فقط في قراهم، وإنما في القرى المجاورة أيضاً. وسرعان ما أصبح جلياً أنه من الأسهل عليهم عدم الانتقال من قرية إلى قرية، وإنما الاستقرار في مكان واحد حيث تتلاقى تدفقات الناس، في كثير من الأحيان عند مفترق الطرق، وعلى المعابر والجسور فوق نهر، وربما ببساطة عند جدران قلعة الإقطاعي أو الدير. وبذلك أصبح سكان المنطقة بأكملها يعرفون أين يمكنهم شراء ما يحتاجونه في مزارعهم من السلع الحرفية، وفي الوقت ذاته عرض الفائض من منتجات مزارعهم للبيع. وهكذا أنشأت بالتدريج مستوطنات وضواحٍ تحولت في نهاية المطاف إلى مدن ومراكز للحرف والتجارة ونمو لعلاقات اجتماعية وثقافة جديدة. وبالطبع نمت وتطورت المدن الباقية منذ القدم.

بسبب تطورها وتخصصها، انفصلت الحرفة كلياً عن الزراعة، وأصبحت سلعية بالكامل، أي موجهة إلى البيع. وهذا الإنتاج اكتسب تدريجياً طابعاً منظماً في المدن، إذ توحدت ورش الحرفيين في نقابات لها تنظيمها الداخلي، وانتخبت لها قيادة ووضع لها نظام أساسي. وللحيلولة دون الإفراط في إنتاج السلع، وتجنب المنافسة بين الحرفيين المهرة، قامت النقابات بتنظيم حجم الإنتاج، وعدد العاملين في الورش، وتكنولوجيا الإنتاج، وكذلك أسعار السلع. وكان لدى الحرفي النقابي ورشته الخاصة وعدد من الحرفيين المساعدين والمتدربين، وعمل شخصياً حسب الطلب أو من أجل السوق المحلية.

حفز تطوير الإنتاج السلعي تنمية التجارة والعلاقات السلعية – النقدية، وبالتالي سهل ظهور سكان المدن الأكثر ثراءً من تجار وصيارفة ومقرضي المال، إذ تركز في أيديهم رأس المال النقدي، كما توحد التجار ومعهم أصحاب المتاجر في نقابات نظمت تفاعلهم داخل مجال النشاط وأسعار وجودة المنتجات، ودافعت عن حقوق التجار من انتهاكات الإقطاعيين. ولفترة طويلة جرت هذه العمليات ببطء نتيجة لهيمنة اقتصاد الكفاف وضيق ومحدودية السوق. ومع ذلك فقد وضعت البداية لعلاقات جديدة جرى تطويرها فيما بعد بسرعة متزايدة، وتطلب توسيع نطاق علاقات السوق وبسط العلاقات الاقتصادية على مناطق واسعة تغيرات في أساليب الإنتاج، والتغلب على التجزىء الإقطاعي الذي حال دون قيام هذه العلاقات. والنظام الإقطاعي نفسه بتنظيمه النقابي وتنظيمه التقوقعي والروتيني للإنتاج، وعدائه للابتكار، مثَّل عقبة على طريق التنمية، فقد بدأ بعض الحرفيين بالالتفاف على القوانين النقابية، وتوسيع الإنتاج، وإخراجه خارج إطار النقابات، وتوظيف المزيد من العمال لديهم. واشتدت عملية التمايز المادي والاجتماعي للحرفيين، إذ أصبح رأس مال الحرفي الذي أصبح ثرياً يتشابك مع رأس مال التاجر والمرابي.

وسمح ذلك بالتوسيع الكبير لنطاقات الإنتاج.

مع زيادة عدد الحرفيين المساعدين والمتدربين، وتوحيد الورش، فقدت شخصية الحرفي طابع المبدع، إذ أصبح لا يشارك بشكل مباشر في عملية الإنتاج مكتفياً بالتوجيه والإشراف. وتحول الحرفيون الأغنياء تدريجياً إلى رأسماليين. وعلى أساس التجربة تبين تدريجياً أن الأثر الأكبر من أجل الحصول على الربح في صناعة المنتجات لا يمكن بلوغه في الإنتاج الفردي من البداية إلى النهاية، وإنما بتقسيم مسار العمل بين العديد من العمال. وهكذا ولد التصنيع – المؤسسة التي تستخدم العمل اليدوي للعديد من العمال الذين ينفذون عمليات جزئية في السياق الكامل لعملية الإنتاج. ومثَّل التصنيع السلف لظهور الإنتاج الآلي والحضارة الصناعية المبنية عليه.

نمت المدن بسرعة وتطورت على أساس التقسيم المكثف للعمل، ونمو الملكية الخاصة، وتطور إنتاج السلع والتجارة. وأزال إنتاج السلع التقييد المتأصل في اقتصاد الكفاف، وحفز الحاجة إلى تطوير وسائل الإنتاج ومهارات العامل. وتجاوزت الحياة الحضرية في كثافتها وتنوعها السياق الراكد والرتيب للقرية إذ ارتبط كل شيء بالعملية الطبيعية الدورية لتبدل المواسم، واقتصر على الوجود النباتي تقريباً. على العكس، المدن مع دوامة حياتها والطبيعة المكثفة للعلاقات الاجتماعية، وتقسيم العمل، والأشكال الجديدة للعلاقات الاجتماعية أصبحت أماكن تقاطع النزعات والتغييرات والابتكارات الجديدة، لذلك فقد مثَّلت البراعم الحقيقية لتشكل الحضارة المدنية الجديدة. وحفزت مدن القرون الوسطى المتأخرة بتنظيمها تنمية الإنتاج، وتحسين المهارات الاجتماعية والتنظيم الذاتي والحكم الذاتي.

كان المركز التاريخي لجميع المدن هو السوق، ساحة البلدة مع مبنى البلدية والكاتدرائية التي ازدهرت حولها مربعات ورش الحرفيين والمتاجر،

وكذلك المنازل. وفيما بعد، ونتيجة لتطور إنتاج السلع والتجارة، زينت مراكز المدن بمباني البنوك والبورصات ودور سك العملة، وعلى الأطراف ظهرت المستشفيات والسجون ودور المسنين والخانات والفنادق. والمكانة الهامة في المدن شغلتها المؤسسات التعليمية من كليات وجامعات قامت في معظمها على أراضي الأديرة أو الكنائس، وهي مراكز معرفة القرون الوسطى. ومع ذلك، بقيت ساحة المدينة المركز الفعلي لمجمل الحياة الاجتماعية للمدينة، وكانت بمثابة مكان لتجمع المواطنين لمعالجة أهم الشؤون العامة، وللطقوس الاحتفالية الدينية والسياسية، والمكان الذي كانت تنفذ فيه أحكام الإعدام، وتنظم فيه المهرجانات الشعبية وعروض المقصورات والكرنفالات والألعاب النارية.

بهذا الشكل، مثَّل تطور ثقافة إنتاج الكفاف الزراعي للقرون الوسطى المقدمة لإزالته، فالانتقال من شكل المستحقات الطبيعية للالتزامات الإقطاعية، وظهور الإنتاج الحرفي في أعماق الإنتاج الزراعي، والتحويل المتزايد لمنتجات هذا الإنتاج إلى سلع، والانتشار الواسع للعلاقات السلعية – النقدية أدى إلى تغيير القاعدة الاجتماعية للإقطاعية وبنيتها الاجتماعية – الطبقية. وبين ممثلي الطبقات الغنية – السلطة الملكية المركزية وبارونات الإقطاعية ورجال الدين وأمراء الإقطاع العلمانيين احتد الصراع على السلطة السياسية والنفوذ فانخرطت فيه فئة ثالثة ممثلة بأبناء المدن، فقد نمت المدن وتطورت واكتسبت قوة اقتصادية، إلا أنها بقيت عاجزة سياسياً.

سعى أمراء الإقطاع – الذين نشأت المدن وتطورت على أراضيهم – لإخضاعها لسلطتهم وفرض الضرائب والرسوم عليها، مما أثار سخط سكان المدن وغضبهم الذين أصبحوا يشعرون بقوتهم. وقاد ذلك في فترة القرن الثاني عشر – القرن الثالث عشر إلى صراع طويل خاضته المدن ضد الإقطاعيين من أجل الاستقلال. ونتيجة لذلك أرغم الإقطاعيون على الاعتراف بالاستقلالية

المعروفة للمدن و«حريات المدن» لتتحول المدن تدريجياً إلى مراكز للمشاعر المعادية للإقطاعية، وحصوناً للاستقلال النسبي من الاضطهاد الإقطاعي. وانتشرت ممارسة هروب الفلاحين من أسيادهم الإقطاعيين إلى المدن وتحولهم إلى سكان مدن، وانتشر حينها القول الشائع «هواء المدينة يجعل الإنسان حراً». وقوض ذلك عند السكان الريفيين أساس التبعية العبودية للإقطاعيين.

في حصيلة هذه المواجهة لعبت حقيقة أن مصالح المدن تطابقت مع مطالبات السلطة الملكية المركزية الدور الهام في التحول إلى مركز حقيقي للنفوذ السياسي على أراضي البلاد كافة. اضطر الملك الذي كان يحتاج إلى المال والدعم القوي من الإقطاعية الحرة إلى الذهاب إلى تحالف مع المدن ومنح المدن مختلف «الحريات»، الأمر الذي ساهم بشكل موضوعي في نمو الحكم الذاتي للمدن، وتطوير الحكم الذاتي المحلي. وبدورها كانت المدن راغبة في الحد من تعسف الإقطاعية وتشتتها الذي حال دون تشكل السوق الوطنية وتوحيد البلاد. والكنيسة التي كانت نفسها تلعب دور الإقطاعي الأضخم سعت لإقامة «جمهورية مسيحية» عالمية تدار مركزياً، وبالتالي فقد أيدت البعض ضد البعض الآخر، أو العكس، ولكن دوماً لمصلحتها. وهكذا، من مواجهة القوى السياسية والمصالح المختلفة تشكلت مبادئ الثقافة السياسية للمجتمع البرجوازي القادم مع نظامه لتقاسم السلطة عن طريق إنشاء نظام من الضوابط والتوازنات.

إن التعزيز الكبير للسلطة الملكية المركزية في الدول الغربية الذي حدث في فترة القرن الثاني عشر – القرن الرابع عشر انسجم مع مصالح المجتمع في توحيد الدول ضمن فضاء اقتصادي موحد مع نظام تداول نقدي مشترك، ونظام إدارة حكومية وتحصيل ضرائب، وحظي بتأييد المدن. إلا أن بارونات الإقطاع الذين سعوا لمنع حدوث التمتين المفرط للسلطة المركزية والحفاظ على

امتيازاتهم وسلطتهم في المناطق قاوموا ذلك ولفترة طويلة، وفي النتيجة تشكل نظام اضطر الملك فيه إلى الذهاب إلى حل وسط مع أمراء الإقطاع عن طريق إنشاء هيئات للسلطة النيابية – نماذج البرلمانات المستقبلية، ففي انكلترا كان مجلس النواب (القرن الثالث عشر)، وفي فرنسا – الولايات المتحدة (القرن الرابع عشر)، وفي الإمبراطورية الرومانية المقدسة المجزأة – الرايخساغ Reichstag واللاندتاغ Landtag، وفي أسبانيا – كورتيس cortes.

يتمثل الفرق الرئيس بين هيئات السلطة المنشأة حديثاً وما سبقها من مجالس إقطاعية ومجالس كنيسة في أنها اكتسبت طابعاً مؤسساتياً، وللمرة الأولى في تشكيلة هذه المجالس سمح بدخول ممثلي الفئة الثالثة الذين وإن كان عددهم ضئيلاً وعلى نحو غير متناسب، إلا أنهم كانوا من أكثر المواطنين ثراءً ونفوذاً، ومثلوا مصالحهم. وحصلت السلطة الملكية على إمكانية الاعتماد في إدارة سياستها لتعزيز المركز ليس فقط على القوة، وإنما على توافق مختلف الطبقات أيضاً. عندها تمكنت السلطة الملكية من المناورة والتحرك بين مختلف المصالح، وكأن بها تحافظ على نفسها كمولف للمصالح الوطنية فوق الصدام.

لقد غير مثل هذا الظهور لمراكز جديدة للقوة والسلطة في إطار منظومة الدولة مضمون الدولة الإقطاعية وطبيعتها، فقد تحولت الدولة من الملكية الموالية التي كانت عليها في القرون الوسطى المبكرة، إلى تمثيلية طبقية، وبحلول القرن الخامس عشر أصبحت بالفعل نظاماً ملكياً استبدادياً مطلقاً.

توافق هذا التطور للثقافة السياسية لمجتمع القرون الوسطى الناضجة مع التغيرات التي حدثت في الثقافة القانونية، التي كانت في البداية بمستوى منخفض للغاية، وفي فترة القرن الثاني عشر – القرن الثالث عشر فقط تشكلت أولى الرموز القانونية التي تمثل مصدرها في كل من الأعراف، و«الحقائق الوحشية»، والأوامر والمراسيم الملكية المنكهة بالروح المسيحية وبقايا القانون

الروماني التي تم اقتراضها من مدونة جستنيان Codex Justinianeus (إمبراطور بيزنطة في القرن السادس). والأهم من ذلك كله أن القانون الروماني كان مطلوباً عند تشكيل الحكم الذاتي في المدن الإيطالية.

قبل ذلك الوقت سيطرت المحاكم الإقطاعية المحلية التي كانت تصدر أحكامها على أساس إرادة السيد الإقطاعي وعلى المحاكمات الدينية («حكم الله») حيث يخضع المتهم للاختبار بالماء أو النار، ويعتبر من لم يغرق في الماء ويداه مقيدتان أو لم يحرق بها بريئاً، وإذا لم يتمكن من مقاومة الحديد الملتهب في يديه، أو أنه غرق إلى القاع، اعتبر ذنبه مؤكداً. وفيما بعد، ومع تعزيز السلطة القضائية العلمانية، تراجعت المحاكم الدينية بشكل تدريجي لتفسح المكان للسلطة القضائية العلمانية، مخلفة وراءها (في شكل من أشكال محاكم التفتيش) أبشع الجرائم ضد العقيدة المسيحية والكنيسة.

إن كل هذه الرموز الإقطاعية («الأعراف العظيمة» في فرنسا، و«مجموعة لومبارد» في إيطاليا، و«مرآة شوابن» في ألمانيا) عالجت بشكل مختلط قضايا في مجالات مختلفة تماماً من القانون، وتباينت للغاية من ناحية مضمونها. وعلى الرغم من جهود الحكومة المركزية اللاحقة للتغلب عليه، إلا أن هذا التنافر استمر طوال العهد الإقطاعي، حتى أن فولتير Voltaire (فرانسوا ماري آرويه François Marie Arouet) في القرن الثامن عشر أشار إلى ذلك بقوله: «تغير القوانين في فرنسا كما تغير الخيول في المحطة».

مع توطيد الحكومة المركزية وتنمية العلاقات السلعية – المالية تقدم القانون الروماني إلى المقام الأول في مجموعة القوانين، إذ تم فيه – وبالتفصيل – معالجة قضايا نظام الدولة والعلاقات التعاقدية الخاصة. وتطلب تفسيره وتسوية التناقضات بينه وبين القوانين القديمة رجال قانون مهرة أصبحوا يعدون الجامعات التي كانت تظهر في الأديرة. وبالتدريج تشكلت أجهزة النظام

القانوني التي شملت المحاكم في المناطق، والمحكمة العليا، والمدعين العامين، وكتاب العدل وغيرهم من الموظفين. كما تأسست اتحادات لموظفي المحاكم والمحامين وكتاب العدل.

حمل أداء النظام القانوني طابعاً إقطاعياً تماماً، إذ مالت العدالة إلى من كانت قوته هي الراجحة. وسرعان ما صاحبت القضاة الملكيين تلك السمعة السيئة التي تمتع بها التعسف القضائي لأمراء الإقطاع، ففي حكاية شارل بيرو Charles Perrault الشهيرة «القطة ذات الحذاء Le Maître chat ou le chat botté» بعد موت الطحان تقاسم أبناؤه الإرث فيما بينهم دون اللجوء إلى كاتب عدل أو محام، ودافعهم في ذلك هو اعتقادهم بأنهم لو فعلوا ذلك لما حصلوا على شيء.

إلى جانب القضاة الملكيين كان هنالك قضاة محلفون شكلوا هيئة كبار المحلفين (24 شخصاً من السكان المحليين) التي كانت تبت في أمر تقديم المتهم للمحاكمة أو لا، وهيئة صغار المحلفين (12 محلفاً) التي كانت تعالج مسألة الاتهام من حيث الجوهر. ومع ذلك، فقد حافظت المحاكمة والنظام القضائي برمته على ملامح البنية الإقطاعية للمجتمع كافة مع تقسيمه الطبقي – الهرمي للحقوق والمسؤوليات، فكلما علت درجة الهرم الاجتماعي للشخص، كان وضعه الاجتماعي أقوى، وكان أكثر قدرة، وتمتع بالمزيد من الحقوق والقليل من المسؤوليات، في حين بقيت الطبقة الثالثة محرومة من الحقوق، وتحملت العبء الأكبر في المحافظة على الدولة والمجتمع.

انعكس هذا بوضوح في القانون الجنائي، حيث انقسمت الجرائم جميعها إلى سياسية، ودينية، وضد حياة الفرد وصحته، وضد الممتلكات. وفي هذه الفترة تحت الفئة الأولى أدرجت الخيانة والغدر بالملك والسيد والكنيسة والورشة والنقابة، أما فيما يخص الشيء الذي تكمن فيه هذه «الخيانة»، فقد ترك أمر تفسيره للقضاة الذين قاموا بنفسهم بابتكار العقوبات أيضاً،

فقد عوقب بشدة بالغة على الجرائم المرتكبة ضد الكنيسة، لأن أية شكوك أو معارضة أو بدعة (ناهيك عن ممارسة الشعوذة والسحر وتشريح الجثث) اعتبرت جرائم تستدعي غضب الله على الناس كافة، لذلك تم المطالبة بإنزال العقوبة الأقسى، في حين لم تمثل جرائم الأفعال التي كانت تقوم بها المجموعات المسلحة من الإقطاعيين على الطرق الرئيسة، واحتجاز الرهائن بالقوة للفدية اللاحقة، وحق السيد الإقطاعي في «الليلة الأولى»، وجميع أعمال العنف ضد الفلاحين الضعفاء، وإنما نظر إليها كغنيمة حرب مشروعة. وإضافة إلى ذلك، لم يعتبر جريمةً العنفُ المسلح ضد الاحتجاجات العفوية للفلاحين الذين وصلوا إلى درجة اليأس.

وضع الاستجواب الذي كان يجري للمتهم تحت تأثير محاكم التفتيش لنفسه هدف الحصول على الاعترافات بأي ثمن، الأمر الذي استخدمت من أجله أكثر أشكال التعذيب تطوراً. واعتبر الاعتراف دليلاً كافياً على الذنب، ولكن كان من الممكن إدانة المتمردين الخطرين لمجرد أن مظهر المتهم وتعابير وجهه بدت للقاضي «مشبوهة بشكل خاص». ونما خضوع القضاة وقابليتهم للرشوة، في حين ساد في المحاكم الابتزاز والخداع والروتين.

توافقت العقوبات التي اعتمدت في مجتمع القرون الوسطى مع القاعدة العامة التي تنص على أنها ينبغي أن ترهب الجميع. ولذلك، إذا كان التحقيق والمحاكمة يجريان وراء أبواب مغلقة، فقد وجب أن يكون العقاب أكثر وحشية وعلنية وذلك لزيادة فعاليته. وكان يتم تنفيذ العقوبة عادة في ساحة المدينة بحضور حشود كبيرة من الناس في جو احتفالي، وغالباً ما كانت في شكل إعدام أليم – حرق، سحل، وشنق، وتربيع، وغلي في الزيت، وتقطيع إلى أجزاء، وسكب المعدن المنصهر في الحلق. واعتبر الشنق تساهلاً. وكانت تترك جثث من ينفذ فيهم الإعدام لفترة طويلة ليشاهدها الجمهور. وفي القرون

الوسطى المتأخرة (من القرن السادس عشر) فقط بدأ تطبيق أشكال أخرى من العقاب، مثل النفي مدى الحياة مع الأشغال الشاقة، والأشغال الشاقة، والسجن لفترة معينة.

يتميز النظام الإقطاعي الناضج باستقرار البنية الاجتماعية وتنظيمها الداخلي مما يسمح بتحليل الأنواع الاجتماعية للشخصية التي أنتجها النظام الإقطاعي والخصائص العامة المميزة لثقافته الأخلاقية.

دائماً ما تمتع تقسيم المجتمع إلى طبقات بالانجذاب نحو التوطيد الوراثي على شكل طبقات مغلقة مع قيمها الخاصة وقواعد السلوك وحالة معينة في المجتمع. وبدورها تتشكل ضمن الفئات نفسها جماعات، أي مجموعات واتحادات من الناس يوحدهم التشارك بالنشاط المهني، وهي مبنية أيضاً بشكل هرمي جيد، وهي جمعيات العسكرية—الدينية للفرسان، والجمعيات الرهبانية، والجمعيات السرية المختلفة، ونقابات حرفيي المدن، ونقابات التجار، وحتى الفقراء والمتسولون واللصوص أسسوا ما يشبه المنظمة الهرمية المغلقة.

حددت مثل هذه البنية للمجتمع الملامح الاجتماعية – الأخلاقية لثقافة المجتمع الإقطاعي، وطبيعتها الطبقية التعاونية، إذ تمتلك كل طبقة وكل نقابة مجموعة كاملة من الحقوق والواجبات والامتيازات والقيم وقواعد السلوك مكتوبة ومثبتة في مواثيقها، وغير مكتوبة. وهنا تم وضع وصياغة الفضائل التي يجب على الإنسان مراعاتها، التي تحدد منزلته وأهدافه التي يجب عليه خدمتها.

في واقع الأمر تقسم أخلاق المجتمع الإقطاعي إلى العديد من القواعد الأخلاقية التي لها طابع طبقي – تعاوني جلي، التي تتصف بالانغلاق الطبقي. وبالرغم من ذلك، ولكونها كذلك، فهي تتمتع بمجموعة من السمات العالمية المميزة تسمح بتناولها بوصفها كلية.

أولاً وقبل كل شيء، تتمثل الصفة العالمية في تصور عدالة وأبدية عدم المساواة الاجتماعية، والحاجة إلى التسلسل الهرمي في الحياة، وتوزيع الحقوق والمسؤوليات والثروة والحرمان منها بشكل غير متكافئ وإنما «بحسب المكانة» وفقاً للحالة الاجتماعية. وينبغي أن يتفوق «الأرفع» و«الأفضل» دوماً على «الأدنى» و«الأسوأ». واعتبر الجزاء المكافئ واللائق انسجاماً أخلاقياً وضعه الله.

يشغل كل فرد مكانة معينة في المجتمع، ووضعه الطبقي – التعاوني هو الذي يحدد السمعة والامتيازات وقواعد السلوك وطريقة الحياة والأخلاق والفضيلة التي يجب عليه الامتثال لها. وتهدف الأخلاق الإقطاعية إلى تطوير الإحساس الحاد بالمسافة الاجتماعية بين أفراد الطبقات الاجتماعية والجماعات والطوائف والعشائر المختلفة، وتحافظ عليها بقيودها الخاصة وامتيازاتها، وتشجع على الولاء لنظام المعايير الخاص بها. ويقوم كل فرد في مكانه بعمله الخاص ويحمد الله في حال قام به على ما يرام. والتصور عن «المكان المناسب» في التسلسل الهرمي الاجتماعي للمكانة الطبقية – التعاونية الذي ينبغي أن يشغله الفرد في الجماعة والجماعة في المجتمع، يعد مطلباً ثابتاً ولا غنى عنه للأخلاق الإقطاعية بشكل عام.

الشيء المميز في هذا الصدد تمثله القيمة النسبية للثروة في المجتمع الإقطاعي من أرض ومسكن وملبس وحلي وأموال ومجوهرات، إذ تجسد هذه الأشكال من الثروة جميعها المكانة والاعتبار، فالمسكن الذي يمكن أن يعيش به الفرد، والملابس التي يجب عليه ارتداءها، والمجوهرات، والأسلحة، وحتى مكونات طعامه اعتمدت بشكل محدد على مكانته في درجات السلم الإقطاعي الهرمي. ولم تقيم الثروة في حد ذاتها، وإنما اعتماداً على حالة الشخص، والجماعة التي ينتمي إليها. والثروة المقبولة والمرغوب فيها هي تلك الثروة الضرورية لضمان

النمط الجيد واللائق لحياة طبقة معينة، الذي لا يخرج عن إطارها. واستنكر السعي لتجاوز الحدود نحو الغنى بأي ثمن بوصفه جشعاً وطمعاً وثروة «ليست وفقاً للوضع في الترتيب»، واعتبر تحدياً وتهديداً لكامل النظام الهرمي ولذلك فقد أدين بشدة.

الثروة في حد ذاتها ليست جيدة ولا سيئة، وإنما تصبح كذلك وفقاً للوضع الاجتماعي لصاحبها، فبوساطتها استعرض السيد الإقطاعي هيبته وولائه للسيد الأعلى وذلك باستضافته في القصر، وإقراضه الأموال، ووضع القوات لمساندته، في حين قدم «الرعاية» للتابعين له عن طريق إظهاره الكرم ورحابة الصدر و«الهبة «و»الإطعام». وتمثل الشيء الرئيس للسيد الإقطاعي في قدرته على إنفاق الثروة لترسيخ مكانته، بدلاً من قدرته على كسبها عن طريق سعيه للتنظيم الفعال للإنتاج في الأراضي التابعة له، أو حث الفلاحين على الاهتمام بنتائج عملهم، فالعمل بالنسبة له هو شغل مهين، وهو لائق فقط بالنسبة «للوضيعين» و«الرعاع» الذين يتمثل مغزى وجودهم في تأمين كل ما يلزم للسادة.

بدوره كوفئ على الولاء للوضع الطبقي بالشعور بالوحدة والأمن الذي يكتسبه الفرد في إطار المجموعة الاجتماعية التي تقدم له «الرعاية»، إذ تسري عليه عندها الحقوق والامتيازات التي تنتمي إلى كامل المجموعة وتحفظها الأعراف. لذلك فالفرد في المجتمع الإقطاعي لم يتميز بالاستقلالية، وإنما كان فرداً «جماعياً» ينظم وضعه الطبقي – التعاوني نمط حياته وسلوكه على نحو صارم ودقيق.

تمثل الأبوية الميزة الأخرى الهامة للثقافة الأخلاقية للمجتمع الإقطاعي، وتتمثل برعاية «الكبار» الأبوية «للصغار». كما تنبع هذه الميزة أيضاً من مبدأ التسلسل الهرمي للنظام العالمي، ومن انسجامه في الوقت نفسه. ويتجسد

إظهار الأبوية في السيادة والخضوع، أي مسؤولية الإقطاعي الأعلى والأكبر عن مساعدة التابعين له والاهتمام بهم، والتزامهم بخدمته بإخلاص وصدق، وكذلك تبجيل الفلاحين لسيدهم الإقطاعي كتبجيلهم «لوالدهم» القادر على الحكم والحماية. كما اقتضت الأبوية في أخلاق مختلف الطبقات والفئات المسؤولية المشتركة «للأعلى» و«الأدنى»، حتى وإن كانت غير متكافئة: إذا كان الفلاحون، عبيد الأرض، يتحملون الخدمة والأعباء لصالح سيدهم الذي وجب عليه توفير الرعاية لهم حمايتهم من عنف الإقطاعيين الآخرين ومضايقاتهم، وتقديم المساعدة لهم في فترات الكوارث الطبيعية ونقص المحاصيل، والحفاظ على «الصدق» وسطهم.

تشمل الأبوية الأحكام القيمية للأخلاق الإقطاعية جميعها وذلك بوساطة وضعها العلاقة المتبادلة «للآباء» و«البنون» كقالب عام، ومقارنتها فعلياً بالروابط والعلاقات كافة في المجتمع الإقطاعي. أمر جيد عندما يبرز السيد الإقطاعي «كأب طيب» لفلاحيه، والملك أو الأمير لرعاياه، والسيد لعبيده، ورب العمل لعماله. وفي المقابل ينبغي على جميع «الأبناء» طاعة وخدمة «الآباء» و«الكبار» عموماً.

يشبه المجتمع كله بأسرة واحدة كبيرة، والدها الأعلى هو الله. لذلك، فإن العلاقات الواضحة والمفهومة في الأسرة الأبوية الكبيرة تبرز في الوعي الأخلاقي للمجتمع الإقطاعي كنموذج موحد للتقييم الأخلاقي في متناول الجميع. ولكن لا ينبغي لنا أن نعتبر هذه العلاقات مثالية، وذلك لأن الأخلاق الأبوية لا تقتضي على الإطلاق المساواة بين أعضائها، فكلما كانت المجموعة الاجتماعية تقع على الدرجة الأدنى في السلم الهرمي الاجتماعي، قلت القيمة التي تولى للأفراد المكونين لها، وزادت المسؤوليات التي تتحملها، واشتد القهر الذي تعانيه.

إن السمة المميزة الثالثة التي تتميز بها – بالدرجة ذاتها – القواعد الأخلاقية لمختلف الطبقات الاجتماعية، تمثلت في آلية تنفيذ المتطلبات الموجودة فيها، فالبطريركية والأبوية في المجتمع الإقطاعي، والطبيعة المنغلقة للجماعات التي طبق عليها نفوذها، حددت ما يميز النمط القبلي والجماعي للحياة من سيطرة للعادات والتقاليد والمذهب التقليدي لأخلاق القرون الوسطى. وانحصر كل من الدافع الشخصي للفرد وموقفه الأخلاقي المستقل هنا في الفهم الصحيح لوضعه، ومكانه في التسلسل الهرمي الاجتماعي، وبعد ذلك قامت العادات والتقاليد المكتوبة بالتأثير المفصل، العادات والتقاليد التي تحدد بشكل دقيق سلوك الفرد، فقد كان الفرد تحت سيطرتها التامة، الأمر الذي حال دون تنمية حريته الأخلاقية الداخلية وتشكل الأخلاق لديه الحقيقة الناضجة.

لدى إبرازنا هذه السمات المميزة للثقافة الأخلاقية للمجتمع الإقطاعي ينبغي علينا أن نتذكر دوماً عالمية وحدتها المضمونية التي تحددها هيمنة الدين المسيحي، فأهم نواة رابطة للقواعد الأخلاقية لمختلف الطبقات والفئات مثلها المضمون القيمي للوعي الأخلاقي الذي يشكله الدين. إن الدين المسيحي مع فكرته حول المساواة والتماثل في الإثم لجميع البشر أمام الله، وتفاهة وضآلة مصالحهم الدنيوية أمام عظمة ملكوت السماوات يفتح الطريق إلى لتصور الأخلاقي الأساس حول المساواة الأخلاقية للناس جميعهم، وغلبة القيم الروحية لحياة الإنسان.

باسم الرب أجاز الدين النظام المتشكل مع توزيعه للحقوق والمسؤوليات، وذلك في سعي منه للحفاظ على استبداد الطبقة الحاكمة في الحدود التي وضعها الله، وإكساب المضطهدين القوة الروحية للقيام بتحمل نصيبهم من المعاناة والحرمان بإذعان. وفعلياً كانت الأخلاق المسيحية هي التي سمحت – بالوسائل الروحية والأخلاقية – بتنظيم وتوفيق التناقضات الاجتماعية في

ظلّ ظروف غياب الإمكانيات لحلها بدون عنف، وبالتالي منع هيمنة الفوضى والتفكك الاجتماعي. لقد منح الدين للناس التصور عن الخير والشر، وعن العدل، وعن ضرورة التوبة الداخلية والتطهير للكمال أمام الله، وتشجيعها بذلك على تشكيل القدرة على التجسيد الأخلاقي والاختيار ودافع الأفعال على أساس الضمير الشخصي، وليس بقوة العادة والعرف. لقد وضع الدين المسيحي وجسد للإنسانية المثل الأخلاقي الأعلى في شخص المسيح، الذي أصبح لقرون عديدة الموجه القيمي للناس من مختلف الرتب والفئات.

بالطبع، ولكون الدين موعظة نقية تدعو إلى التفاني ونكران الذات والمفعم بمثل المحبة والتسامح والتواضع وعدم الإكراه، لم يكن في وضع يمكنه فعلاً من تغيير الواقع، بيد أنه منح البشرية موجهات روحية سامية.

من الواضح أن الأخلاق السائدة في ثقافة القرون الوسطى هي أخلاق الطبقة الحاكمة التي تتكون من «أفضل الناس»، فوفقاً لوضعها ونطاق عمل ممثليها صُقلت الأولويات والقواعد والقيم الملائمة للطبقة العليا بوعي لتفردها الخاص، وازدراء متغطرس تجاه من هو أدنى. وتمثل الشغل المناسب للنبلاء الإقطاعيين في الحروب والحملات وبطولات المبارزة وحفلات القصور الراقصة والصيد وركوب الخيل، في حين اعتبر العمل الزراعي والحرفي والخدمة الوظيفية عملاً روتينياً وغير لائق ومقدراً على «الفلاحين» و«العبيد». وكان على السيد الإقطاعي أن يتماشى مع وضعه، وتمثلت خصائصه الرئيسية في النبالة، والشرف الفطري، والسلطة، والقوة، والولاء لسيده، والقسم المؤدى، والشجاعة والبسالة في المعركة، والمهارة في التعامل مع الأسلحة والخيول، ووجود «سيدة القلب». وكان من الواجب عليه أن يكون كريماً ومضيافاً بالنسبة لأنداده، ويبجل الله وخادميه، ويعاقب بشدة على أي مظهر من مظاهر عدم الاحترام تجاه طبقته من قبل الناس «الوضيعين».

تجسدت كل هذه المتطلبات في مفهوم الشرف الذي نبعت فكرته بشكل كامل من الوضع الطبقي للفرد، وتكرس في العادات والتقاليد. وهكذا، فإن الشرف الطبقي دافع عن كرامة انتماء الأفراد الذين ينتمون إلى فئة اجتماعية معينة.

كان الشرف هو الشيء الأسمى الذي ثمنه النبلاء، ممثلو جنس «حماة البلاط»، والطبقة الإقطاعية والمقربون من البلاط الملكي، ووضعوه فوق الحياة، فأكبر عار هو أن تعيش «مسود الوجه» دون أن تحاسِب على الإذلال، وأن تظهر شجاعة، وأن تحتقر الموت. ومن هنا كانت المبارزات المتكررة في المجتمع الإقطاعي التي جرت حتى على أتفه الأسباب غير المعقولة بالنسبة للشخص العادي. وكان مغزاها رمزياً، تمثل في غسل الإهانة بدم الجاني، والإثبات للجميع أن الموت المحتمل حتى مع الشرف هو أغلى من الحياة مع الذل.

في الواقع في هذه الظاهرة في الدفاع عن الشرف حتى وإن كانت الحياة ثمناً له غرست الأخلاق النبيلة السمة الأهم للثقافة الأخلاقية بشكل عام، والمتمثلة في تفوق الاسم الشريف والنبيل، أي القيم الروحية، أمام رجاحة عقل الشخص المستعد لتحمل الإهانة وحذره.

في الوقت نفسه تحول شعور الشرف إلى غطرسة وغرور عندما كان الحديث يدور حول التعامل مع من هم في منزلة أدنى، إذ لم يكن بالإمكان التساهل على عدم دفعهم للتاجر مقابل السلع، أو عدم تسديدهم القروض للمقرض، وإظهار الفظاظة والقسوة في التعامل مع الخدم والعبيد. لقد فتح الموقف الضعيف والتابع للطبقات الدنيا الباب واسعاً لتعسف ووحشية السيد الإقطاعي. وكانت الأخلاق المسيحية وحدها القادرة على الحد منه، إذ لم تكف عن تثقيف وتحذير أمراء الإقطاع الأشرس في قسوتهم الذين واصلوا

طويلاً – ولكونهم أناساً فظين ووقحين– واضعين على الوثائق الصليب بدلاً من التوقيع.

بهدف التمييز الخاص عن «الرعاع»، ظهر بالتدريج في الوسط النبيل السعي إلى غرس المعرفة والآداب النبيلة للتعامل اللطيف، مما وضع الأساس لظهور اللياقة العلمانية، فأخذت تنتشر وبشكل واسع بين السادة الأخلاق الدمثة، ونظافة وأناقة المظهر، والملابس الأنيقة الغالية. حتى إن المشي، والتنقل، وإجادة الانحناء، والكلام اللطيف والمهذب، والقدرة على الرقص، والتصرف على المائدة، ناهيك عن الميل إلى الفنون والعلوم والاهتمام بها، ساعدت جميعها النبلاء على التأكيد بشكل أكبر على نبلهم وابتعادهم عن الأناس «الوضيعين»، أو تميزهم في بيئتهم الخاصة. ومع ذلك، كان لتشكيل الثقافة الخارجية للسلوك، التي هي آداب، تأثير حتمي على العالم الروحي الداخلي أيضاً، وذلك عن طريق مساعدتها على تنبيله وترهيفه.

إن ما يمكن قوله عن الثقافة الأخلاقية للسكان العاملين الذين مثلهم في المجتمع الإقطاعي بشكل رئيس الفلاحون الضعفاء والتابعون، وفيما بعد سكان المدينة أيضاً، هو أقل بكثير، فقد مثلت الجماعة على الدوام الوسيلة لحماية الفلاحين من طغيان الإقطاعيين، في الوقت الذي لعبت فيه النقابات والشركات دورها بالنسبة لسكان المدن، وفيما بعد كمونات المدينة. وفي نظر الطبقات المميزة لم يكن كل هؤلاء أكثر من «رعاع دنيء» مدعو للعمل من أجل السادة وخدمتهم. وترافق انحطاط الطبقة الثالثة مع الفقر والضعف وغياب الأصل والجهل والاضطهاد والهمجية والبدائية ومحدودية نمط الحياة والتفكير. وساعدت على ذلك مجموعة من العوامل تتمثل في الظروف المعيشية الصعبة للفلاحين، والعمل الكامل، والحرمان، والمعاناة من الجوع والحروب، وقلة المحصول والأمراض. وحولتهم مثل هذه الحياة إلى مخلوقات شبيهة بالبشر،

فهم يرتدون الملابس الممزقة، ويعيشون في المخابئ، ويعجزون حتى عن الكلام بشكل واضح، وأطلق عليهم الإقطاعيون بازدراء اسم «رقيق الأرض» – الدواب الجاهلة.

لقد طبعت الطبقة الحاكمة والكنيسة في أذهان الناس وبشدة «الفضائل» الذليلة مؤكدتينفي الوقت ذاته أن العمل التابع الشاق والصبر والتواضع هي أضمن الوسائل «لخلاص النفس»، وأن مثل هذا النظام الراسخ هو من عند الله ومكرس في العادات والتقاليد القديمة.

لقد حدد كل ذلك العلاقات المعقدة والمتناقضة بين الفلاحين وأسيادهم، فمن ناحية أولى، ظلت أبوية مشربة بالأعراف والتقاليد القديمة، ومرتبطة بتقديس السادة «كالآباء» والحامين والرعاة، ومن جهة ثانية نمت علاقة العداء وعدم الثقة تجاههم كالذئاب المتوحشة التي تسعى لتمزيق جلد الفلاحين. ومراراً كان يظهر سخط الناس الذين وصلوا إلى الفقر المدقع في ثورات فلاحين عفوية مع أعمال حرق وتدمير لممتلكات الإقطاعيين وقتل للإقطاعيين (جاكيريا jacqueri/ حرب الفلاحين» في فرنسا، وتمرد ووت تايلرWat Tyler في إنكلترا في القرن الرابع عشر، وحرب الفلاحين في ألمانيا في القرن السادس عشر). بيد أن التشتت حوّل هذه الحركات إلى حركات محتم عليها الفشل أمام حركات الإقطاعيين الأكثر تسلحاً والأفضل تنظيماً. وأصبح هروب الفلاحين إلى المدن وتحولهم إلى سكان حضريين الظاهرة الشائعة على نطاق واسع في القرون الوسطى.

فيما يتعلق بالعمل في الثقافة الأخلاقية للشعب، فقد تشكلت مجموعة متناقضة من المواقف والقيم: فمن ناحية أولى، يرى الفلاح في العمل مصدراً طبيعياً للعيش، وميداناً لتواصله المباشر مع الطبيعة، ووسيلة لخدمة الأرض والله، فالعمل في نهاية المطاف هو وسيلة لإثبات الذات، وإثبات للقدرة

الخاصة والبراعة والتدبير. ولكن من ناحية ثانية، فإن العمل المضني والخنوع لمنفعة السادة المضطهدين والمبتزين، حمل الفلاح على اعتبار العمل لعنة، مما قوض لديه المثابرة، وزرع لديه المكر والحيلة والكسل والخنوع والتبعية للسيد ووكلائه.

اكتسب العمل قيمة متزايدة في نظر سكان المدن المستقلين عن الاستبداد المباشر لأمراء الإقطاع، الذين حدد وضعهم المالي مباشرة مهاراتهم، واجتهادهم، ومثابرتهم، وتكافيء نفقات العمل مع نتائجه. وأعطى لقب الحرفي البارع الكثير من الرضا الداخلي، وحفز على الاجتهاد وتحسين المهارات.

بالتأكيد، ساد في الوعي الأخلاقي للطبقات الكادحة ما غرسته المسيحية من صبر وتواضع، إلا أن هذه الطبقات سعت للدفاع عن مصالحها ضد إدعاءات أمراء الإقطاع بمساعدة ما تبقى من النظام القبلي للعادات والتقاليد للعيش معاً، ومساعدة الواحد الآخر في الدفاع عن المصالح المشتركة. وفي هذا ساعدتهم فكرتا «الحرية» و«الحقيقة» اللتان تبرران أخلاقياً الحقوق الجماعية التي يرسخها العرف، وترفضان كل ما هو جديد من التزامات وابتزاز. كما توجهت هذه الطبقات أيضاً إلى الدين المسيحي بأفكاره عن المساواة بين الجميع أمام الله، والمحبة ونبذ العنف، التي بالطبع لا تربط المستضعفين وحدهم، وإنما المضطهِدين أيضاً بمواعظ المحبة والتواضع. والجماعة التي لعبت لدى الفلاحين الدور نفسه الذي لعبته الفئات والنقابات عند سكان المدن، دافعت عن مواقفهم ومصالحهم، ونادت ببيئة طبيعية للحياة، بيد أنها في الوقت نفسه قيدت تشكيل استقلالية الأفراد، وفرضت عليهم سلسلة من العادات والمعتقدات الخرافية، وحرمتهم من المبادرات التاريخية، وبالتالي حافظت على العلاقات القائمة من قبل، وأعاقت تطوير الثقافة الأخلاقية للمجتمع والفرد على حد سواء.

إن الدور البالغ الأهمية في تشكيل ثقافة مجتمع القرون الوسطى الناضجة لعبته شخصية المديني، ساكن المدينة في العصور الوسطى، التي مثلت المركز الفعلي للحرف والتجارة وتشكل العلاقات البرجوازية الجديدة. وتشكلت القاعدة الاجتماعية للمدينة من أكثر المهاجرين من البيئة الفلاحية مبادرة ومهارة – الحرفيين الذين كونوا بالتدريج جيلاً كاملاً من العمال الوارثين. ومن أجل تنظيم أفضل لمواجهة أمراء الإقطاع، ولحماية مصالحهم في وجه حرفيي المهن الأخرى، وبغرض تنظيم سوق لمنتجاتهم، ووفقاً للروح الطبقية للإقطاعية بشكل عام، اتحدوا في اتحادات لمهنة واحدة أو عدة مهن متقاربة – نقابات، فكانت هنالك نقابات لكل من عمال المخابز، والمطاحن، ومصنعي البيرة، والجزارين، ومزودي سوق المواد الغذائية. كما كان كل من الخياطين والحذاءين والحدادين والبنائين والنجارين والجواهرجية وصناع الأسلحة ضروريين أيضاً لحياة المجتمع في القرون الوسطى. وكان على الأطباء والمعلمين والمحامين خدمة الإنتاج المادي. وكان لديهم نقاباتهم الخاصة. وكان أكثر الناس ضرورة ونفوذاً هم الوسطاء في تبادل السلع من التجار والمتاجرين الذين دخلوا في واحدة من أكثر النقابات نفوذاً وثراءً – نقابة التجار. وحتى أن تشييع الشخص في رحلته الأخيرة لم يكن مقسوماً للكنيسة وحدها، وإنما لنقابة متعهدي دفن الموتى وحفاري القبور أيضاً.

على الرغم من أن التجارة كانت الشغل الأكثر ربحية، إلا أنها كانت الأكثر مجازفة، فقد كان السفر الطويل والبعيد من أجل البضائع عملاً بالغ الخطورة، وذلك بسبب السطو على طرق السفر، مما اضطر التجار لأن يكونوا أنفسهم محاربين مهرة، وتوظيف الحماية، وتنظيم حملات تجارية ضخمة. بيد أن التجارة مكنت التجار من جمع الكثير من الأموال استطاعوا بوساطتها افتداء الحق من السيد الإقطاعي وحتى من الملك – اللذين كانا دوماً في حاجة إلى

«الأموال» الفورية – في جمع الإيرادات والديون والضرائب من بعض المناطق، ليتحولوا بذلك إلى جامعي ضرائب – إقطاعيين ماليين فعليين. وانتشرت على نطاق واسع ممارسة بيع المال «بالفائدة» – المراباة التي حرمتها الكنيسة في القرن الثاني عشر لأنها تتعارض مع التعاليم المسيحية، كما أنها في واقع الأمر تقوض أسس النظام الإقطاعي. وبسبب ذلك أصبحت ممارسة الربا ملكاً لليهود الذين تعرضوا للتشتيت والمطاردة على نطاق واسع، وليس للعقيدة المسيحية التي جعلت منهم لقرون عديدة ماليين مهرة وعظيمي الشأن.

تكونت النقابات من الحرفيين الكاملين فقط الذين يملكون الورش مع من يعمل فيها من المتدربين والعمال البارعين. الحرفيون وحدهم شاركوا في الاجتماعات العامة للنقابات، حيث جرى انتخاب القيادة – كبار النقابيين، واعتماد النظام الأساسي، ومعالجة القضايا الراهنة. وضبطت الأنظمة النقابية الأساسية الإنتاج الحرفي وجودته، وذلك باهتمامها قبل كل شيء بالحفاظ على المساواة في ظروف الإنتاج – حجم الورشة، وعدد العمال، والآلات، وحتى حجم خزائن العرض. وكان للقب حرفي ماهر في صنعته أهمية كبيرة في القرون الوسطى، ولم يكن بلوغه بالأمر السهل، مما شجع العاملين على الاجتهاد والميل للعمل الدؤوب. ومن أجل اكتساب لقب حرفي ماهر ينبغي على التلميذ أن يعمل لعدة سنوات تحت إدارة مالك الورشة، ويؤدي جميع الأعمال المتعلقة بالمنزل وفي الورشة، وبعد ذلك يجتاز اختبار تصنيع منتجات الحرفة – «التحفة» التي عن طريقها يمكن الحكم على جدارته. وروض ذلك كله لدى العامل القدرة على المشاركة المتكافئة الشاملة في تسيير الأمور المشتركة، وعلى إيجاد الاتفاق والتوصل إليه، إلا أنه في الوقت ذاته أبقى على الإنتاج محافظاً، وأعاق إدخال الاختراعات والابتكارات.

تشكلت الورش والنقابات من سكان المدن لتكون المجتمع الحضري –

المدينة) كومونا Commune)، ووجب على كل ورشة المساهمة في تنظيم حياة المدينة، وتجهيز القوات عند الضرورة، ودفع الضرائب لخزينة المدينة، ودعم الكنيسة، وأن يكون لديها قديسها الخاص بها كراع لها، كما ينبغي أن يكون لديها شعارها الخاص ورايتها. وبالتدريج تشكلت في الورش القيادة العليا من أبرز وأثرى التجار والحرفيين - الأناس «الكبار» الذين عارضوا الحرفيين الفقراء و«المبتدئين الأبديين». ومن الأناس «الكبار» تم اختيار نخبة المدينة، وحاكم المدينة الذي يدير شؤون المدينة ويصدر القوانين ويعتمد القضاة ويتصرف باسم المدينة في الاتصالات مع السلطة الملكية والإقطاعيين.

تطلب تنفيذ هذه المهام أشخاصاً متعلمين، وبسبب ذلك أعيد إحياء مدارس الكنائس والأديرة التي جرفتها الحياة البائسة، فلم تبدأ بإعداد الكهنة فحسب، وإنما الناس المتعلمين أيضاً. وفي وقت لاحق، وعلى أساس هذه المدارس بدأت تظهر الكليات والجامعات التي توحدت على أسس الإدارة الذاتية للعلماء والمتعلمين. وكان في كل جامعة ثلاث كليات وجمعيات للعلماء والطلاب في مجالات النشاط - القانونية والدينية والطبية، فضلاً عن كلية تحضيرية «للفنون الحرة».

كانت المدن والورش بحاجة إلى رموز وأشغال توحد الناس، فأدخلت رموزها من شعارات، وأعلام وأناشيد وقديسين رعاة، كما نظمت الأعياد وعروض الشوارع والمسيرات والمهرجانات التي شكلت الترفيه الرئيس لسكان المدن. ومثّل شخصيات هذه الفعاليات الفنانون المتجولون من ممثلين مسرحيين وشعراء غنائيين وسحرة ومشعوذين ومهرجين. ونظرت الكنيسة بشكوك كبيرة إلى مثل وسائل الترفيه هذه معتبرة إياها أقرب إلى الفن الشيطاني المبني على أساس الخداع والنفاق والاحتيال والشعوذة، ولكنها لم تستطع أن تقاوم مزاج الجمهور.

لفترة طويلة مثلت المدن ملاذاً للغرباء والمتشردين والمتسولين الذين تكونوا بداية من الحجاج والدعاة المتجولين و«الباحثين الجوالين» والفنانين و«الطلاب الأبديين» المسافرين من مدينة إلى أخرى طلباً للعلم. فمن أجلهم نظمت نزل الضيافة ومباني الغرباء (الفنادق). وتدريجياً انضم إليهم كل من الفلاحين الهاربين والعمال المضطهدين واللصوص وغيرهم من المهمشين مشكلين أجيالاً من الناس غير الراغبين فعلياً بالعمل. وتسبب عددهم الهائل بفرض حظر على التشرد نفذ في معظم المدن في القرن الخامس عشر، حيث أجبر المتشردون واللصوص وغيرهم من «الأشخاص المشبوهين» على الخروج من المدينة لينتقلوا إلى الغابات المحيطة حيث شكلوا عصابات من اللصوص أرعبت محيط المدن لفترة طويلة من الزمن.

هكذا تطورت ثقافة الحياة الحضرية، ومهارات الإدارة الذاتية للمدينة، وثقافة التوصل إلى الوئام بين ممثلي مختلف الفئات الاجتماعية، وتشكلت أخلاق سكان المدن المبنية على مبادئ النشاط والمبادرة الشخصية والحرية والاستقلالية النسبية.

بهذا الشكل، ظلت الثقافة الاجتماعية – الأخلاقية للمجتمع الإقطاعي متناقضة بشكل عميق لكونها خطوة هامة في تطور الثقافية للبشرية لا سيما في المظاهر الحضرية، إلا أنها في الوقت نفسه أعاقت هذا التطور ومنعته من الحفاظ على المؤسسات الإقطاعية والتقاليد والآثار.

حدثت التغيرات الجدية في فترة القرون الوسطى الناضجة والمتطورة في الدين المسيحي والكنيسة، إذ جهزت في نهاية المطاف المقدمات الروحية التي إلى جانب الظروف المادية والاجتماعية – السياسية والثقافية شكلت القاعدة لتشكل المجتمع البرجوازي الجديد. ففي القرن الحادي عشر (1054) انتهى رسمياً وجود الفجوة القائمة منذ وقت طويل بين الكنيستين المسيحيتين الغربية

والشرقية، الأمر الذي بنتيجته حصلت الكنيسة الكاثوليكية برئاسة البابا على سلطة غير محدودة على سكان بلدان أوروبا الغربية. والمثال الجلي على سلطة البابا مثلته الحروب الصليبية (الفترة ما بين القرنين الحادي عشر الثاني والثالث عشر) التي نظمت من قبل البابوية باسم تحرير كنيسة القيامة والآثار المسيحية الأخرى التي استولى عليها الأتراك. وجرت هذه الحملات بدرجات متفاوتة من النجاح، وتحولت في جزئها الأكبر إلى حملات نهب. والمثال الجلي بشكل خاص تمثله الحملة الصليبية الرابعة (1202–1204) التي لم يكن غرضها الحقيقي تحرير القدس، وإنما الاستيلاء على القسطنطينية الأرثوذكسية والقضاء على استقلالية الكنيسة الشرقية.

خلال فترة القرنين الثاني عشر والثالث عشر بلغت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية أعلى سلطة لها، فقد أصبحت مركزاً دولياً لأوروبا الغربية الإقطاعية بأكملها، موحدة إياها في كيان واحد كبير تحت سلطتها الروحية والسياسية، لتصبح بذلك الإقطاعية الأكبر في القرون الوسطى التي تتملك ثلث الأراضي والممتلكات وتتصرف في عمل الفلاحين المقيمين على تلك الأراضي. كما تمتعت الكنيسة بقوة سياسية كبيرة، إذ كان تتويج الأمراء العلمانيين حتى القرن الرابع عشر يتم من قبل البابا وكانوا تابعين له. لذلك فقد دافعت بحماس عن البنية الإقطاعية والتسلسل الهرمي للطبقات والفئات، وكرست الامتيازات الإقطاعية وقهر جماهير الناس بهالة النعمة الإلهية.

للمزيد من تعزيز سلطتها واضطهادها المعارضين، تركت الكنيسة الكاثوليكية في القرن الثالث عشر وسيلة الإقناع اللفظي اللطيف لتكرس محاكم التفتيش – المحكمة الكنسية والسلطة الجزائية لملاحقة «الهراطقة» المتهمين بارتكاب تجاوزات ضد الكنيسة. وفي واقع الأمر أصبحت هذه المحاكم وسيلة لنضال «أمراء الكنيسة» – مسميات الكنيسة مع خصومهم. ووقع

ضحية لمحاكم التفتيش الكثير من العلماء والكتاب والأطباء البارزين والآلاف من الناس العاديين ممن لم يرض عنهم خدام الكنيسة، أو الذين أصبحوا ضحايا لوشايات الحاقدين. وخضعت ممتلكات الهراطقة للمصادرة لصالح الكنيسة، وإضافة إلى ذلك فقد ذهب الجزء الكبير منها لإدارة المحكمة مما حفز الحماسة لديها.

كان أدنى اشتباه في خيانة الكنيسة، أو مجرد وشاية كاذبة، كافياً لإلقاء القبض على الشخص، ووضعه في السجن، وكقاعدة عامة في أقبية مظلمة رطبة ومحرومة من الهواء والضوء. وكانت السجون مكتظة بالمساجين الذين غالباً ما مكثوا فيها لأشهر أو سنوات دون أن توجه إليهم تهمة. وعندما يصل السجناء إلى اليأس التام يطالبون بالمحاكمة، فوجهت إليهم أكثر التهم عدوانية، والمبنية على الوشاية والتلفيق. وجلب الاعتراف للمتهم عقاباً شديداً، في حين جعل الإنكار منه متمادياً في الهرطقة، وعرضه لأغرب وأبدع أشكال التعذيب – على المخلعة، بالملاقط الملتهبة، وبقطرات الماء التي تتساقط لساعات طويلة على رأسه الحليق. وجر الاعتراف تحت التعذيب في أحسن الأحوال حكماً بالسجن مدى الحياة، ولكن في معظم الحالات انتظر تعيسي الحظ المصير نفسه الذي عانى منه أيضاً ضحايا التعذيب وغير المعترفين بالتهم الباطلة – العقاب «الرحيم قدر الإمكان، دون إراقة دماء» – الحرق. صحيح أنه افترضت بالنوع الأول من المتهمين رحمة واحدة تتمثل في وجوب خنقهم قبل الحرق! ولم تعرف محاكم التفتيش أحكام البراءة مطلقاً. ومن المفارقات، أن الاستثناء النادر عن هذه القاعدة مثله أحد الشخصيات البارزة في مكافحة الإصلاح، مؤسس جمعية اليسوعيون أغناطيوس لويولا Ignatius of Loyola الذي اعتقل مراراً في شبابه من قبل محاكم التفتيش، إلا أنه تمكن في كل مرة من التحايل للخروج من هناك بسلام!

كانت محاكم التفتيش في أسبانيا بشكل خاص الأعنف واشتهرت بقسها ومحققها الكبير توماس دي توركيمادا Tomás de Torquemada (النصف الثاني من القرن الخامس عشر) الذين أحرق أكثر من عشرة آلاف شخص أحياءً. ونفذت أقسى أشكال التعذيب والحرق حياً في الموقد باسم المسيح معلم المحبة والرحمة، وبررت بتأكيدات منافقة عن أنه عند حرق الجسم من دون إراقة الدماء، تنقذ الكنيسة روح المذنب!

بوعظها بالتواضع والفقر والعفة، أثريت الكنيسة ثراءً فاحشاً مكتسبة ثروتها من الجميع، فبالإضافة إلى العشر المقرر لها، أخذت من الناس الفقراء المال لقاء المعمودية والقران والاعتراف وقداس الجنازة وغيرها من الطقوس والشعائر الدينية. وعاشت الدرجات العليا من السلم الهرمي للكنيسة في ترف غير مسبوق، فقد ورثت لهو الحياة العلمانية الصاخبة بعيداً عن المثل المسيحي الأعلى.

كان الراهب الدومينيكاني جيرولامو سافونارولا Girolamo Savonarola (نهاية القرن الخامس عشر) ناقداً صريحاً ومتحمساً للانحلال الروحي لنخبة الكنيسة الكاثوليكية والبابا نفسه وطموحهم وطمعهم، فقد دعا الكنيسة إلى نبذ الثروة والرفاهية والطموح والغرور، والتوبة والزهد، كما شدد في خطبه على أن الكسندر السادس Alexander VI «ليس بابا، وليس مسيحياً، ولا يؤمن بالله». وبالطبع تم حرمانه كنسياً واعتقاله وإعدامه بعد التعذيب.

لم تكن الأنساق العليا للكنيسة وحدها مغرمة بالفساد الأخلاقي، ففي ظل الغياب التام للرقابة وعدم المسؤولية قام الكهنة العاديون بالخدمة وفقاً لأهوائهم، واتسموا بالجهل والكسل والجشع والشهوة. والأديرة التي ينبغي أن تمثل أماكن للتوبة الروحية النقية والتواضع وعبادة الله، تحولت إلى أوكار للفجور والرذيلة. وعلى مواد الأخلاق الرهبانية بنى المركيز الشهير دي ساد

Donatien Alphonse François de Sade خياله الأدبي. وراجت وسط الناس مقولات تعكس عمق هبوط سمعة رجال الكنيسة، منها: «معطف الراهب هو رداء محتال»، و«الكلاب تنبح، والذئاب تعوي، والرهبان يكذبون»، «يعاشر المرأة كراهب كرملي، ويلتهم الطعام كراهب بيرنارداين، ويشرب الخمر كراهب الفرنسيسكان».

المطالبات بالسلطة التي تميز الكنيسة الكاثوليكية اعترفت بها السلطة العلمانية في حين لم تكن السلطة الملكية المركزية قوية جداً، فكلما تعززت قوتها أكثر، أصبحت لا تطاق أكثر. وعليه، فإن الكنيسة الكاثوليكية بعد بلوغها نفوذاً لم يسبق له مثيل في بلدان أوروبا الغربية، وامتلاكها لثروات لا توصف، بقيت حتى نهاية القرن الخامس عشر في حالة سيئة للغاية. وأفضى بها ذلك إلى انقسام كبير آخر، حيث ظهر في فترة مسيرة الإصلاح في إطار الدين المسيحي نوع ثالث كبير من المسيحية – البروتستانتية.

3. ثقافة العصور الوسطى المتأخرة (القرن الخامس عشر – القرن السابع عشر).

إن فترة القرون الوسطى المتأخرة التي تتوافق من ناحية المضمون مع النهضة والإصلاح، تمثل المرحلة النهائية من وجود النظام الإقطاعي وإعداد المقدمات الثقافية كافة لتدميره.

إن كل ما يميز النظام الإقطاعي من أركان، مثل الإنتاج الطبيعي، والاعتماد الكلي لمعظم الناس على العمل وفرضه عليهم فورياً ومباشرة، والطبيعة الطبقية – الجماعية للنظام الاجتماعي، دخل في تناقض مع الاحتياجات لمزيد من التطوير في المجتمع.

في الوقت نفسه، فإن النمو الكبير في العلاقات المالية – السلعية في الريف، وفي المدينة على وجه الخصوص، وتنمية المدن وتعزيزها وازدهارها اقتصادياً

وسياسياً، دلَّ على حلول نهاية هيمنة القرية على المدينة. وأعطت الحاجة إلى تطوير القوى المنتجة النابعة من الإنتاج السلعي والملكية الخاصة دفعة لدراسة الطبيعة، في حين ولَّدت الحاجة إلى العمل الحر للعامل المستقل تصورات جديدة عن الإنسان وطبيعته وحقوقه وقيمته.

تمثل التجسيد العالمي لهذه المتطلبات الاجتماعية في الفكر الإنساني لعصر النهضة المناقض للعقيدة المركزية والتقشفية لتمجيد الإنسان في القرون الوسطى، وفي الرغبة المتحمسة لتحسين العالم على مبادئ العقل والإنسانية. ومثلت أفكار الإنسانية الأساس للتطوير الذي لحق الفلسفة والعلوم والفكر الاجتماعي والأدب والفن. إلا أن الثقافة التي نشأت على هذا الأساس، من تعاليم فلسفية، ومؤلفات أدبية، واكتشافات واختراعات علمية تهدف إلى تسهيل وتحسين حياة الإنسان، وفتح مجال التنمية أمامه - كانت ملكاً لدائرة ضيقة من المثقفين البعيدين عن الناس العاديين.

لذلك، فإن الثقافة الإنسانية الساعية إلى تحويل الحياة الاجتماعية عن طريق التوجه إلى الفرد وتطويره إلى حالة معقولة وحرة، لم تتمكن من الحصول على الاستجابة ولم تستطع القيام بتأثير كبير على الوعي الجماهيري للمساعدة في انتصار النظام الجديد للعلاقات الاجتماعية، فالحياة الروحية للغالبية العظمى من الناس في تلك الفترة لم تحددها الفلسفة أو العلوم أو الفن، وإنما الدين قبل كل شيء.

الدين على وجه التحديد هو من أعطى الناس التصورات المفاهيمية الأساسية عن وجود الإنسان ومغزاه ورسالته في الحياة الدنيوية، وعن المعاناة والمصاعب في هذه الحياة وإمكانية الخلاص في الحياة الأخرى، وذلك عن طريق وعده للناس وإلهامهم. لذلك كان تحقيق الاحتياجات الملحة للتنمية الاجتماعية في التحول الجذري للعلاقات الاجتماعية الإقطاعية مستحيلاً بدون الإقرار

الديني الذي كان الأكبر والأكثر فعالية بالنسبة للناس في ذلك الوقت.

لماذا بدت الكنيسة الكاثوليكية غير قادرة على الاستجابة لتحدي الزمن – التعبير في ثقافة دينية مفهومة للناس عن متطلبات التنمية الاجتماعية، وبالتالي قيادة التحول التاريخي للعلاقات الاجتماعية الإقطاعية؟ فإلى جانب الكنيسة الكاثوليكية وقف تقليد الوصاية الروحية الذي يعود عمره إلى ألف عام، وكانت لها سلطة هائلة لا جدال فيها وسط جماهير المؤمنين، واعتمدت على قوة السلطة العلمانية، وتعاملت بشدة مع البدع جميعها. وعلاوة على ذلك، فإن المشقات والتكفير عن الذنب المفروضة على المؤمنين من قبل الكنيسة الكاثوليكية مع العبادة والطقوس، لم تكن قابلة للقياس مع الصعوبات الناجمة عن المطالب البروتستانتية الصارمة و«الزهد الدنيوي» الصلب والتقوى البيوريتانية. وتكاد بعض الأعياد الدينية في الكاثوليكية فقط أن تشغل نصف التقويم تقريباً، في حين شبهت البروتستانتية التكاسل بالإثم الفظيع!

مع ذلك، لم تتمكن الكنيسة الكاثوليكية من مقاومة أفكار اللاهوتيين البروتستانت التي اجتذبت جماهير ضخمة من الناس ممن بالكاد يفهمون الاختلافات اللاهوتية والدينية بين الطريقتين القديمة والجديدة للإيمان بالله. والسبب في ذلك هو أن الرد المقدم من قبل زعماء الإصلاح على تحدي التاريخ بدا مفهوماً وقريباً للجماهير الغارقة في الدين ولكنها غير ضالعة في الدقائق اللاهوتية: ينبغي رفض الكنيسة الكاثوليكية لأنها غير أخلاقية، وبالتالي فهي ملحدة! لقي هذا الاحتجاج الأخلاقي ضد الكنيسة «الملحدة» استجابة حية في قلوب الآلاف من المؤمنين من مختلف الفئات. والاعتقاد في الإلحادية الذي أسسه رائد الإصلاح القديس بيتر الكنيسة Saint Peter نضج تدريجياً في رحم الكنيسة الكاثوليكية التي لم تصمد أمام اختبار السلطة الهائلة والثروة.

الضربة الأولى للطموحات الثيوقراطية للبابا لسلطة عالية من الله، وعصمة

مطلقة، والحق في اعتماد أو إسقاط ليس السلطات الدينية فقط، وإنما العلمانية أيضاً وجهها في القرن الرابع عشر الملك الفرنسي فيليب الرابع الوسيم Philippe IV le Bel حيث خضعت البابوية لما يقرب من 70 عاماً للملوك الفرنسيين، واكتسب مكان إقامة البابا في هذه الفترة تسمية «مقر أفينيو البابلوية».

تمثلت الضربة الثانية في نشاط سلف مارتن لوثر اللاهوتي التشيكي والبروفسور يان هوس Jan Hus (القرن الرابع عشر - القرن الخامس عشر) الذي انبرى لسوء استخدام السلطات الكنسية، ونادى «بعدم إطاعة الناس في الأمور الروحية، بل إطاعة الله». وانتقد بشدة أمراء الكنيسة لإبعادهم المسيحيين من الكنيسة، ونصحهم بأن يقوموا في البداية بإبعاد أنفسهم عن الخطايا والرذائل التي خص منها الجشع والطموح إلى السلطة. وفي معرض مطالبته بتبسيط العبادة الكاثوليكية وإقامتها باللغة الوطنية، أي فعلياً بإنشاء كنائس وطنية مستقلة عن روما، يقول هوس: «الثروة سممت الكنيسة وأفسدتها». بسبب ذلك، وعلى الرغم من امتياز الحماية الذي منحه إياه الإمبراطور الجرماني، تم اعتقاله في كنيسة كونستانتسا Constanta وأحرق كزنديق في عام 1415.

بعد ظهور المسيحية والكنيسة كحركة للفقراء والمضطهدين والمقهورين والمطاردين، أصبحتا في القرون الوسطى القوة الروحية والسياسية المهيمنة وذلك بعد بلوغهما أعلى سيادة علمانية. ولم تتعامل أية كنيسة في أي مكان آخر مع مثل هذا الإغراء الخطير المتمثل بالسلطة العلمانية غير المحدودة. وتحديداً هذه السيطرة التامة للكنيسة الرومانية–الكاثوليكية على مجالات الحياة جميعها والاحتكار المطلق للسلطة، قادتها في نهاية المطاف إلى الانحطاط الداخلي والانحلال. فإذا كان صحيحاً التأكيد على أن السلطة تُفسد، إذن فالسلطة المطلقة تُفسد تماماً!

في مثل هذا الوضع كان كل مسيحي محترم مضطراً ببساطة للنهوض

بكل حزم ضد الكنيسة الكاثوليكية الرسمية مهما كان حجم التهديد الذي ينتظره. وهذه العقيدة طرحها مارتن لوثر عندما سبق وأن حرمه البابا كنسياً، فقرر عندها القدوم إلى الرايخستاغ في وورمس Worms في عام 1521 لشرح موقفه. كان مثال يان هوس ما يزال ماثلاً في الذاكرة: لم يعن امتياز الحماية الممنوح من الإمبراطور للبابا شيئاً. بيد أن لوثر رفض باحترام الحراسة المسلحة من جانب أنصاره. ولم يسترشد بالجدال حول خطر المبادرة، وإنما باستحالة التراجع عن تنفيذ واجب المسيحي الشريف: «... حتى لو أضرموا النار من فيتنبرغ Wittenberg إلى وورمس عالياً حتى السماء، سأذهب إلى هناك باسم الرب، وسأقف مباشرة عند فك البهيموث، بين أسنانه الضخمة!». وأنهى عرضه لموقفه في الرايخستاغ برموزه الشهيرة المكرّسة لواجب الضمير الذي مثل تغييره بالنسبة للشخص الذي يؤمن بسداد رأيه ضرباً من المستحيل: «إنني على موقفي، ولا أستطيع غير ذلك! ليساعدني الرب!».

ما حدث هو أن الانحلال الأخلاقي الداخلي للكنيسة الكاثوليكية، وطموحها وجشعها وطمعها جعلت جميعها من هذه الكنيسة غير قادرة تماماً على قيادة التغيير التقدمي في المجتمع، وفي الوقت ذاته ولّدت داخل الكنيسة نفسها احتجاجاً قوياً عكس الغضب الاجتماعي الواسع.

تجسد هذا الاحتجاج الديني القوي في الإصلاح الذي لم يبق مجرد حلقة في تاريخ الدين والكنيسة، وإنما دشّن ولادة أيديولوجية جديدة، وأصبح علامة على الحقبة الجديدة. وبتميزها الكبير من ناحية الجانب المضموني عن الأيدولوجيا الإنسانية للنهضة، واصلت أفكار الإصلاح في المنظور الاستراتيجي ما بدأته الإنسانية، مما حدا بهيغل Hegel (غيورغ فيلهلم فريدريش هيغل Georg Wilhelm Friedrich Hegel) لتسمية النهضة بولادة «فجر عهد جديد»، أما الإصلاح فهو «الإشراق الكامل للشمس».

عادة ما يجري ربط بداية الإصلاح مع أحداث 31 تشرين الأول/أكتوبر 1517 في فيتنبرغ، حيث سمَّر الراهب ودكتور اللاهوت مارتن لوثر الذي لم يكن معروفاً بعد على أبواب الكنيسة أطروحات تحمل شجباً لبائعي «السلع المقدسة» من غفران، وصكوك كنسية بغفران الخطايا. وكانت الكنيسة الكاثوليكية قد بدأت بممارسة غفران الخطايا منذ القرن الحادي عشر كتطبيق للممارسة الرهبانية على الحياة الدنيوية. وفي البداية كان ذلك يمارس بالشكل الطبيعي، من أجل «عمل الخير»، أي المشاركة في الحج إلى الأماكن المقدسة، وفي الحملات الصليبية لتحرير كنيسة المهد، ومن أجل التبرع للكنائس والأديرة. ومع تطور التجارة والمال، أصبحت الصكوك الكنسية لمغفرة الخطايا تمنح مقابل المال، وبالتدريج اكتسبت هذه التجارة أكثر الأشكال فحشاً. ومخزون «القداسة» الذي جمعته الكنيسة من أعمال القديسين والصالحين الخيرة حولته إلى أجرة لكل خطيئة معقولة وغير معقولة. فيما بعد طبقت البابوية صكوك الغفران حتى فيما يخص الخطايا التي لم ترتكب بعد!

أصبح بيع صكوك الغفران يمثل واحداً من البنود الرئيسة لدخل الكنيسة، إلا أنها ساهمت أيضاً بشكل غير مباشر في نشر الرذائل والجرائم، إذ يمكن عدم اعتبارها خطايا إن وجد المال. وفي هذا الصدد كانت هناك مقولة تقول: «الكنيسة تغفر الذنوب كافة باستثناء واحد منها – الافتقار إلى المال!».

استدعت هذه الممارسة المشينة غضباً واسع النطاق من جانب المؤمنين، ونظر إليها كدليل حي على أزمة الكنيسة وجشع خدمتها. ومع ذلك، إن ما جرى إدانته هو غفران الخطايا ذات الشكل المالي – التجاري القذر فقط، وليس حق الكنيسة بالإدانة والغفران وفرض الأعباء على الناس التائبين – التوبة لا تغفر الخطايا. ومضى لوثر قدماً، فقد رأى وراء الروح الجشعة والمؤذية الظاهرة في ممارسة الكنيسة «اختراعاً شيطانياً» – السعي لتحرير الإنسان من ضرورة

التوبة الداخلية، وهو ما يدعو إليه الإنجيل باستمرار ودأب: «توبوا، وتقربوا إلى ملكوت الرب!».

وهكذا، ألغت الكنيسة الكاثوليكية فعلياً المطلب الرئيس للمسيحية والشرط الأساس لخلاص البشرية – التوبة الداخلية. وعارض لوثر ذلك معلناً بأنه لا ينبغي استبدال المعاناة المفروضة على الإنسان لتنقية نفسه بحكم عدم عصمته الفطرية، لأنها السبيل الوحيدة لتقوية إيمانه وتنقيته الأخلاقية، أي اكتسابه السعي الحقيقي للعيش بشكل ورع. فعلياً ما طالب به لوثر هو العودة إلى المبادئ الأخلاقية للمسيحية الأولى ببساطتها وإخلاصها وحملها المباشر على الإيمان. لا يمكن للإنسان، ولا ينبغي عليه، أن يفتش عن سلطات وسيطة للخلاص يثق بها ويمنحها الحق في المعاقبة والغفران، فهو بذلك يخون الرب، ويقلل من عظمته.

إن فضح الفساد الخفي للكنيسة التي يرأسها الكاهن الروماني أمام الله، جذب إلى صف لوثر الساخطين على السلطة الفاسدة لروما جميعهم. واكتسب السخط الأخلاقي هنا تعزيزاً دينياً قوياً ضمن التعاظم السريع لشعبية الأفكار الإصلاحية. وبوضعه حق الكنيسة بالتوسط بين الإنسان وربه بشأن الخلاص موضع استفهام، يذهب لوثر أبعد من ذلك، وبالنتيجة يرفض التسلسل الهرمي الذي توصلت إليه الكنيسة برئاسة «الأمير الشيطاني» – البابا. ويصف البابوية «بالمؤسسة المعادية للمسيحية» التي تغوي الإنسان، وتحثه على الأفعال السيئة التي تفتدى بسهولة بالعمل الظاهري الصالح والمشاركة في الطقوس الدينية الكنسية، أو بشراء صكوك غفران الخطايا، كما يفعل معظم الفاسقين المتأصلين. لقد سلب ذلك في الجوهر الرب من الإنسان، وقام ببيع تضاربي لرحمته. تحول إله «الكادحين والمثقلين» إلى إلهٍ للأغنياء والمعتدين بأنفسهم.

بمقارنته المتواصلة لأفكاره مع الكتاب المقدس، رفض لوثر التقسيم نفسه

للمجتمع إلى كهنة وعلمانيين، لأنه لا توجد أي كلمة هناك لا عن البابوية، ولا عن الكهنوتية. وبدا البابا في تصويره قائداً لجيش من آلاف المشعوذين والنصابين النبلاء، الذين نصَّبوا أنفسهم وسطاءَ بين الإنسان والرب، ولا يساعدون، وإنما يعيقون تواصل الإنسان مع الخالق. كما رفض لوثر معظم الأسرار التي تشكل العبادة والطقوس الكاثوليكية – «القديسون والملائكة، وعبادة مريم العذراء، وعبادة الأيقونات والآثار المقدسة، والمراسم والخدمات الاحتفالية الكنسية المترفة التي كانت تجري باللغة اللاتينية ذاتها غير المفهومة للناس، وفكرة التطهير». لقد رأى في ذلك كله نوعاً من السحر الكنسي الذي سعت الكنيسة الكاثوليكية بوساطته لإخضاع الرب ذاته لأهداف ومصالح الناس.

طرق الخلاص جميعها المرتبطة باستعطاف الله، سواء أكانت افتداءً مباشراً أو بقربان أو رهبنة، أو الحج إلى الأماكن المقدسة، وغيرها من المظاهر الخارجية للتقوى، بدت للوثر مشينة للمسيحية نفسها، لأنها تمثل محاولة للسيطرة على الله، والتأثير عليه. والخلاص وفقاً للوثر هو ممكن – فقط – عن طريق نقل التطلعات الإنسانية من نطاق التقوى الخارجية التظاهرية إلى النطاق الداخلي للوعي، إلى الإيمان الشخصي للإنسان. ولا يكل لوثر من التشديد بكل ما أمكن على كشفه لجوهر الدين الذي لا يكمن في الأشكال الظاهرية للتقوى، ولا في الأعمال الخيرية دون السعي الداخلي الصادق إلى الله، وإنما في المقام الأول في العقيدة ذاتها، وفي النكران الداخلي للذات الذي بالطبع لا يمكن إلا وأن يتجسد في الأفعال الحسنة.

من أجل التأكيد على هذه الفكرة، يكرر لوثر بشكل متعمد أطروحته عن الخلاص، وعن تبرير «الإيمان وحده»، مضيفاً باستمرار» بدون مشاركة الأعمال الصالحة»، قاصداً فيها التقوى التظاهرية الخارجية. وأكد على أنه «لا

يمكن الفرض على الإيمان بالاندماج مع الأعمال الصالحة، لأن الإيمان الحقيقي لا يمكنه بحكم طبيعته إلا وأن يؤثر على حياة الورع».

في هذا السياق تفاعل لوثر سلباً مع الممارسة الرهبانية، واقترح تحويل الأديرة إلى مدارس، ودعا إلى إلغاء صيام الفريضة والحج إلى الأماكن المقدسة، لأنه رأى في ذلك مرفقاً غير مجدي في أراض أجنبية يسبب الفقر والجوع للأسر التي تبقى في الوطن. وبدعوته إلى الإيمان النقي والصادق بالله، رفض لوثر الحجة الدامغة والنهائية التي كانت الكنيسة الكاثوليكية مولعة باللجوء إليها، والمتمثلة في الطرد واللعنة. واعتقد أنه ينبغي التغلب على الزنادقة بالكتاب المقدس، وليس بالنار، وإلا لكان الجلادون أعظم علماء دين في العالم. وبهذا ساهم في تطوير استقلالية وحرية الرأي في مسائل العقيدة.

بغرض عدم الضياع في مسائل العقيدة يتوجب دائماً مقارنتها مع الكتاب المقدس بوصفه معياراً لصحة العقيدة المسيحية. وبتأكيده على سلطة الكتاب المقدس التي لا تقبل الجدال، أصر لوثر على حق كل مؤمن في أن يكون لديه فهمه الخاص لمضمونه، وعلى استقلالية الآراء الشخصية في مسائل الإيمان والأخلاق، وفي نهاية المطاف على حرية الضمير. ولضمان هذا الحق قام بنفسه بترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الألمانية مرسياً بذلك الأسس للغة الألمانية الأدبية. لقد جعل من الكتاب المقدس مفهوماً الناس، وساعد على ترسيخ الحاجة الاجتماعية لتنمية معرفة القراءة والكتابة.

في وقت لاحق تم إيجاز المضمون الرئيس لإصلاحات لوثر من قبل زميله فيليب ملانكتون Philipp Melanchton في „إقرار أوغسبورغ« (عام 1530) الذي تمثل في فكرة إمكانية الخلاص الشخصي بالإيمان وحده، والاعتراف بشرطية البابوية والتسلسل الهرمي للكنيسة، وفي تأكيد المساواة بين المؤمنين جميعهم في مسائل الإيمان أمام الله، الأمر الذي تجلى في مبدأ „الكهنوتية

العالمية« التي انحصر جوهرها في أنه بمقدور كل مؤمن أن يكون كاهناً لنفسه وللآخرين، ولا يوجد أي دائرة قدسية خاصة للنشاط، ولا ينبغي أن يكون لجماعة الكهنة أية امتيازات. وقلل كل ذلك وبشكل كبير من البيروقراطية الكنسية الباهظة، وجرد الكنسيين من التصور عن قدسيتهم الخاصة وحصانة السلطة العلمانية.

تمم لوثر مفهوم «الكنيسة الجديدة» بتعاليم عن القدر الإلهي على كل مخلوق، وعن وهمية حرية وإرادة الإنسان. وأصبح جوهر العقيدة البروتستانتية يتمثل في حكم «كل شيء من الله» الذي حرر الإنسان من المعاناة العقيمة حول سير أموره الدنيوية ونهايتها، الذي ترك له شيئاً واحداً – الاعتماد على الرب والإيمان في خلاصه. وأوصل لوثر هذه الفكرة إلى التأكيد بأن الخلاص عموماً لا يعتمد على جهود الإنسان، وإنما يحدده الله وحده، لأنه لو كان الأمر خلاف ذلك، لو لم يكن الخلاص نعمة من الله ويمكن الفوز به، لولَّد ذلك لدى الإنسان الإعجاب بالنفس والرضا الذاتي، وقاده إلى الكبرياء، وصده عن التوبة.

في واقع الأمر ولد هنا ترتيب عقائدي وأخلاقي جديد مفعم بالاستعداد لقبول وتحمل الصعوبات والمحن التي تنزل على الإنسان كافة، والسعي اليائس للنقاء الداخلي والثبات الروحي في العقيدة. حفظ صورة الله في النفس، وعدم القنوط، وتأدية بالعمل بشكل جيد وبطريقة منهجية وذلك بغض النظر وعلى الرغم من كل شيء! وإذا اتضح حقاً نجاح مثل هذا العمل دون أمل في بلوغ نتيجة بهيجة لا يؤدى لأجلها، وإنما باسم واجب الإنسان في العيش بتقوى، ومن أجل تعزيز الإيمان، فإن من شأن ذلك أن يمثل علامة واضحة على الفضل الإلهي وإمكانية الخلاص.

لذلك فإن أخلاقيات الإيمان البروتستانتي بالقضاء لم تنكر ضرورة بذل الجهود النشطة الفعلية والعمل المنهجي الثابت في إطار الدعوة إلى العمل

الدنيوي، كما أنها لم تعارض الحصول – نتيجة لهذا النشاط – على الرفاهية المادية والرخاء. وما تنفيه الأخلاق البروتستانتية هو فقط الدافع التقليدي لمثل هذا النشاط – الإقدام والمثابرة والاجتهاد – وكذلك ما يمكن اكتسابه عن طريقها من رفاهية وثروة الضروري ليس لمصلحتها، وإنما لأجل المتعة واللهو والنمط البهيج للحياة. إنها ضرورية من أجل الحصول على الشعور بالرضا من إدراك الاصطفاء الذاتي الذي يضمن الخلاص القادم.

تمثل تأدية الواجب في إطار العمل الدنيوي المهمة الأسمى للإنسان التي يقنع الإنسان عن طريقها برضاه الشخصي على الله. ويكبر في عين الله من يعمل بإصرار وإخلاص أياً كان، مهما انخفضت طبقته وصغر منصبه. ومن يعمل بتهاون هو في نظر الخالق رعاع مهما حلّق عالياً في تيار الحياة المتقلب.

الإيمان المسيحي الحقيقي بوصفه اتجاهاً نزيهاً نحو الخير يعني ببساطة التركيز المتقن والمتعمق والمنهجية الثابتة في أداء العمل الدنيوي العادي الذي يشكل واحدة من الخدمات ذات المنفعة المشتركة للنظام العالمي الذي رتبه الله. العمل بشكل جيد ضروري لأنه ببساطة يرضي الله، وليس لأن هذا العمل يستحق المكافأة. في هذه الحالة إن نجاح الأنشطة البشرية ونتائجها في حد ذاتها لا يكترث بها من أجل خلاص النفس، ولكن بما أن العمل المنفذ بشكل ممتاز يدل على مثابرة وإخلاص العامل، وبالتالي على قوة إيمانه، فإن من شأن النتيجة الناجحة أن تمثل علامة خارجية على الخلاص.

هذا هو منطق الإصلاح اللوثري الذي أرسى الأسس الروحية المتينة لظهور عامل من نوع جديد وثقافة جديدة مختلفة بشكل جوهري ومن دونها يتعذر أي إنتاج فعال وفائق التقنية.

يتمثل جزء من القائمة الطويلة لإنجازات لوثر لتكريس ثقافة المجتمع البرجوازي المبكر في الفهم الجديد للعقيدة المسيحية بوصفها علاقة شخصية

مباشرة للفرد مع الله، والضربة القاسية للكنيسة الكاثوليكية كمعقل روحي وسياسي للإقطاعية، وتقييد السلطة الكنسية في مسائل الإيمان والأخلاق، وتعزيز حرية الضمير، وحماية القيمة السامية للعمل وتكريسه الديني.

يعد الفرنسي جان كالفين John Calvin المواصل الراديكالي للإصلاح، فقد أسس في جنيف التي اضطر للفرار إليها هرباً من اضطهاد الكاثوليكيين واحداً من أقوى التيارات البروتستانتية، فقد بسّطت الكالفينية Calvinism العبادة المسيحية بشكل أكبر، وذلك عن طريق منحها الكنيسة الطابع الديمقراطي مع التغلب التام على فصل المؤمنين إلى رجال دين وعلمانيين وقيادة منتخبة للكنيسة. وعزز كالفين مذهب الأقدار الإلهية وبسّطه، وذلك بإيصاله إلى الجبرية المطلقة: مكتوب على بعض الناس حتى قبل ولادتهم الخلاص والنعيم السماوي، وعلى البعض الآخر الهلاك والجحيم، ولا يمكن لأي شيء أن يغير ذلك، لا التقوى الخارجية التي رفضها لوثر، ولا إيمانهم. ويتم خلاص الإنسان ليس لأنه يؤمن بالله، وإنما لأنه يؤمن في أن الخالق كتب له الخلاص مسبقاً. ومع ذلك فإن قضاء الله وقدره واختياره الخاص هي خفية على الناس، لذلك يجب على كل مسيحي بناء حياته كما لو كان مقدر عليه الخلاص مسبقاً، وذلك عن طريق اكتشاف علامات قضاء الله إلى الخلاص أو الهلاك في حياته.

وهكذا، فإن الكالفينية تذهب أبعد من اللوثرية وذلك لتأكيدها على أن الخلاص لا يتوقف حتى على الإيمان وحده، لأن المؤمن الحقيقي يمكن أن يكون فقط ذلك الشخص «المختار». ولكن لا ينبغي على الإنسان التغلغل في أسرار القرارات الإلهية ولا يجرؤ على ذلك، وبالتالي لا يمكنه المعرفة مقدماً ما إذا كان ينتمي إلى عداد المختارين أو المنبوذين، وبالتالي ينبغي عليه الاهتمام بحرص في أن يكون جديراً بهذا الاختيار. ويتمثل المؤشر الجيد بالنسبة له في شعوره بالقوة التي تمكنه من مقاومة الإغراءات والمغريات والرغبة في المتعة واللهو، أي كل

ما يشجبه الله والكتاب المقدس لأنه يساعد على «إفساد الناس» وهلاكهم.

رأت الكالفينية العلامة الأكثر وضوحاً للاختيارية في السير الناجح والموفق للأمور في الحياة الدنيوية، وذلك لأن كل ذلك هو مستحيل دون وجود إرادة قوية ومثابرة وإصرار وشخصية قوية وثبات وبساطة وتواضع في الحياة، أي تلك الصفات والقدرات جميعها التي يشير الله إلى المختارين بها. وهذا هو السبب في دعوة الكالفينية إلى العمل المتواصل والجاد لتحسين المهارات والاجتهاد والتواضع والحد من المتطلبات والحرص الذي يصل إلى درجة التقتير ونبذ الملذات الدنيوية والكسل. واعتبرت الكالفينية الاستهلاك غير المنتج وإنفاق رأس المال والكسل واللهو أكبر خطيئة، لأن من شأن الخمول والكسل والميل إلى الحياة السهلة أن يفضي بالإنسان حتماً إلى الرذائل والفقر، مما يدل على حتمية هلاكه.

سرعان ما قام كالفين وفقاً لأحكامه بتحويل جنيف التي سيطر فيها البروتستانت على الكاثوليك من مجتمع يتمتع بالحكم الذاتي ومثابر وسعيد إلى دولة ثيوقراطية مع دكتاتورية شخصية لكالفين الذي سعى إلى فرض رؤيته للحياة ليس بالإقناع وحده، وإنما بالإكراه أيضاً، فهدأت الحياة الصاخبة للمدينة المزدهرة والسعيدة، وحلت مكانها الجدية القاتمة والتدين الصارم. وسعى كالفين بوساطة نظام الإكراه والعقاب إلى إجبار المواطنين على الصلاة والعمل بدأب، وفرض قيوداً على كل أنواع اللهو والمتعة والترفيه والتسلية. وتحول رفض كالفين للكسل والترف إلى استنكار للفنون الإبداعية والآداب، والتنظيم الدقيق للحياة الشخصية المؤمنين، حتى فرض حظراً على ارتداء الملابس الجميلة، وتسريحات الشعر، واستخدام الأطعمة الطيبة، وما إلى ذلك.

انتهى تأليه البروتستانتية للمثابرة والكراهية للكسل الاجتماعي عند كالفين إلى تحريم التسول والرهبانية، إلا أنه اقترح المثل الأعلى الزاهد للحياة للمؤمنين

جميعهم، وذلك في توافق تام مع رؤيته للحياة الدنيوية كخطوة تحضيرية للحياة الأبدية، وكواد للحزن والبكاء. وأشار فولتير إلى هذه الخاصية بقوله: «لقد فتح كالفين أبواب الأديرة واسعة، ولكن ليس لكي يخرج منها الرهبان جميعهم، وإنما من أجل الزج بالعالم كله هناك».

ومع ذلك، وعلى الرغم من الاضطهاد القاسي الذي مارسته الكالفينية لكل معارضة واعتقاد في العصمة الذاتية، فإن منطق نمط الحياة البرجوازي مع ما يميزها من سعي نحو التعددية الروحية والأيديولوجية ساعدت على نشوء عدد من الاتجاهات والطوائف البروتستانتية الكالفينية، مثل: المشيخيون Presbyterians، والأبرشانيون Congregationalists، والمعموديون Baptists، والتطهيريون Puritans وغيرهم.

لعل التطهيرية Puritanism (وتعني بالإنكليزية الطاهر والأصلي) التي أسسها الإنكليزي جون نوكس John Knox كانت الأكثر كمالاً وتطابقاً من ناحية أصلها وجوهرها الروحي مع الكالفينية. حتى إن مصطلح «التطهير» تحول إلى اسم مشترك شائع لهذه التيارات جميعها. وأصبح مسمى التطهيرية يطلق على كل ما يميز أتباع الكنيسة الكالفينية من أيديولوجيا دينية وأسلوب حياة مرتبطتين بالصرامة الزاهدة المطلقة للأخلاق والمثابرة وشعور عال بالواجب والحرص والتقوى الموسوسة والحماسة الدينية.

تميزت الأخلاق التطهيرية بالتشدد الصارم، أي بالاتباع الصارم والعنيد للمبادئ والقواعد الأخلاقية التي تشكل إرادة الله مصدراً لها، وبمطلب البساطة في العلاقات بين الناس، والوعظ بالتقييد الكامل والتبسيط للمتطلبات الدنيوية الخاصة، والموقف البالغ السلبية من الترف والتبذير والكسل. ولم يسمح التطهيريون لأنفسهم بإضاعة الوقت الثمين على الأنشطة غير المنتجة، واعتبروا كل أشكال اللهو والتسلية غير شرعية لأنها تسلب الوقت الذي

ينبغي تكريسه لأمور أكثر أهمية. لذلك فقد تم إلغاء معظم الأعياد، في حين تحولت حياة التطهيريين إلى نوع من «الزهد الدنيوي»، أي إلى عبادة الله. وتميز التطهيريون بشكل واضح بالتواضع اللافت لحياتهم وتقواهم.

في الوقت نفسه، اقترن هذا التواضع والزهد لديهم بثقة مفرطة في النفس نابعة من معتقداتهم الدينية بأنهم تحديداً لا يمثلون مجرد شكل من أشكال المسيحية، وإنما حاملين للرسالة الإلهية التاريخية. وعن طريق حياتهم سعوا لإثبات أن الرب أشار تحديداً إلى البروتستانت عندما تنبأ بالمسار الصحيح للبشرية إلى الخلاص. وحفز ذلك وبشكل كبير النشاط الاجتماعي والصلابة الدينية للتطهيريين كأداة أكيدة ضد اضطهاد أعدائهم، وضد الشكوك والتردد والضعف الروحي والقنوط.

في الوقت نفسه أوحت هذه الأحكام بالارتقاء بالروح التجارية الملازمة للرأسمالية، وساهمت في نهاية المطاف بتغلبها النهائي على الإقطاع. وأتباع الفرع التطهيري–البروتستانتي الراديكالي للمسيحية، الذين أجبروا نتيجة للاضطهاد الديني والسياسي على الفرار في عام 1620 من أوروبا إلى أميركا الشمالية على متن سفينة «مايفلاور Mayflower»، هم تحديداً من وضع الأساس للأمة الجديدة التي تزعمت الحضارة الغربية.

أجبرت النجاحات التي حققها الإصلاح البروتستانتي الكنيسة الكاثوليكية على الشروع في الإصلاحات، وإيجاد السبل لاستعادة مواقعها المفقودة. فبعد تعافيها من الضربات والهزائم الحساسة الأولى وحتى تأسيس قواعدها المزعزعة، بدأت الكنيسة الرومانية بجمع قواها لصراع مرير جديد مع البروتستانتية. وتطور هذا الصراع في أوروبا الغربية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وسمي بالإصلاح المضاد Counter—Reformation، وهو حركة كنسية – سياسية نظمتها البابوية للدفاع عن قدسية وعظمة الكنيسة الكاثوليكية.

وشمل الإصلاح المضاد عدداً من التدابير لإعادة تنظيم الكنيسة وتفعيل أداء مؤسساتها. ولم يقتصر الإصلاح المضاد على التدابير الكنسية الخالصة، وإنما اتخذ منحى سلسلة طويلة من الحروب الدينية الوحشية والدموية اجتاحت أوروبا في تلك الفترة. وقبل كل شيء تعزز وبشكل كبير دور محاكم التفتيش التي تحولت إلى مجمع «الكرسي الرسولي» Congregation Holy See ، الذي تصرف تحت الإشراف المباشر للبابا، وحول كامل قوته ضد المعارضين للكنيسة الكاثوليكية.

تم حشد قوى الهيئات الرهبانية المتسولة القديمة، من فرنسيسكان ودومينيكان وكرمليين وأغسطسيين، التي وجب على أعضائها تكثيف رسالتهم الوعظية، إلا أن «جمعية اليسوعيين Society of Jesus» التي تم إنشاؤها ثانية لترفع شعار «المسيح هو منقذ البشر»، مثلت السلاح الأكثر نجاحاً الذي استعملته البابوية ضد الزندقة والهرطقة. ومؤسس هذه الجمعية هو النبيل الأسباني أغناطيوس لويولا Ignatius of Loyola الذي بعد إخفاقه في الخدمة العسكرية بسبب الإصابة، قام بتوجيه حماسته التي لا تقهر وتدينه الحربي لخدمة الكنيسة الكاثوليكية بطرق غير تقليدية. وعن طريق معاناته القاسية من أزمة الكاثوليكية، بحث لويولا عن إجابة على التساؤل عن كيفية إصلاحها، ليصل في نهاية المطاف إلى فكرة تأسيس جمعية روحية لحماية الكنيسة ليس بالوعظ والعبادة الديرية الهادئة، وإنما بالكفاح الفعال ضد أعدائها، فخطط لتأسيس منظمة حربية حقيقية من المقاتلين المسيحيين المترابطين بشكل وثيق بانضباطهم، والأقوياء بإجماعهم، «قوات دينية تقاتل من أجل مجد الرب تحت راية الصليب».

بعد أن عثر لويولا على الأنصار والأتباع، سرعان ما قام بإخضاعهم لإرادته وذلك عن طريق إلهامهم بفكرة الاصطفاء الخاص والرعاية الإلهية في حماية

الكنيسة الكاثوليكية التي يرأسها البابا. وفي البداية زاولت هذه الجمعية التي ظهرت من جديد الوعظ وفضح الهراطقة. وكانت الحياة الخارجية والداخلية لأعضاء الجمعية متباينة للغاية، فعلى مرأى الناس يجب على اليسوعي الذي يعرف المحيطون بانتمائه إلى الجمعية التصرف بشكل متواضع وورع، كما ينبغي عليه أن يكون دمثاً ولطيفاً، لا يعبر عن سخط، وينظر إلى الأسفل حتى لا تفضح عيناه أفكاره، ويحافظ على سرية كل ما يتعلق بالحياة الداخلية للجمعية. إلا أنه لا ينبغي للدماثة والورع أن تعيقا اليسوعي من استخدام الوسائل جميعها لتحقيق الهدف الرئيس المتمثل بتنفيذ أوامر وتعليمات القيادة كلها، إذ قد يضطر للجوء إلى الافتراء أو الدسيسة أو التآمر، أو استخدام السم أو الخنجر، أو إلى الانغماس في الملذات الدنيوية، واتباع الأسلوب الماجن للحياة في حال كان ذلك ضرورياً لهزيمة أعداء الكنيسة الكاثوليكية.

برر منظرو الجمعية مثل هذا السلوك من الناحية النظرية بمفهوم ما يسمى بالأخلاق اليسوعية الذي يتمثل مبدأه الأساسي في «الغاية تبرر الوسيلة». وعن طريق إعلان هدفهم في تعزيز مجد الرب، اعتقد اليسوعيون بعدم وجود وسائل لا يمكن تبريرها لهذا الغرض، وبالتالي فإنهم بتطبيقهم لهذه الأحكام على الممارسة الحياتية وصلوا تدريجياً لتبرير الأفعال غير الأخلاقية الإجرامية كافة. وتمثلت الوسائل المعتادة التي لجأ إليها اليسوعيون لتعزيز مواقعهم في كل من الافتراء، والحنث باليمين، والخيانة، والتآمر، واللعب على نقاط ضعف الناس، والغرائز، والرذائل.

ليس مستغرباً أنه سرعان ما أصبحت هذه الجمعية لا تلعب الدور القيادي في الحياة الدينية فقط، وإنما تقوم بالتأثير الكبير على السياسة أيضاً، فقد قام الباباوات بتقييم سريع للإمكانات التي قدمها لهم مساعدوهم المستعدون لكل شيء، ومنحوا الجمعية امتيازات كثيرة. وعلى الرغم من أعباء الطاعة

والانضباط الصارم النابعة من النظام الأساسي للجمعية، إلا أن عدد اليسوعيين تزايد باستمرار، وتعاظمت قوتهم. وجند اليسوعيون أعضائهم بشكل رئيس من الطبقات المميزة، ويصعب الجزم بأن أكثر ما حرك هؤلاء الناس هو الرغبة الفعلية في الخدمة النزيهة لقوة وعظمة الكنيسة الكاثوليكية، أو الرغبة في الشعور بالنفس كمختار ينتمي إلى منظمة جبارة وقادرة قريبة من رأس الكنيسة.

قام اليسوعيون بمساهمة فعالة في إعداد وعقد مجلس ترينت للمجمع المسكوني Ecumenical council Council of Trent (1545–1563) الذي اعتمد سلسلة من القرارات مثلت البداية الرسمية للإصلاح المضاد.

كرّس المجلس أولاً وقبل كل شيء عقيدة عصمة الباباوات في مسائل العقيدة، وأولوية سلطة البابوية أمام نفوذ المجامع المسكونية. وتم اتخاذ قرار بنشر محاكم التفتيش لفهرس بالكتب المحظورة الذي أصبح سلاحاً قوياً لردة الفعل الكنسية ضد حرية الفكر والعلوم. وفي الوقت نفسه تم الاعتراف بأنه من أجل المواجهة الناجحة لهجوم البروتستانتية لا تكفي التهديدات والتحريمات وحدها، وإنما ينبغي أيضاً تحسين المعرفة العامة والتعليم الديني لرجال الدين الكاثوليك عن طريق توسيع وتعزيز نظام التعليم الديني. أما فيما يخص الفئة القليلة التعليم، فقد تقرر نشر العقيدة المسيحية الشفهية، أي العرض المختصر والواضح لأسس المذهب الكاثوليكي في شكل أسئلة وأجوبة. وبالنتيجة تم تأسيس مجموعة كبيرة من المؤسسات التعليمية في روما من كليات لإعداد رجال الدين الكاثوليك، ورقابة، وتكثيف للنشاط التبشيري للكنيسة.

يتمثل المظهر الآخر للإصلاح المضاد في إعادة إحياء ممارسة «مطاردة الساحرات Witch–hunt» التي انتشرت على نطاق واسع في فترة القرنين السادس عشر والسابع عشر، فقد تم بوحشية إعدام الآلاف من النسوة المتهمات

بالشعوذة والتواطىء مع الشيطان. وفي هذا السياق تراجع رجال الكنيسة البروتستانتية بعض الشيء عن نظرائهم من محاكم التفتيش الكاثوليكية.

لم يقتصر الصراع الذي بدأته البابوية على نطاق الإجراءات الكنسية الصرفة، إذ سرعان ما اشتعلت نار الحروب الدينية في أنحاء أوروبا كافة. وقسمت هذه الحروب الأمم التي بدأت بالتشكل، وأعاقت تشكيل الدول البرجوازية، وأكدت في الوقت نفسه عبثية وطيش التعصب الديني، وعلمت بالتدريج الأمم الأوروبية ضرورة جعل الاختلافات الدينية خارج إطار الدولة والمجتمع المدني.

من أهم المعالم على هذا الطريق صلح أوغسبورغ Peace of Augsburg (عام 1555) في ألمانيا الذي نتيجته انتصر مبدأ «العقيدة لمن يملك السلطة». والملك الفرنسي هنري الرابع Henri IV الذي عانى من المعارك الدينية واضطر مراراً وتكراراً إلى الانتقال من طائفة إلى أخرى، أصدر مرسوم نانت Edict of Nantes حول التسامح الديني (عام 1598) الذي سمح للكاثوليك والبروتستانت بالعيش معاً في دولة واحدة.

كان من شأن التدابير التي اتخذتها الكنيسة الكاثوليكية تمكنها من تجنب الاندفاع السالك للبروتستانتية التي انتصرت بشكل رئيس في الدول الإسكندنافية وألمانيا الشمالية وسويسرا وهولندا، فضلاً عن الجزر البريطانية. وظلت كل من إيطاليا وأسبانيا وفرنسا والنمسا وبلدان جنوب شرق أوروبا معاقل للكاثوليكية. وفي الوقت نفسه قدمت البروتستانتية المساهمة الأكبر في تشكل ثقافة المجتمع الأوروبي الغربي. ودون الإعلان عن مثل اجتماعي – سياسي أعلى معين، وعدم المطالبة بتحويل المجتمع إلى هذا الاتجاه أو ذاك، وعدم القيام بأي اكتشاف أو انجاز علمي في الميدان الإبداعي الجمالي، غيَّر الإصلاح عقلية الإنسان، وفتح أمامه آفاقاً روحية جديدة. وظفر الإنسان بحرية التفكير

بشكل مستقل، كما تحرر من الوصاية السلطوية للكنيسة، وكرس نفسه في العقيدة الدينية السامية بالنسبة له، عقله الخاص وضميره يمكنهما أن يمليا عليه كيف ينبغي أن يعيش.

ساعد الإصلاح على ظهور المجتمع البرجوازي وذلك بغض النظر عن الفرد وحرية الخيار الأخلاقي المستقل والمسؤول في أحكامه وأفعاله. وفي حملة الأفكار البروتستانتية تجسد وبكمال كبير النوع البرجوازي الجديد للشخصية بثقافتها ونظرتها الجديدة إلى العالم. وتم النظر في الموقف من العمل الذي اكتسب قيمة دينية وأخلاقية، في حين اعتبر عدم الإجادة وعدم الكفاءة في العمل إثماً جسيماً يعادل الكسل.

وجدت الرأسمالية التي تشكلت في أوروبا الغربية في فترة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، والحضارة الصناعية البرجوازية في البروتستانتية الثبات الروحي، ومن جانبها قامت البروتستانتية بالكشف عن إمكانات النظام الجديد، ونقل المجتمع إلى طريق التقدم. واستدعى الإصلاح ضرورة التغيير في العبادة الكاثوليكية التقليدية وتكييفها مع ظروف المجتمع البرجوازي الجديد، مما سمح للكنيسة الكاثوليكية بمواصلة كونها أهم مؤسسات المجتمع البرجوازي وعدم تحولها إلى واقعة في تاريخ الدين والثقافة.

بيد أن الهزيمة النهائية للإقطاعية في عصر الإصلاح والإصلاح المضاد مازالت بعيدة المنال، إذ كان من الضروري جعل الإقطاعية تستنفذ كامل مخزون تطورها، وخلق المقدمات السياسية لإسقاطها نهائياً. وتمثل القرون الوسطى المتأخرة فترة التغلب على الظلم وقهره من قبل أحرار الإقطاعية في فرنسا وإنكلترا، وإقامة الحكم الملكي المطلق هناك (بسبب التراجع الكبير لألمانيا، وكذلك تجزئتها، تميزت هذه الفترة بتعزيز الحكم بالإقليمية المطلقة).

هكذا، في فرنسا ونتيجة للحروب الدينية الأهلية، وبفضل حكمته ومكره

ودهائه، جاء إلى السلطة هنري الرابع (ملك نافار King of Navarre) الذي أدرك الكوارث التي تسببها الضغينة الدينية، وأرسى بمرسوم نانت الذي أصدره التسامح الديني الحكومي في فرنسا، وأصبح يعتمد على طبقة النبلاء الإقطاعيين بدرجة أقل من اعتماده على جهاز الدولة ممثلاً بالموظفين وفي مقدمتهم القضاة والمحامين والمموّلين بالإضافة إلى المدن وكبار التجار، وقام بتخفيض الضرائب على المزارعين، مما سمح بتعزيز القاعدة المادية للدولة، إذ لا يمكن للفلاحين الفقراء دعم دولة قوية وجيش قوي.

عزز الملكية الاستبدادية المركزية أكثر في فرنسا رئيس الوزراء في عهد الملك لويس الثالث عشر Louis XIII الكاردينال ريشيليو Cardinal Richelieu (القرن السابع عشر) الذي كرس حياته كلها لمنعة فرنسا وعزتها، فقد قام بالقوة والمكيدة بمقاومة كل من يرغب بالتنازل عن امتيازات كبار الإقطاعيين، وإخماد الإدعاءات التي بدأت تتعالى من جانب البروتستانت بعد صدور مرسوم نانت إلا أنه لم يقم بملاحقتهم، وغرس التقوى المتجانسة، وحرم المبارزة لما تتسبب به من ضرر مباشر للدولة. وفي عهده تأسست الإدارة الكاملة للسلطة المركزية على الأراضي جميعها، ووضع حداً للحكم الذاتي للمدن، وتقلصت بشكل كبير حقوق الولايات الرئيسية، الأمر الذي اعتبر في تلك الظروف التاريخية تدابير متقدمة ضد الانفصالية الإقطاعية.

بلغت الملكية المطلقة في فرنسا ذروتها في عهد «الملك الشمس» لويس الرابع عشر Louis XIV of France الذي أظهر قدرات هائلة في مجال الإدارة وإصلاح الصناعة والتجارة وإعادة بناء الجيش، فقد أصبحت سلطة الدولة مرادفة لسلطته الشخصية، واعتبر الرجوع إلى القانون جريمة. ومعروف قوله الشهير الذي تم وللأسف انتزاعه من سياقه ليأخذ معنى مغايراً بعض الشيء: عندما ظهرت في الولايات الرئيسية معارضة لخططه لتحسين سلطته الخاصة في

البلاد، تعجب لويس قائلاً: «هل تعتقدون أن الدولة هي أنتم؟ لا، الدولة هي أنا!». وأحب «الملك الشمس» الأسلوب الصاخب للحياة والترف والمرح، إلا أنه نجح في الوقت نفسه في تحويل فرنسا إلى مركز ثقافي حقيقي لأوروبا وذلك عن طريق إنشاء القصور الرائعة في فرساي، ومسرح الأوبرا، وأكاديمية للعلوم، وأكاديمية للعمارة، وأكاديمية للموسيقى. هو نفسه استمر طوال حياته في العمل في حكم الدولة متمماً معارفه باستمرار. ولكونه دقيقاً وحازماً، فقد تمكن من القيام بأدب ولكن بحزم بتهذيب النبيل المخالف: مثلاً، أشار إلى أحد المتأخرين من جمهور الوزراء قائلاً: «لو قليلاً لما انتظرك»، مما جعله يرتعد من الخوف.

في إنكلترا جرى في تلك الفترة صراع بين الملك تشارلز الأول Charles I والبرلمان الذي اعترف الملك فقط بحقه بتقديم النصيحة، ولكن ليس باتخاذ القرارات، وهدد باستمرار بحله أو تدميره بكل بساطة. وواجهت محاولاته لإقامة سلطة الفرد الواحد اللازمة لتمكين البلد مقاومة عنيدة من قبل البرلمان بقيادة البرلماني الموهوب والزعيم التطهيري أوليفر كرومويل Oliver Cromwell الذي هزم قوات الملك وأعدم الملك تشارلز الأول نفسه (منتصف القرن السابع عشر). بيد أن ذلك لم يغير منطق العملية التاريخية، إذ قام كرومويل نفسه بدور الملك المطلق، وحمل لقب اللورد الحامي، وأقام السلطة الفردية. وعلى مدى أكثر من عشرة أعوام من حكمه بقبضة من حديد، خلق المقدمات الجدية للانتصار القادم للبرجوازية. وبعد وفاته واستعادة النظام الملكي تواصلت المواجهة بين البرلمان والملك التي انتهت «بالثورة المجيدة Glorious Revolution» في عام 1688، التي مثلت حلاً وسطاً بين الملكية والبرجوازية وبداية لتشكل الدولة البرجوازية.

حتى الكنيسة في هذه الفترة كانت تابعة للحكام العلمانيين، الأمر الذي

اضطرت للقبول به.

مثَّل الحكم الاستبدادي المطلق الحلقة الأخيرة بين القرون الوسطى والزمن الحديث، وذلك بعد تدمير آخر العقبات الإقطاعية، وخلق فضاء اقتصادي وسياسي موحد بتشريع موحد وتطبيقه، ومع تسامح ديني نسبي وتعاظم لاحترام المعارف والتنوير. ولكن في الوقت نفسه فاقم الحكم المطلق تناقض الإقطاعية حتى النهاية، مما يدل على العواقب الوخيمة لسيادة السلطة التي لا يقيدها شيء. وسرعان ما فسدت السلطة المطلقة، وتعرضت لانحلال كامل للجهاز الحكومي الذي أنشىء بصعوبة بالغة، فهدد قوة استقرار الدولة الإنفاق غير المنضبط للمال العام، وتعسف السلطة الحاكمة في السياسة الضريبية، وعمليات الابتزاز والقهر المتواصل للبعض والامتيازات الكبيرة للآخرين، والمؤامرات والدسائس من أجل التقرب إلى الشخص المالك، والحفلات الراقصة المتواصلة، والأعياد والاحتفالات في ظروف العسر المالي. وتميز الجهاز البيروقراطي المزدهر بالخصوصية المميزة لكل سلطة رأسية – التبعية للموظف الأعلى، والانعدام التام للمسؤولية إزاء المراتب الأدنى، وإزاء الناس بشكل خاص. ووفقاً لإرادة الملك ووزرائه النبلاء ودون محاكمة كان يتم القبض على أي من الرعية واعتقاله ونفيه ومصادرة ممتلكاته، وإعدامه كذلك. واكتسب الفساد نطاقات واسعة من بيع لحقوق الالتزام بالديون والضرائب والمناصب والألقاب النبيلة، وعن طريق الرشوة كان بإمكان المرء حل أي قضية في المحكمة لصالحه.

لتصفية الحسابات بين الأغنياء والنبلاء النافذين بيعت نماذج فارغة باسم السلطة الحاكمة للاعتقال والسجن في الباستيلBastille مع حقول فارغة يمكن ملء أي اسم فيها. ولم يشعر أحد بالأمان في أي من حقوقه في الحرية والحياة، ناهيك عن حق التصرف بممتلكاته الخاصة، وحقه في رفع قضية ما.

كل هذا أوجد الحاجة العامة لإعادة تنظيم للمجتمع، بحيث يمكن الاعتماد على أنظمة مستقرة، وعلى حماية ثابتة للمصالح والممتلكات، وعلى تقييد لتعسف السلطة، وعلى التغلب على اقتصار الحقوق على البعض وحرمان آخرين منها، وعلى حماية الفرد وحريته. وأصبح تعسف وفساد الحكم المطلق أكثر تعصباً مما ولَّد سخطاً شعبياً على نطاق واسع. ولم تتطرق إلى أسس النظام الإقطاعي محاولات السلطة الرامية إلى تمدين طبيعتها والظهور للناس كملكية مستنيرة تقوم على قيم الثقافة الإنسانية والتنوير، ومستعدة لمجموعة من التنازلات إلى الشعب أهمها تحرير للفلاحين من تبعية عبودية الأرض مع حق الافتداء، ومطورة للفنون الجميلة والأدب والفلسفة. وفي نهاية المطاف استنفذ الإقطاع الموارد والفرص للتنمية الخاصة لصالح البشرية جمعاء، وأصبح عقبة أمام تحقيق المزيد من التقدم. وفي رحم المجتمع الإقطاعي تشكلت الأسس والمقدمات الثقافية لانتقال البشرية إلى نموذج جديد من التطور الحضاري، أكثر كفاءة.

إذن، تبدو ثقافة أوروبا القرون الوسطى كلية عضوية متطورة تاريخياً، وجملة من الخصائص الحضارية المتداخلة والمترابطة، تدل في وحدتها على عملية التحسين النوعي للمجتمع البشري وتطور البشري. ومثَّل التغلب على الإقطاع نهاية حقبة القرون الوسطى والانتقال إلى عصر جديد يفتح آفاقاً جديدة لتطوير الإنسان والمجتمع.

الفصل الثاني عشر

ثقافة عصر النهضة

إن الذي أدخل كلمة «النهضة Renaissance» هو الرسام والفيلسوف والكاتب جورجيو فاساري Giorgio Vasari في كتابه الكلاسيكي «السيرة الذاتية لمشاهير الرسامين والنحاتين والمعماريين Lives of the Most Excellent Painters، Sculptors، and Architects» (1550)، وقد استخدمه للإشارة إلى الفترة الممتدة ما بين عامي 1250و1550. ويكمن معنى هذا المصطلح في أنه بعد الفترة الطويلة للعصور الوسطى تفتح البشرية لنفسها من جديد العصور القديمة، و«تحيي» مبادئها.

في الواقع، تتمتع ثقافة عصر النهضة بطبيعة فريدة، مكتفية ذاتياً. ولا ينبغي أن يفهم مصطلح «النهضة» على أن المقصود هو العودة الحرفية إلى العصور القديمة، فهذا ضرب من المستحيل، إذ لا يمكن إرجاع التاريخ إلى الوراء. ويعتقد بعض الباحثين أن النهضة تمثل الفترة الأخيرة من القرون الوسطى، في حين يراها آخرون أقرب إلى العصر الحديث، أما مجموعة أخرى من الباحثين فتميز عصر النهضة كفترة مستقلة من تاريخ الثقافة البشرية، تختلف عن سابقاتها ولاحقاتها.

عند الحديث عن ثقافة عصر النهضة كثيراً ما يستخدم الباحثون ميزات مثل النزعة الإنسانية humanism، ونزعة المركزية البشرية Anthropocentrism. نعم، تلك هي السمات الهامة لهذه الثقافة. لكن ينبغي إغفال أنها إلى حد ما تميز أيضاً ثقافة العصور الوسطى التي لم يكن فيها الإنسان ابن الله فحسب،

وإنما أيضاً تاج الخلق الذي يوليه الله جل اهتمامه. لذلك، لا ينبغي تناول مبادئ النزعتين الإنسانية والمركزية البشرية على أنها تخص عصر النهضة فقط، فهي كانت موجودة قبله.

عصر النهضة هو فترة تشكل العلاقات الرأسمالية في بلدان أوروبا المتقدمة. وليس عبثاً أن تحولت مدن إيطاليا إلى مراكز النهضة، فبعد سقوط القسطنطينية، بدأت طرق التجارة الرئيسة في منطقة البحر الأبيض المتوسط تمر عبر إيطاليا. وقد ساعد ذلك على إثراء المدن الايطالية، وعلى نموها الاقتصادي السريع أيضاً. وبالإضافة إلى النهضة الإيطالية، كانت هناك نهضة شمالية أيضاً، ففي هولندا تحديداً حققت الثورة البرجوازية انتصارها الأول. وعليه، فإن النهضة في المنظور الثقافي – التاريخي لا تصور لنا كازدهار غير مسبوق للفن فقط، وإنما أيضاً كفترة لانتصار العلاقات البرجوازية التي جرى تشكلها في نضال مرير ضد الأنظمة الإقطاعية. وتمثل حرب الفلاحين في ألمانيا أولى الثورات البرجوازية، إلا أنها تكبدت الهزيمة. ويمكن لصراع الثقافتين البرجوازية والإقطاعية أن يأخذ أيضاً شكل الحروب الدينية، كما كان الأمر في فرنسا. وفي هذه الفترة جرى تشكل الدول الوطنية والممالك المطلقة.

يرتبط التدمير التدريجي لأسس ثقافة القرون الوسطى بنمو المدن، حيث لم ترتب المدن في الإطار الصارم للسلم الإقطاعي، وكثيراً ما سعى الملوك إلى الاعتماد على المدن في صراعهم من أجل السلطة مع غيرهم من أمراء الإقطاع. كانت هناك مقولة عن أن «هواء المدينة يجعلك حراً»، ومعناها حرفي، فبموجب بعض القوانين الفلاح القن الذي يتمكن من الهرب من صاحب الأرض والعيش في المدينة لفترة زمنية معينة، يحصل على حريته. بيد أنه يمكن أن تفهم هذه المقولة بمعناها المجازي، إذ تمتع ابن المدينة بحرية أكثر بكثير من الفلاح القن. فهو أولاً وقبل كل شيء لا يتبع لمالك الأرض. ومع

ذلك، فقد كان هناك ظرف آخر أكثر أهمية: فالحرفي لا يعتمد على الشيء الذي يحدد كلياً حياة الفلاح - تغير الفصول، في حين يجبر الشخص الذي يعمل في الأرض على ضبط حياته وفقاً لتغير المواسم، إذ ينبغي عليه حرث الأرض وزرع المحصول وحصده في وقت محدد بدقة، مما يشكل ترتيباً معيناً لشخصيته وموقفه تجاه نفسه والعالم. يتساءل المرء أحياناً: لماذا في فجر تشكل الإقطاعية سمح الفلاحون لأنفسهم «أن يستعبدوا» بهذه السهولة؟. بالطبع لذلك أسباب عديدة، إلا أن أحد أهمها يتمثل في أنهم كانوا نفسياً مستعدين للتبعية، لأن نمط حياتهم بمجمله يحكمه الخضوع لقوى للطبيعة.

وخلافاً للفلاح، كان الحرفي يتمتع بحرية أكبر بكثير، وإمكانية الاختيار التي أمامه هي أوسع بكثير. وتشكلت تدريجياً عقيدة الإنسان - صاحب المشروع الذي هو نفسه سيد مصيره. وفي ذلك كان هناك جانب سلبي، إذ لم يستطع الفلاح من تغيير وضعه كثيراً، فقد كان يعمل في الأرض، ويعبد الرب، ويفعل كل ما كان يطالبه به أمراء الإقطاع ورجال الكنيسة. ولم تكن حياة ابن المدينة - صاحب المشروع في غاية الهدوء، إذ كان بإمكانه الثراء وتكوين وضعه بسرعة، إلا أنه وبالسهولة نفسها يمكن أن يقع في الإفلاس، وهذا ما كان يحدث مراراً.

كثيراً يمكن سماع أن النهضة حملت طبيعة نخبوية. وهذا ليس صحيحاً تماماً. ففي الواقع كانت روائع الفن وأعمال الفلاسفة والشعراء بعيدة جداً عن الناس العاديين. بيد أن الفن والفلسفة لا يحددان جوهر عصر النهضة، وإنما هما «القشرة السكرية على الكعكة». ويمثلان الشيء الهام كما كنا قد ذكرنا في تشكل العلاقات البرجوازية، وفي النوع الجديد للشخصية في الآن ذاته. وبهذا الشكل المفهوم لنا هو أن عصر النهضة شمل بدرجة أو بأخرى شرائح واسعة من السكان.

ويتمثل الشيء البالغ الأهمية بالنسبة لعصر النهضة في توليفة اثنين من المصادر الثقافية: الكاثوليكي الذي يضرب بجذوره في العصور الوسطى، ومصدر العصور القديمة. سبق وأن أشرنا إلى أن إيطاليا أصبحت مركز النهضة بفضل موقعها الجغرافي المتميز. فمن ناحية أولى، يقع في إيطاليا الفاتيكان – قلب الكنيسة الكاثوليكية. ومن ناحية أخرى، كانت روما لعدة قرون عاصمة العالم القديم، حيث نقلت إليها في عهد الإمبراطورية أفضل نماذج الفن القديم. ووصل العديد من التماثيل اليونانية القديمة إلينا فقط في شكل نسخ رومانية قديمة. وخلق كل هذا تربة خصبة لتوليف اثنين من المصادر الثقافية، القديم والكاثوليكي.

لم يكن تأثير العصور القديمة في النهضة الشمالية كبيراً، وهذا ليس مستغرباً، إذ لم تنتشر الثقافة القديمة بعيداً. ويبدو التقليد المسيحي في النهضة الشمالية مختلفاً، فقد جرى إصلاح وترسيخ البروتستانتية protestantism. وقد توجهت البروتستانتية إلى الفرد بعينه، وحررت المؤمن من العبودية المطلقة للكنيسة، وفي الوقت نفسه أعلنت النجاح في العمل بوصفه دليلاً على أن الإنسان اختاره الله للخلاص.

النهضة هي عصر التطور السريع للعلوم الطبيعية، فقد أظهرت الاكتشافات الجغرافية العظيمة أن الكون هو أكبر بكثير وأكثر ثراءً مما صور لإنسان القرون. في القرن السادس عشر اكتشف جيرولامو فراكاستورو Fracastoro Girolamo أسباب الأمراض المعدية، كما اكتشفت قوانين الدورة الدموية (ميغيل سيرفيت Servet Miguel، وأندريا تشيزالبينو Cesalpino Andrea). والدور الهام في تطور العلوم لعبته دراسات أندرياس فيساليوس Andreas Vesalius التشريحية. والاكتشاف العلمي الهام لعصر النهضة هو علم الكون الجديد للعالم الفلكي البولندي نيكولاس كوبرنيكوس Nicolaus Copernicus، ففي كتابه «حول

دوران القبة السماوية De revolutionibus orbium coelestium « أوجز أساس صورة الكون على مركزية الشمس، التي بموجبها تدور الأرض والكواكب الأخرى حول الشمس(1).

يشير ألكساندر حايموفيتش غورفونكيل Alexandr Hayimovich Gorfunkel إلى أنه لا ينبغي تقييم تطور العلوم في عصر النهضة من مواقف معاصرة، فقد استند مفكرو تلك الفترة على ملاحظاتهم الشخصية، وعلى الآراء الموثوقة لمعاصريهم، وآراء فلاسفة الماضي، كما راجت في ذلك السياق الحكايات الشعبية، ولم يكن هنالك معيار مطور للحقيقة. وأبدى مفكرو عصر النهضة اهتماماً كبيراً «بالسحر الطبيعي». ويعتقد بعض المؤلفين أن الذي أمامنا هو مجرد بقايا الفكر الدراسي (السوكلاستية Scholasticism) للقرون الوسطى. لكن غورفونكيل شدد على أن هذا هو مكون هام لعقيدة فلاسفة عصر النهضة.

من المتعارف عليه تقسيم عصر النهضة إلى الفترات التالية:

النهضة الأولى (Proto–Renaissance):

أ) المائتان (دوتشينتو Ducento) (القرن الثاني عشر – القرن الثالث عشر)،

ب) الثلاثمائة (تريتشينتو Trecento) (القرن الثالث عشر–القرن الرابع عشر).

1. النهضة المبكرة The early Renaissance، الأربعمائة (كواتروتشينتو Quattrocento) (القرن الرابع عشر–القرن الخامس عشر).
2. النهضة العالية، الخمسمائة (تشينكويتشينتو Cinquecento) (القرن الخامس عشر–القرن السادس عشر).
3. وبهذا الشكل، تحصل كل فترة من الفترات على تسميتها وفقاً للقرن

(1) غورفونكيل أ. ف. فلسفة عصر النهضة. موسكو، 1980. ص 7–8.

الموافق لها[1].

يبرز غورفونكيل كذلك ثلاث فترات لفكر النهضة:

الإنسانية (المركزية البشرية).

1. الأفلاطونية الحديثة (دراسة قضايا علم الوجود).

2. الفلسفية الطبيعية.

تتجلى أهم سمات الفكر الفلسفي لعصر النهضة في طابعه الوجودي، في حين تتراجع العملية الإلهية لخلق الكون إلى الخلف. ويجري تطابق الله والكون، والله والطبيعة (وهو ما يسمى بوحدة الوجود). وهذا يعني أن ثنائية الكون تتلاشى. واستيعاب إنسان العصور الوسطى للعالم مبني على ثنائية من المبادئ المتعارضة:

1) المقدس والمدنس؛

2) الأبدي والخاضع للوقت؛

3) الله اللامنتهي والكون المحدود؛

4) الدنيوي الفاسد والسماوي غير الفاسد؛

5) العالم الدنيوي الثابت والسماوي المتحرك.

ويؤكد غورفونكيل على أن الكون الآن يبدو للإنسان موحداً[2].

مرت ثقافة عصر النهضة في تطورها عبر ثلاث مراحل:

1. يمكن وصف الأولى بأنها «اليقظة»، إذ تخلص الإنسان من القيود التي كانت كثيرة في العصور الوسطى، وهي أيضاً مفهوم السلم «الإقطاعي» الذي كان من المستحيل صعوده، والتبعية العبودية للفلاحين، والسلطة المطلقة تقريباً للكنيسة الكاثوليكية، وكذلك اعتماد الفلاحين على تغير

(1) انظر منهج علم الثقافة. روستوف نا دون، 1996. ص 183.

(2) غورفونكيل أ. ف. فلسفة عصر النهضة. موسكو، 1980. ص 344–345.

الفصول. والدور الذي لا يقل أهمية إلى جانب الأدوار الاقتصادية – الاجتماعية لعبته الأغلال الروحية التي كدستها الكنيسة الكاثوليكية على الإنسان، فقد علمت الفاتيكان أن كل الناس خطائين ويجب عليهم جميعاً إطاعة مشيئة الله، ما يعني في الممارسة العملية الخضوع للكنيسة.

عندما بدأت هذه القيود بالسقوط تدريجياً مع تطور العلاقات البرجوازية، بدأ الإنسان بطريقة مختلفة يقيم نفسه وموقعه في العالم: لم يعد «صنيعة» (ليس بالمعنى التحقيري الحديث لهذه الكلمة، وإنما بمعنى الشخص «المصنع»). الإنسان نفسه يصبح مبدعاً، وهذا لا ينطبق على عظماء الفنانين والشعراء والفلاسفة فقط، وإنما أيضاً على عامة الناس والحرفيين والتجار. وشعور الكبرياء واحترام الذات الذي كان يشعر به الحرفي في تصنيعه لمختلف المواد، رفع صاحبه في عينيه، وأجبره على التعامل بشكل مختلف مع نفسه ومع الآخرين.

2. بمقدار ما يدرك الإنسان قوته وحريته، يبدأ أكثر فأكثر بالشعور بنفسه وكأنه إله. ومن هنا جاء مفهوم «عملقة» عصر النهضة. وهذه هي كلمة أخرى تعيدنا إلى العصور القديمة. ولم يكتسب فنانو وفلاسفة عصر النهضة تسمية «عمالقة» فقط بسبب مساهمتهم في خزينة الثقافة العالمية (على الرغم من أن هذه المساهمة هي بالطبع ضخمة). الدور الرئيس في مفهوم «العملقة» يلعبه إدراك العالم لدى الإنسان الذي عرف نفسه «عملاقاً» (أي إلهاً تقريباً).

تتميز هذه الفترة بالتفاؤل والسذاجة اللذين عن طريقهما نظر العمالقة إلى أنفسهم ومستقبلهم. والمثال الكلاسيكي لهذا التفاؤل يمثله كتاب فرانسوا رابليه François Rabelais «جارجانتووا وبانتاجرويل Gargantua and

Pantagruel» حيث يطرح شعار: «افعل ما تريد»، دون أن يدرك مجمل بشاعة هذا الشعار. ولم يتبادر إلى ذهنه أن الإنسان قد يرغب بشيء سيئ. وفي الكتاب ثمة أمر آخر يبدو للوهلة الأولى تافهاً جداً، ولكن في الحقيقة هو ذو أهمية قصوى: كان هنالك خدم لدى أبطال المؤلفة الذين «فعلوا ما أرادوا». ومن هذا يمكننا القيام باستنتاجين بالغي الأهمية. الأول: عالم الحرية المطلقة المعبر عنه في شعار «افعل ما تريد» هو ليس ممكناً من دون كادر كبير من الموظفين. الثاني: لا يمكن أن تكون هذه المملكة للجميع، إنها لأناس مختارين، فمن الصعب تصديق أن الخدم عن طريق أدائهم للمسؤوليات الجسام، يفعلون ما يريدون. إلا أن عمالقة عصر النهضة لفترة طويلة لم يلاحظوا هذه التناقضات.

3. الإنسان ليس إلهاً، فهو ليس قادراً على كل شيء. ولا يأتي فهم ذلك فوراً، فإنسان النهضة المتحرر من أغلال القرون الوسطى تخيل نفسه أنه أصبح حراً تماماً، إلا أن السلاسل القديمة استبدلت بسلاسل جديدة، وتجسد ذلك بشكل أكثر وضوحاً في حركة الإصلاح Reformation movement، فبتحريرهم المؤمنين من قيود الكنيسة، فرض الإصلاحيون عليهم أغلالاً أكثر إيلاماً. على سبيل المثال، تم منع الضحك في إحدى المدن التي حكمها الإصلاحيون.

وجدت فكرة الإله غير المحبط تجسيدها الواضح في مآسي وليام شكسبير William Shakespeare، حيث يتحدث الكاتب المسرحي عن الناس الذين حققوا في حياتهم نجاحات كبيرة بفضل قواهم الشخصية، فيعرفنا على عطيل Othello الذي يحرز فوزين مرة واحدة: يتزوج من ديزديمونا Desdemona، ويحصل على ترقية في العمل. وليس عبثاً أن جعل شكسبير بطله أسوداً (موروس Moors)، إذ كان تحقيق الإنسان ذي البشرة الداكنة لمثل هذه النجاحات هو أصعب بكثير من الأبيض. «ليحيا ماكبث Macbeth!» هكذا

ترحب ببطل آخر ثلاث ساحرات، ويعددن انتصاراته السابقة.

مع ذلك، لم يصبح «العمالقة» في مآسي شكسبير آلهة، بل يتعرضون لهزيمة ساحقة. وقد يبدو أن عطيل كان ضحية «لقوى خارجية» – دسيسة من جانب ياغو Yago. إلا أننا إذا ما فكرنا يصبح جلياً أن العدو الرئيس لعطيل تمثل في نفسه وغيرته. هذا النقص هو امتداد لميزاته التي بفضلها استطاع الصعود إلى القمة. عند شكوكه في خيانة ديزديمونا له، يتصرف عطيل تماماً كما الجبار، كما الإله – هو نفسه يدير المحكمة ويصدر الحكم دون التفكير في العواقب. نعم، هكذا بإمكان الإله التصرف، لكن الإنسان ليس إلهاً، وإنما هو مجبر على مواجهة نتائج أعماله، بما في ذلك غضب الله.

«يحيا ماكبث، الملك القادم!»، هذا ما تقوله الساحرة لبطل مأساة أخرى. هل كذبت؟ لا على الإطلاق. لقد قاد المصير نفسه ماكبث ليصبح ملكاً. إلا أنه من أجل ذلك كان عليه أن يكتم عزته وينتظر حتى يرفعه الزمن إلى العرش. الاستسلام؟ الانتظار؟ مثل هذه المفاهيم غير موجودة بالنسبة للعمالقة. ماكبث يأخذ مصيره بيده ليصبح ملكاً بوساطة جريمة دموية. فهو يحاول أن يصبح خالق مستقبله، كالإله، إلا أنه الواقع يدمر نفسه.

توزع التركيز في مأساة «هاملت Hamlet» بشكل أعقد بكثير، فعطيل وماكبث، العملاقان اللذان تمكنا من بلوغ القمة، ولكنهما وقعا منها، أصبحا أقوى إلى أن تسحقهما وتدمرهما قدرتهما الشخصية. إنها مأساة العملقة. حالة هاملت أكثر صعوبة بكثير، لذلك، فهي تسمح لنا بتحليل ثقافة عصر النهضة على نحو أكمل. هاملت ليس بعملاق، وليس مزوداً بالسلطة. تبدأ المسرحية بظهور شبح والد هاملت. ومن الواضح أن هذا رمز، فقد سارت حياة البطل كاملة «في ظل والده»، لكنه، حتى وبعد وفاة الملك، لم يرث العرش.

حالة هاملت متناقضة، فمن ناحية أولى، هو أمير دنماركي، وواحد من أهم الأشخاص في البلد، ومن ناحية أخرى، هو عاجز تماماً. العجز هو ذلك الشيء الذي لا بد لهاملت من العيش معه، فهو لا يستطيع أن يغير شيئاً، والأمر الكريه بالنسبة له أن والدته تزوجت مباشرة بعد وفاة والده: «كان الاحتفال بارداً على طاولة الزفاف». ولكن ماذا يمكنه أن يفعل؟ لا شيء.

الدور الهام لعبته عبارة هاملت بشأن إدمان الكحول، «سيدعوننا بالسكيرين» التي قالها مستنكراً سلوك الدانماركيين على المائدة. تحمل هذه العبارة في المسرحية حملين دلاليين مرة واحدة. أولاً، كان على شكسبير منذ البداية عن طريق واحدة أو اثنتين من السمات الحادة وصف طبيعة هاملت، الرجل النبيل والنزيه. وثانياً، إن سعي هاملت للإدانة اللفظية المستمرة لكل ما هو حوله، ما هو إلا تعبير عن عجزه في ميدان الأفعال.

«أكون أو لا أكون؟»، السؤال المركزي للمأساة. هذه العصا التي يتكأ عليه عصر النهضة بأكمله. هل يمكن للإنسان أن يكون شخصاً، أم عملاقاً، أم مجرد إنسان؟ أم من الأسهل عليه الانحناء تحت ضربات القدر، والتخلي عن نفسه وحريته، وتقييد نفسه بسلاسل جديدة من الطاعة؟ ويظهر التاريخ أن الإنسان اختار الأخير، ففور تحررهم من قيود الكنيسة الكاثوليكية، وضع المؤمنون على أنفسهم تحت نير البروتستانتية. اختفت القنانة في بلدان أوروبا المتقدمة، ولكن سرعان ما حل مكانها اعتماد العامل المأجور على رب العمل. وهكذا لم يكن بمقدور الإنسان أن يصبح إلهاً.

الصورة الأخيرة التي تصور لنا فن عصر النهضة هي دون كيخوت Don Quixote التي صاغها الكاتب الأسباني ميغيل دي سيرفانتس سافيدرا Miguel de Cervantes Saavedra. يميل دون كيشوت إلى التصّرف مثل فرسان روايات العصور الوسطى، ولكن في كل خطوة ينتظره الفشل والسخرية، ويموت

في نهاية الكتاب. لا يسخر سيرفانتيس في صورة دون كيشوت من روايات الفرسان، بمقدار ما يغني قداس الموتى «لعملقة» «عصر النهضة. يحاول دون كيشوت أن يصبح عملاقاً، لكنه غير قادر على ذلك، كما هي حال أي إنسان في الواقع. محطم، مدعاة للسخرية، ضحية لهزيمة كاملة - هكذا يبدو لنا «الإنسان - العملاق» في أواخر عصر النهضة.

لنذكر الممثلين الرئيسيين لفنون تلك الفترة: الكتاب والشعراء دانتي أليغييري Dante Alighieri، وفرانشيسكو بتراركا Francesco Petrarca، جيوفاني بوكاتشيو Giovanni Boccaccio، لورنزو فالا Lorenzo Valla، جيوفاني بيكو ديلا ميراندول Giovanni Pico della Mirandol؛ النحاتون والرسامون والمهندسون المعماريون جيوتو دي بوندوني Giotto di Bondone، فيليبو برونيليسكي (Brunellesco Filippo Brunelleschi)، مازاتشو Masaccio (توماس ودي سير جيوفياني دي سيموني جيودي كاساي Tommaso di Ser Giovanni di Simone Guidi Cassai)، ساندرو بوتيشيلي Sandro Botticelli (أليساندرو دي ماريان ودي فاني فيليبيبي Alessandro di Mariano di Vanni Filipepi)، ليوناردو دي سير بيرو دا فنشي Leonardo di ser Piero da Vinci، ميكلانجيلو دي فرانشيسكو دي نيري دي مينياتو ديل سيرا إي مودوفيكو دي ليوناردو دي بوناروتي سيموني Michelangelo di Francesci di Neri di Miniato del Sera i Lodovico di Leonardo di Buonarroti Simoni، جورجيو بارباريلي دا كاستيلفرانكو Giorgio Barbarelli da Castelfranco، جورجيوني Giorgione، تيتيان Titian (تيتسيانو فيتشيليو Tiziano Vecellio)، رافائيل سانتي Raffaello Santi. ومن الفلاسفة والعلماء نذكر كلاً من نيكولاس كوزا Nicholas of Cusa، نيكولاس كوبرنيكوس، توماس مور Thomas More، ايراسموس روتيرداموس Erasmus Roterodamus، نيكولو مكيافيلي

Niccolò Machiavelli، بيترو بومبنازي Pietro Pomponazzi، جوليو سيزار فانيني Giulio Cesare Vanini (لوتشيليو فانيني Lucilio Vanini)، بيير أنجيلو مانزوللي Pier Angelo Manzolli، ميشيل دي مونتين Michel de Montaigne، برناردينو تيليزيو Bernardino Telesio، فرانشيسكو باتريزي Francesco Patrizi ، جيوردانو برونو Giordano Bruno، توماسو كامبانيلا Tommaso Campanella، ياكوب بويهمه Jacob Boehme. كذلك ينسب إلى عصر النهضة أحياناً مفكرون مثل غاليليو غاليلي، وجيامباتيستا فيكو Giambattista Vico. وبطبيعة الحال، فإن هذه القائمة ليست كاملة تماماً.

من الجدير بالذكر أنه لم تكن هنالك حدود واضحة بين الكتّاب والفلاسفة. وما يميز شخصيات عصر النهضة عموماً هو التنوع، ومن هنا جاءت العبارة المعاصرة «إنسان عصر النهضة»، أي متنوع التطور. على سبيل المثال، وضع كل من لورنزو فالا وجيوفاني بيكو ديلا ميراندول مبادئ علم الأخلاق الذي تمثلت مادته في الإنسان والعالم الذي يعيش فيه.

يعتبر دانتي أليغيري الشاعر الأول لعصر النهضة، ولم يكتب مؤلفاته باللاتينية، كما كانت تجري عليه العادة في العصور الوسطى، وإنما بالإيطالية. وفي دراسته «حول اللغة العامية De vulgari eloquio» يبرهن الشاعر قيمة اللغة العامية لإيطاليا. وتتمثل مؤلفته الرئيسية في ملحمة «الكوميديا الإلهية Divina Commedia» التي تلعب فيها أفكار الإنسانية الدور الرئيس. وتتناول الملحمة قضايا الفلسفة واللاهوت والعلم، وهذا ما يميز أعمال دانتي الأخرى أيضاً.

لم يجادل دانتي المذاهب المسيحية معتبراً الطبيعة «فعل العقل الإلهي»، وفي الوقت نفسه يعرب عن اعتقاده بأن سعادة الإنسان هي ممكنة ليس في العالم الإلهي فقط، وإنما أيضاً في الحياة على الأرض. وعلى الرغم من إرادة الله فالإنسان حر في أعماله، ويتحمل المسؤولية الأخلاقية عن عواقبها. وشكلت

مفاهيم الأغراض السماوية والدنيوية لوجود الإنسان فكرة دانتي حول النظام السياسي – الملكية العلمانية العالمية المستقلة عن الكنيسة.

يرتبط تشكل مبدأ الإنسانية، لب فن عصر النهضة وفلسفته، مع اسم الشاعر الإيطالي فرانشيسكو بتراركا الذي وفي تعريفه لله كهدف لوجود الإنسان، شدد في الوقت نفسه على أهمية العالم الداخلي للإنسان، والقيم التي يعترف بها، والأهداف التي يختارها. ولا ينبغي للحياة الدنيوية أن تصبح ذلك القربان الذي يقدمه الإنسان من أجل مملكة ما بعد الموت. النعم الدنيوية والشهرة والحب هي طبيعية بالنسبة للفرد، علاوة على ذلك تصبح الشؤون الدنيوية للإنسان واجباً.

يعود تشكل وتطور الإنسانية كعقيدة من نوع جديد إلى الفترة الممتدة من منتصف القرن الرابع عشر حتى منتصف القرن الخامس عشر، إذ انتشرت الثقافة الإنسانية عن طريق الفلاسفة والشعراء والناشرين والدبلوماسيين، وبجدالهم حول لغة الفلسفة، رأى الإنسانيون أن من الضروري جعلها مفهومة لأوسع نطاق ممكن من الجمهور.

في دراسته «حول كرامة وتفوق الإنسان On the Dignity and Excellence of Man»»، يتحدث الإنساني جيانوتسو مانيتي Giannozzo Manetti عن جمال خلق الله – الإنسان ليس في مظهره بمقدار ما هو في داخله الذي يتمثل في كل من العقل، والكرامة، الذي يتجسد في الاختراعات والعلوم والفنون. وهو معجب بكل من المعماري فيليبو برونليسكي Philippo Brunelleschi الذي بنى قبة كاتدرائية فلورنسا دون استخدام الهيكل، الإطار، ولورنزو غيبيرتي Lorenzo Ghiberti الذي اشتهر بالبوابات التي أنشأها لمعمودية فلورنسا. يكمل البشر الكون الذي يخلقه الله.

الألماني المولد نيكولاس كوزا هو واحد من ألمع علماء أوروبا القرن الخامس

عشر. ووفقاً له يحتوي الله في نفسه على الكون بأكمله. ويعبر هذا العالم عن اعتقاده حول حركة الأرض، وعدم صحة المحيطات التي تتحرك ضمنها الأجرام السماوية، ويؤكد أن أسمى مخلوقات الله هي الطبيعة البشرية. ويعتقد أن العقل يقود الإنسان إلى الطريق التي تقربه إلى الله. وباعتباره رجل سياسة ودين، عارض نيكولاس كوزا التعصب الديني. ولاعتقاده أن العالم الذي خلقه الله بمساعدة العلوم الرياضية، رأى بأن ترييض mathematization المعارف من شأنه أن يساعد على كشف الحقيقة في الفلسفة أيضاً. واعتبر ذلك الخطوة الأولى لتكوين منهجية جديدة لدراسة الكون مقابل القائمة بالفعل والمقطوعة عن البحوث الحقيقية.

لا يرفض الفيلسوق الفلورنسي مارسيليو فيتشينو Marsilio Ficino فرضية خلق الله للكون، إلا أنه لا يعير اهتماماً كبيراً لهذه المسألة. ويمثل الله له سبباً عاماً، وهو موجود في كل مكان. ويتمثل المفهوم الأساسي لفلسفة فيتشينو في الروح التي تحدد وحدة الوجود. وبتأكيده على خلود الروح، يستشهد الفيلسوف بالأهمية الخاصة للإنسان في الكون – كأنه ينفذ مشيئة الله. الإنسان حر، ولا ينبغي أن يكون عبداً. وكان فيتشينو غريباً على التعصب الديني، ودعا إلى التسامح الديني.

يعتقد جيوفاني بيكو ديلا ميراندول أن الإنسان لا يشغل مكاناً محدداً في التسلسل الهرمي الكوني، وأن كل ما حدث حدث بمشيئة الله. يحدد الإنسان مكانه بنفسه عن طريق الاختيار الحر الذي يتحمل هو المسؤولية عنه. لا يمنح الإنسان الكمال في الأصل، ويمكنه اكتسابه في سياق عملية التحسين الواعي.

شكلت تعاليم الفلاسفة حول جمال الكون والإنسان وحريته الأساس لتشكل مبادئ فنون القرنين الرابع عشر والخامس عشر والفترة اللاحقة. على تخوم القرنين الخامس عشر والسادس عشر انتشرت الأفكار الإنسانية لعصر

النهضة إلى خارج حدود إيطاليا.

يعتبر ايراسموس روتيرداموس أحد أبرز ممثلي النزعة الإنسانية لعصر النهضة، فقد أثارت أعماله انتقادات كل من الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانت على حد سواء، إذ يتوجه إلى أعمال آباء الكنيسة، ويدعو للعودة إلى المسيحية الرسولية المبكرة، ووفقاً له تسعى الكاثوليكية إلى الثراء، والرهبان يتسكعون، والعبادات جليلة، إلا أن الإيمان الحقيقي في مَثل المسيح وراء هذه الطقوس غائب. دعمت الكنيسة وبكل سرور الحروب الظالمة والأعمال الوحشية لمحاكم التفتيش. ويرى ايراسموس الإنسان والكون رائعين، ويدين الزهد لأن على الإنسان النظر مع الشكر إلى أعمال الله. طبيعة الله مجهولة، لذلك ما يجب على المرء فعله هو أن يحب الله، وأن يفي بمتطلبات المعايير الأخلاقية فيما يخص الآخرين.

الإنساني الإنجليزي توماس مور هو أحد مؤسسي الشيوعية الطوباوية Utopian ccommunism. في قصيدته «The Coronation Suite» في يوم تتويج هنري الثامن Henry VIII يرسم مور صورة العاهل المستنير. وبرفضه لشرعية قيادة الملك للكنيسة، لا يعترف «بقانون السيادة العليا Act of Supremacy» (الوثيقة التي كرست هذا التحول في السلطة)، الذي أعدم بسببه. وبدفاعه عن موقف الإنسانية في النضال ضد السلطة الاستبدادية، أثبت توماس مور عن طريق حياته الخاصة قوة الفكر الإنساني لعصر النهضة.

في كتابه «يوتوبيا Utopia» يحاول مور التبرير النظري للنظام العادل للمجتمع، وذلك بمقابلته بالقائم، وفقره، وعدم شرعية الأغلبية الساحقة من الناس. ويعتقد أن «صحة» الشؤون الحكومية مستحيلة في ظل وجود ملكية خاصة في المجتمع. وباعترافه بالله خالقاً للطبيعة الرائعة، واعتباره أن الهدف من وجود الإنسان هو السعادة، يرى الفيلسوف أن هذه السعادة تكمن في

معرفة الآخرة، وفي الحصول على المتعة من الحياة التي تقضى وفقاً لمقتضيات الأخلاق.

على تخوم القرنين الخامس عشر والسادس عشر واجهت النزعة الإنسانية الإيطالية ظواهر تمثل عواقب فشل الوحدة في البلاد وعدم وجود قوة قادرة على إنشاء نظام ملكي يوحد الأمة. وإلى هذه الفترة ينتمي إبداع المؤرخ والكاتب والشاعر نيكولو مكيافيلي الذي ألف كوميديا «ماندراغولا Mandragola»، وحوار حول «فن الحرب The Art of War»، حيث يتحدث عن الحاجة إلى بناء جيش وطني. والمؤلفات الرئيسية لمكيافيلي هي «الأمير Il Principe» و«مقالات في العشرة كتب الأولى لتيتوس ليفيوس Discourses on the First Ten Books of Titus Livius». ويماثل مكيافيلي الله مع المصير والضرورة التي تحت تأثيرها يجري تشكيل الدول وتطورها وسقوطها. ويمكن للإنسان فهم المصير والتغلب عليه إذا كان لديه الإرادة والحزم والتفاني لتحقيق النجاح، ويجب أن لا تكون هذه الصفات خاضعة لمقتضيات الدين والأخلاق. وانطلاقاً من المبادئ الإنسانية للفائدة يتم تقييم الأخلاق والدين الذي ينظر إليه على أنه منتج للحياة الاجتماعية، مدعو لتوحيد الدولة والشعب، وتربية الأخير على الشجاعة والسعي إلى البسالة. وتتراجع متطلبات الأخلاق أمام ضرورة إنقاذ الوطن.

اعترف الفيلسوف والأستاذ الجامعي بيترو بومبنازي بحقيقة نتيجة النشاط المعرفي للعقل. وفي بحثه «حول خلود الروح On the Immortality of the Soul» يؤكد على أنه طالما أن الروح لا يمكن فصلها عن الجسم، فهي هالكة. والإثبات العقلاني لخلاف ذلك هو مستحيل. إذا كانت الروح لا تواصل العيش بعد موت الإنسان، فإنه لا يضمن احترام القواعد الأخلاقية بخوف روح الآثم قبل الموت. ويجب أن يحدد الفيلسوف معنى الحياة دون الاعتقاد

في الوجود المستقبلي. ويعرف هذا الهدف على أنه نعمة البشرية جمعاء، التي تتحقق عند استخدام الإنسان لعقله في معرفة العالم، وتطوير القدرة على فصل الخير عن الشر، وفي الحياة النشطة. تكمن الجائزة في احترام القوانين الأخلاقية، أما العقوبة فهي في الإثم. ولا تحدد حرية الإنسان بالضرورة الخارجية فقط، وإنما بجوهره الداخلي أيضاً الذي فيه الخير والشر موجودان جنباً إلى جنب، واتباع هذا أو ذاك تحدده مسؤولية الإنسان. ويماثل بومبنازي الله أيضاً مع الطبيعة، ومع القدر. إنها بداية الحياة التي لا تؤثر على أي شيء. ويعترف بحقيقة اضطهاد الفقراء، لكنه يعتبر ذلك ضرورياً من وجهة نظر منفعة الدولة، مثل ضرورة الدين بالنسبة لطبقات الشعب الدنيا التي لا تستطيع بدون الخوف من عقاب الآخرة أن تمتثل الأخلاق.

لا يعتبر كتاب المفكر الفرنسي ميشيل دي مونتين «التجارب The experiences» عملاً علمياً بالمعنى الدقيق للكلمة، وإنما مجرد تأملات حول الحياة، ولم يقم بكتابة هذا الكتاب باللغة اللاتينية وفقاً لما تقتضيه تقاليد القرون الوسطى، وإنما بالفرنسية. ويؤكد المؤلف أنه يجب على الفلسفة أن تتناول الإنسان وحياته. وتخضع شكوكية مونتين للفحص كل ما يؤخذ على أنه إيمان، فهو يدرك تعذر الدين بمساعدة العقل – وسيلة الإنسان الوحيدة للمعرفة. إلا أن هذا لا يمثل رفضاً للمعرفة، وإنما هو دعوة إليها. بعد ذلك ونتيجة لهذه الأفكار يبتعد رينيه ديكارت «بشكوكه التطرفية». ووفقاً لمونتين تتمثل بداية عملية الإدراك في الإحساس المعرض أيضاً للشكوك طالما أن موضوع وهدف الإدراك متغيران. وهكذا، تبدو المعرفة عملية مستمرة، لأن الكون لا منته، ولا منته أيضاً سعي العقل المدرك إلى المعارف الأكثر عمقاً.

لا يتفق مونتين مع حقيقة أن الإنسان هو مركز الطبيعة، فالإنسان ما هو إلا ذلك الجزء من الطبيعة الذي ينبغي أن تصبح معرفته جوهر كرامة وحرية

الإنسان. وبرأي مونتين لا يوجد لدى الله ملامح مجسمة، وهو غير مبال تجاه اهتمامات الإنسان، ويتماثل مع البداية الطبيعية والضرورة الطبيعية. ويعتبر الأديان منتج المجتمع الهادف إلى فائدته. ومع ذلك فإن قلة فقط هي القادرة على اتباع عقلها، في الوقت الذي يكون فيه الجزء الأكبر من الناس في حاجة إلى الدين. المثل الأخلاقي لمونتين هو الفضيلة التي ينبغي التفكير فيها باعتبارها «رائعة، ومنتصرة، ومحبة، ولطيفة، ولكنها... وتشعر بالكراهية العنيدة للغضب والاشمئزاز والخوف والظلم»(1). ووفقاً للفيلسوف فإن مغزى الحياة يكمن في الحياة نفسها التي نعيشها بجدارة.

في النصف الثاني من القرن السابع عشر وأوائل القرن السادس عشر ظهرت الفلسفة الطبيعية التي يعتبر مؤسسها برناردينو تيليزيو الذي يحمل عمله الرئيسي عنوان «في طبيعة الأشياء وفقاً لمبادئها On the Nature of Things according to their Own Principles». وفيه يتحفظ المؤلف وبشكل مقصود على استحالة إدراك الله بالعقل، لأن مضمون الكتاب لا يتناول هذه القضية. لقد خلق الله الكون بشكل لا يحتاج فيه إلى التدخل الإلهي في المستقبل. الطبيعة موجودة وفقاً لقوانينها الخاصة، والإنسان يمتلك روحاً مادية متحدة مع جسده. وبالإضافة إلى ذلك، هناك روح ثانية خلقها الله، وهي خالدة.

فرانشيسكو باتريزي ممثل لاتجاه آخر في الفلسفة الطبيعية، ويتحدث مؤلفه الرئيس «الفلسفة الجديدة للكون New Philosophy of Universes» عن أن سبب ظهور الأشياء هو الحرارة المتولدة (كما الضوء العادي) من النور الإلهي. المادة، كالضوء والحرارة، هي في حركة مستمرة. ويعتبر مفهوم «التدفق» الذي أدخله باتريزي واحداً من المبادئ الطبيعية الأربعة، والرئيس منها هو الفضاء الذي لا يحتاج لوجوده إلى أي شيء. وفي مؤلفه الذي لم يكتمل «فلسفة الحب

(1) م. مونتين، التجارب في ثلاثة مجلدات. موسكو، لينينغراد، 1957—1960. المجلد الأول. ص 206.

The Philosophy of Love») يسلط باتريزي الضوء على القضايا الأخلاقية، فالكائنات الحية والمواد الجامدة تتميز بحب الذات الذي يمثل الأساس لحب الشخص الآخر. ويولد حب الذات عند الإنسان محبة الله. والكون الذي خلقه الله ليس بسبب حبه للخلق، وإنما من حبه لذاته.

طور جيوردانو برونو نظرية نيكولاس كوبرنيكوس. وأعرب عن اعتقاده بأن الكون لا نهاية له، وعدد العوالم فيه لا حصر له. ولا يمكن للكون أن يقسم إلى عالم عادي وآخر سماوي، فهو متجانس. وتتحرك الأجرام السماوية نتيجة لأسباب طبيعية من دون الحاجة لفعل من الخارج. وفي أبدية الكون نفسه تتعرض العوالم المكونة له إلى التدمير. الله هو متطابق تماماً مع الكون، فلا يمكن وجوده خارج عالم الأشياء.

عرَّف برونو المعرفة على أنها مجموعة ملاحظات الظواهر والتغلغل بمساعدة العقل إلى جوهرها، ونفى خلود الروح مشيراً إلى أنه يجب على الإنسان بعد إدراكه لعدم وجود عالم آخر الاستمتاع بالحياة، والعمل والتصرف من أجل الحاضر.

تصور برونو المجتمع بدون سلطة الكنيسة التي يجب أن يحل محلها قانون مشترك للجميع. يكدح أعضاء المجتمع لتطوير الصناعة وحفظ السلام في الدولة. واعتبر عدم المساواة الاجتماعية غير شرعي، مثله مثل وجود الملكية الخاصة. وإلى المؤلفات الرئيسية للمفكر تنتمي كل من: «عن السبب والمبدأ والوحدة On Cause، Principle and Unity»، و«في لانهائية الكون والعوالم On the Infinite Universe and Worlds»، «في الحماس البطولي». وبسبب أفكاره أحرق برونو في الموقد.

قضى الكاتب والفلكي والصوفي توماسو كامبانيلا 27 سنة في السجن حيث زج به لمشاركته في التحضير لانتفاضة التحرر – الوطنية في كالابريا.

المؤلفة الرئيسة لكامبانيلا هي المدينة الفاضلة «مدينة الشمس Sun city»، وفيها يصف النظام الاجتماعي المثالي من وجهة نظره، حيث تغيب الملكية الخاصة والظلم الاجتماعي. وتأميم كل شيء في المجتمع الذي صور له عكس مصالح الجماهير. وأعلن المفكر حرية العلم عن الدين، وافترض التجربة الحسية قاعدة لاستكشاف العالم. وبالنسبة لكامبانيلا فقد خلق الله الكون وحدد القوانين العامة لتطوره، ولكنه لا يتدخل في الحياة لاحقاً.

يتطور العالم في صراع بين النور والظلام، هذا وفقاً للتعاليم الصوفية لياكوب بويهمه الذي لم يهتم بمشكلات العلوم الطبيعية المعاصرة. وفي مركز فلسفته يقع الله المفهوم باطنياً.»... إذا لم تكن لدى برونو الطبيعة وحدها – هي «الله في الأشياء»، ولكن الله نفسه هو[1] أيضاً مماثل لقدرة الطبيعة الداخلية على التحرك، فإن لدى بويهمه ليس الله هو من يتشبع بعالم الطبيعة، وإنما الطبيعة هي التي تكمن في الله بوصفه الأعلى والأنشط. وبسبب وجهات النظر تعرض المفكر للاضطهاد من قبل البروتستانت.

في العمارة اتجه رجالات النهضة مرة أخرى إلى النظام الكلاسيكي للطراز المعماري الذي تشكل في اليونان القديمة، الذي يقتضي بنية معينة، واستخدام الأعمدة ذات التيجان، والركائز، والأفاريز، والكورنيش. وهيمن الأسلوب المهيب المكرس للحياة، كما تطور تشييد المباني العلمانية – القصور. وإلى عصر النهضة المبكرة ينتمي إبداع المعماري فيليبو برونليسكي الذي تجمع أعماله بين صرامة الخطوط وتمجيد مباهج الحياة. ومن بين أعماله قبة كنيسة سانتا ماريا دل فيوري Basilica di Santa Maria del Fiore في فلورنسا، وكنيسة باتسي Cappela die Pazzi، ومستشفى الأبرياء Hospital of the Innocents Ospedale degli Innocenti))، كما أعاد بناء كنيستي سان لورنزو San Lorenzo وسان

(1) غورفونكيل أ. ف. فلسفة عصر النهضة. موسكو، 1980. ص 339.

سبيريتو Santo Spirito.

تتميز أعمال مايكل انجيلو بالدرامية والعظمة، فبطله هو الإنسان – العملاق الذي يجسد أفكار عملقة عصر النهضة. وتشمل إبداعاته المبكرة نقش «السيدة العذراء والدرج Madonna of the Stairs»، وتمثالي «داوود David» و«موسى Moses»، ولوحتي «العبد المقيد The Rebellious Slave» و«العبد المحتضر The Dying Slave». ولا تتجلى موهبة الفنان في فن النحت فحسب، وإنما في الرسم أيضاً (مادونا دونيني Madonna Donini، ولوحة سقف الكنيسة السيستينة Sistine Chapel في روما). وتمتاز هذه الفترة من إبداعه برثاء البطل، وتمجيد الكفاح.

ترتبط أعمال مايكل انجلو ارتباطاً وثيقاً بالأحداث الاجتماعية المعاصرة له، فعندما فقدت فلورنسا حريتها السياسية، وحلت ردة الفعل الإقطاعية – الكاثوليكية، بدأت تصدح في أعمال الفنان نوتات موسيقية جديدة: تماثيل كنيسة ميديتشي de› Medici (كنيسة سان لورينزو في فلورنسا)، والتمثال النصفي لبروتوس Brutus، ومجموعة «النزول من الصلب Descent from the Cross » (كاتدرائية فلورنسا)، واللوحة الجصية «يوم القيامة Last Judgment» (الكنيسة السيستينية). هناك وجه آخر من وجوه إبداع مايكل أنجلو يتجلى في العمارة. وتحمل ملامح موهبته مكتبة لاورينتيان Laurentian Library في فلورنسا، كاتدرائية القديس بطرس St. Peter›s Basilica وساحة كابيتول Capitol في روما.

يعتبر ليوناردو دافنشي أحد الشخصيات الأكثر تنوعاً في عصر النهضة، فقد كان فناناً رائعاً: «توقير ماغي Adoration of the Magi»، «السيدة بينوس The Benois Madonna» («السيدة وطفل مع الزهور Madonna and Child with Flowers»، و«السيدة ليتا Madonna Litta»، «العشاء الأخير Last Supper»

(دير سانتا ماريا ديلي غراتسي Santa Maria delle Grazie قرب ميلانو)، «عذراء الصخور Virgin of the Rocks»، «موناليزا Mona Lisa» («جويكندا Gioconda»). عمل ليوناردو ببطء شديد، ويصف فاساري الحالة التي لم يستطع فيها دافنشي لفترة طويلة استكمال صورة المسيح ويهوذا لأنه لم يتمكن من إيجاد الملامح المناسبة. وفي نهاية المطاف بقيت صورة المسيح بدون وجه، إذ لم يتمكن دافنشي من اختيار مظهر لابن الله.

كان دافنشي أيضاً عالماً وفيلسوفاً كبيراً استبقت الكثير من أفكاره زمنه بكثير، فقد كتب عن أنه يجب أن تمثل التجربة والرياضيات أساس البحث العلمي. خلق ليوناردو سلسلة من الاختراعات الرائعة في مختلف الميادين – من الهندسة الهيدروليكية إلى الشؤون العسكرية، كما وضع تصوراً للمظلة، وحاول تصميم أجهزة الطيران. ولافتقاره إلى ما يكفي من نظام التفكير المنهجي، لم يترك ليوناردو دراسات مفصلة. ومع ذلك، على أساس مخططاته ورسوماته تطورت لاحقاً مجموعة من الكتب: «بحث في الرسم A Treatise on Painting»، «في تحليق الطيور Codex on the Flight of Birds»، «في علم التشريح On anatomy».

ينحدر جيوفاني بلليني Giovanni Bellini من عائلة من الفنانين الموهوبين، ويعتبر هو على وجه التحديد من يقف عند منابع فن عصر النهضة العالية في فينيسيا («السيدة ألبيريتي Madonna degli Alberetti»، و«صورة الدوج ليوناردو لوريدان Portrait of Doge Leonardo Loredan»).

جمع بينفينوتو تشيلليني Benvenuto Cellini مواهب النحات والكاتب والعالم، فقد أبدع العديد من التماثيل («بريسيوس ورأس ميدوسا Perseus with the Head of Medusa»)، والتماثيل النصفية، والنقوش، والميداليات، والأعمال الزخرفية. وإلى ريشته تنتمي أبحاث عدة في النحت والمجوهرات،

وسيرة ذاتية وضاءة.

يعتبر تيتان (تيتسيانو فيتشيليو)، تلميذ جيوفاني بلليني، الرسام الأكثر براعة في فينيسيا عصر النهضة. والتأثير الكبير عليه تركه أيضاً إبداع جورجيوني. ويتميز إبداع تيتان بالتفاؤل والقوة المفعمة بالحيوية، وإلى الفترة المبكرة عنده تنتمي لوحة «الحب المقدس والحب المدنس Sacred and Profane Love («فينوس والعروس Venus and the Bride»)». فيما بعد اكتسب إبداع تيتان رثاء البطل («مادونا بيسارو The Pesaro Madonna (The Madonna di Ca› Pesaro»)، «بولس الثالث مع أوتافيو والكاردينال فارنيزي Pope Paul III and His Grandsons Ottavio and Cardinal Alessandro Farnese»، «شارل الخامس Charles V»). وتميز الشعرية والشهوانية العديد من أعماله، مثل «داناي Danaé»، و«الحورية والراعي Shepherd and Nymph». ولم يتمكن تيتيان من الاستجابة لظهور ردة الفعل الإقطاعية، ومثله في ذلك مثل مايكل انجلو، فظهرت أعماله التراجيدية: «القديس سيباستيان San Sebastián»، و«رثاء المسيح Lamentation of Christ».

في الفترة المبكرة من إبداعه وقع رافاييل سانتي، تلميذ بيترو بيروجينو Pietro Perugino، تحت تأثير معلمه («عذراء كونيستابيليه Conestabile Madonna»). وإلى فترته الفلورنسية تنتمي مجموعة من الأعمال، منها «القديس جرجس Saint George»، و«سيدة جراندوقا (الدوق الأكبر) Madonna del Granduca»، في حين شملت فترته الرومانية كلاً من رسوم قاعات الفاتيكان، وفيلا فارنيسينا Villa Farnesina، وصور البابا يوليوس الثاني Pope Julius II وبلدسر كاستيغليون Baldassare Castiglione، و«عذراء السيستين Sistine Madonna». كان سانتي مهندساً معمارياً أيضاً، وشارك في إنشاء كنيسة القديس بطرس في روما.

ينتمي إبداع جورجيوني إلى عصر النهضة العليا، ومن أهم أعماله: «جوديث Judith»، و«العاصفة The Tempest»، و«فينوس النائمة Sleeping Venus»، و«اللحن الريفي Pastoral Concert».

يعتبر مازاتشو مؤسس المدرسة الواقعية في فن الرسم في فلورنسا. وأهم أعماله هي جدارية كنيسة برانكاتشي Brancacci Chapel (كنيسة سانتا ماريا ديل كارمين Santa Maria del Carmine، فلورنسا).

كان ألبرشت دورر Albrecht Dürer أعظم فناني النهضة الشمالية، وتحمل أعماله المبكرة آثار الطراز القوطي. وأبدع دورر لوحات حية («آدم وحواء Adam and Eve»، و«الرسل الأربعة The Four Apostles»)، فضلاً عن النقوش الرائعة («الفارس والموت والشيطان Knight، Death and the Devil»، و«رقصة الفلاحين Dancing Peasants»، و«القديس جيروم في قاعة دراسته Saint Jerome in His Study»، و«الكآبة Melancholia»). ويقال أنه عندما طلب من دورر ذات مرة رسم شيء مرتجل، رسم بيده دائرة صحيحة تماماً، ثم وضع نقطة وسطها تحديداً، وهذا ما أثبته الفرجار فيما بعد.

جمع هيرونيموس بوش Hieronymus Bosch (جيروم أنثونيسون فان أكين Jeroen Anthoniszoon van Aken) في أعماله صوراً رائعة مستوحاة من الفن الشعبي، وصوراً واقعية لأشخاص ومناظر طبيعية («إغواء القديس أنطوني The temptation of St. Anthony»، و«جنة المتع الأرضية The Garden of Earthly Delights (The Haywain Triptych)»، و«الساحر The Conjurer»). ولعب الهزل دوراً كبيراً في إبداعه.

كان لوكاس كراناك الأب Lucas Cranach the Elder رساماً ونقاشاً («الهرب إلى مصر Rest on the Flight to Egypt»، وصورتا جوهانز كوسبينيان Johannes Cuspinian وجوهانز شيونير Johannes Schöner). وتمثل لوحة

«صلب المسيح Crucifixion of Jesus» ذروة إبداعه الذي أصبح أقل إثارة للاهتمام في فترته الأخيرة.

أولى ماتياس نيتهاردت Neithardt Matthias (غرودهاردت Gothart)، والمعروف أيضاً باسم ماتياس غرونيفالت Matthias Grünewald، اهتماماً خاصاً بالمواضيع الخيالية والباطنية، مثله في ذلك مثل هيرونيموس بوش، إلا أن النزعة الاجتماعية بقيت الرئيسة في إبداعه. شارك في حرب الفلاحين، وعن طريق تصويره للمسيح مصلوباً، لم يتوجه الفنان إلى موضوع من الكتاب المقدس إلا شكلياً، ففي الواقع صور أبطال تلك الحرب. ويتمثل عمله الرئيس في المذبح Isenheim Altarpiece حيث تمكن فيه مشاهدة العذراء مع طفلها وصلب السيد المسيح وصعوده، والقديس سيباستيان.

يعتبر ممثلو مدرسة الدانوب للرسم (ألبرشت آلتدوفر Albrecht Altdorfer، لوكاس كراناك، وولف هوبير Wolf Huber، هانز سيبالد لاوتنزاك Hans Sebald Lautensack) مؤسسي فن رسم المناظر الطبيعية في أوروبا، فقد أعربوا عن اعتقادهم أن الطبيعة نفسها تمتلك الشعر.

رئيس المدرسة، ألبريشت آلتدوفر، معروف أيضاً كصاحب لوحات ذات مواضيع من الكتاب المقدس وتاريخية. وتمثل لوحة «معركة ألكسندر وداريوس The Battle of Alexander at Issus» واحدة من أكثرها شهرة.

كان هانز هولباين الإبن Hans Holbein the Younger مصور أشخاص (رسام بورتريه) ونقاشاً، فقد أبدع صوراً لأبرز شخصيات عصر النهضة، مثل توماس مور، وايراسموس روتيرداموس، وهنري الثامن، وموريتو Moretto وغيرهم من مشاهير عصره. كما قام هولباين بإنشاء رسوم توضيحية للكتاب المقدس، وكذلك كتاب ايراسموس روتيرداموس «مديح الحمق The Praise of Folly»، وسلسلة النقوش «رقصة الموت Dance of Death».

على الرغم من عدم إثارة العمارة والنحت في النهضة الشمالية الكثير من الاهتمام، إلا أنه تجدر الإشارة إلى المعالم الثقافية مثل الكاتدرائيات في كولونيا Cologne وأولم Ulm. وفي المقابل ازدهرت الموسيقى بشكل كبير، ويلاحظ الباحثون أن العوامل الهامة لهذا الازدهار تمثلت في حرب الفلاحين (الأغاني الشعبية) والإصلاح (جوقة الكنيسة). ومن بين موسيقيي النهضة الشمالية ينبغي ذكر كل من كونارد باومان Conrad Pauman، وهوفمان Hoffmann، وهنريش إسحاق Heinrich Isaac، وأورلاندو دي لاسو Orlande de Lassus. ويعتبر هاينريش شوتز Heinrich Schütz الشخصية الأبرز في موسيقى تلك الفترة، وهو مؤلف الأوبرا الألمانية الأولى («دافنه Dafne»)، والباليه الألمانية الأولى («أورفيوس ويوريديس Orpheus and Eurydice»).

وضعت حرب الثلاثين عاماً حداً لعصر النهضة الشمالية، إلا أن انجازاته أثرت وبشكل كبير في ثقافة شمال أوروبا والعالم بأسره.

الفصل الثالث عشر

ثقافة الأزمنة الحديثة

من المتعارف عليه دمج الثقافة الأوروبية في الفترة ما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر بمفهوم عام هو ثقافة الزمن الحديث، التي تتميز بتشكل وتطور النمط الرأسمالي للإنتاج.

بالنسبة لبلدان أوروبا بداية القرن السابع عشر لوحظت وبدرجة كبيرة ردة فعل سياسية تولدت نتيجة لأحداث نهاية القرن السادس عشر، فقد انتهت بهزيمة المتمردين حرب الفلاحين في ألمانيا (1524–1525) التي مثلت إلى حد كبير استمراراً للحركة الشعبية ضد الكنيسة الكاثوليكية. وتمثلت نتيجة ذلك في انتصار السلطة الإقطاعية بتفتتها والمستوى المتدني لتطورها الاجتماعي – الاقتصادي والثقافي. في الواقع، هُزمت أول ثورة برجوازية في أوروبا، وغطت فرنسا الحروب الدينية والأهلية.

بالإضافة إلى ذلك، فقد علا أمام البلدان جميعها مثال الثورة البرجوازية الناجحة في هولندا التي كانت جزءاً من أسبانيا المطلقة، التي عرقلت ظهور إنتاج برجوازية وعلاقات برجوازية. وكانت للثورة طبيعة وطنية – تحررية معادية للإقطاع. كما كانت موجهة أيضاً ضد الكنيسة الكاثوليكية التي كانت تؤيد أسبانيا. وتمثلت النتيجة في ظهور مقاطعات متحدة في شمال الجمهورية بقيادة مقاطعة هولندا التي أصبحت أول دولة برجوازية في العالم.

في انكلترا استمر الصراع بين أنصار الطريقتين البرجوازية والإقطاعية للتنمية. وفي القرن الثامن عشر سن برلمان إنكلترا تشريعاً بالتسييج enclosure،

ونتيجة لذلك جرد أكثر من 1,5 مليون مزارع من أراضيهم، وبحلول نهاية القرن اختفى الفلاحون تقريباً، فقد استخدم كبار المتملكين العمالة المؤجرة. وبحلول نهاية القرن الثامن عشر استكمل الانقلاب الزراعي الذي أثر وبشكل كبير على تطور الصناعة والتجارة، وذلك عن طريق تأمين القوة العاملة الرخيصة والأموال العائدة إلى مستخدمي الأراضي.

تزايدت أعداد المزارعين الذين لا يملكون الأراضي نتيجة «للتسييج» الذي جرى فيه طرد الفلاحين من أراضيهم. وقالوا: «الغنم أكلت الناس». تركزت ملكية الأراضي في يد الملك، ومن أجل الحصول على الحق في استخدامها كان يتم تقاضي مبالغ باهظة، وجرى ارتفاع في الضرائب. إلى جانب ذلك ظهرت في إنكلترا دلائل هيكل اقتصادي جديد، واستخدمت العمالة المؤجرة على نطاق واسع، وحل التصنيع (مانوفاكتور manufactory) تدريجياً محل الورش الموجودة. تطورت التجارة بما فيها التصدير، ونمت المدن الساحلية، وقوي التجار وقويت الأنشطة المصرفية. أعاقت الأنظمة الإقطاعية تطور الإنتاج الصناعي والزراعي والتجارة، الأمر الذي لم يرق للبرجوازية الناشئة.

في عام 1629 حل الملك تشارلز الأول البرلمان الذي كان موجوداً منذ القرن الثالث عشر، ليصبح هو الزعيم الأوحد للبلاد. وسط تواصل اضطرابات المدن وانتفاضات الفلاحين، أعاد الملك في عام 1640 تشكيل البرلمان من جديد وذلك ليس لرغبته في مساعدة البرلمان على الاستقرار فقط، وإنما أيضاً لفرض ضرائب جديدة. إلا أن البرلمان، الذي تكون بشكل رئيس من صغار ومتوسطي ملاك الأراضي، اتخذ قراراً بعدم فرض الضرائب إلا بموافقة البرلمان، وتجريد الملك من حق حله. اندلعت الحرب الأهلية في خريف عام 1642 عندما بدأ تشارلز الأول الذي فرَّ إلى الشمال بالحرب ضد البرلمان معتمداً على طبقة نبلاء الإقطاعيين والكنيسة الإنكليزية. لم تتوافق مصالح المتحدين ضد الملك من

برجوازيين وفلاحين وحرفيين وعمال مصانع ونبلاء جدد (الملاك في الريف والفلاحين الأغنياء المستخدمين للعمالة المؤجرة)، إلا أن الحكم المطلق مثَّل العدو المشترك لهم جميعاً.

كان للثورة الإنجليزية (1640–1688) أهمية كبيرة ليس بالنسبة للبلد فقط، وإنما لأوروبا كلها. قاد الثورة البرجوازية أوليفر كرومويل Oliver Cromwell الذي كان يتزعم حزب المستقلين، (المستقلون – واحد من تيارات التزمت إذ كان معادياً لأي دين عام للدولة، وطالب بحرية الضمير الديني وتفسير الكتاب المقدس). وبسحقه لمعارضة أنصار النظام الملكي، دمر كرومويل في الفترة 1644–1645قوات الملك تشارلز الأول الذي تم إعدامه في وقت لاحق بقرار من البرلمان. حرم كرومويل المشيخية Presbyterian من حق الاجتماع في البرلمان لأنها كانت تؤيد الملك. وفي عام 1653 أصبح كرومويل الديكتاتور الوحيد. ازدهرت بريطانيا ووسعت نطاق علاقاتها التجارية، وعززت قدرتها الاستعمارية.

تمثلت نتيجة الثورة في الحل الوسط بين الأرستقراطية والبرجوازية، إذ لم تعد الأخيرة تتمتع بالقوة الكافية، في حين رأت الأولى فوائد المسار الجديد للتنمية بالمزيد من ممارسة التجارة والصناعة. دمرت الثورة البرجوازية الإنجليزية الحكم المطلق وبعض القواعد الإقطاعية، إلا أنها تركت المزارعين معتمدين على أمراء الإقطاع، مع الحفاظ على الفوارق الطبقية ومبدأ التوريث في مجلس اللوردات. وبصفة عامة مهدت الثورة الطريق إلى تطوير الصناعة والزراعة، مما سمح لبريطانيا أن تتحول إلى دولة رأسمالية قوية، بل إنها أيضاً ساهمت في التنمية الأوروبية الشاملة.

لم تشكل الثورة البرجوازية البنية الاجتماعية الجديدة في انكلترا نفسها فقط، وإنما كان لها أيضاً تأثير أيديولوجي على البلدان الأخرى، فقد تصورت

أن النتيجة المطلقة المواجهة بين الحكم المطلق، عدو البرلمان المستند إلى طبقة النبلاء، والبرجوازية الصناعية–التجارية ومعها طبقة النبلاء الجدد المزاولين للنشاط التجاري – الصناعي. وتمثلت قوتها الرئيسة في الفلاحين المسحوقين بالابتزاز والمجردين من الأراضي، وحرفيي المدن، وعمال المعامل. وأسفر الانتصار على مؤيدي الملك وإعدامه في عام 1649 عن قيام الجمهورية (1649–1653). وفعلياً لم يغير البرلمان الذي كان بشكل رئيس ينفذ أهداف الطبقات البرجوازية – الأرستقراطية واقع الفلاحين والحرفيين الذين واصلوا النضال. وكانت النتيجة تثبيت ديكتاتورية أوليفر كروموِيل، إذ استمرت حكومة الوصاية ما يقرب من ست سنوات. وبعد وفاته تأسست الجمهورية، التي فيما بعد أعيدت مكانها الملكية من جديد.

اتسمت فرنسا تلك الفترة بانتصار الملكية المطلقة التي بدأت بالتبلور في أوائل القرن السادس عشر، وحكم البلاد لويس الرابع عشر الذي اعتبر رمز وحدة فرنسا. وحصلت طبقة النبلاء الموحدة على إمكانية تأدية الخدمة في الجيش وفي البلاط. ويعود الدور البارز في تاريخ البلاد إلى الوزير جان باتيست كولبير Jean Batiste Colbert الذي اتخذ خطوات لتشجيع تطوير الصناعة والتجارة، وخلق توازناً إيجابياً عن طريق الحد من الاستيراد وزيادة التصدير. كذلك اعتمد لويس الرابع عشر على الكنيسة التي أعطت المبررات لمطالبته بالسلطة المطلقة. وتميزت العقيدة الكاثوليكية التي كانت سائدة في فرنسا بالتعصب الشديد تجاه المعارضين، الأمر الذي انعكس في النشاط الفعال لمحاكم التفتيش، فباسم الرب كرس العنف، وعرقل النشاط العلمي، وقتل الهراطقة.

التنمية الخاصة في القرن السابع عشر اكتسبها التصنيع بتطوره من كونه عملاً تعاونياً في القرن السادس عشر، واستمراره حتى الثلث الأخير من القرن

الثامن عشر. وتميز التصنيع بتقسيم العمل والتخصص الضيق. وأدى استخدام الآليات وعجلة المياه إلى زيادة إنتاجية العمل، وتمثلت نتيجة ذلك في زيادة كمية المنتجات المصنعة، وتنمية التجارة والطلب في الأسواق. واستخدمت على نطاق واسع إمكانات المستعمرات التي أدى الصراع عليها إلى الحروب التجارية في فترة القرنين السابع عشر والثامن عشر. ونما رأس المال المصرفي، وأسواق الأوراق المالية (البورصات)، وتجارة العقارات.

في معرض وصفه للوضع في إنكلترا في القرن الثامن عشر، يقول إنجلز: «لقد جمع القرن الثامن عشر نتائج التاريخ الماضي... وأثبت ضرورتها والتماسك الداخلي. نظمت البيانات الفوضوية التي لا حصر لها للمعرفة وفرزت واختصرت في العلاقة السببية، وأصبحت المعرفة علماً، في حين اقتربت العلوم من الكمال، أي أنها التصقت بالفلسفة من جهة، وبالتطبيق من جهة أخرى. وحتى القرن الثامن عشر لم يكن هناك أي علم، ولم تحصل معرفة الطبيعة على شكلها العلمي إلا في القرن الثامن عشر، أو في بعض المجالات قبل عدة سنوات»[1].

تطلب تحسين الإنتاج مواصلة تطوير العلوم الطبيعية، ومثلت بداية القرن السابع عشر مرحلة جديدة في تطوير العلوم، فقد اكتشف عالم الفلك والفيزيائي الإيطالي جاليليو جاليلي Galileo Galilei الجبال على سطح القمر، والأقمار الأربعة لكوكب المشتري، وبنية مجرة درب التبانة، وعن طريق اكتشافه لقانون القصور الذاتي دحض نظريات الفلسفة الطبيعية المتعلقة بحركة وسكون الأجسام. وفي عام1632 ألف كتاباً بعنوان «حوار حول منظومتي العالم: منهج بطليموس ومنهج كوبرنيكوس Dialogue Concerning the Two Chief World Systems» الذي طور فيه نظرية نيكولاس كوبرنيكوسNicolaus

(1) ك. ماركس، ف. إنجلز. المؤلفات. الطبعة الثانية. ص 599.

Copernicus، مما شكل سبباً لإدانته من قبل المحكمة الكاثوليكية في عام 1633. وكتب بيرتراند راسيل Bertrand Russell عن أن الصراع بين الكنيسة وجاليليو هو ليس مجرد مسألة دين، وإنما هو نزاع بين اثنين من مناهج المعرفة، الاستنتاج والاستقراء. وينبغي أن يستند من يستخدم الاستنتاج على افتراضات معينة (في هذه الحالة على المعتقدات الدينية). وإذا تبين أن هذه الافتراضات خاطئة، فإن البنى النظرية جميعها تتعرض للفشل.

اكتشف عالم الفلك الألماني يوهانس كيبلر Johannes Kepler قوانين حركة الكواكب، ومثّل اكتشافه هذا الأساس لنظام كوبرنيكوس للكون شمسي المركز. وفي عام 1611 أصدر كيبلر كتاباً عن انكسار الضوء بالعدسات. ودحضت اكتشافات علماء الفلك الفهم الذي كرسه الدين لبنية الكون والطبيعة.

في عام 1611 أثبت عالم الفيزياء والكيمياء والفيلسوف الإنكليزي روبرت بويل Robert Boyle مفهوم العنصر الكيميائي، كما عمل على التحليل الكيميائي النوعي. ولكونه ليس مجرد عالم، وإنما فيلسوف أيضاً، دمج بويل اللاهوت مع المادية الآلية. وأصبحت نظرية الأعداد والجبر ونظرية الاحتمالات موضوعاً لأبحاث عالم الرياضيات والفيزياء والفيلسوف الفرنسي بليز باسكال Blaise Pascal الذي صمم في عام 1641 تقريباً «الآلة الحاسبة». إلا أن باسكال خاب أمله في قدرات العقل، الأمر الذي انعكس في كتابه «الأفكار Pensees». ويحمل منشوره «خطابات مقاطعة The Provincial Letters » طابعاً اتهامياً ضد اليسوعيين.

درس عالم الفيزياء والهندسة والفلك والرياضيات الإنكليزي إسحاق نيوتن Isaac Newton قضايا البصريات، وفي الفترة بين عامي 1668و1671 صمم أول التلسكوبات العاكسة. وفي عام 1687 أصدر نيوتن كتابه الرئيس

«الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية Mathematical Principles of Natural Philosophy» الذي يعكس قوانين الميكانيكا الكلاسيكية التي كان لها أهمية كبيرة بالنسبة للفيزياء التي أصبحت أساساً للديناميكا، كما وضع نيوتن أساس التحليل الرياضي وذلك عن طريق تطويره للحساب المتكامل والتفاضلي، وبشكل مستقل عنه قام بوضع تلك المبادئ نفسها الفيلسوف وعالم الرياضيات الألماني غوتفريد لايبنتز Gottfried Wilhelm Leibniz. وأعاد نيوتن دراسة منهج الاستنتاج الذي كان قبله، إذ أصبح من الضروري التحقق من نتائج البحوث التي يتم الحصول عليها «بمساعدته» عن طريق التجارب، وليس على المبررات العلمية.

أظهر التطور السريع للعلوم في القرن السابع عشر فشل المنهجية المدرسية، وأهمية الخبرة الضرورية للحصول على المعرفة، وكذلك الأعمال المتواصلة لفهمها. والأهمية الكبيرة اكتسبتها التجربة التي تمثل الخبرة الهادفة إلى الحصول على الإجابة عن سؤال محدد. لقد أدى تطوير هذه المنهجية إلى نشوء اتجاه فلسفي كامل يدعى بالتجريبية Empiricism. وأبرز ممثلي هذا الاتجاه هو الفيلسوف والناشط السياسي الإنجليزي فرانسيس بيكونFrancis Bacon الذي قال: «المعرفة – القوة»، واعتقد أنه يجب على الإنسان تنقية معرفته من «الأصنام» (الأفكار المسبقة)، وكشف مفهوم المنهج التجريبي والأنواع والأشكال المختلفة للتجربة، وعرف الاستقراء كمنهج لدراسة الطبيعة لاستخدامها في النشاط العملي للإنسان. وعند حديثه عن المسيحية كدين من الوحي، اعتقد أنه من غير الممكن خلط الدين مع العلم. وأعطى بيكون تصنيفاً للمعارف، وأصبحت منهجيته الاستقرائية الأساس للمنطق الاستقرائي. «لا تستند الفلسفة فقط أو في الأغلب على قوى العقل، ولا تترك في الوعي مادة بكراً مستخرجة من التاريخ الطبيعي والتجارب الآلية، وإنما تغيرها وتعالجها

في العقل. لذلك، ينبغي إلقاء أمل جديد على عاتق الاتحاد الأبدي المتين (غير الموجود بعد) لهاتين القدرتين – الخبرة والعقل»[1]. ويعبر المفكر عن موقفه على الشكل التالي: «إن الأفضل من بين كل هذه الإثباتات هي الخبرة، فقط إذا كانت متجذرة في تجربة»[2]؛ «لا يمكن للغاية (الهدف) الحقيقية والملائمة للعلوم أن تنحصر في أي شيء آخر ما عدا منح حياة الإنسان اكتشافات ونعم جديدة»[3]، »بالنسبة للعلم ينبغي توقع الخير فقط عندما سنصعد السلم الحقيقي على درجات متواصلة، وليست متقطعة – من التفاصيل إلى البديهيات الأصغر، ومن ثم إلى الوسطى، الواحدة فوق الأخرى، وأخيراً إلى الأكثر عمومية»[4]. وعن طريق تعريفه للمنهج بوصفه عمارة العلم، يشير بيكون إلى أن تنوع المادة يتطلب استخدام مناهج مختلفة. وعرف الاستقراء بأنه ذلك الشكل من أشكال الأدلة، الذي بمراعاة إدراك المشاعر وفهم الظواهر الطبيعية «يندفع إلى التطبيق ملتصقاً معه تقريباً»[5].

تحولت التجربة إلى منهج عام للمعرفة (جاليليو، نيوتن). واخترع جاليليو التلسكوب، أنطوني فان ليفينهوك المجهر (ميكروسكوب)، ووسعت هذه الاختراعات مجال الأبحاث العلمية بشكل كبير. وأصبح الرجل يسعى لمعرفة العالم الكلي والعالم الجزئي، وغدا المنهج التحليلي، المستند إلى تحديد العناصر الداخلة في الكل، المنهج الهام للمعرفة.

اكتسبت العلوم في القرن السابع عشر طبيعة جماعية، ففي باريس وفلورنسا ظهرت أكاديميات العلوم، وفي لندن الجمعية الملكية، التي لم تساعد على إجراء

(1) ف. بيكون. المؤلفات في مجلدين. موسكو، 1972. المجلد الثاني. ص 59.
(2) المرجع السابق. المجلد 2. ص 35.
(3) المرجع السابق. المجلد 2. ص 45.
(4) المرجع السابق. المجلد 2. ص 63.
(5) ف. بيكون. المؤلفات في مجلدين. موسكو، 1972. المجلد الأول. ص 75.

البحوث فقط، وإنما قامت أيضاً بإصدار الأعمال الأكاديمية التي أصبحت معروفة لنطاق واسع من القراء. بدأ العلم بالتشكل بوصفه مؤسسة اجتماعية، وظهرت ممارسة تبادل المعارف بين مختلف فروع العلم، مما سمح بتناول المشاكل المدروسة من وجهات نظر مختلفة، وتوسع كبير في نطاق البحث.

أسهم رينيه ديكارت René Descartes (كارتيسيوس Cartesius في الصيغة اللاتينية) إسهاماً كبيراً في تطوير الفلسفة والعلوم وروح العقلانية بوجه عام. وترتبط ميتافيزيقية ديكارت ارتباطاً وثيقاً بنشاطه العلمي وبالمنهجية التي طورها، التي لا ترفض التجربة فقط، وإنما تعتبر أن قيمتها ترتفع بمقدار تطور المعارف أيضاً.

ارتبطت منهجية ديكارت بالتقسيم التدريجي للعمل والرغبة في إيجاد منهج عام مناسب للعديد من العلوم. ويركز هذا الفيلسوف على الرياضيات مؤكداً وجود «الرياضيات الشاملة» التي تعتبر في الوقت ذاته «حكمة شاملة». كما رأى ديكارت أن من الضروري الاعتراف بمبدأ وجود أدلة، مطالباً بالتحقق من المعرفة بالعقل. ويجب أن يمثل أساس المعرفة العلمية التأكيد الموثوق تماماً «أنا أفكر، إذا أنا موجود». وأعرب عن اعتقاده أن هناك بدايتان مستقلتان – الروح والمادة.

لا يضع ديكارت في أساس الفلسفة عملية التفكير المجردة، وإنما عملية التفكير التي يشكل فيها التفكير وحدة متكاملة مع الشخص المفكر. وفي كتابه «تأملات في الفلسفة البدائية Meditationes de Prima Philosophia» يشير ديكارت إلى أنه «يمكن أن نفهم بالجوهر فقط ذلك الشيء الذي يمكنه الوجود دون الحاجة مطلقاً إلى شيء آخر لوجوده. إلا أن الجوهر الذي لا يحتاج إلى أي شيء آخر، ويمكن أن يكون واحداً فقط، هو الله تحديداً»، ولا يمكننا فهم إمكانية وجود كل المواد الأخرى إلا بمساعدة الله. ويواصل ديكارت متحدثاً

عن أنه «يمكن إدراج الجوهر المادي والعقل، أو الجوهر العقلي، في إطار المفهوم العام للشيء، الأمر الذي لا يحتاج لوجوده إلا لمساعدة الله»[1]. الجوهر المفكر غير قابل للتجزئة، أما المادي فله حجم، ويمكن تقسيمه. وأصبحت الرياضيات لدى ديكارت علماً عن العالم المادي، متماثلة مع الميكانيكا، وإمكانية التقسيم لا نهاية لها، ووجود فراغات في العالم أمر مستحيل، وتفسر الحركة بوجود الدوامات، ويفهم العالم كمنظومة آليات تنتمي إليها المواد كافة، مثل النباتات. العلم عن العالم هو الميكانيكا، الذي تعرف المعرفة وفقه على أنها تصميم آلة من أبسط الأوليات التي يقدمها العقل. ويجري التصميم باستخدام المنهج الذي تمثل الرياضيات أساسه. ويعرف ديكارت الرياضيات الشاملة على أنها الجبر مع تقريب الحساب والهندسة إليه.

أيد الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز Thomas Hobbes بيكون في فهمه للمعرفة كقوة، وحدد المهمة الرئيسة للفلسفة في فائدتها العملية. وفلسفة هوبز هي نظام المادية الآلية المتوافق مع مستوى تطور العلوم الطبيعية لتلك الفترة. ويعترف هوبز بالهندسة والميكانيكا كنموذجين للتفكير العلمي، أما أساليب المعرفة فهي الاستدلال المنطقي للميكانيكا، واستقراء الفيزياء التجريبية. وفي طليعة تعاليم هوبز طرحت قضايا تنظيم المجتمع والدولة، فالإنسان وفقاً لتعاليمه أناني بطبيعته، وحقه الطبيعي هو حق القوة الذي توجهه غريزة البقاء. ومن أجل تجنب التدمير الذاتي يبرم الناس فيما بينهم اتفاقية اجتماعية تنص على نقل جزء من حقوقهم إلى الدولة لتطبيق القانون. والقوانين الطبيعية ممكنة فقط في الدولة، وتعتبر تجسيداً للجوهر الأخلاقي للإنسان، وتستحيل الحياة المتحضرة خارج الدولة التي تحد من مظاهر الجوهر الطبيعي للإنسان، وحقه في القوة، وذلك عن طريق تهيئتها لظروف سيادة العقل والمعارف.

---

(1) ر. ديكارت. المؤلفات في مجلدين. موسكو، 1989. المجلد 1. ص 335.

يماثل الفيلسوف الهولندي المؤمن بوحدة الوجود بنديكت (باروخ) دي سبينوزا Benedict (Baruch) de Spinoza الله مع الجوهر الوحيد والأبدي، الطبيعة، التي تستبعد أي بداية أخرى، إلا نفسها. وطرح نظرية حول الكون كمنظومة رياضية، وعن إمكانية معرفة الكون بطريقة هندسية. وبني كتابه «علم الأخلاق Ethics» في شكل نظريات وبراهين.

يعتقد عالم الرياضيات والفيزيائي الألماني غوتفريد ويلهلم لايبنتز Gottfried Wilhelm Leibniz أن الكون يتكون من مجموعة كبيرة لا تتجزأ من عناصر الكائنات، موناد monad (كائنات دقيقة أحاديه الخلية)، موجودة في «وئام موضوع مسبقاً». وتعتبر أرواح الناس مونادات أيضاً، لكنها قادرة على الوعي الذاتي. ويولي لايبنتز اهتماماً كبيراً لمشاكل المنطق، ووضع قانون التماثل، والتبرير الكافي، ومفهومي التحليل والتركيب.

لم يعترف الفيلسوف الإنجليزي جون لوك John Locke بحق القوة كحق طبيعي للإنسان، ومثل هذه الحقوق تتمثل في رأيه في حقوق الملكية والعمل، ويؤدي تحقيقها إلى استقلالية وحرية الإنسان. والدولة لا تتشكل للحد من الحق الطبيعي، وإنما لحمايته. واقترح الفيلسوف للمرة الأولى فكرة تقسيم السلطات إلى تشريعية (البرلمان)، واتحادية مرتبطة بالعلاقات بين الحكومات (الملك والوزراء)، وتنفيذية (المحكمة والجيش). ويعتبر لوك مؤسس الليبرالية البرجوازية، كمان كانت له مساهمة هامة في تطوير نظرية المعرفة، وذلك عن طريق تأكيده على حقيقة أن في أساس المعرفة ليس ثمة أفكار فطرية (التي في رأيه لا وجود لها)، وإنما أفكار بسيطة تنشأ في العقل بفضل الصفات المختلفة للأجسام، و«تبين لنا التجربة أن العقل هو سلبي تماماً في ما يتعلق بأفكاره البسيطة، ويحصل عليها جميعها من وجود وتأثير الأشياء، كما يقدمها له

الشعور أو الانعكاس...»[1]. ويتم تحديد حقيقة المعرفة عن طريق مطابقة الأفكار للواقع. وبانتقاده للتعصب الطائفي الديني، حاول لوك فصل التعاليم الحقيقية للسيد المسيح عن مختلف التفسيرات المعدلة. واعتبر إرادة الله الخُلق الرئيس.

وعظ رجل القانون والفيلسوف الانجليزي جيرمي بنثام Jeremy Bentham بحرية الملكية الخاصة والمنافسة، متحدياً بذلك نظرية الحق الطبيعي. إلا أن ممثل البورجوازية الليبرالية دعا مع ذلك بعقوبة الإعدام لكل من يقود انتفاضة شعبية.

نفى جورج بيركلي George Berkeley وجود المادة، معتبراً أن كل ما أعطي للإنسان – هو مشاعره. ونحن نعلم أنه ليس هناك من سلطان على مشاعرنا، ولكن ليس لدينا أدنى الأدلة على أن سبب هذه المشاعر تمثله الأشياء المادية. في الواقع، تنشأ المشاعر لدينا لأنها تمنح لنا من قبل الله. ونفى بيركلي تقسيم الصفات إلى أولية وثانوية، وذلك لأن كل ما لدينا هي مشاعر. وتتمثل أهم أعمال بيركلي في «مقال نحو رؤية جديدة للرؤيا An Essay Towards a New Theory of Vision»، و«دراسة في مبادئ المعرفة الإنسانية A Treatise Concerning the Principles of Human Knowledge»، و«المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس Three Dialogues between Hylas and Philonous» وغيرها.

ساند الفيلسوف والمؤرخ والخبير الاقتصادي ديفيد هيوم David Hume موقف اللاأدرية agnosticism، وفيما بعد كان له تأثير بالغ على الاتجاه الفلسفي الوضعي positivism. واعتقد هيوم أنه لا ينبغي علينا أن نفكر في حقيقة ما إذا كانت هناك أشياء مادية في الواقع. وقسم هيوم الانطباعات إلى أولية (مشاعر)،

(1) د. لوك. المؤلفات في ثلاثة مجلدات. المجلد الأول. ص 338.

وثانوية (أحاسيس ورغبات)، ونفى حرية الإرادة ووحدة الشخصية، وأشار إلى ضعف الطبيعة البشرية، ورفض فرضية أن الحاكم يستمد السلطة من الله ونظرية الاتفاقية الاجتماعية، وأعرب عن اعتقاده بأن المجتمع يظهر كنتيجة لنمو الأسر، وأن الناس يعتادون على طاعة القادة العسكريين، وهكذا تنشأ مؤسسة السلطة. وتتمثل أهم أعمال هيوم في كتاب «مقال عن الطبيعة البشرية A Treatise of Human Nature» بالإضافة إلى «تاريخ إنجلترا The History of England» في 8 مجلدات و«مقالة Essays».

ومثلهما مثل أرسطو، افترض ديكارت وغاليليو أن ولادة الحي من غير الحي ممكنة. واهتز ثبات هذه النظرية في القرن السابع عشر بوساطة الطبيب التوسكاني فرانسيسكو ريدي Francesco Redi الذي أثبت أن الديدان لا تولد في اللحوم الفاسدة، وإنما هي يرقات لذبابات تضع بيوضها في اللحم.

على الرغم من الاكتشافات العلمية، فإن القرن السابع عشر لا ينفي أفكار الله فقط، وإنما ينسب إليه الدور الرئيس في خلق العالم: عند نيوتن في ما يتعلق بالطبيعة بشكل عام، وعند كارل لينيوس – بالأنواع البيولوجية. و«في هذه الحقبة أرادت الفلسفة أن تكون علمية، والعلوم فلسفية. ولفلاسفة القرن السابع عشر طبيعة قاسية، فقد وضعوا أمام أنفسهم مهمة تفسير حياة الطبيعة وحياة الفرد، معتمدين في كل مكان على القوانين المشتركة للميكانيكا والفيزياء كما اعتقدوا»[1].

وجدت العقلانية في العلم انعكاسها في الرواية الخيالية المميزة للنصف الثاني من القرن السابع عشر. وتم العثور على المجتمع المثالي في بلدان أخرى، أو في المستقبل. وعارضت الاتجاه المذكور نظرية غوتفريد لاينتز Gottfried Leibniz التي تنص على أن العالم الإلهي نفسه متناسق وجميل. وينظر إلى

(1) ف. ف. آسموس. رسوم تاريخية–فلسفية. موسكو. 1984. ص 146.

الشر باعتباره جزءاً من التناسق، لكنه يفقد أهميته حسب درجة تطور الثقافة. تفضح الأعمال الخيالية لسيرانو دي برجراك de Cyrano Bergerac عيوب المجتمع الإقطاعي – المطلق، وتؤكد على الحاجة إلى التغيير. وخضع الفن في القرن السابع عشر إلى تيارين رئيسين، هما الباروك baroque والكلاسيكية classicism.

تعني كلمة « baroque باروك» في الترجمة الحرفية عن اللغة الإيطالية «الغريب». وفي هذا الأسلوب تعكس الثقافة الأرستقراطية لفترة الحكم المطلق، والتصوف المميز للبلدان الكاثوليكية.

على النقيض من البروتستانتية، فقد حولت الكاثوليكية طقوس أداء العبادة في غالبيتها إلى مشاهد مليئة بالروعة، وذلك لجذب المؤمنين. وأرضى هذا الأسلوب أذواق الطبقة الأرستقراطية الإقطاعية بوصفه وسيلة لاستعراض الثروة والسلطة، فضلاً عن البرجوازية أيضاً التي رأت فيه تحقيقاً لتطلعاتها الدنيوية العملية البحتة للرفاهية. وتتميز اللوحات الاحتفالية في أسلوب الباروك بالتكلف والشفقة المثيرة.

تتجلى أشهر أعمال جوفياني لورنزو برنيني Giovanni Lorenzo Bernini في صف أعمدة كنيسة القديس بطرس St. Peter›s Basilica، وكنيسة سانتا أندريا في الكويرينال The Church of Saint Andrew›s at the Quirinal، والدرج الملكي في الفاتيكان Scala Regia، وتمثالي «أبولو ودافني Apollo and Daphne»، والتمثال النصفي للويس الرابع عشر Equestrian Statue of King Louis XIV.

جمع الرسام الفلامنكي الشهير بيتر بول روبنس Peter Paul Rubens مبادئ الواقعية وإثارة الشفقة الباروكية. وإلى ريشته تنتمي مناظر طبيعية واقعية، ومشاهد من حياة الفلاحين («عودة الحصادين»). وتصور أعماله

التعطش للحياة، وتعبيرية وجمالية جسد الإنسان. رسم صور مذبح كاتدرائية نوتردام (أنتويرب) (Cathedral of Our Lady (Antwerp)، ومن روائعه أيضاً «بيرسيوس وأندروماش Perseus and Andromache».

كان ممثل الباروك في الموسيقى الموسيقار الألماني يوهان سيباستيان باخ Johann Sebastian Bach. وتتميز أعماله بشعبية وعمق المشاعر، والتطلع إلى المستقبل.

إلى جانب ترف الباروك تطور فن الكلاسيكية الذي انعكست فيه أفكار نظام ووحدة الديكارتية العقلانية، وتمتاز أعماله بعظمة وتناسق ووحدة بناء المؤلفة (الأدب: بيير كورنيلي Pierre Corneille، وموليير Moliere (جان باتيست بوكلين Jean Baptiste Poquelin)؛ الرسم: جان لوي دافيد Jean Louis David؛ النحت: إتيين موريس فالكوني Étienne Maurice Falconet؛ الموسيقى: ولفغانغ أماديوس موزارت Wolfgang Amadeus Mozart، ليودويغ فان بيتهوفن Ludwig van Beethoven). وحصل هذا الأسلوب على المزيد من التطور في كل من فرنسا وبريطانيا وإيطاليا وألمانيا. ومن بين أبرز ممثليه يمكن ذكر كل من كورنيلي Pierre Corneille، وجان راسين Jean Racine، وموليير (المسرح)، وجان دي لافونتين Jean de La Fontaine، ونيكولا بوالو – ديبرو Nikola Boileau–Despréaux (الشعر)، وجان باتيست ليولي Jean Batiste Lully (الموسيقى)، نيكولا بوسينNikola Poussin ، لورين Lorrain (كلود جيلي Klod Gellee) (الفنون الجميلة).

نيكولا بوالو – ديرو – شاعر فرنسي، ومؤلف قصيدة «الفن الشعري L'art poétique» التي عرض فيها الأساس النظري للكلاسيكية، في حين تصف ماري – مادلين دي لافاييت Marie–Madeleine de La Fayette في مؤلفتيها «أميرة كليف La Princesse de Clèves» و«مذكرات من المحكمة الفرنسية

«Memoires de la Cour de France»، أخلاق وشخصيات عصرها، والكاتب الفرنسي جان دي لافونتين معروف كمؤلف لكتب الحكايات، والكوميديا، والأساطير التي تصور الحياة في فرنسا في ظل الحكم المطلق بشكل تهكمي.

من بين ممثلي الفن الشعبي للحكم المطلق ينبغي ذكر الرسام تشارلز ليبورن Charles Le Brun الذي كان أحد مؤسسي أكاديمية باريس للفنون الجميلة، وترأس عملية تصميم فرساي.

طور الكاتب المسرحي الفرنسي جان بابتيست موليير في مسرحياته فن الكوميديا الشعبية الساخرة من كسل طبقة النبلاء وإجحافهم. وعادة ما يتحدث أبطاله بلغة عادية، ففي كوميديا «البورجوازي النبيل Le Bourgeois gentilhomme» يصور بشكل ساخر ممثلاً من الدرجة الثالثة يسعى لأن يبدو نبيلاً. سخر موليير من كسل النبلاء وأنانيتهم («دون جوان Don Juan»)، ومن الجشع («البخيل The Miser»)، والنفاق الكنيسي («طرطوف، أو المرائي Tartuffe، or the Impostor»). ويعارض الشخصيات السلبية لموليير أبطال آخرون، وهم أشخاص من عامة الناس، حاذقون وظرفاء. وتعرض وضع بطله «دون جوان» للإدانة من الأوساط الرسمية لإلحاده وفكره الحر.

من بين المسرحيين الكلاسيكيين يمكن ذكر جان راسين، الذي تجسد مأساته «أندروماش Andromache» بطولة مواجهة الطغيان الاستبدادي، في حين تتميز مأساة «فايدرا Phaedra» بمستوى عالٍ من التبصر النفسي في وصف شخصية البطلة.

تتجسد في الإبداع الموسيقي لموزارت دوافع الأغاني الشعبية، وتتميز أعماله بالتفاؤل وغنى المضمون والشكل.

كان الرسام الفرنسي نيكولا بوسين كلاسيكياً، وتستخدم في مؤلفاته مواضيع تاريخية وأسطورية ودينية يتميز تناولها بتناسق البناء وصرامته.

هيمنت الكلاسيكية والباروك أيضاً على عمارة الفترة الممتدة من القرن السابع عشر إلى النصف الأول من القرن الثامن عشر، فاقتربت مباني الطراز الأول من أشكال المباني الرومانية من ناحية خطوطها المستقيمة والصارمة (كاتدرائية القديس بولس St. Paul's Cathedral في لندن)، في حين قدم الباروك في القصور والكنائس مع الكثير من الزخارف اللينة والنوافذ الكئيبة والأشكال المنحنية (كاتدرائية القديس بطرس في روما). وأعمال المهندسين المعماريين الايطاليين جان لورينزو برنيني Gian Lorenzo Bernini وفرانشيسكو بوروميني Francesco Borromini وغيرهما من ممثلي هذا الاتجاه الفني تجسد ثراء وضخامة العالم المحيط. وتتميز الكنائس ومجمعات القصور بالبهاء والضخامة المكانية، واستخدام الأشكال المنحنية.

عمل الرسام الفلمنكي فرانس سنيدرز Frans Snyders في مرسم بيتر بول روبينس Pieter Paul Rubens حيث أبدع لوحات زيتية ومشاهد صيد رائعة. وكان هنالك تلميذ آخر لروبينس هو الرسام الفلمنكي أنطوني فان دايك Anthony van Dyck الذي عرف بأنه أستاذ البورتريه الرسمية النفسية، واتجه أيضاً إلى المواضيع الدينية. وتتميز لوحاته بالروحانية وكمال الحياة.

عند الحديث عن الرسم الفلمنكي ينبغي كذلك ذكر اسم ياكوب جوردانيس Jacob Jordaens الذي رسم مواضيع دينية وأسطورية مختلفة، ولوحات تصويرية، وكثيراً ما كان أبطال لوحاته أشخاص عاديين من عامة الناس.

الروكوكو Rococo هو اتجاه جديد في الفن الأوروبي في النصف الأول من القرن الثامن عشر. ولم يقتصر هذا الفن على عدم وضعه هدف التصوير الحقيقي للواقع، وإنما الإفلات بكل الوسائل من فظاظة العالم الحقيقي أيضاً. ويمتاز هذا الفن بتكلف الصور وتقليديتها. ومن أبرز ممثلي طراز الروكوكو الرسام الفرنسي فرانسوا بوشيه François Boucher الذي رسم لوحات في

مواضيع أسطورية («هرقل وأومفالي Hercules and Omphale»)، ومناظر طبيعية رعوية. كما كان من بين ممثلي الروكوكو الرسامان جان أنطوان واتو Jean Antoine Watteau وجان أونريه فراغونارد Jean–Honoré Fragonard.

عند دراستنا لتاريخ الثقافة ينبغي علينا أن نتذكر أن العديد من رجالات الفن البارزين توجهوا إلى الجوهر السامي الأبدي للإنسان، دون أن يقيدوا فنهم بالأطر الأسلوبية.

في هولندا، حيث لم يكن للكاثوليكية تأثير، ظهر اتجاه للفن، هو الواقعية، ومثله في الفنون الجميلة العديد من الفنانين، مثل فرانس هالس Frans Hals، وياكوب فان رويسدال Jacob van Ruisdael، وبيتر كلاس Peter Claas ، ووليم هيد Willem Hed، ويان ستين Johannes Steen، ويان فيرمير Johannes Vermeer. والدور الهام في الواقعية الهولندية لعبه النوع المعيشي، فيصور الفنانون الحياة اليومية للناس العاديين، لكنهم يرون فيها ما هو سام. ويعتبر رامبرانت هارمينسون فان راين Rembrandt Harmenszoon van Rijn الشخصية الرئيسية في الواقعية الهولندية، فعلى الرغم من الموضوع الذي يتم اختياره (بما في ذلك من الكتاب المقدس، والأسطوري)، عكس في أعماله الحياة الحقيقية للناس، وشخصياتهم.

تتميز الفترة المشمولة بالدراسة بالحروب المستمرة، وعدم الاستقرار في نظام حياة الشخص المعتمد على تقدير الإقطاعي. ولا يمكن في هذا الجو إلا وأن تظهر رغبة في وجود إرادة موحدة لدولة قوية.

تبلور تطور الفكر الاجتماعي التقدمي في القرن الثامن عشر في حركة التنوير التي يعتبر مؤسساها فولتير Voltaire (فرانسوا ماري أوروويه François–Marie Arouet) ومونتسكيو Montesquieu (شارل لوي دي سيكوندا Charles de Secondat). ركزت الفلسفة اهتماماً خاصاً على مشاكل تنمية

المجتمع وذلك عن طريق تناول المجتمع المعاصر من مواقف انتقادية، ويتعلق ذلك بشكل خاص بمشاكل الدين. وحددت مواقف بعض الفلاسفة إلى حد كبير بالوضع السياسي في البلد الذي يعيشون فيه.

في فرنسا أدت الأزمة السياسية والصراع الطويل بين الطبقة الأرستقراطية التي ساندتها الكاثوليكية والطبقة الثالثة Third Estate إلى انتشار انتقاد الدين انتشاراً واسعاً في هذا البلد. وكتب بول أنري هولباخ Holbach (بول هنري ثيري Paul–Henri Thiry) عن أن الدين يحمي السلطة غير المحدودة وتدمير الإنسان للإنسان.

لم تكن درجة حساسية النظام الاجتماعي القائم واحدة في فرنسا حيث روج لطريقة التحولات التدريجية للمجتمع الإقطاعي، وتحويله إلى برجوازي (مونتسكيو، فولتير). إلا أنه، ومع بداية ستينيات القرن الثامن عشر، اعتبر ضرورياً إلغاء الفوارق الطبقية والسلطة غير المحدودة التي لا تحترم حقوق الفرد (جوليان أوفري دو لاميتري Julien Offray de La Mettrie، دينيس ديدرو Denis Diderot، كلود أدريان هيلفيتوس Claude Adrien Helvétius، هولباخ). ولم تكن عقيدتا فلسفة ديفيد هيوم David Hume (إنكلترا) وإيمانويل Immanuel Kant (ألمانيا) متصلبتين إلى درجة كبيرة، إلا أنهما لم تعترفا بأدلة وجود الله وخلود الروح.

وجدت أفكار التنوير تجسيدها في مؤلفات جان جاك روسو Jean–Jacques Rousseau الذي لم يبشر بالفرار من الحضارة التي لا تقمع الإنسان وتدمره وحده، وإنما الطبيعة أيضاً. وشكلت أفكار روسو الأساس لشعارات الثورة الفرنسية عن الحرية والمساواة والإخاء، إلا أنها لم تقبل كمبرر لإجراءات ديكتاتورية اليعاقبة Jacobins بإرهابها وتدميرها لحقوق الفرد باسم حرية الجميع، الأمر الذي يتناقض مع جوهر أفكار التنوير.

في كتابه «علم ظواهر الروح The Phenomenology of Spirit»، دعا غيورغ فيلهلم فريدريش هيغل Georg Wilhelm Friedrich Hegel استطلاق absolutisation المساواة الذي يميز الاتجاهات اليسارية الراديكالية فكرة مجردة يفقد موت الشخص في ضوءها معناه.

تتميز فرنسا بداية القرن بالتطور الكبير للميول المعادية للدين التي أصبحت أحد أهم جوانب التنوير. وكانت «وصية Testament» الكاهن القروي جان ميلييه Jean Meslier» المؤلفة الأولى الأكثر إلحادية وراديكالية وانتشرت في أنحاء فرنسا جميعها في مطلع ثلاثينيات القرن، ووفقها «يقوم الكهنة جميعهم ورجال الدين بكل حماس وبلاغة بوعظك عن عظمة وتفوق وقداسة تلك الأسرار المقدسة التي يجبرونك على عبادتها، وكل ما يحدثونك به بكل جدية عن المعجزات المزعومة، وكل ما يفرضونه عليك بكل حماس وثقة حول الثواب الإلهي وعذاب جهنم الرهيب – كل هذا من ناحية الجوهر ليس أكثر من وهم وضلال وخداع وتلفيق وغش»[1]. ومع ذلك، وكقاعدة عامة لم يميز مثل هذا الموقف المتشدد حركة التنوير التي استندت حتى منتصف القرن الثامن عشر على مبدأ الربوبية Deism. وتقر هذه النظرية بخلق الله للعالم، ولكنها تنطلق من حقيقة أن الرب يتوقف فيما بعد عن التدخل في شؤون الطبيعة والمجتمع. والربوبيون، الذين انتمى إليهم فولتير ومونتسكيو، فضلاً عن شخصيات التنوير الأكثر حداثة، مثل روسو وإيتين بونوت دي كونديلاك Étienne Bonnot de Condillac وغيرهم، انتقدوا الأديان المنتشرة كافة وتحدثوا عن الحاجة إلى «دين طبيعي» يهدف إلى منفعة العقل والإنسان. ومثل كتاب إيمانويل كانت «نقد العقل الخالص Critique of Pure Reason» ذلك «السيف الذي قطع رأس الربوبية».

(1) ج. ميلييه. الوصية. موسكو، 1954. المجلد 1. ص 68.

إذا كانت الرياضيات قد لعبت الدور الرئيس في علوم القرن السابع عشر، ففي القرن الثامن عشر «لحقت بها» كل من البيولوجيا والجغرافيا والفيزياء، لتكتسب العلوم طبيعة منهجية. وبشكل تدريجي تغيرت عقلانية القرن السابع عشر لتفسح المجال للاعتقاد في إمكانية وضرورة تنمية العقل وتنوير الفرد.

يتميز النصف الثاني من أربعينيات القرن الثامن عشر بتشكل الأفكار المادية، إذ تضم مؤلفات لاميتري مزاعم عن أن الشخص العاقل لن يعثر في إيمانه بالله على أية مبررات نظرية ولا مصالح عملية، إلا أن لاميتري اعتقد في أنه لا ينبغي أن ينتشر الإلحاد بين عامة الناس، وإنما فهمه فقط من قبل نخبة قليلة تقف فوق البقية في الجانب الذهني. وفي نهاية الأربعينيات وجدت الأفكار المادية تبريراتها في مؤلفات ديدرو وهولباخ الذين اعتبرا الإلحاد ضرورياً وممكناً للجميع. ويعبر ديدرو عن أفكاره في أعمال فنية وفلسفية، كثيراً ما تتخذ الأخيرة شكل حوارات يشارك فيها الإنسان الذي وللمرة الأولى تشغله قضايا الكون.

تتميز الأعمال الفلسفية لهولباخ بالبنية المنطقية المتناسقة مما يمكنه من تبرير كل مفهوم، ولا تحمل افتراضاته الطابع الإلزامي، وإنما تنبع من الاستنتاجات السابقة. والمؤلفة الإلحادية الرئيسية لهولباخ هي «نظام الطبيعة The System of Nature» «التي يشير فيها بشكل خاص إلى أن « الإثباتات جميعها التي يسعى عن طريقها علم اللاهوت إلى تبرير وجود الله، هي مبنية على مبدأ كاذب، وظاهرياً لا توجد المادة من تلقاء نفسها، ولا تستطيع بطبيعتها التحرك، وبالتالي فهي غير قادرة على إنتاج تلك الظواهر التي نلاحظها في العالم الحقيقي. وبناءً على الافتراضات... الكاذبة، فقد قررت اللاهوتية أن المادة لم تكن موجودة على الدوام، وأنها تمتلك كمصدر وجودها وحركتها قوة تختلف عنها، ومبدأً

نشطاً غير معروف تعتمد عليه»[1]. ويبين هولباخ الأثر الضار الذي تمارسه المعتقدات الدينية عن الحياة الآخرة على العقل البشري، واعتماد سعادتها ورعبها على سلوك الناس، مما يمنعهم من أن يكونوا سعداء على الأرض، ويحولهم إلى مخلوقات عديمة الفائدة.

تتزامن أعمال هولباخ من ناحية وقت إنشائها مع كتابة فولتير لأعمال معادية لرجال الدين، و«القاموس الفلسفي Dictionnaire philosophique» الذي يتسم بالتوجه المعادي للدين.

في مطلع الستينيات نشر روسو رواية «إميل أو في التعليم Emile: or، On Education» وكتاب «في العقد الاجتماعي، أو مبادئ الحق السياسي Of The Social Contract، Or Principles of Political Right » حيث ينتقد المسيحية أيضاً.

إذن، تتميز هذه الفترة بالصراع التنويري القاسي مع الدين من أجل عقل بشري غير متحيز للأحكام الدينية. ويجب أن توضع في الاعتبار حقيقة أن نقد الدين لا يمثل الغاية في حد ذاتها، وإنما واحداً من جوانب حركة التنوير، والتبرير الإيديولوجي للثورة البرجوازية المتمثل هدفها في الإطاحة بالحكم الإقطاعي المطلق المعتمد على الكنيسة.

برأي هولباخ، إن رجال الدين الذين امتلكوا ممالك الأرض بالمساعدة الإلهية، لم يركزوا في أيديهم الثروات المادية فحسب، وإنما التقليد المكرس منذ قرون لتمثيلهم الوسيط في التواصل مع الله أيضاً. ومراراً ما دمجت المناصب الكنسية العليا مع مناصب الوزراء والحكام. والدور الهام في السياسة لعبه وضع كهنة الملوك والأشخاص ذوي النفوذ في البلاط. وماثلت الكنيسة بنية المجتمع الإقطاعي في تنظيم مملكة السماء، في حين تمثل هدف النشاط

(1) ب. هولباخ. نظام الطبيعة. مجموعة المؤلفات. موسكو، 1963. المجلد 1. ص 486.

الاجتماعي للتنويريين في إنشاء «مملكة العقل»، وتجسيد مبادئ الإنسانية، واحترام حقوق الفرد. وعهد بتنفيذ هذه المهمة إلى الحكام أنفسهم الذين كان ينبغي فهمهم على أنهم «الأوصياء والحافظون للفرد والخير والحريات لرعاياهم الذين يمنحون الموافقة على الطاعة بهذا الشرط فقط».

حث منظرو حركة التنوير الحكومة على نزع الثروات من رجال الدين وإنفاقها على تعليم الشعب، وإنشاء نظام أخلاقي يراعي مصالح المجتمع والفرد، وضمان حرية الضمير، وعدم عرقلة التعليم. وعلى الرغم من طوباوية الاعتقاد في النشاط الخيري للملك الذي اعتنق فلسفة جديدة، تضمن تعليم التنويريين المبادئ التي شكلت فيما بعد الأساس الأيديولوجي للثورات البرجوازية، وللقواعد الأخلاقية للمجتمع ما بعد الإقطاعي.

في عام 1734 نشر فولتير «رسائل فلسفية Lettres philosophiques » التي يجري فيها مقارنة فرنسا مع إنكلترا الأكثر تقدماً من الناحية الاقتصادية – الاجتماعية، ويتحدث عن الحد من سلطة الملك، ومعقولية الضرائب، وحرية الدين، وتطور العلم والفن. ودعا غوستاف لانسون Gustave Lanson هذا العمل بـ«القنبلة الأولى» الموجهة إلى النظام القديم[1]، والخطوة الأولى باتجاه تطوير التنوير.

أرجع فولتير كلاً من العقلانية والعدالة والإنسانية إلى المبادئ الأساسية التي يجب أن يسترشد بها المجتمع في تطوره. وكتب فولتير أيضاً عن طرق دراسة الطبيعة التي رأى أهمها في الملاحظة والتجربة، التي يتم الحصول على الاستنتاجات منها بمساعدة الرياضيات. ويمكن للفرضية أن تؤخذ في الاعتبار في حال أمكن التحقق منها بالتجربة فقط. واعتبر العلوم الطبيعية أساس الفلسفة. ومن اكتشافات الميكانيكا الكلاسيكية استنبط فولتير نظرية

(1) غ. لانسون. فولتير. موسكو، 1944. ص 45.

موضوعية قوانين الطبيعة وتطورها على أساس علاقات السبب–النتيجة. ولم يتناول الروح على أنها مادة مقاومة للجسم، معتبراً مشاعر وأفكار الإنسان تجسيداً لها. وبالتالي، لا يمكن للروح أن تكون خالدة.

درست العلوم الطبيعية الميكانيكية التي كانت سائدة حتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر الحركة التي تنتقل من جسم إلى آخر معللة بداية الحركة بأفعال الله، مثل اسحاق نيوتنIsaac Newton مع نظريته «الدفعة الأولى»، كما اعترف فولتير أيضاً بوجود شيء أبدي ما يمثل السبب لكل الأشياء الأخرى.

مثلت ربوبية فولتير الأساس لتشكيل وجهات نظر الماديين في فترة الثلاثينيات –الأربعينيات لأنه أقر أن الله هو الخالق الوحيد للعالم، وبعد ذلك، وفقاً لفولتير، لا يتدخل الله في شؤون العالم. وحصل كل من لاميتري وديدرو وهيلفيتوس وهولباخ، الذين تزامن إبداعهم مع تطور الكيمياء والجيولوجيا والبيولوجيا، على الأساس لتأكيد أن الطبيعة تتطور من نفسها. وبحلول فترة الستينيات – السبعينيات رفض فولتير أيضاً تأكيد الخلق الإلهي للعالم، ولكن لم يرفض وجود الله عموماً. وفي الوقت نفسه لم يجد إجابة على التساؤلات عن أصل العالم، وموقع الله وغيرها.

اعتبر فولتير أن الشيء الرئيس في الفلسفة هو الحصول على أجوبة الأسئلة عن معنى الحياة، وعن مبادئ وجود المجتمع، وعن علاقات الناس فيه. ويجب على الإنسان أن يحب نفسه مع مراعاة احتياجات الآخرين والمجتمع ككل، فهو يعتبر قيمة في حد ذاته.

وعلى النقيض من روسو، أقر فولتير بشرعية الملكية البرجوازية الخاصة، في حين أنكر الملكية الإقطاعية، واقتضى برنامجه للاصطلاحات البرجوازية – الديمقراطية حصانة الملكية الخاصة التي يجب على أصحابها المشاركة في إدارة الدولة، وعدم جواز الاستبداد والطغيان من جانب الدولة، الأمر الذي ينبغي

أن تتمثل دعامته في القوانين. وبإعلانه مبادئ الحرية السياسية، اعتبر فولتير، مثل غيره من التنويريين، استحالة استخدامها دون مراعاة القوانين. رفض الفوضى، ،اقر بأنه يجب على المجتمع العادل ضمان حرية الفكر والتعبير والصحافة والضمير، في حين ينبغي أن يقترن التسامح الديني مع تثقيف الناس فيما يخص الطوائف الخطرة. وتحدد مأساة فولتير «أوديب Oedipus» المعادية لرجال الدين والحكم المطلق فولتير قيمة المسرح كمروج لأفكار جديدة من شأنها إضعاف نفوذ الكنيسة.

شارك فولتير فكرة «العقد الاجتماعي» معتبراً الدولة أداة لرفاه وحرية المواطنين، ولذلك رأى إمكانية إعادة هيكلة فرنسا بوساطة العمل من فوق، دون اللجوء إلى الثورة. وفي مقابل مونتسكيو الذي رأى في الاستبداد الشكل الوحيد للحكم، لم يقبل فولتير به واضعاً على رأس المجتمع «ملكاً مستنيراً». بشكل عام كان التنويريين الفرنسيين جميعهم أنصاراً لهذه الفكرة، ولكن المهام التي وضعوها تتناقض مع جوهر النظام الملكي الإقطاعي – المطلق الذي لم يستطع حلها طوعاً. وهكذا، مثلت أفكار التنويريين، حتى وفي شكل معتدل، الأساس الأيديولوجي للثورة الفرنسية العظمى.

إن تنمية الثقافة الروحية، بما في ذلك النشاط الإنتاجي (الذي نسبه إلى الفن)، تعتبر وفقاً لفولتير سمة ضرورية للمجتمع المنظم بشكل صحيح. وفي الوقت نفسه يؤكد روسو عل أن «العلم والأدب والفن... تغطي بأكاليل الزهور السلاسل الحديدية» التي بمساعدتها يحمل الاستبداد على «محبة وضعه العبودي»[1]. واعترف التنويريون جميعهم بالعقل كقوة رئيسة لتطور المجتمع والإنسان، قوة مفيدة (فولتير، وآن روبير جاك تورغو Anne Robert Jacques Turgot، وماري جان أنطوان نيقولا دي كاريتا، مركيز كوندورسيهMarie

(1) ج. ج. روسو. مقالات. موسكو، 1949. ص 12.

(Jean Antoine Nicolas de Caritat، marquis de Condorcet)، أو قوة مدمرة تدفع الإنسان من الحالة الطبيعية إلى ظلم واضطهاد الحضارة (روسو).

كان ديدرو صاحب مبادرة إنشاء «الموسوعة أو القاموس التوضيحي للعلوم والفنون والحرف Encyclopedia، or a systematic dictionary of the sciences، arts، and crafts» التي استمر إصدارها من عام 1751 إلى عام 1780، وأصبحت مركزاً لتوحيد التنويريين. وتضمن الكتاب معلومات عن الرياضيات والفلك والجغرافيا، ووصفاً لتقنية إنتاج المنتجات الصناعية.

تناول لاميتري في أعماله قضايا وعي الإنسان والطبيعة من وجهة نظر المادية. أما روسو فقد وصف عيوب ومزايا الوضع الطبيعي والمدني للإنسان، وألح على البساطة والقرب من الطبيعة، واعتبر أن الناس يولدون متساوين، وأن للشعب الحق في الإطاحة بالحاكم المستبد، واعتبر جماعة صغار الملاك المتكافئين مثالية. وقدم تورغو النظرية التربوية لعلاقة العقل والحضارة. وفي فترة الستينيات – السبعينيات أسس هولباخ الفهم الإلحادي للعالم والإنسان فيه. وانتقد مونتسكيو النظام الملكي المطلق بحروبه، وإفقاره للشعب، وضرائبه الباهظة، ورأى في الملكية الدستورية المثال الأعلى لنظام الدولة، كما ألح على حصانة الملكية الخاصة ومبادئ الحرية الفردية التي لا يقيدها سوى القانون.

إن التنوير الذي أعلن مبادئ الإنسانية لم يؤثر ولا بأي شكل على السياسة التوسعية للبلدان الأوروبية، تلك السياسة التي اكتسبت في القرن الثامن عشر طابعاً عالمياً. ومثّل هذا التناقض ملامح الحقبة مع رضا تام تقريباً وسط الأوروبيين. و مما هو مخجل لأوروبا في هذه السياسة يوهان فولفغانغ فون غوته Johann Wolfgang von Goethe، أحد أكمل المؤلفين تعبيراً عن روح تلك الفترة.

وجدت آراء الطبقة الثالثة انعكاسها بشكل خاص في أعمال الكاتب

المسرحي والتاجر الفرنسي بيير أوغوستين كارون دي بومارشيه Pierre–Augustin Caron de Beaumarchais، إذ لا تنتقد مسرحيتاه الكوميديتان «حلاق إشبيليا The Barber of Seville» و«زواج فيغارو The Marriage of Figaro» أخلاق ونمط حياة الطبقة الأرستقراطية فحسب، وإنما أيضاً تمجدان العقل النشط وحيوية ممثلي الطبقة الثالثة بوساطة شخص فيغارو.

وجدت نظرة البرجوازية الناشئة تجسيدها في سبعينيات القرن الثامن عشر في التيار الألماني للأدب المسمى «العاصفة والاندفاع Sturm und Drang» الذي نادى ممثلوه بأفكار العقل والعدل والحرية. تتحدث مسرحية «اللصوص The Robbers» ليوهان كريستوف فريدريش فون شيلر Johann Christoph Friedrich von Schiller عن شباب يخالفون القانون احتجاجاً على وحشية المجتمع القائم. وتصف مسرحية «فيلهلم تيل William Tell» مقاتلاً سويسرياً ضد الظلم النمساوي، وتؤكد هذه المؤلفة شرعية الإطاحة المسلحة بالطغيان. ومنح شيلر المتعاطف مع أفكار الثورة الفرنسية العظمى لقب المواطن الفخري للجمهورية الفرنسية.

في البداية شارك الكاتب الألماني يوهان جوته أفكار حركة «العاصفة والاندفاع»، لكنه أصبح لاحقاً يتبنى آراءً أكثر اعتدالاً، فاعتبر الثورة وسيلة غير مقبولة لتغيير المجتمع، مفترضاً أن مثل هذه التغييرات يجب أن تكون نتيجة للتنوير والتغيير «من الأعلى». وأبرز أعماله مأساة «فاوست Faust».

تمثل تجسيد المواجهة الحادة بين التقاليد الإقطاعية ومصالح الطبقة الثالثة في فن الرسم في فرنسا، وكان أبرز ممثليه جاك لويس دافيد Jacques–Louis David الذي أصبح يعقوبياً زمن الثورة، إذ تصور لوحة «قسم الإخوة هوراس Oath of the Horatii» التي رسمها قبل الثورة مشهد مباركة الأب لأبنائه في معركة للدفاع عن الجمهورية. وفي موضوع الثورة كانت لوحته الأخرى

«موت مارات The Death of Marat»، كما أولى الفنان اهتماماً كبيراً بتصوير بسطاء الناس («بائعة الخضار The Market Gardener»).

وقعت أعمال الموسيقار الألماني لودفيغ فان بيتهوفنLudwig van Beethoven أيضاً تحت تأثير الثورة الفرنسية، فبعد سماعه عن الأحداث في فرنسا، ألّف الموسيقار «أغنية الإنسان الحر Song about free man». كما كان بيتهوفن عازماً على تكريس السيمفونية البطولية (Eroica) (الثالثة) لنابليون، إلا أنه تراجع علناً هذا القرار عندما أعلن نابليون نفسه إمبراطوراً.

يقف الموسيقار وقائد الأوركسترا الفرنسي كلود آشيل ديبوسي –Achille Claude Debussy عند بدايات الانطباعية الموسيقية، ودخل التاريخ كمؤلف لمقطوعات رائعة لأوركسترا «تمهيد لما بعد ظهر إله الريف Afternoon of a Faun»، و«البحر The Sea» وغيرها.

إلى أنامل ممثل الرومانسية الرسام الفرنسي فيردناند فيكتور أوجين ديلاكروا Ferdinand Victor Eugène Delacroix تنتمي اللوحات الرومانسية حول موضوع الحركة الثورية الفرنسية («الحرية تقود الشعب إلى المتاريس Liberty Leading the People»)، ولوحات من حياة الشرق («نساء الجزائر The Women of Algiers»).

جان فرانسوا ميلي Jean François Millet رسام فرنسي من المدرسة الواقعية تمثل موضوع أعماله في حياة الفلاحين الذين جعلهم مثاليين في كثير من الأحيان.

مثَّل العمال الثوريون أبطال الكثير من لوحات الفنان الفرنسي الواقعي أونريه دوميه Honoré Daumier المعروف أيضاً كأستاذ للرسوم الكاريكاتورية السياسية.

ميزت الواقعية فترة الزمن الحديث بكاملها، ومن بين ممثليها في القرن السابع

عشر يمكن ذكر الفنانين الهولنديين هالس، وهيدا، وستين. وكان رامبرانت أهم فناني هذا الاتجاه، ففي لوحاته تغنى بجمال الطبيعة والإنسان. وفي القرن الثامن عشر عكست الواقعية أفكار عصر التنوير (الرسامان الإنكليزيان وليام هوغارث William Hogarth، وجان باتيست شاردان Jean Baptiste Siméon Chardin).

في أواخر القرن الثامن عشر – بداية القرن التاسع عشر تشكل الاتجاه العاطفي Sentimentalism ، وقد سعى ممثلوه لوصف الإنسان العادي وحياته ومشاعره وطموحاته (الرسامان جان باتيست غريوز Jean Batiste Greuze وتوماس غينزبورو Thomas Gainsborough، والكاتبان جان جاك روسو ولورنس شتيرن Laurence Sterne).

مثَّل تنوير القرن الثامن عشر استمراراً منطقياً للأفكار التقدمية لعصر النهضة، والثورة البرجوازية الإنجليزية، والكفاح من أجل الاستقلال في أمريكا. وانتقاد النظام الملكي المطلق والأنظمة الإقطاعية الذي قابلته العلوم وإعلان مبادئ العدل والمساواة والحرية (بما في ذلك حرية الدين) – تلك هي الجوانب الرئيسية للحركة الأيديولوجية المعروفة باسم التنوير.

إن معاداة طبيعة العبودية والاضطهاد والتعصب الديني هي واحدة من الأفكار الأساسية للتنوير. وأدى سعي الناس لتحقيق هذه الأفكار إلى التحولات الثورية للمجتمع: الثورة الفرنسية العظمى في الفترة ما بين عامي 1789 و1793 وما أعقبها في أوروبا من تحولات، والنضال من أجل استقلال المستعمرات البريطانية في أميركا. وإلى جانب الثورة الصناعية في إنكلترا خلقت هذه الأحداث الأرضية للانتقال من الإقطاعية إلى الرأسمالية.

لم يتغير نظام الحياة الاقتصادية فحسب، وإنما فكر كل إنسان أيضاً، في حين كانت طبيعة هذه التغيرات إلى حد كبير نتيجة لانتمائه إلى هذه الشريحة

الاجتماعية أو تلك. وترافق استيعاب التقدم الجاري في المجتمع مع الشكوكية والتهكم من ناحية الإنسان الذي اتضح أنه «غير ضروري».

تنازل التصنيع تدريجياً عن مكانته لتنظيم أكثر تعقيداً للعمل. وتميز تطوير التصنيع بتقسيم العمل إلى أبسط العمليات، الأمر الذي شكل حافزاً لتطوير النشاط الابتكاري. ومثل اختراع المكوك «الطائر» في صناعة النسيج واستبدال يد الإنسان بالآلة بداية الثورة الصناعية. وتطلب تسريع صناعة النسيج صناعة آلة الغزل التي اخترعها الناسج جيمس هارجريفز James Hargreaves. وفي عام 1784 منح إدموند كارترايت Edmund Cartwright البشرية آلة النسيج.

في عام 1771 ظهر مصنع تدار آلاته بحركة عجلة المياه، ولم يعد ذلك تصنيعاً، وإنما المصنع الأول الذي تنفذ الآلات عملياته. وفي عام 1784 صمم المهندس جيمس واط James Watt أول آلة يمكن استخدامها دون الحاجة إلى وجود نهر قريب، على النقيض من عجلة المياه. ودشن ذلك بالفعل الانتقال من التصنيع إلى المصنع. وفي عام 1814 صمم المهندس العصامي جورج ستيفنسن George Stephenson أول قاطرة بخارية. وفي عشرينيات القرن التاسع عشر بدأت حركة البناء الواسع للطرق الحديدية باستخدام مواد ومصادر طاقة جديدة.

في عام 1607 ظهرت في أمريكا الشمالية أول مستعمرة إنجليزية، ومع مرور الوقت تزايد عددها. وسعت بريطانيا إلى فرض القنانة في المستعمرات عن طريق منع المزارعين من استصلاح أراض جديدة، وإرغامهم على دفع الضرائب. كما تم فرض الحظر على تطوير بعض مجالات الصناعة والتجارة مع البلدان الأخرى وغيرها. وفي الرابع من تموز/يوليو 1776 اتخذ مؤتمر ممثلي المستعمرات إعلان الاستقلال الذي منح المستعمرات الاستقلال الكامل. ونص هذا الإعلان على المساواة بين الناس، وأن لهم حقوق غير قابلة للانتزاع، منها الحق في الحياة والحرية والسعي لتحقيق السعادة. ويمكن للشعب إلغاء الحكومة في حالة

انتهاكها لهذه الحقوق. وكما هو الحال مع إعلان حقوق الإنسان والمواطن، كان إعلان الاستقلال موجهاً ضد النظام الملكي والقهر الاستعماري، وكان له أهمية عالمية.

اعتبرت فرنسا في بداية القرن الثامن عشر إحدى أقوى الدول الإقطاعية – المطلقة في أوروبا. واشتهر المقر الجديد – قصر فرساي – بالمهرجانات الباذخة والعمارة والتصميم الفني. ومع ذلك، قبل عام 1715، في نهاية عهد لويس الرابع عشر قوض الاقتصاد الفرنسي بسبب الهزائم العسكرية، وفشلت سياستها التوسعية. وتشكلت الطبقة الثالثة التي ضمت البرجوازية الصغيرة وعمال المصانع والحرفيين والعمال المياومين. وتتميز أواسط القرن الثامن عشر بالوحدة المتينة للسلطتين الملكية والكنسية وكبار النبلاء، ولكن ظهر أيضاً توتر في العلاقات مع الطبقة الثالثة التي شكلت في فرنسا أكثر من 90٪ من السكان. ومن بين الطبقات الاجتماعية المكونة للسكان جميعها كانت البرجوازية الأكثر تطوراً من الناحية الاقتصادية، ولذلك تمكنت من قيادة الثورة. وصل الفلاحون وفقراء المدن إلى درجة الفقر المدقع، وأدت مضايقات البروتستانت الفرنسيين إلى فرار عدد كبير من الناس من البلاد. وأثار تزايد المجموعات الاجتماعية سخط السلطة الحاكمة، بما في ذلك جزء البرجوازية الذي تزعم فيما بعد الطبقة الثالثة في الحركة الثورية.

قبل الثورة الفرنسية ظلت فرنسا بلداً زراعياً بالدرجة الأولى، وكان وضع الفلاحين فيها بالغ السوء. وفعلياً كانت الأراضي جميعها تعود إلى طبقة النبلاء والكنيسة، في حين دفع المزارعون رسوماً مختلفة لصالح الملاك، هذا بالإضافة إلى ضريبة الكنيسة. وكانت الضرائب الحكومية ورسوم الأفراد باهظة، وأهلكت هذه الفرائض الإقطاعية الفلاحين، وأعاقت التنمية الزراعية. لم تتطور الصناعة والتجارة السرعة نفسها التي كانت في إنكلترا، ودعمت

بعض قطاعاتها من قبل الدولة، مما ساهم في تشكيل البرجوازية الناشئة. وعلى الرغم من ظهور أول المصانع، إلا أن الحرف سيطرت على البلاد، وبقيت ورش القرون الوسطى. ومع تطور البرجوازية دخلت مصالحها بشكل متزايد في صراع مع القيود الإقطاعية، مما أدى إلى توحدها مع الحرفيين والفلاحين في ذلك الجزء من طبقة النبلاء الذي أدرك تناقض القوانين الإقطاعية مع مصالح البلاد.

في أواخر عام 1720 لم تتمكن الحكومة من سداد الدين العام بسبب إفلاس البنك الحكومي. وفي عهد لويس الخامس عشر Louis XV (1723–1774) استخدم الجزء الأكبر من إيرادات الدولة لصيانة البلاط الملكي وخوض الحروب التي خسرت فرنسا معظمها، ولم تكن لها أسباب قومية شاملة، وإنما تمثل سبب نشوبها بشكل خاص في تصادم مصالح السلالات الحاكمة. ومع زيادة الدين العام ارتفعت الضرائب، ووقعت المدفوعات بشكل رئيس على عاتق الطبقة الثالثة.

شكلت مواجهة الملك والجمعية التأسيسية التي تألفت من ممثلي الطبقة الثالثة، وإعلان العزم على اعتماد الدستور، الشرارة لبداية الثورة. ويعد اقتحام سجن الباستيل Bastille في 14 تموز/يوليو 1789 بداية الثورة الفرنسية. اعتمدت الجمعية التأسيسية إعلان حقوق الإنسان والمواطن الذي أعلنت فيه القيم الإنسانية العامة، وبالتالي لم تقتصر قيمته على فرنسا وحدها، فقد أصبح فعلياً أساساً لدساتير البلدان الأوروبية التي اعتمدت في القرن التاسع عشر معلنة الحرية والمساواة في الحقوق لجميع الناس، ومحددة حقوق الإنسان الطبيعية وغير القابلة للانتزاع: الحرية والأمان، ومقاومة الاستبداد. كما كرس هذا الإعلان أيضاً حريات الفرد والضمير والتعبير والصحافة، وأن السلطة العليا في يد الأمة.

إن الإطاحة بالنظام الملكي وإعلان الجمهورية من جهة أولى، والهزيمة في الحرب ضد المتدخلين (النمسا وبروسيا وبريطانيا وأسبانيا)، والسعي إلى منع تدمير النظام الملكي، والأهداف التي لم تتحقق لأغلبية المشاركين في الثورة من جهة أخرى، زادت من تفاقم الحالة السياسية التي أدت إلى قيام ديكتاتورية اليعاقبة في شهر أيار/مايو–حزيران/يونيو 1793. ومع مطلع عام 1794 تم إخماد أعمال الشغب، وأخرجت القوات الأجنبية من البلاد. ومع ذلك، ظل الفلاحون كسابق عهدهم بدون أرض، في حين بقي العمال فقراء. حول اليعاقبة الإرهاب إلى وسيلة للحفاظ على سلطة ماكسمليان فرانسوا ماري إيسيدور دي روبسبير Maximilien François Marie Isidore de Robespierre ، الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى نتيجة عكسية، إلى سقوطهم، لتنتقل السلطة إلى أيدي البرجوازية.

لم تتسم الثورة الفرنسية 1793–1794 «بانتصار العقل» كما كان الكثيرون يأملون، وإنما بالإرهاب الروبسبيري (نسبة إلى روبسبير أحد قادة اليعاقبة)، الذي أقام أنصاره في حزيران/يونيو 1793 دكتاتورية اليعاقبة، إلا أنهم تعرضوا في تموز/يوليو 1794 لهزيمة ساحقة، وتم إعدام روبسبير مع العديد من رفاقه.

دمرت الثورة النظام الإقطاعي – المطلق وذلك عن طريق توفير الظروف الملائمة لتطور الرأسمالية. وأصبح ذلك مثالاً للبلدان الأخرى المحافظة على الأنظمة الإقطاعية التي تعيق تطورها. وقد أدى نمو الصناعة إلى تزايد عدد العمال الذين في فترة ثلاثينيات–أربعينيات القرن التاسع عشر شكلوا قوة مستقلة في كل من إنكلترا وفرنسا وألمانيا.

بعد الثورة بدأت فرنسا بانتهاج سياسة توسعية عن طريق احتلال مجموعة من الدول الأخرى. في البداية أعطت الآمال التي ألهمتها الثورة سكان بعض البلدان المبرر لاستقبال الجيش الفرنسي بوصفه القوة التي ستحمل لهم الحرية.

إلا أنه، إلى جانب تقويض النظام الإقطاعي، نقل جيش نابليون إلى البلاد التي استولى عليها فقدان الاستقلال، وتم تحويلها إلى تابعة لفرنسا.

أصبحت إنكلترا في منتصف القرن التاسع عشر أكبر دولة صناعية في العالم، فقد جرى بشكل مكثف بناء المعامل ومصانع التعدين وبناء الآلات. وفي عام 1825 تم مد أول سكة حديدية في العالم، وبعد ذلك ظهرت السكك الحديدية في بلدان أوروبية أخرى. وبدأ استخدام المحركات البخارية في مجال النقل البحري والتجارة والشؤون العسكرية. وكان ثمة وجه سلبي يتمثل في انهيار الحرفيين وصغار المصنعين والمزارعين.

تطورت الرأسمالية في ألمانيا وفرنسا ببطء شديد، فقد بقي هناك عدد كبير من المزارع الصغيرة والحرفيين، وتغلب التصنيع على المعامل. وفي فترة 1848–1849 بدأت ثورات بورجوازية جديدة في كل من فرنسا وألمانيا وإيطاليا والنمسا. وإذا كانت الثورة التي قضت على الإقطاع في فرنسا قد تمت بالفعل نتيجة للتناقضات الداخلية للرأسمالية، فإن الثورات في بقية البلدان كانت موجهة ضد الإقطاع.

فشلت الثورة الديمقراطية – البرجوازية في فرنسا بتأسيس الجمهورية، وانتهت بالهزيمة نتيجة لتضارب المصالح بين البرجوازية والعمال الذين لم يكونوا أقوياء بما يكفي لخوض صراع مستقل، وافتقروا إلى دعم الفلاحين. كما بقيت الثورات في البلدان الأخرى غير منتهية أيضاً.

على الرغم من أن ثورات عامي 1848 و1849 كانت ديمقراطية – برجوازية، فقد فقدت البرجوازية طبيعتها الثورية التي ميزتها إبان الثورة الفرنسية. وببقائها قوة تقدمية تطور الصناعة والثقافة، توقفت البرجوازية عن أن تكون قوة ثورية، لأن مصالحها النهائية لا تتوافق مع مصالح الحلفاء المؤقتين – العمال. وعلى الرغم من هذا، كانت لثورات عامي 1848 و1849 أهمية تاريخية كبيرة،

تمثلت في اعتماد الدساتير في كل من بروسيا، والنمسا، وبييمونتي، ومنح بعض الحريات للفلاحين، وإزالة جميع آثار الإقطاع في فرنسا. في عام 1850 أدت الطفرة الصناعية في أوروبا إلى الاختفاء التدريجي لمبررات ثورات جديدة.

تميزت نهاية القرن الثامن عشر – بداية القرن التاسع عشر بتمركز الصناعة ورأس المال وأسواق التصريف، وظهور احتكارات قوية وتوسعها على حساب المستعمرات القائمة التي أنشئت حديثاً بالقوة، وإعادة توزيع مناطق النفوذ بين الدول والاحتكارات. وعكست نتيجة هذه الظروف تفاقماً حاداً للتناقضات بين الاتجاهات المختلفة للفلسفة وعلم الأخلاق والتاريخ والفن.

منذ القرن الثامن عشر انتشرت سلطة البرجوازية في أوروبا على عدد متزايد من البلدان التي وسعت مستعمراتها وعززتها. وفي القرن التاسع عشر تعاظمت خطورة المشاكل الاقتصادية – الاجتماعية والسياسية التي أصبحت مادة لدراسة الفلسفة، ووجدت انعكاسها في نظرية الفن. وكتب ألبرت شوايتزر Albert Schweitzer عن أن المثل الأخلاقية العليا التي حددتها حركة التنوير والعقلانية غيرت الحياة الواقعية للمجتمع لدى تفاعلها معها، إلا أن تأثيرها توقف تدريجياً مع منتصف القرن التاسع عشر لأنها لم تجد الدعم في العقيدة القائمة. وأثبتت الفلسفة التي تجاهلت مشاكل الثقافة فشلها الذريع، وذلك لأنها لم تأخذ في الاعتبار حقيقة أنه لا يمكن لأساس الأيديولوجيا أن يتمثل في التاريخ والعلوم الطبيعية فقط.

يذكر فروم في كتابه «المجتمع السليم The Sane Society» أن تغير القيم في القرن التاسع عشر أدى إلى أن الإنتاج الذي يجلب الأرباح، وليس الإنسان، هو الذي شغل المكانة المركزية في المجتمع. وترافقت المنافسة المحمومة بين أصحاب المشاريع باستغلال قاسٍ للعاملين تكثف أكثر مع تطور التخصصات. «مبدأ الرأسمالية الذي بموجبه يسعى الجميع إلى مصالحهم الخاصة، وبالتالي

يسهم في الرخاء العام، أصبح الأساسي في سلوك الناس»[1]. إلا أنه، ومع الحرية الظاهرية المفترضة لتصرفات الناس من أجل «مصالحهم الخاصة»، فقد تمثل السبب الحقيقي لأفعالهم في قوانين السوق التي كانت فوق إرادة الفرد العامل. لا أحد يجبر العامل على العمل في مؤسسة معينة، فالعامل حر في اختيار رب عمله، ولكن هذه الحرية وهمية طالما أن الاختيار تحدده في نهاية المطاف قوانين السوق والحاجة إلى عمال من تخصص معين.

إن لعدم تناسب الأجر الذي يتم الحصول عليه مع الجهود المبذولة «عواقب معنوية ونفسية، تمثلت واحدة منها في التقليل من تقييم العمل والجهد البشري والمهارات، في حين تمثلت أخرى في حقيقة أنه بما أن دخلي محدد بجهودي المبذولة، فإن رغباتي أيضاً محدودة. ومن ناحية أخرى، إذا كان دخلي غير مكافئ لجهودي، لا يوجد إذن تقييد لرغباتي»[2].

شهدت الفترة المشمولة بالدراسة التطور الأقصى للمجتمع البرجوازي مع كل ما يميزه من خصائص إنتاج، وثقافة، وبوادر أزمة لهذا المجتمع. وفي ظواهر القرن التاسع عشر جميعها انعكست بدرجات متفاوتة الأحداث العالمية، مثل الثورة الصناعية في إنكلترا، والنضال من أجل استقلال المستعمرات، والثورة الفرنسية العظمى. ومن المتعارف عليه اعتبار بداية الحرب العالمية الأولى في شهر آب/أغسطس 1914 نهاية القرن التاسع عشر من ناحية تغير الأيدلوجيا والثقافة.

الثورة الصناعية التي بدأت في إنكلترا في منتصف القرن التاسع عشر، أُنجزت فعلياً في البلدان الأوروبية جميعها. وأعطى تطور العلوم دفعة للإنتاج تتمثل في الاختراعات التقنية الجديدة التي سمحت على وجه الخصوص بتسريع

(1) إ. فروم. المجتمع السليم//السيكولوجية والثقافة. موسكو، 1995. ص 344.
(2) المرجع السابق. ص 348–349.

الاتصالات (الهاتف والبرق)، واختصار المسافات (وسائل النقل الجديدة) وما إلى ذلك. وتمثلت نتيجة ذلك في توسع مساحة المعرفة والتواصل بين الناس.

من تحت سلطة بريطانيا تحررت مستعمراتها في أمريكا الشمالية معلنة في 4 تموز/يوليو 1776 الاستقلال وتشكيل الولايات الأمريكية الشمالية. واعتبر هذا الحدث مثالاً بالنسبة لمستعمرات البلدان الأخرى، وأظهر إمكانية تطور الرأسمالية بتخطي الإقطاع. لم تعد الرأسمالية ظاهرة أوروبية، بل تحولت إلى نظام عالمي.

جرت بشكل متزامن عملية تشكل ثقافة عالمية تراعي تنوع الثقافات الوطنية. لم تعد الثورة الفرنسية العظمى تجسيداً لمثل التنوير، كما كان متوقعاً على أعتابها، فقد تحولت المساواة المعلنة إلى مجرد إجراء شكلي، وعلاوة على ذلك لم تراعى حقوق الفرد، وإنما دمرت من قبل دكتاتورية اليعاقبة أيضاً. سادت حرية الاستغلال، في حين لم تترجم «مملكة العقل» المنتظرة، ولم تترجم الأخوة بين الناس إلى واقع. وهكذا، لم تتطابق المثل العليا للتنوير مع نتائج الثورات، والنظرية مع التطبيق، وانعكس ذلك في مجالات الحياة الاجتماعية والثقافية كافة في القرن التاسع عشر. وإذا كانت الكلاسيكية المولفة ضد الإقطاعية والمروجة للمثل الجمهورية قد سادت في فرنسا زمن الثورة وحتى عشرينيات القرن التاسع عشر، فقد سادت بعد ذلك الرومانسية التي غطت جوانب وأوجه التنمية الاجتماعية – الثقافية جميعها. ويمثل الهروب من الواقع السمة المميزة للرومانسية.

تتسم رأسمالية القرن التاسع عشر بالنضج، والتوسيع السريع لنطاق استخدام العمل الآلي، ونمو إنتاجية العمل. لقد قام العمل الذي يتمثل مبدأه في الفائدة والربح والإنتاج، بأنسنة الإنتاج وعزل العامل عنه.

تجسدت الفكرة العامة لحرية الإنسان واستقلاله في مجالات الحياة جميعها

في الأفكار الليبرالية التي كانت قد تشكلت فعلياً في القرن الثامن عشر. وفي القرن التالي استبدلت المؤسسات الإقطاعية للسلطة بالملكيات الدستورية والجمهوريات البرلمانية، وتطورت التعددية الحزبية، كما تم إعلان مبادئ الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، وحرمة الملكية الخاصة، وعدم تدخل الدولة في نشاط الأعمال التجارية، وتكافؤ الفرص مع حرية الفرد في تنفيذها.

إلى جانب ذلك طبقت سياسة الاستعمار، وتطورت الاحتكارات، ولم يكن التقييم النقدي للعمل مكافئاً لقوته. وأظهرت هذه الأسباب مع مجموعة غيرها فشل الليبرالية في إيجاد أشكال التحقيق الشامل للفرد، وأعلنت الرأسمالية المنفعة الفضيلة الأسمى، على سبيل المثال، استطاع كل من حقق الرخاء بعمله المحافظة على ما أنجزه ومضاعفته. وفي هذه الفترة انتشرت الطوائف البروتستانتية: الكلفينيون Calvinists في أوروبا، والتقويونPietists في ألمانيا، والميتوديون Methodists في الولايات المتحدة الأمريكية. وحددت هذه الطوائف معنى الحياة في العمل الدائم. وفي كتابه «الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism»، يوضح ماكس فيبير Max Weber العلاقة بين العقيدة البروتستانتية وروح الرأسمالية.

في هذه الفترة تغيرت قيم البرجوازي القديم لينصب جل التركيز على الأرباح والإعلانات التي تضاعفها بغض النظر عن جودة السلعة، وكفت القيم، مثل التوفير والاعتدال، عن كونها أساساً للأخلاق، والمتطلبات التي سبق وقدمت لشخص صاحب المشروع انتقلت الآن إلى مؤسسته.

أصبح الإنسان ينظر بشكل جديد إلى الطبيعة التي لم تعد تبدو تظهر في عقيدته كخالق، بل تحولت إلى مورِّد للنعم. والإنسان نفسه تحول في القرن

التاسع عشر من أسمى المخلوقات في الكون إلى ذيل للإنتاج يجب أن يستوفي المعايير في العمل، وفي الأسرة، وفي الحياة العامة. ولا يضمن التقدم التكنولوجي تقدماً ثقافياً، كما يمكن للأول أن يدمر الدور المبالغ فيه للثقافة.

لقد أدت هذه الظروف مجتمعة إلى أنه في ثقافة القرن التاسع عشر اجتمعت تيارات مختلفة بأغراضها وتوجهاتها ومبادئها. فقدت العمارة أهميتها السابقة، وظهرت أنواع جديدة من الإبداع، مثل والسينما والتصوير الفوتوغرافي وغيرها. تطورت الفنون الشعبية، والفنون التطبيقية، وصناعة الفن التي اعتمدت على تيار نسخ وتوزيع الأعمال الفنية. وأصبح الفن في هذه الفترة تجسيداً فريداً لعلاقة الإنسان بالواقع، ليس فقط بتصويره له، وإنما بعزل نفسه عنه.

قاد عدم الرضا بالواقع لاستبداله في فن الرومانسية بالمثل الأعلى الذي يمكن العثور عليه في الطبيعة، وفي زمن آخر، أو في العالم الداخلي للفرد نفسه. ومن بين أبرز ممثلي الرومانسية ينبغي ذكر كل من الكتاب جورج غوردون بايرون George Gordon Byron وبيرسي بيش شيلي Percy Bysshe Shelley (إنكلترا)، فيكتور ماري هوغو Victor Marie Hugo (فرنسا)، إيرنست تيودور أماديوس هوفمان Ernst Theodor Amadeus Hoffmann، وكريستيان جوهان هاينريش هاينه Christian Johann Heinrich Heine (ألمانيا)؛ والموسيقيين فرانس بيتر شوبرت Franz Peter Schubert (النمسا)، وروبرت شومان Robert Schumann (ألمانيا)؛ والرسام ديلاكروا (فرنسا). ومثلت الرومانسية وبدرجة كبيرة الأساس لنشوء وتطور الواقعية النقدية Critical realism، فقد جعل والتر سكوت Walter Scott الماضي في رواياته مثالياً (أمثَلَة) إلى حدٍ كبير، في حين توجه جورج غوردون بايرون George Gordon Byron إلى مواضيع الشرق البعيد، وخلق هوفمان وهاينه ووليام ريتشارد واغنر Wilhelm Richard

Wagner عوالم خيالية، كما جُعلت حياة الحرفيين والفلاحين الأبويين مثالية.

تميزت أواسط القرن التاسع عشر بأزمة الفلسفة الطبيعية مع تطور غير مسبوق للعلوم الطبيعية، فقد أثبت العالم في علوم وظائف الأعضاء (الفيسيولوجيا) والأمراض كلود برنار Claude Bernard المنهج التجريبي لدراسة الكائنات الحية، وذلك بإعلانه «قوة الواقعة» كقانون أساسي. ويشتهر لويس باستور Louis Pasteur بعمله في مجال الكائنات الحية الدقيقة، وللمرة الأولى أجرى التلقيح. والمساهمة المهمة في تطوير العلم كانت من نصيب الكيميائيين مارسيليان بيير يوجين بيرتيلو Marcellin Pierre Eugène Berthelot وشارلز أدولف فورتز Charles Adolphe Würtz، والفيزيائيين بيار كوري Pierre Curie وماري كوري Marie Curie وغيرهم.

في منتصف القرن التاسع عشر استخدم التلغراف السلكي على نطاق واسع، وصممت الآلات الكاتبة، ومدت كابلات الاتصال تحت الماء، واكتشف المخترع الإنجليزي هنري بيسمير Henry Bessemer سر صهر الفولاذ بوساطة نفخ هواء الحديد السائل (مباشرة من تماسيح الحديد)، وفي ستينيات القرن التاسع عشر طور بيير إميل مارتن Pierre–Émile Martin طريقة للحصول الصلب في الأفران.

في مجال النقل أصبح القرن التاسع عشر قرن الحديد والبخار، فقد تم استبدال الأسطول الشراعي بسفن بخارية، وتطور بناء السكك الحديدية والقاطرات البخارية. واقتضت الثورة الصناعية دراسة الخصائص الكيميائية للمواد. وعن طريق تطبيقه لقانون حفظ كتلة الأجسام فسر الكيميائي الفرنسي أنطوان لوران دي لافوازييه Antoine Laurent de Lavoisier الاحتراق كردة فعل لتفاعل المواد مع الأكسجين، ووضع مجموعة من المركبات الكيميائية. واقترح العالم الإنجليزي تشارلز روبرت داروين Charles Robert Darwin نظرية أصل

الأنواع عن طريق الانتقاء الطبيعي.

هيمنت المثالية الألمانية German idealism في فلسفة النصف الأول من القرن التاسع عشر، في حين تطورت العلوم الطبيعية في النصف الثاني منه، وأدى تصادم الأفكار المتضاربة والصراعات الاجتماعية الحادة إلى انخفاض الفلسفة الكلاسيكية التي تمثل قضايا الحقيقة والحرية مادة لدراستها. ورأى كانط وهيغل أن الثقافة تنتمي إلى مجال روح الإنسان، وهي أعلى من الخصائص الطبيعية للفرد وظروف وجوده في المجتمع. ويعرف كانط الفن بأنه «الإبداع بوساطة الحرية، أي عن طريق الطغيان الذي يفترض العقل في أساس نشاطه»[1]. ولم يهتم كانط بمسألة واقعية وجود الجمال، فالشيء الرئيس بالنسبة له هو علاقة الإنسان بمواد الطبيعة ونتائج نشاطه، ورأى في الشعر الشكل الأسمى للفن لأنه «يعزز الروح»، في حين يساعد الفن نفسه «ثقافة قدرات الروح من أجل التواصل بين الناس»[2]. وبرر أنصار الذاتية Subjectivism في الفن موقفهم عن طريق تأكيدات كانط بأن «الجمال من دون مراعاة شعور الموضوع هو في حد ذاته لا شيء»[3]، ولا يمكن تقييم الذوق باستخدام معايير موضوعية. وبدراسته لأعمال كانط، يؤكد إيغور سيرغييفيتش نارسكي Igor Sergeyevich Narski أنه إلى جانب سوء فهمه لدور الموضوعية في الفن، اعتبر الفيلسوف «هدف الفن ومثله الأعلى (يفهم بـ«المثل الأعلى» التصور عن المادة المكافئ للفكرة الأسمى للإبداع الفني) بؤرة العالم الأخلاقي الروحي، أي الشخصية البشرية»[4]. وأعلن كانط فكرة عن أنه يتمنى للإنسان أن يكون المثل الأعلى للجمال.

(1) إ. كانت. المؤلفات في 6 مجلدات. موسكو، 1966. المجلد 5. ص 318.

(2) المرجع السابق. ص 345، 321.

(3) المرجع السابق. ص 220.

(4) إ. س. نارسكي. الفلسفة الأوروبية الغربية. موسكو، 1976. ص 169.

تمثل الدور التاريخي الذي لعبته الحروب الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر في أنها دمرت البنية الإقطاعية للمجتمع. إلا أن انتصارات نابليون اللاحقة إلى جانب إزاحة الأنظمة المحافظة، قادت إلى السيطرة الأجنبية الغريبة التي أسفرت عن توحيد القوى البرجوازية على منبر الوعي الوطني.

تظهر تطلعات جزء من البرجوازية إلى التغييرات الاجتماعية جلية، وخاصة في أعمال الفيلسوف الألماني جوهان جوتليب فيخته Johann Gottlieb Fichte „استرداد حرية الفكر من أمراء أوروبا الذين قمعوها إلى الآن Reclamation of the Freedom of Thought from the Princes of Europe، Who Have Oppressed It Until Now» (1793)، و«المساهمة في تصحيح أحكام العامة حول الثورة الفرنسية Contribution to the Rectification of the Public›s Judgment of the French Revolution » (1794)، «بعض المحاضرات المتعلقة بمهنة العالم Some Lectures Concerning the Scholar's Vocation» (1794). وفيها دعا فيخته إلى إلغاء العبودية واضطهاد الكنيسة وأمراء الإقطاع، وإلغاء الامتيازات الفئوية، واعتبر الثورة المرسخة لحكم ليبرالي – دستوري مشروعة.

كتب هيغل أن «الأمة الفرنسية تخلصت بفضل بوتقة ثورتها من مجموعة من المؤسسات التي منها نمت الروح البشرية كما من حذاء الأطفال، التي أعاقتها وغيرها، كالأغلال القاسية»[1].لم يحتفظ النظام الملكي المستعاد في فرنسا بعد هزيمة الثورة بمكاسبه. وبالنسبة لهيغل كانت قريبة التحولات الجيروندينية Girondin، واعتبر عنف وإرهاب الثورة غير مقبولين. وعند تناوله ديكتاتورية اليعاقبة، وصف هيغل الثورة بالقوة المدمرة التي لا معنى لها. «لا يمكن للحرية الشاملة القيام بأي إجراء أو فعل إيجابي، إلا أنها تبقى السلبية

(1) غ. هيغيل. أعمال الأعوام المختلفة. موسكو، 1971. المجلد 2. ص 262.

الوحيدة للعمل، إنها مجرد ضراوة الاختفاء»[1]. فبإعلانه الحرية الشاملة، دمر روبسبير حرية الفرد، والفرد نفسه. «لذلك فالموت هو المنتج والفعل الوحيد للحرية الشاملة»[2].

طرح أوغست كونت Auguste Comte نظرية الوضعية positivism التي تنص على أن المعارف الإيجابية تمثل الأساس لكل شيء. وحددت الوضعية مهمة الباحث في الوصف الإيجابي للأحداث والظروف، من دون دراستها أو تحليلها. واعتقد كونت بأن هناك ثمة قوانين خفية تدير سائر المجتمعات، ويمكن معرفتها بمساعدة منجزات العلوم. ووضع منهجاً عقلانياً لدراسة المجتمع، مثلت الملاحظة والتجربة أساسه. وبإشارته إلى أحدث العلوم الطبيعية، أكد كونت أنه ينبغي عليها أن تستغني عن الفلسفة. ولا تتمثل مهمة العلم في تفسير الظاهرة، وإنما في وصفها فقط.

هيبوليت تين Hippolyte Taine هو خليفة كونت، ووفقاً له فإن الأحاسيس التي يتم الحصول عليها في عملية الإدراك تنعكس على شكل مواد في وعي الإنسان. و«الشيء البادي» المجسد في الوعي هو موجود بشكل مستقل عن وجود شيء حقيقي. وفي مؤلفته «تاريخ الأدب الإنجليزي The History of The English Literature»، يعرض تين وجهة نظره عن الفن الذي في رأيه يعتمد دائماً على ثلاثة عوامل: البيئة، واللحظة التاريخية، والعرق. وعندها، ليس لسمات شخصية الفنان أهمية.

يؤكد الوضعي الإنجليزي هربرت سبنسر Spencer Herbert بأن انتماء الناس إلى هذه الفئة الاجتماعية أو تلك يعتمد على الصفات الفطرية، و مكافحة ذلك لا معنى لها. والصراع من أجل البقاء في إطار النمو التطوري الذي برره

(1) غ. هيغيل. المؤلفات. موسكو – لينينغراد. 1929–1958. المجلد 4. ص 317.

(2) المرجع السابق. ص 318.

داروين، هو أمر آخر. ووجدت نظرية الداروينية الاجتماعية تطويرها في مؤلفات فريدريك نيتشه وأنصاره.

في النصف الأول من القرن التاسع عشر ظهرت في ألمانيا نظرية آرثر شوبنهاور Schopenhauer Arthur التي تأثرت إلى حد كبير بالفلسفة الكلاسيكية. وتمثلت ثمرة جهده لأعوام طويلة في كتاب «العالم إرادة وفكرة The World as Will and Representation» حيث يعلن وجود «إرادة عالمية»، أي أساس روحي خلق العالم كله. ويمكن إدراك هذه الإرادة فقط عن طريق عملية تأمل فلسفي غير محشوة بأية أغراض عملية. ويثبت هذا الإدراك فراغ الحياة. وتصبح «الإرادة العالمية» والعالم الذي خلقته ذلك «اللاشيء» الذي تنتهي به آمال الإنسان وطموحاته. وعلاوة على ذلك أكد شوبنهاور أن أساس الفن يتمثل في بصيرة حدسية متاحة للإنسان العبقري فقط.

رأى الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه أن الثقافة بالنسبة للمخلوق الطبيعي، الإنسان، تنبري كقوة خارجية تسحقه بالمحرمات الأخلاقية الهادفة إلى دعم حياة الناس الضعفاء والمحبطين. والإنسان الذي أعلنه نيتشه هو غير مقيد بمحرمات أخلاقية في تجسيده لطبيعته، وينفي أخلاق ومتطلبات المجتمع الأخرى واضعاً حريته فوق كل شيء. ويحدد نيتشه أساس نظريته في تقديس «الإنسان الأعلى «السوبرمان» الذي لا تستطيع مبادئ الأخلاق إعاقته. ويعرف الحرب «كقوة مطهرة»، في حين يقيم الفن من موقف المثالية.

روج هنري برجسون Henri Bergson للفلسفة الحدسية وفكرة الذاكرة «العفوية» وتقديس اللاشعوري، وأعرب عن اعتقاده بأن فهم الحياة ممكن ليس بالعقل، وإنما بالحدس فقط. ويمكن فهم جوهر المادة فقط عن طريق الدمج بطريقة باطنية مع الشيء الوحيد الموجود في هذه المادة. بيد أن ذلك الشيء الوحيد لا يمكن فهمه إلا عن طريق التحليل والدراسة. ولا يتمثل غرض

الفن في رسمه لصورة الواقع، وإنما في التغلغل الحدسي (دون مساعدة، أو بالأحرى، دون تدخل العقل) في جوهر الأشياء والواقع. ويجب على الفنان أن يعكس تلك الحركات الدقيقة التي تحدث في العقل الباطن. ولا ينبغي أن تهم القضايا الاجتماعية والتعميمات الفن.

تنطلق فلسفة التحليل النفسي لسيغموند فرويد Sigmund Freud من أن الإنسان لا يستطيع التوفيق بين رغباته واحتياجاته ومعايير السلوك التي أقرتها الثقافة. والعقد المؤلمة الناشئة نتيجة لذلك تحمل الإنسان على تجسيد الطاقة والرغبات غير المتحققة في أشكال مختلفة للنشاط الثقافي. واعتقد فرويد أن في أساس أشكال النشاط البشري جميعها تكمن دوافع دون الوعي، أقواها الغريزة الجنسية.

تطورت أيضاً الفلسفة المادية (كارل ماركس، فريدريك انجلز). ووجدت كل المذاهب الفلسفية المذكورة انعكاسها بدرجة أو بأخرى في اتجاهات مختلفة من الفن.

في أواخر خمسينيات القرن التاسع عشر بدأت فترة الانحطاط Decadence ، التي تعني «التراجع». يرتبط البحث عن سبل جديدة للتنمية في الانحطاط .بمبدأ «الفن من أجل الفن»، وإعلان اللامبالاة السياسية، والوعظ بالعجز والمصير القاتم للإنسان. وفي الجانب النظري استند الانحطاط إلى الفلسفة المثالية لنهاية القرن التاسع عشر – بداية القرن العشرين، وعلى وجه الخصوص إلى فلسفة كونت الوضعية، وإلى الترتيبات النظرية لكل من شوبنهاور ونيتشه برجسون وفرويد.

تغلغلت الفلسفة الوضعية إلى أعمال الطبيعيين، وفي المقام الأول أدباء فرنسا حيث ظهر هذا التيار. وفي الثلث الأخير من القرن التاسع عشر أصبح هذا التيار شائعاً في أشكال أخرى من الفن، وليس في فرنسا فحسب، وإنما

في أوروبا كلها، وكذلك في أمريكا. ويمتلك المذهب الطبيعي بعض أوجه التشابه مع الفن الواقعي، لا سيما في أعمال كبار الفنانين التي تصور الظواهر الحياتية بشكل مفصل وموثوق به. وفي الوقت نفسه يتجنب المذهب الطبيعي التعميمات، ودراسة جوهر الظواهر المصورة، وأسباب ظهورها. ومع تطور هذه المدرسة أوليت أهمية متزايدة إلى مبدأ الوراثة كتفسير لأسباب المكان الذي يشغله الإنسان في السلم الاجتماعي، والشيء الذي يقرب الوضعية من الرمزية التي لا تمتلك الوراثة بالنسبة لها أهمية حاسمة بالنسبة لوضع كل شخص فقط، ولكنها تتحول لاحقاً إلى التهلكة. ويتجلى ذلك في أعمال كل من جوريس كارل هويسمانس Joris–Karl Huysmans (فرنسا)، وغيرهارت هاوبتمان Gerhart Hauptmann (ألمانيا) وآخرين.

أصبحت فرنسا في فترة ستينيات – سبعينيات القرن التاسع عشر موطن الانطباعية Impressionism التي ظهرت في البداية في الرسم، ومن ثم في الأدب. وحددت الانطباعية أساس التصوير في العالم الداخلي للإنسان والتجارب الفردية التي لا تحتاج إلى إثباتات بأية عوامل موضوعية. وبشكل متزامن أثرى هذا الاتجاه تقاليد الواقعية، وابتعد عنها عن طريق الاقتصار على عالم التغلغل الفني للفن.

شهدت فترة سبعينيات – ثمانينيات القرن التاسع عشر الظهور الأول لاتجاهات منحلة بحتة، في فرنسا (الرمزية Symbolism)، وفي بريطانيا في تسعينيات القرن التاسع عشر (الذوق الجمالي Aestheticism). ولم تنتشر الرمزية في فرنسا وحدها، وإنما في روسيا وبلجيكا وألمانيا أيضاً، ولم تضع لنفسها مهمة التصوير الحقيقي للعالم القائم باستخدام الرموز التي يعبر فيها عن المصير المحتوم، و«التغني باللانهاية» (موريس ماتيرلنيك Maurice Maeterlinck)، والمظاهر غير العقلانية للمشاعر الذاتية (بول ماري فيرلان Paul Marie

Verlaine). وأعلنت الرمزية مبدأها في الابتعاد عن الواقع، وعدم توافق الفن مع الحياة، والأخلاق، لأن الأخيرة تختلف تبعاً لتغيرات الواقع، في حين أن المثل العليا للفنون ثابتة. وتعكس الرمزية شيخوخة الحضارة (ستيفان مالارميه Stéphane Mallarmé، وشارل بودلير Charles Baudelaire). وينبغي أن يقوم الفن على الخيال، وليس على تسجيل الطبيعة وعكسها. واعتقد الرمزيون أن الفنان يختلف عن الشخص العادي في أنه هو فقط قادر على تمييز الرمز بدلاً من الحدث اليومي المرئي من الجميع. والإبداع الفني نفسه هو خلق للرموز التي تعكس الحقيقة الخفية. وعلى النقيض من أعمال الرومانسيين، لا تتمتع أعمال الرمزيين بالملامح الساخرة التي ميزت على سبيل المثال أعمال هوفمان. ومن وجهة نظر ممثلي هذا الاتجاه لا ينبغي أن يكون النظام الاجتماعي وتقييم عدالته وضرورة التحسين مادة للفن. ويغرس الشكل والانفعالات الجمالية الداخلية.

كما الرمزية، تنأى الجمالية الإنجليزية بنفسها عن السياسة والواقعية. «الفن من أجل الفن»، و«الجمال من أجل الجمال نفسه» - ذلك هو جوهر الجمالية كتيار منحل كما وصفها أنصارها. والاسم الأبرز في هذا التيار هو أوسكار وايلد Oscar Wilde الذي أعلن حرية الفن الحقيقي من متطلبات الأخلاق ومشاكل الحياة الواقعية، واعتبر الواقعية عاجزة. وعلى الرغم من ذلك، فقد وجد انتقاد الأخلاق الفيكتورية المنافقة لنفسه حيزاً في مؤلفاته. وناقضت الجمالية الفن والجمال والواقع والعالم المحيط. ويطرح وايلد فكرة أن ليس الفنان هو من يصور الحياة، ولكن على العكس من ذلك، الصور هي التي تشكل الواقع.

في المقابل، بمثل هذا الابتعاد عن الحياة لنظريات نهاية القرن التاسع عشر، يتميز تطور الأدب في روح نظريات نيتشه الذي يمجد الطموحات

الاستعمارية، وقدسية وشرعية هيمنة العواصم الكبرى على المستعمرات التي تحتاج إلى الانخراط في الحضارة، والحاجة إلى النظام في الدولة. على سبيل المثال، في رواياتهما يمجد موريس باريس Maurice Barrès وشارل موراس Charles Maurras الكاثوليكية، وذلك عن طريق اعتبارها ضمانة للاستقرار الاجتماعي، وترويجهما للأفكار العنصرية. وكان الكاتب الموهوب والمعروف جوزيف روديارد كيبلينغ Joseph Rudyard Kipling مؤيداً للسياسة الاستعمارية، واعتبر منفذيها أبطالاً يحملون الضوء إلى الشعوب شبه المتوحشة.

ظهر تيار المستقبلية futurism في بداية القرن العشرين في إيطاليا، وفيه محاولة لتقديم فن المستقبل كوحدة للنشاط والأسلوب «شديد الإيجاز»، واعتبر الأخير ابتكاراً. والمدافعان عن المستقبلية هما فيليبو توماسو إميليو مارينيتي Filippo Tommaso Emilio Marinetti وزميله غابريلي دأنونزيو Gabriele D›Annunzio (أمير دي مونتينيفوسو Principe di Montenevoso).

تحمل التعبيرية الألمانيةGerman Expressionism طابع الفوضى، وتضع هدفها في التعبير عن العواطف الذاتية للفنان عن طريق تصوير الصور الواقعية من زاوية نظر غير عادية وغير طبيعية. ولم يعترف التعبيريون بالتصوير الطبيعي للعالم، ولا بفن الرمزيين المتطفل. وأعلنت ضرورة التحسين الأخلاقي للإنسان، وبناء عالم الوئام الرافض للعالم القائم بعيوبه. وفتش الفنانون عن الروح في كل مادة. وينبغي على التنوير الروحي الممكن في أي مرحلة من مراحل نمو الإنسان أن يقود إلى عالم الإنسانية. وأجبر الخوف من زمن الآلات على التخلي عن صورته عن طريق إعلان موضوع الفن فقط في استيعاب هذا العالم بوساطة موشور الرؤية الداخلية للفنان، مما جعل منه المدافع الوحيد عن العدالة. والإنسان بالنسبة للتعبيريين ليس شخصية محددة، وإنما ممثل للبشرية أو لمجموعة معينة من الناس، والقيمة العليا للعالم. وتميز الرسامون باللوحات التي

تصور مفاهيم عامة من «ظلام»، «تعب» وغيرها.

من بين أتباع الانطباعية أوسكار كلود مونيه Oscar—Claude Monet، وإدوارد مانيه Édouard Manet، وإدغار ديغا Edgar Degas، وبيير أوغست رينوار Pierre—Auguste Renoir الذين لم يحددوا هدفهم بتصوير الواقع، وإنما في رؤية الفنان له وانكساره في النظرة الإبداعية دون السعي إلى تقديم تحليل أو تفسير للظاهرة. ويمثل مرحلة ما بعد الانطباعية Post—Impressionism فنانون مثل بول سيزان Paul Cézanne، وفينسنت فان غوخ Vincent van Gogh، وإيجين هنري باول غوغان Eugène Henri Paul Gauguin الذين سعوا إلى تجسيد تناقضات المدينة وحياة الإنسان بأدوات فنية، بيد أن هذه الأدوات لم تكن كافية لأداء المهام الموضوعة، ومن هنا جاء التغلغل إلى العالم الداخلي والباطنية.

روبرت لويس ستيفنسون Robert Louis Stevenson الممثل الأبرز للرومانسية الجديدة Neo—romanticism، ولعدم عثوره على إمكانيات الإبداع في الاعتماد على الواقع، ملأ رواياته بالمغامرات والمكايد والألغاز والأبطال الشجعان، ناقلاً الأحداث إلى بلدان أخرى وبحار بعيدة، وما إلى ذلك. وما يهم الرومانسيين الجدد هو العالم الداخلي للأبطال وتناقضات شخصياتهم، وموضوع وحدة الإنسان وعدم قدرته على العيش في حالة التجارة والنفاق.

استبدل الرومانسي والمغامر (بطل الرومانسية الجديدة) بالموظف والجندي في «أدب الأفعال». وللمرة الأولى ظهر «رجل الأفعال» عند روديارد جوزيف كبلنغ Joseph Rudyard Kipling. هذا الرجل يقاتل ويؤدي عملاً شاقاً في المستعمرات للرجل الأبيض المدعو لتنوير أبناء البلد الذين لا يمكن الجدال في تفوقه عليهم.

في أربعينيات القرن التاسع عشر ظهر في الفن اتجاه الواقعية النقدية Critical

realism المرتبط مع كل من واقعية عصر النهضة، والتنوير، والرومانسية التي شكل العديد من ملامحها الأساس لنشوء الواقعية النقدية. والواقعية، كما الرومانسية، تنفي عدالة الواقع القائم، ولكنها لا تختبئ منه، وإنما تجسده في أعمالها في محاولة لتتبع أسباب نشوب الصراعات الاجتماعية. وأبرز ممثلي هذا الاتجاه في الأدب هم أونوريه دي بلزاك Honoré de Balzac (فرنسا) وممثلو الرواية الاجتماعية الإنجليزية تشارلز جون هوفام ديكنز Charles John Huffam Dickens، وجون غلوزورثي John Galsworthy، ووليام ماكيبيس ثاكيراي William Makepeace Thackeray، وتوماس هاردي Thomas Hardy. وفي الفن التشكيلي تيودور روسو Théodore Rousseau (مناظر طبيعية)، وأنوريه دوميهHonoré Daumier (رسومات)، وجان فرانسوا ميليه Jean—François Millet، وجون كونستابل John Constable (لوحات).

تعزز في الواقعية النقدية اتجاه المؤلفات الاجتماعية، واتسعت نطاقات وجوده كمدرسة معزولة بشكل واضح. واحتل هذا الاتجاه مواقع في كل من ألمانيا (توماس مان Thomas Mann، وهينريش مان Heinrich Mann، وغيرهارت جوان روبرت هاوبتمان Gerhart Johann Robert Hauptmann)، وفي الولايات المتحدة الأمريكية (مارك توين Mark Twain (صموئيل لانغهورن كليمنس Samuel Langhorne Clemens)، وجاك لندن Jack London (جون غريفت تشيني John Griffith Chaney)، وتيودور هيرمان ألبرت دريزير Theodore Herman Albert Dreiser)، وفي بلدان أخرى، أما في فرنسا فقد واصل كونه مدرسة إبداعية (جي دي موباسان Guy de Maupassant (آنري رينيه ألبرت دي موباسان Henry—René—Albert—Guy de Maupassant)، وأناتول فرانس Anatole France (فرانسوا أناتول تيبو François— Anatole Thibault)، ورومان رولان Romain Rolland، وغيرهم)، وفي إنجلترا (جون

غلوزورثي، وهيربرت جورج ويلس Herbert George Wells، وجورج برنارد شو George Bernard Shaw، وغيرهم). ورأى أتباع الواقعية النقدية هدفهم في تصوير الأزمة التي تواجه المجتمع بأدوات فنية، والصراعات الاجتماعية وآثارها، والظروف الواقعية للحياة وتعميماتها، كما أنهم سعوا لإظهار الصراع ضد تقييد الوسط.

لا تسمح السردية الواقعية برؤية الواقع الموضوعي والعالم الداخلي والخارجي للإنسان فحسب، وإنما بتقييم الحدث أيضاً، والإفصاح عن التوقعات والتعميمات التي بمساعدتها يظهر موقف المؤلف. ويتجاوز الجدل والنقاش حدود الرواية، فيجدد الدراما والمسرح. واتسمت فترة نهاية القرن التاسع عشر – بداية القرن العشرين بإبداع كتاب مسرحيين، مثل هنريك جوان إبسن Henrik Johan Ibsen، وجورج برنارد شو، وجوان روبرت هاوبتمان. كما ترتبط الواقعية أيضاً مع اسم الرسام والنحات البلجيكي قسطنطين ميونير Constantin Meunier الذي عكس في إبداعه صور عامة الشعب من عمال الموانئ وعمال المناجم وغيرهم. وإلى جانب التيارات المذكورة الناقدة للواقع بدرجة أو بأخرى، كانت هناك أيضاً الواقعية العادية Mundane realism، وهي التيار المدعوم من الدولة، والمدعو لتبرير تطابق المثالية مع الواقع.

الفصل الرابع عشر

ثقافة القرن العشرين

يتميز القرن العشرون بظهور ثقافة عالمية النطاق، فقد جلب هذا القرن للإنسانية إمكانيات جديدة، وفتح لها آفاقاً غير مستكشفة، إلا أن الناس، وللأسف،لم يتمكنوا من الاستفادة من هذه النعم. وعلى النقيض، يدخل القرن العشرون في تاريخ الثقافة بوصفه قرن القسوة والهمجية وسطوة العنف والشر من جهة، والمداهنة المنافقة والأخلاقية المصطنعة من جهة أخرى.

تميزت بداية القرن العشرين بحدثين ثقافيين – تاريخين هامين دفعة واحدة. في عام 1914 نشبت الحرب العالمية الأولى، وفي تلك السنوات، لم يدعها أحد بـ«الأولى» لأن الناس لم يتصوروا أن ثانية ستعقبها قريباً. وتمثلت أسباب الحرب في سعي القوى الرأسمالية الكبرى لتقسيم العالم من جديد، فقد بدا لكل منها أن الآخرين حصلوا على قطعة أكبر وأسمن. وجرت حقبة العصر الحديث تحت شعار انتصار العقل، بيد أن هذا العقل يتجسد الآن في أسلحة الدمار التي لم تعرف حروب الماضي مثيلاً لها. ويعتقد سقراط أن الإنسان لا يتصرف بشكل غير أخلاقي إلا إذا لم يكن يعرف ببساطة ماذا يعني أن يتصرف بشكل صحيح. وأثبتت الحرب العالمية الأولى أن تطور العلم والتكنولوجيا وتنمية العقل لا يستطيعان ضمان النمو الأخلاقي فحسب، وإنما على العكس من ذلك، يجردان الإنسان من إنسانيته. وبهذه النزعة يمتاز القرن العشرون بأكمله.

ثانياً، تمثل الحدث الثاني – الذي لا يقل أهمية – في تشكل الاتحاد السوفييتي كأول دولة اشتراكية في العالم، إذ اعتمد مؤسسوه بقيادة فلاديمير إيليتش لينين

Vladimir Ilyich Lenin على نظرية كارل ماركس Karl Marx وفريدريك إنجلز Friedrich Engels. وبين إريك فروم في كتابه «المجتمع السليم The Sane Society» محدودية هذه النظريات، وكذلك حقيقة أنها لم تنفذ حتى في هذا الشكل غير المكتمل، فقد كان للاشتراكية المبنية في الاتحاد السوفييتي القليل من الأشياء المشتركة مع تلك التي وصفها ماركس وإنجلز.

السبب في انتصار الثورة الاشتراكية بسيط، وهو نفسه كما في غيرها من الثورات. تستولي على السلطة في البلاد الطبقة الأكثر تقدماً، ومثلّها العمال في تلك الفترة، ففي روسيا لم تكن هناك طبقة برجوازية قوية يمكنها انتزاع السلطة من النخبة الإقطاعية المتحللة، كما حدث في بلدان أوروبا. ومن ناحية أخرى، استأصلت العلاقات الإقطاعية القديمة نفسها منذ زمن طويل، ولم تتمكن من البقاء لفترة أطول. والثورة الاشتراكية في روسيا ليست انتفاضة عرضية أو انقلاب، وإنما هي حدث ثقافي – تاريخي طبيعي لعب دوراً ايجابياً في تطوير الثقافة العالمية. وبعدها بدأت الحركة العمالية في بلدان العالم المتقدمة صناعياً بالتطور. واضطر الرأسماليون لتقديم التنازلات للعمال خشية من تجربة روسيا، وخوفاً من أن يفقدوا السلطة نتيجة للثورة. إلا أن انتصار الثورة لم يؤد إلى إقامة السلطة الشعبية، ففي الاتحاد السوفييتي نشأت دولة شمولية قوية، وجرى قمع وحشي وقتل للمعارضين. وفي الوقت نفسه قام الاتحاد السوفييتي بخطوتين هامتين في تنمية البلد والثقافة. أولاً، زيادة مستوى الإلمام بالقراءة والكتابة. وثانياً، تم في أقصر وقت ممكن بناء اقتصاد البلاد وقهر الفوضى وتحويل روسيا من بلد شبه إقطاعي متخلف إلى واحدة من القوتين العظيمتين في العالم.

جرى في الفترة ذاتها إنشاء نظام شمولي آخر في ألمانيا، فقد أدت الهزيمة في الحرب العالمية الأولى إلى الانهيار ليس للبلاد فقط، وإنما لنمط حياة الألمان العاديين أيضاً. وفي كتابه «الهروب من الحرية The Fear of Freedom» يصف

إريك فروم بالتفصيل المقدمات النفسية لتشكل الفاشية، وهي الهزيمة في الحرب (وليس في الحرب فقط، وإنما في الحرب العالمية، الأمر الذي كان ذا أهمية خاصة)، وانهيار الثقة في القيم والمثل العليا لألمانيا القيصرية؛ وإفقار الناس الذين عملوا بجد طوال حياتهم ليوفروا كلَّ بفنك Pfennig للمستقبل، ليتركوا صفر اليدين؛ وسقوط مصداقية الكبار، وغياب القدوة لدى الجيل الجديد». لقد أدت كل هذه العوامل إلى حقيقة أن الناس تاهوا وأضاعوا المخرج الذي يمكن الاعتماد عليه.

لماذا أصبحت الأيديولوجية الفاشية بالنسبة لهم الحل المثالي؟

لقد جُرد الألمان من كل ما يمكنهم الفخر به، وبقي لديهم الشيء الوحيد الذي لا يمكن انتزاعه من الإنسان – القومية. فليس عبثاً أن يطلق النازيون على أنفسهم اسم الحزب القومي – الاشتراكي. ولكن ما معنى الفخر بالأصل، إذا تكبد البلد الهزيمة في كل النواحي؟ الجواب بسيط: من الضروري الإيمان بأن القوميات جميعها والأجناس الأخرى هي أدنى من حيث «التحديد»، وعندها يغض الطرف على جميع النكسات والهزائم.

.بماذا تختلف الفاشية عن حب الوطن؟

يتطلب حب الوطن وعياً لنقاط قوة وعظمة البلد. وهو في الوقت نفسه ليس أعمى، ولا يغض الطرف عن أوجه القصور الموجودة في كل بلد. أما الفاشية فهي عكس ذلك تماماً، إذ لا تعتمد على كرامة الوطن، وإنما على أوجه القصور في الآخرين، وتنتقد كل الدول الأخرى وتسخر منها بدلاً من أن تفعل شيئاً لنفسها. إن النازيين على وجه التحديد وبتلويحهم بعلم القومية مرغوا كلمة «الوطنية» التي يعتبرها الكثيرون اليوم مسيئة مشيرين إلى قول أوسكار وايلد Oscar Wilde: «الوطنية هي الملاذ الأخير للأوغاد». وبتباهيها بهويتها القومية، أذلت الفاشية نفسها وبلدها وشعبها، إذ لم تنهض (وهذا زعم) إلا عن

طريق محاولات إذلال الآخرين.

لم يكن هناك ثمة فاشية في الاتحاد السوفييتي، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى الطابع المتعدد الجنسيات لهذه القوة العظمى. فقد أدرك منظرو الاتحاد السوفييتي جيداً أن العالم بأكمله يتابع أوجه النجاح والفشل للدولة الفتية، ولذلك فعلوا قصارى جهدهم لإبراز نجاحاتهم وإخفاء فشلهم. ولم ينظر إلى القوميات الأخرى كعدو (كما في الفاشية)، وإنما إلى النظام الرأسمالي، في حين اعتبر سكان البلدان الأخرى أخوة في النضال من أجل الحرية.

كانت الإنجازات في مجالات العلوم والأدب والتقنية هائلة، فقد تمكن الاتحاد السوفييتي من إطلاق أول قمر صناعي إلى الفضاء وأول رائد فضاء. صحيح أن الولايات المتحدة حاولت «التعويض» بالهبوط الأول على سطح القمر، إلا أن هذه الخطوة كانت ذات طابع دعائي محض، ولم تفض إلى دراسة شاملة للقمر، ولم تشكل سوى حلقة وجيزة في تاريخ استكشاف الفضاء.

لقيت الأيديولوجية الاشتراكية نجاحاً كبيراً في أنحاء العالم جميعها، وتقارن أحياناً بالأيديولوجية المسيحية، فقد توجهت إلى الناس الذين لم يكن لديهم أي شيء، ووعدتهم بالحرية والعدالة والكرامة، ولكن على العكس من المسيحية، فقد وعدتهم بذلك هنا والآن، وليس في الآخرة. ولاقت هذه الأفكار انتشاراً واسعاً في البلدان الفقيرة لآسيا وإفريقيا. كذلك تمتع الاتحاد السوفييتي باحترام فائق في البلدان الرأسمالية المتقدمة أيضاً. ومن الجدير بالذكر أن حتى البطل البارز المعادي للاتحاد السوفييتي، مثل جيمس بوند James Bond، شعر بالتعاطف مع ثورة فيدل كاسترو Fidel Castro في كوبا، وأعرب عن إعجابه بالمناضلين الكوبيين من أجل الحرية. وعندما نقلت قصص جيمس بوند ذاتها إلى شاشة السينما انخفض توجهها المعادي للاتحاد السوفييتي بشكل ملحوظ. وفي بعض الأفلام يعمل بوند بالتنسيق مع المخابرات السوفييتية، حتى أنه

يتلقى وسام لينين.

لكننا ركضنا إلى الأمام قليلاً. لنعد ثانية إلى ثلاثينيات القرن العشرين.

على الرغم من النجاحات الباهرة التي حققها الاتحاد السوفييتي في مختلف مجالات النشاط، إلا أنه لم يكن مستعداً للحرب مع ألمانيا النازية. ولم يكن ذلك محض صدفة، فقد أولى جوزيف ستالين Joseph Stalin جل اهتمامه للبقاء في السلطة والتغلب على خصومه السياسيين. وتحول الاتحاد السوفييتي إلى نظام كان التنافس الداخلي فيه على مستوى عالٍ جداً، لذلك بدا غير مستعدٍّ للتنافس الخارجي.

في تلك الفترة كانت عصبة الأمم، النموذج الأول لمنظمة الأمم المتحدة، وكان الناس يأملون بسذاجة في أن هذه المنظمة سوف تساعد على منع المزيد من الحروب. إلا أن ما ثبت هو أن هذا الأمل لا أساس له، فقد اجتمعت القوى الكبرى مرة أخرى لتقاسم الكعكة العالمية. ومن الجدير بالذكر أن الاتحاد السوفييتي لم يلتفت إلى مثل هذه الخطط، فهولم يكن مستعداً للدفاع، فكيف الأمر مع الهجوم. إلا أن حليفتا المستقبل، بريطانيا والولايات المتحدة، نظرتا بشغف إلى ثروات روسيا. وقبل فترة وجيزة على إشعال هتلر للحرب العالمية الثانية، وضع المحللون الغربيون خططاً للهجوم على مدن الاتحاد الشمالية.

وقع العبء الأكبر من النضال ضد الفاشية على الشعب السوفييتي، الأمر الذي يكاد اليوم يكون منسياً في البلدان الغربية. من ناحية أخرى ساهم المؤرخون العسكريون السوفييت في تشويه أحداث تلك السنوات. خاض الحلفاء الغربيون للاتحاد السوفييتي معارك في إفريقيا يعتبرها التاريخ السوفييتي «طفيفة». ولكن لا ينبغي علينا أن ننسى أن إفريقيا هي البوابة إلى الشرق الأوسط باحتياطياته النفطية. ولعب انتصار الحلفاء في إفريقيا دوراً مهماً في تحقيق النصر، الأمر الذي لم يرغب الأيديولوجيون السوفيت الاعتراف به.

بعد الحرب العالمية الثانية قسم العالم من جديد، فظهر فيه معسكران - اشتراكي ورأسمالي. لم يستطع دخول اليابان في الحرب انقاذ الحلف الهتلري، إلا أن القنبلتين النوويتين اللتين ألقاهما الأمريكيون على مدينتي هيروشيما وناغازاكي اليابانيتين وضعتا حداً فورياً للحرب، بل إنهما وضعتا نقطة على الحروب العالمية في المستقبل بشكل عام، مع تغيرات شاملة في مجالات الحياة كافة. وقد أثرت هذه التغيرات الجذرية ليس في مجال الحياة الاقتصادية فقط، وإنما في مجالات السياسة والفن والأخلاق أيضاً، ما يدفعنا إلى إيلاء اهتمام راسخ لثقافة المعلومات الحديثة. لتكنولوجيا المعلومات تأثير متزايد على مناحي الحياة البشرية جميعها، فهي لا تستخدم في المصانع فقط، وإنما في الحياة اليومية أيضاً. ومن المستبعد لإنسان اليوم أن يتصور نفسه بدون تلك الوسائل لمعالجة وتخزين ونشر المعلومات التي اعتاد رؤيتها حوله من الهاتف إلى آخر طرازات أجهزة الحاسب. ومثلها مثل أي اختراع ضخم، لم تغير تكنولوجيا المعلومات حياة الفرد فحسب، وإنما حياة المجتمع ككل أيضاً. وشبكة الانترنت التي غطت العالم كله تقريباً تحملنا على النظر بشكل جديد إلى الوقت والمكان، والعلاقات بين الناس، وطرق العمل والترفيه. تكنولوجيا المعلومات في تطور مستمر، وبالتالي فإن أهمية الدور الذي تؤديه في الحياة في تزايد أيضاً. فكل ما لم يستطع الإنسان حتى تصوره في الأمس، يصبح ببساطة لا غنى عنه.

لا تقتصر التغيرات التي تشهدها البشرية اليوم على مجال الإنتاج فقط، وإنما هنالك كسر نمط الحياة والعقلية بأكمله. ويبدو الإنسان في مواجهة واقع جديد لم يتمكن من التكيف معه، ويبدو في كثير من النواحي له غريباً وعدائياً، ويتغير بسرعة يصعب إدراكها.

يتمثل التوجه الهام للبحوث في تناول المسائل المرتبطة بدراسة المجتمع الصناعي وانتقاله إلى ما بعد الصناعي. وينبغي هنا أولاً وقبل كل شيء ذكر

أعمال عدد من المؤلفين، مثل دانيال بيل Daniel Bell، وألفين توفلر Alvin Toffler، ورايمون آرون Raymond Aron، وجون غالبرايت John Galbrait، وزبغنيو بريجينسكي Zbigniew Brzezinski وغيرهم. والشيء الآخر هو إن شن الحرب بمثل هذه الترسانة غير ممكن. ويمكننا الحديث فقط عن تدمير متبادل سريع. لقد حان عهد حروب محلية أخرى تندلع هنا وهناك وحرب باردة كبيرة بين المعسكرين.

في الفترة نفسها تقريباً بدأت النهضة الاقتصادية في اليابان، فبعد الهزيمة في الحرب، لم يستسلم القادة اليابانيون، وقرروا قهر الدول الغربية من الناحية الاقتصادية. وكانت اليابان حتى قبل قرن من الزمان بلداً إقطاعياً متخلفاً، لكنها تمكنت من التطوير السريع للاقتصاد والثقافة عن طريق اقتباس اختراعات الدول الغربية. لقد اقتبس اليابانيون تقريباً كل شيء وصولاً إلى شكل الأزرار. ومع ذلك، كانت كل هذه الاقتباسات مقتصرة على التكنولوجيا.

الشيء الذي بقي ثابتاً كأساس للثقافة اليابانية – الإيمان في تفوق الشعب الياباني على كل ما سواه. وبدأت المواجهة بين الولايات المتحدة واليابان مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية، إلا أنها لم تحمل طابعاً مفتوحاً، كالذي حملته المواجهة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، وبقيت في ظل الحرب الباردة.

شهدت نهاية القرن العشرين تفكك الاتحاد السوفييتي وانهيار النظام الاشتراكي ككل، ما يمثل أيضاً ظاهرة ثقافية – تاريخية طبيعية. تجاهل المنظرون السوفييت احتياجات الفرد وحاجاته ومتطلباته، لذلك بدا العالم الغربي بحريته الأيديولوجية، ووفرة سلعه الأساسية المريحة والجميلة، جذاباً جداً. وبعد انهيار الاتحاد السوفييتي جرت تغيرات سياسية في المعسكر الاشتراكي السابق، وأدى بعض هذه الإصلاحات في نهاية المطاف إلى حروب أهلية دامية

(على سبيل المثال في البوسنة). ومع ذلك، فقد انتهت الحرب الباردة.

إن القرن العشرين بأكمله هو فترة التطور السريع للعلوم والتكنولوجيا، فقد غير صورة العالم وبشكل كبير ظهور وسائل جديدة للإنتاج، والنقل، والاتصالات، وأجهزة الكمبيوتر والإنترنت. وميز العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين التوجه الذي يتشابك بشكل وثيق مع التوجه الأول، ولا يمكن تناوله في معزل عنه، وهو دراسة مجتمع المعلومات. وأدخل هذا المفهوم إلى التداول العلمي في أوائل ستينيات القرن الماضي بشكل متزامن تقريباً في كل الولايات المتحدة واليابان (فريتس ماكلوب Fritz Machlup، وتاداو أوميساو Tadao Umesao). وجائز القول إن لدى «مجتمع المعلومات» و«المجتمع ما بعد الصناعي» المضمون نفسه، ولكن باحثي الأول غالباً ما ينظرون إلى موضوعهم بوساطة موشور مفهوم المعلومات ودورها في حياة الإنسان والمجتمع، في حين يستخدم الآخرون مفهوم «المجتمع الصناعي»كنقطة انطلاق. ويجري تناول مجتمع المعلومات في أعمال مؤلفين، مثل مارك يوري بورات Marc Uri Porat، ويونيجي ماسودا Yoneji Masuda، وتوم ستونير Tom Stonier، وفرانكو فيراروتي Franco Ferrarotti، وجون نيسبيت John Naisbitt وآخرين.

ثمة توجه آخر للأبحاث المكرسة للمشاكل المذكورة، يرتبط بما بعد البنيوية Post–structuralism الفرنسية. وفي مركز دراسته تقع ما بعد الحداثة Postmodernism بوصفها الحالة الروحية لحياة المجتمع والمرتبطة بانهيار نظام السرديات الكبرى Meta narratives («قواعد اللعبة» في الثقافة)، التي بتمتعها بالقوة الشرعية تبرر حياة الفرد والمجتمع بصفة عامة.

تجدر الإشارة إلى أنه إذا كان المؤلفون العاملون في مجال الاتجاهين الأوليين يركزون اهتمامهم البحثي على مجالات مثل الإنتاج ومكان الرجل فيه،

والطبقات الاجتماعية، وتطوير التكنولوجيا، فإن ما بعد البنيوية في المقابل تركز جل الاهتمام على ما يحدث في ميدان الثقافة الروحية. ويمثل هذا الاتجاه كل من جيل دولوز Gilles Deleuze، وجان فرانسوا ليوتار Jean–François Lyotard، وجاك دريدا Jacques Derrida، ورولان بارت Roland Barthes وآخرون.

إن التغييرات التي نشهدها اليوم تجذب اهتمام العلماء والكتاب والفلاسفة والناشرين إليها، ويتساءل أولئك جميعهم عن مصير البشرية، والطرق التي عليها سلوكها. إلا أن الناس المنغمسين في الشؤون اليومية وغير القادرين أو غير الراغبين بفهم الصورة العامة للتغييرات، يحتكون بطريقة أو بأخرى بالتغيرات التي تمس عملهم وراحتهم ومجمل نمط حياتهم. ويعطي ذلك المبرر للحديث عن ثقافة المعلومات الجديدة. ويساعد التقدم في التكنولوجيا في تحسين الإنتاج ورفع ربحيته، مما يسمح لكثير من الناس بالشعور بالقلق من أنهم سيصبحون بلا مأوى، أو سيعانون من الجوع، فيغدو ثمن هذه الوفرة ليس استنزاف الموارد الطبيعية في أنحاء العالم جميعه فحسب، وإنما الوضع الكارثي للبلدان المتخلفة أيضاً. وحتى داخل البلدان الصناعية المتقدمة يبقى الفقر والبطالة والجريمة.

كما يشير ريتشارد بيربورك Richard Berbruk بروفيسور جامعة ويستمنستر University of Westminster، فإن البشرية الآن فقط حصلت على إمكانية خلق اقتصاد ذي فعالية عالية، إذ تسمح التقنيات الحديثة بتلقي ونقل ومعالجة المعلومات بسرعة عالية جداً، وفي الوقت نفسه تكشف آفاقاً واسعة للإدارة، فضلاً عن التفاعل بين المؤسسات وداخل المؤسسات. وهناك تكنولوجيات تسمح بالتعامل بشكل أكثر أو أقل فعالية مع مشاكل، مثل المجاعة والأوبئة والكوارث الطبيعية وما إلى ذلك. وإذا كان ممكناً في الفترات التاريخية السابقة

لتطور البشرية التحدث عن المتاعب التي لم يكن الناس موضوعياً قادرين على التعامل معها، فإن إمكانيات الإنسان تحسنت الآن بشكل كبير. وللأسف، لا يتم تقاسم ثمار التكنولوجيا بالتساوي، فآليات السوق غير مصممة لإطعام الجائعين ومساعدة المشردين.

تؤثر تلبية الاحتياجات الأساسية إلى حدٍ ما إيجاباً على تكوين الفرد وتنميته، ولكن من المستبعد أن يكون مبرراً الرأي الذي مفاده أن القدرة على تلبية الاحتياجات الأساسية تمثل في حد ذاتها شرطاً كافياً للتنمية المتناغمة للإنسان. أولاً وقبل كل شيء، لا تتحقق هذه الفرصة دائماً. وبالإضافة إلى ذلك، لا ينبغي أن ننسى أن النضال من أجل الوجود والمنافسة لا ينتهيان. بدا وكأن أكثر الناس لن يقلقوا أكثر حول الغذاء والسكن، حتى إنهم يتلقون إعانات البطالة إن لم يكن لديهم عمل. ولكن تحديداً في تلك الأيام التي تمنح فيها هذه الإعانات، تبلغ الوفيات الناجمة عن جرعة زائدة من المخدرات ذروتها. ومن الواضح أن تلبية الاحتياجات المادية لا تشكل شرطاً كافياً، لأن يتطور الإنسان بشكل متناغم. وللوهلة الأولى تسمح تكنولوجيا المجتمع ما بعد الصناعي للإنسان بالتخلص من العمل الإنتاجي المضني باسم العمل الإبداعي؛ ولكن في واقع الأمر يخلق ذلك إمكانية ظهور الطفيليين الذين لا يحاولون حتى البحث عن عمل.

تمثل الإدارة الجانب الهام من جوانب النشاط البشري الذي لا يمكن إيكاله على الآلات، فحتى الذكاء الاصطناعي الأكثر مهارة لا يزال متخلفاً عن الذكاء البشري من ناحية اتخاذ القرارات الاستراتيجية. وانتقل الإنسان الذي اقتلعته الآلات من ورش المصانع والمعامل إلى مكاتب الإدارة. ويسمح هذا الظرف بالحديث عن «ثورة المديرين». وتطوير الأفكار العلمية – التقنية وتعزيز دور الإدارة مترابطين بشكل وثيق، ويدعم نمو أحدهما نمو الآخر. وفي

البيئة، حيث يمكن للآلات القيام بكل عمل شاق، تنتقل إلى الصدارة قدرة الإنسان أولاً على تنظيم ومراقبة عملها، وثانياً على جعلها مصدراً للابتكار. ويتضح أن المطلوب في سياق ثقافة المعلومات الحديثة هو الفرد المتطور بشكل متكامل، والإنسان الذي يفكر بشكل خلاق، إذ لا توجد حتى الآن آلة قادرة على التفكير والاختراع والإبداع. القادر على ذلك هو الإنسان فقط، ولكن ليس كل إنسان. وتتطلب الحوسبة والأتمتة من الإنسان صفات مثل التفكير الإبداعي، والقدرة على تنظيم سير العمل، والاستجابة بشكل سريع ومناسب للبيئة المتغيرة. وبعبارة أخرى، يتضح أن الشخصية المتكاملة النمو هي المطلوبة، ولكن تغيب الظروف الكافية لتشكيلها. ويتجلى هذا التناقض في مختلف مجالات النشاط البشري.

يفسح الإنتاج القياسي الواسع المجالَ للإنتاج غير القياسي. ويمكن لهذه الإمكانات، وليس لشيء آخر، أن تسهم في تنمية الشخصية الكاملة. فالأمر الأول، عندما يفتقر الناس للقيام بالخيار، ويضطرون لارتداء الملابس ذاتها، ومشاهدة البرامج التلفزيونية نفسها، وقراءة كتب متماثلة وما إلى ذلك. ويبدو مختلفاً تماماً وضع الإنسان عندما يستطيع القيام بالخيار في سوق السلع والخدمات مع عدم التركيز على إمكانياته الاقتصادية فقط، وإنما على ميوله الخاصة أيضاً. وفي الواقع يغطي مجال إنتاج السلع والخدمات في البلدان الصناعية المتقدمة شرائح المستهلكين المحتملين جميعها، بيد أن هذا التنوع المزعوم لا يوفر للمستهلكين الخيار الحقيقي، فالناس ببساطة منقسمون إلى فئات محددة وفقاً للإمكانيات المادية، والعمر، والجنس، والحالة الاجتماعية، والمصالح وغيرها.

تمثل لامركزية أو تقسيم حياة المجتمع الجانب الهام للعمليات الجارية. إلا أنه من التسرع بالقول التأكيد أن هذا يفتح إمكانات جديدة لتشكيل وتطوير

الإنسان كشخصية كاملة، ويخلق بيئة مواتية لهذا الشرط. وبالتجربة يتبين أن اللامعيارية هي مجرد أسلوب يسعى عن طريقه منتجو السلع والخدمات إلى الحصول على المزيد من الأرباح، وامتلاك المستهلكين المحتملين جميعهم. وتجدر الإشارة إلى نتيجتين هامتين تنبعان من عملية التقسيم هذه. أولاً وقبل كل شيء يمكن الحديث عن انقسام المجتمع إلى ثقافات فرعية عديدة. ويمكن لتفتت المجتمع المساهمة في أن يظهر الناس في عزلة متزايدة عن بعضهم البعض، والتقوقع في عوالمهم الصغيرة مع عدم الرغبة حتى في النظر أو معرفة ماذا يحدث في الخارج. وترتبط النتيجة الثانية للتفتيت الاجتماعي بحقيقة من يضع القوانين في هذه الثقافات الفرعية أو بدائلها الاصطناعية. إما أن ذلك يحدث من تلقاء نفسه، أو عن طريق إملاء أولئك الذين ينتجون السلع. وتعلو في وجه الإنسان وبحدية كبيرة مشكلة الهوية الذاتية.

ليس ثمة مكان بالنسبة للفرد الذي يرفض الاتباع الأعمى للقالب النمطي المقدم له. وهذا لا يعني أنه سيتم تجاهله، ولكن وببساطة سيظهر نوع جديد من السلع والخدمات، أي قالب نمطي آخر. للوهلة الأولى يهدف تفتيت المجتمع إلى خلق ظروف مثالية بالنسبة لكل فرد بعينه، وتمكينه من تحقيق إمكاناته، إلا أنه في الواقع يتحول إلى نظام خلايا لا يسمح للناس حتى بمشاهدتها أو استدراجها، بل يُعلَّمون العيش فيها منذ الطفولة. ولا يوجد لدى الناس سبيل آخر سوى أن يصبحوا جزءاً من هذا النظام الجديد، كما يكتب راندي كلافير Rendi klaver (جامعة اوكلاهوما).

من بين تغيرات المجتمع ما بعد الصناعي يذكر دانيال بيل Daniel Bell «تغير طبيعة العمل»، فقد كانت حياة الإنسان في إطار المجتمع ما قبل الصناعي «لعبة بين الإنسان والطبيعة»، أي تفاعلاً بين الناس والقوى والموارد الطبيعية. وفي تلك الفترة عمل الناس في مجموعات صغيرة وذلك تبعاً للطبيعة. واستبدلت

الطبيعة في المجتمع الصناعي بالبيئة الاصطناعية (الآلات). وتمثل لعبة الإنسان مع الإنسان النوع الرئيس للتفاعل الذي انطلاقاً من هذا التصنيف يتسم به المجتمع ما بعد الصناعي. ويؤكد بيل أنه «يجب على الناس أن يتعلموا العيش مع بعضهم بعضا».

مع ذلك لا تضع «لعبة الإنسان مع الإنسان» هدفها في الاتصال الذي يركز على التواصل. وفي هذا الاتصال يلعب الناس أدواراً اجتماعية معينة. يدور الحديث حول العلاقة بين الكاتب والمتقدم، وبين الطبيب والمريض، وبين المدرس والتلميذ وما إلى ذلك، أي حول العلاقات ذات الأهمية العملية البحتة، وليست المقامة من أجل التواصل وحده. ولا يمكنك التأكيد بأن مثل هذا التواصل هو أفضل من لا شيء، فبالنسبة للإنسان لا يهم ما يمثله الطرف المقابل، وحتى أن الناس لا يرغبون بمعرفة ذلك. وهنالك حالة تصبح فيها مدة العلاقات الإنسانية أقصر أكثر فأكثر، ولكن عدد هذه العلاقات في ازدياد متواصل، والناس يتنقلون في حياتنا كالأشياء والأماكن.

كذلك الإنسان نفسه يشابه في نشاطه المهني الأشياء. ويمكن اعتبار التفاعل بين الناس كنوع من تبادل التفاعل بين البشر والآلات الذي كان يحدث في السابق. ومع ذلك، لا بد للمرء أن يتساءل، هل ظهور إنسان آخر كطرف مقابل للتفاعل قادر على تحويل ذلك إلى علاقات إنسانية. ربما سيعامل الإنسان الإنسان الآخر بنفس الطريقة التي تعامل بها مع الآلة في السابق، يمكن أن يرميه أو يستبدله بآخر جديد. بالطريقة إذاً يتم التعامل مع الناس في حال تم اعتبارهم مجرد حاملين لأدوار اجتماعية.

لهذه المشكلة وجه آخر. إذا كان الإنسان بالنسبة للمحيطين لا يمثل أكثر من «مجموعة من الأدوار الاجتماعية» («وحدات module «) إذا ما تم الدخول معه في التفاعل باعتباره قياسياً modular، أي مع إنسان أحادي الأبعاد —one

dimensional، وليس مع شخصية كاملة، فإنه يعتاد على حقيقة أنه مجرد «مجموعة من الأدوار الاجتماعية»، وليس شخصية فريدة من نوعها. على الإنسان ببساطة مطابقة نفسه مع هذا الدور الاجتماعي أو ذاك الذي يلعبه. ولكن من الذي يساعد الفرد على إدراك أنه شيء أكبر بكثير من مجرد «مجموعة من الوحدات».

يمكن الاستعانة بالدين أو التعليم المدرسي أو في نهاية المطاف بالسلطة الأبوية، ولكن يجب الاعتراف أن بأن هذا غير كافٍ دوماً، وذلك لأن الآباء ومعلمي المدارس يواجهون أيضاً مشكلة الهوية الذاتية.

تسمح تكنولوجيا المعلومات بالحصول على إمكانية الوصول إلى المعلومات من مختلف الأنواع، وليس العلمية فقط، وإنما السياسية أيضاً. ومن شأن التعليم الذي ينبغي أن يحصل عليه الإنسان لكي يشغل مكانة مرموقة في السلسلة المتصلة لثقافة المعلومات الحديثة أن يعطيه إمكانية تحمل الأحكام الملائمة بدرجة أكبر أو أقل عن الوضع السياسي، وتحقيق ذاته في المجال السياسي. ومع ذلك، تبدو إمكانية التأثير الفعال على مسار الأحداث العامة في نهاية المطاف وهمية.

بدت الثقافة الصناعية للناس وكأنها مصنع ضخم يضطرون للوقوف فيه يوماً بعد يوم عند خط الإنتاج، وبدا أنه ينبغي على كل شيء في سياق ثقافة المعلومات الحديثة أن يكون مختلفاً، وأعلنت الأولوية لإنتاج الخدمات. وفي الواقع، قدم نطاق الخدمات بشكل واسع للغاية في البلدان الصناعية المتقدمة من الطراز الغربي. ومع ذلك يمكن فهم الفرضية حول هيمنة مجال الخدمات في المجتمع ما بعد الصناعي، والوقوع في التطرف وافتراض أن لا مكان فيه لإنتاج السلع. ويشير البروفيسور الياباني تاكاميتسو ساوا Takamitsu Sawa إلى أنه لا يمكن لإنتاج السلع أن ينقل من البلدان المتقدمة التي يكون فيها في

ذلك الوقت مجتمع ما بعد صناعي، إلى بلدان على مستوى أدنى من التنمية الصناعية.

يلفت تاكاميتسو الانتباه إلى الرابطة التي لا تنفصم بين المستوى الثقافي العام وبين تطور العامل وقدرته على إنتاج السلع ذات التقنية العالية. إن قدرة الإنسان على التأدية بنجاح للعمل الموكل إليه - هل يقف وراء خط الانتاج أم يعتبر مشغلاً لنظام الكمبيوتر - لا يمكنها أن لا تعتمد على تعليمه وخبرته المهنية.

لم يختف المولوخ Moloch الصناعي، وإنما - ببساطة - تغير. إذا كان الإنسان في إطار الثقافة الصناعية غالباً ما يؤدي عملاً استنساخياً، فعمل الفرد اليوم يصبح أكثر إبداعاً. وتتمثل مهمة الإنسان في أن يخترع ما هو فردي وجديد. ومن ناحية أولى، تساعد تكنولوجيا المعلومات الحديثة على زيادة إمكانية العمل الإبداعي. ومن جهة أخرى، السوق هو الذي يملي أي من السلع هي الضرورية. ويغدو عمل الفرد أكثر إبداعاً، ولكن - وللمفارقة - الإنسان في الوقت ذاته أصبح حراً بدرجة أقل بكثير، فالعامل الذي يقوم بشد الصمولات في خط الإنتاج في المجتمع الصناعي كان حراً داخلياً. وسرعان ما اصطدم الإنسان الذي حصل على إمكانية العمل الإبداعي مع حقيقة أن الإبداع لا يحقق دائماً النجاح التجاري، إذ تملي السوق قوانينها الخاصة، ولا تبدو الفردية الخلاقة دائماً مطلوبة. ويبدو الفرد في موقف صعب عندما لا يحقق إبداعه النتائج المرجوة، أي النجاح التجاري. فمن ناحية أولى قد يصر على رؤيته الخاصة للعالم، وأن يكون شخصاً مبدعاً بكل ما للكلمة من معنى. ولكن لا يقود ذلك دائماً إلى النجاح. فغالباً ما تبوء محاولة الإنسان المبدع إيجاد مكانته في الحياة بالفشل. وترتبط الطريق الأخرى بالحل الوسط: يضطر الفرد للتخلي عن رؤيته للعالم وإظهار إمكاناته الإبداعية بالقدر الذي تسمح

به حالة السوق. ولا تتطلب الطبيعة الخلاقة للنشاط دوماً من الإنسان القدرة على الإبداع.

هناك مجموعة كبيرة من الكتيبات والأدلة التي تسمح لأي شخص ملم بقواعد مهارة الكتابة تأليف كتاب وتحقيق النجاح في هذا المجال. ويبدو من غير المعقول أنه يمكنك أن تصبح مشهوراً من دون أن تمتلك موهبة، لكن الأمر كذلك. فغالباً الكتب التجارية الأكثر مبيعاً لا تكتب، وإنما «تجمع» وفقاً للأنماط المتعارف عليها مع الاعتماد على المواضيع المثيرة. ويكفي معرفة هذه الأنماط ومتابعة ما يجذب انتباه القارئ الجماعي في الصحف والأخبار التلفزيونية، ويمكن لأي شخص أن يصبح مؤلفاً مشهوراً.

وفرت تكنولوجيا المعلومات فرصاً لم يكن من الممكن تصورها من قبل. أولاً وقبل كل شيء إمكانية الوصول إلى كمية كبيرة من مصادر المعلومات، إذ تفتح لنا شاشة التلفزيون أو المرقاب إمكانية مشاهدة بلدان ومحيطات وحتى كواكب لم نزرها من قبل، أو على الأغلب لن نكون قادرين على زيارتها قط. يكون الإنسان قادراً على اختبار قواه فعلياً في أشكال النشاط كافة بمساعدة ألعاب المحاكاة الحاسوبية. وبنموها مع كل عام تفتح التكنولوجيات أمام الناس آفاقاً جديدة، فالثقافة الحديثة هي مستحيلة دون تقنيات تضمن تخزين المعلومات ومعالجتها ونقلها. ومن الواضح أن الدور الهام هنا يضطلع به الحجم العالي من المعلومات، والسرعة العالية لنقلها ومعالجتها. ومع ذلك، فإنه ليس من الصحيح تماماً النظر إلى التقنيات الحاسوبية على أنها شيء يؤمن للإنسان إمكانية الوصول إلى المعلومات فقط دون أن يؤثر على حياته.

تقنيات الحاسوب في حالة من التطور الدائم، فيبدو الشخص الذي يتعامل مع الحاسب متورطاً في سباق لا نهاية له مع وسائل اتصال أكثر تطوراً ودقة، فإذا وجود جهاز الحاسوب كان يعتبر حتى وقت قريب مؤشراً على ارتفاع مستوى

المعيشة والمكانة، فاليوم الشخص العادي مع إمكانات أكثر من المتوسطة بقليل، هو غير قادر على التعامل مع السرعة المذهلة لتقادم وسائل الاتصال.

يؤثر تطور تكنولوجيا الكمبيوتر على وضع الإنسان كفرد، إذ يلعب امتلاك أشياء معينة، وإمكانية الوصول إلى خدمات معينة أو إمكانية الوصول بحد ذاتها دوراً مهماً فيما يتعلق بالوضع الاجتماعي والوعي الذاتي للإنسان: فهو يواجه باستمرار حالة حيث تظهر في السوق نسخ محسنة من أجهزة الكمبيوتر والبرامج التطبيقية وغيرها. إلى جانب ذلك قد يساهم الانتشار الواسع لتكنولوجيا الحاسوب في تفاقم مشكلة الوحدة، إذ تزداد أكثر فأكثر عزلة الناس، حتى العلاقات داخل الأسرة تصبح أقل استقراراً. وعادة ما يتقن الأطفال التعامل مع أجهزة الكمبيوتر الشخصية وشبكة الإنترنت في سن مبكرة، فبالنسبة للطفل يسهل «استيعاب» العالم، وهو أكثر قابلية للتعلم. وفي الوقت نفسه تتراجع القدرة على التعلم مع تقدم العمر. ولفت توفلر الانتباه إلى حقيقة أن الفرد في الظروف الجديدة سيعاني من قلق مستمر بشأن قراراته المستقلة، ويصبح «ضغط اتخاذ القرارات قريناً لكل فرد. ولتجنب هذا الأمر يحاول الإنسان تحويل عبء اتخاذ القرار على التقنية الحديثة. هناك مشكلة أخرى: حجم المعلومات المقدمة للتفكير هو كبير جداً، ولا يوجد لدى الشخص العادي الوقت والجهد للتعامل بشكل حاسم مع كل خبر صحفي أو تلفزيوني. وعلاوة على ذلك، تمتلك وسائل الإعلام مجموعة من الأدوات للحد من مستوى الموقف الحاسم للقارئ أو المشاهد. ولهذا الوضع جانب آخر، إذ غالباً لا يكون الإنسان قادراً على عزل نفسه عن تدفق المعلومات القادمة إليه، فالتلفزيون والإذاعة والصحف لا تقدمها فقط عندما يرغب الفرد الحصول عليها، إذ يضطر إلى الاستماع إلى الراديو في الشارع، وفي سيارات الأجرة، وفي المكتب. والمثال ذو الدلالة في هذا الصدد تمثله اللوحات الإعلانية، حيث

تنقل مانشيتات الصحف إلى لافتات الدعاية والإعلان، وتوزع في شوارع المدينة. قد لا يقرأ الفرد مقالة، إلا أن المعلومات الموضوعة في لوحة الإعلانات تستقر في ذاكرته على كل حال. والمهم جداً هو أي نوع من المعلومات سيقدم كعناوين للصحف، إذ يتم اختيارها بطريقة لجذب أكبر ما يمكن من انتباه الجمهور.

إن تدمير الأخلاق التقليدية، وانهيار الصورة المعتادة للكون، والتعرية الكاملة للأسس الإلزامية العامة للفلسفة والفن ونظرية العلم - كل هذه العمليات تحدث في العالم الصناعي بشكل متزامن مع الانتقال من المجتمع الصناعي إلى المجتمع ما بعد الصناعي. ويصف ليوتار وأتباعه هذه الحالة بأنها حالة ما بعد الحداثة، حيث القواعد الثابتة للعبة وبديهيات السلوك (السرديات الكبرى) تتعرض لنزع الشرعية.

كان التسلسل الهرمي للسرديات الصغرى مستقراً جداً. ما الذي يمكن أن يدمرها؟ يجري تطوير وسائل الإنتاج وتغيير نمط الحياة. ويبدو اللجوء إلى السرديات الكبرى أمراً مسلماً به. وفي الواقع هناك بعض الأحكام التي تضفي الشرعية على كل ما تبقى. لكن من الصحيح أيضاً أن عملية إكساب الشرعية ذاتها تتطلب تشريعاً. وينبغي على السردية الكبرى أن تنص على: «اتبع السرديات الكبرى». ومثلت هذه السرديات الكبرى على مدى تاريخ البشرية قوة التقاليد، ونبذ كل ما خالف التقاليد، ولكن عندما انهارت السرديات الكبرى انهار معها كل ما تبقى.

تبرز في مجموعة التعاليم الفلسفية فكرتان أساسيتان مترابطتان. أولاً، نهاية التاريخ بحرف كبير. ثانياً، فكرة الخسارة والدمار وهيكلة وترتيب عالم الإنسان. وهكذا يختفي التقسيم الأهم - إلى «أنا» و«الآخر». وهذا التقسيم هو انعكاس للتذكر الأساسي الذات - الموضوع، وثنائية المفاهيم الأهم التي

تركز على التفكير، بما فيها الفلسفية، في عصر الكلاسيكية وعصر الحداثة Modernism.

تمثل ما بعد الحداثة اتجاهاً في الوعي الثقافي لأيامنا في البلدان ذات النمط الأوروبي. ويتلخص هذا الاتجاه من ناحية أولى في أن الشخصية البشرية لا تتشبث بأي شيء؛ وهذا هو السبب في ظهور الشعور بكبح مرحلة مهمة في تطور الحضارة. ومن ناحية أخرى، لا يمكن للفرد الخروج من مُركَّز ما بعد الحداثة هذا. وتحديداً هذه الحالة المدروسة تتجلى في مختلف مظاهر ما بعد الحداثة، بما في ذلك في الفن. يفقد الإنسان في حالة ما بعد الحداثة في الثقافة الدعم بسبب أن قواعد اللعبة تتغير بشكل حاد. وفي كل ثقافة يمكن تحديد قواعد معينة للعبة، وقد تتبدل هذه القواعد لتحتل مكانها قواعد جديدة.

قواعد اللعبة في الثقافة هي تلك القواعد التي وفقها توجد، وتجري، وتظهر، وتتغير، وتختفي الظواهر والعمليات الثقافية بالمعنى الأوسع لهذه المصطلحات. ويفصل ليوتار أن السرديات الكبرى توفر الشرعية لمجمل متنوع من المؤسسات الاجتماعية – من طرق التفكير إلى التشريع. قواعد اللعبة موجودة في كل ثقافة حداثة، وتتفكك في ثقافة ما بعد الحداثة. لا يعبر عن السرديات بالشكل الحرفي لا في القانون ولا في الأخلاق، فهي تقع أعمق من ذلك بكثير، وهي متجذرة في أعمق أعماق الثقافة. والحديث يدور عن التعليمات غير القابلة للانعكاس، التي تسود في الوعي العام، والتعليمات المتجذرة في الحياة الاجتماعية – الاقتصادية للمجتمع، وبالتالي توفر الشرعية لها في أذهان الناس. ومع تدمير النظام الاجتماعي – الاقتصادي المتوفر الذي يجري ببطء في عملية الانتقال من المجتمع الصناعي إلى المجتمع ما بعد الصناعي، تتجرد هذه التعليمات (السرديات الكبرى) من موضوع إكساب الشرعية، وتفقد هي نفسها الشرعية.

لم تتعرض هذه القواعد الأساسية للعبة في الحالة الكلاسيكية، وحالة الحداثة والمعاصرة للشكوك. حالة ما بعد الحداثة هي «حالة الثقافة بعد التحولات التي تعرضت إليها في نهاية القرن التاسع عشر قواعد اللعبة في العلم والأدب والفن»، أي في الثقافة ككل[1]. وتحديداً أدت هذه التغييرات إلى فقدان الإنسان للدعم في ثقافة أيامنا. وينبغي التأكيد على أنه لدى حديثه عن الحداثة والمعاصرة، يقصد ليوتار الثقافة الكلاسيكية الأوروبية التي نشأت في عصر التنوير أو حتى قبل ذلك، لأن السردية المسيحية ترتبط أيضاً بالوقت الحاضر. والدور الرئيس يضطلع به مفهوم العقل، والتقسيم إلى الذات والموضوع.

ولكن في الوقت نفسه يمكننا القول إن مثل هذه القواعد المستقرة للعبة، وهيمنة السرديات الكبرى هي مميزة أيضاً لبلدان أخرى في أزمنة أخرى. فعملية اعتناق الشعوب الوثنية المسيحيةَ هي بمثابة مثال على حقيقة كيف تستبدل سرديات كبرى بأخرى غيرها. وهكذا، يمكن الحديث بكامل الحق عن الحداثة كحالة من الاستقرار للقواعد الأساسية للعبة والسرديات الكبرى المطبقة على البلدان كافة في الأزمنة كافة، وذلك عندما كان مثل هذا الاستقرار موجوداً. والصين المتمسكة بالتقاليد هي خير مثال لهذا النوع من المجتمعات. في الثقافة الكلاسيكية للمعاصرة والحداثة هناك قواعد للعبة مع تسلسلها الهرمي (سرديات) تقف في قمته الأساسية (السرديات الكبرى). وتتمتع هذه السرديات الكبرى بالسلطة والقوة والتفويض بإكساب الشرعية للظواهر الثقافية. ويبين إكساب الشرعية، وفي الوقت ذاته يبرر قانونية وجود إكساب الشرعية للظواهر الثقافية.

ينبغي مقارنة أي ظاهرة ثقافية مع هذه القواعد الأساسية للعبة، فإذا تبين أن الظاهرة الثقافية توافق السردية الكبرى، يتم إدراجها في ميدان الثقافة

(1) ج. ف. ليوتار. حالة ما بعد الحداثة. موسكو، 1998. ص 9.

على أسس قانونية. ويتم في حالة ما بعد الحداثة وضع الحد لهيمنة السرديات الكبرى والقواعد العامة الملزمة للعبة. في حالة ما بعد الحداثة يخلق كل شخص بنفسه ولنفسه قواعد اللعبة. وفي كل حالة بعينها يقرر الشخص في حالة ما بعد الحداثة ما الذي ينبغي فعله. وهكذا، فإن الفرد لا يسترشد بالقواعد العامة الملزمة، وإنما يركب القاعدة المحددة لوضع معين، ويكون سردية صغرى. ويواجه الإنسان الراشد باستمرار الخيار الحياتي عندما ينبغي عليه إظهار نفسه تحديداً كفرد، وليس كروبوت غير عاقل يتبع بشكل أعمى هذه التعليمات أو تلك.

تضع حالة ما بعد الحداثة الإنسان في أوضاع بالغة الصعوبة، وفي الوقت نفسه كثيراً ما تقدم له حلولاً جاهزة وسبلاً أكثر «سهولة» يغوى بها فيخسر الشيء الرئيس – نفسه. لنرى كيف يحدث هذا، وما إذا كانت لدى الإنسان الفرصة للدفاع عن نفسه، والحفاظ على نفسه كفرد، وغرس القيم نفسها للأجيال المقبلة.

تعد السرديات الصغرى المرشد الرئيس إلى العمل بالنسبة للناس في نشاطهم في مجال الإنتاج، والتفاعل بين الأفراد وغيرها. قد تكون مثل هذه الخوارزميات المرنة والمتبدلة للسلوك مثالية ليس كأي شيء آخر لفترة الانتقال من المجتمع الصناعي إلى المجتمع ما بعد الصناعي. ويتم توليف السرديات الصغرى من الناس العاديين في أتفه الحالات لحالة ما بعد الحداثة، وهي تساعد على تحقيق هذه الأغراض أو تلك. والسرديات الصغرى غير قادرة على مساعدة الإنسان على فهم الموقف الحياتي الصعب، وتحديد الأهداف والغايات، وأن تصبح منارة تضيء اتخاذ القرار. في نهاية المطاف يبقى للفرد بعد واحد، هو البعد البراغماتي (العملي)، وتبتر الأبعاد الأخرى جميعها، بما فيها البعد الهام مثل البعد الأخلاقي، وتتحول إلى ضحية للعملانية والبراغماتية. والبراغماتية هي

إحدى أهم سماتها.

بالتأكيد، إن مثل هذه القواعد «الدقيقة» للعبة ضرورية، إذ لا يستطيع الفرد ولا المجتمع التصرف بدون أفعال عملية وقرارات محددة لبلوغ الهدف. والأمر الآخر هو أنه لا يمكن دوماً الاستغناء عن مثل هذه القواعد. ولا تقود الخطوات الصغيرة التي تمليها السرديات الصغرى في نهاية المطاف إلى أي مكان، فهي قادرة على الإشارة إلى المخرج من الوضع المحلي، لكنها لا تحل المشاكل الحياتية الجوهرية. ولا يمكن تصور الفرد بدون قيم أخلاقية، وبدون نقاط مرجعية. والإنسان الذي يكرس نفسه لبلوغ المنفعة العملية والفائدة، هو غير قادر على اختيار الطريق إلى الحياة التي يتحرك بها. ويمكنه أن يصبح -وبسهولة – دمية في أيدي أولئك الذين هم على استعداد لأن يفرضوا عليه بعضاً من أهدافهم ودوافعهم خدمة للمصلحة العملية ذاتها.

تتميز الميزة الأخرى للسرديات الصغرى في ثباتها، إذ تولف كل سردية صغرى لاستخدامها في حالة معينة، ولا ينبغي عليها بالضرورة أن تستخدم لحالة أخرى حتى لو كانت مماثلة. وبالاختلاف عنها، ينبغي على السرديات الكبرى إكساب الشرعية للظواهر الاجتماعية كافة. ويصعب على الإنسان التكهن بحياته، وتبدو حالته كالسرديات الصغرى، غير مستقرة. إن نشاط كل فرد مأخوذاً بشكل منفصل هو أقل تماثلاً مع العمل في خط الإنتاج، إذ يبرز في المقدمة الموقف الخلاق من الهدف الموضوع، واتخاذ القرارات المهمة في ظروف الوضع المتغير باستمرار، ووفرة التغيرات التي تؤثر على اتخاذ القرار. في مثل هذه الظروف لا تنطبق المخططات المفروضة بدقة والقواعد الثابتة، وعندها تصبح السرديات الصغرى المرشد الكافي للعمل.

تدخل الطبيعة الظرفية للسرديات الصغرى في تناقض مع فكرة الفرد ذاتها، التي لا يمكن أن تكون ذات معنى دون مبادئ أخلاقية. وامتلكت السردية

الصغرى القوة الشرعية ليس في ما يتعلق بجميع الظواهر الاجتماعية – الثقافية فقط، وإنما بجميع الكيانات الموجودة في ميدان هذه الثقافة أيضاً. وتعتبر السرديات الصغرى شخصية وفردية، ويمكنها بسط نفوذها على مجموعة من الناس، ولكن ذلك ليس ضرورياً. «نحن لا نشكل من دون الحاجة إلى تركيبات لغوية ثابتة، والخصائص التي نمنحها إياها لا تصلح دائماً للاتصال»[1].

لا تعرف ثقافة المعاصرة إلا الحوار الظرفي، الحوار حول وضع معين موجود، وكائن محدد، وموضوع ضيق مفروض. وبهذا يرتبط أيضاً تقسيم البشرية إلى مجموعات صغيرة وفقاً للمصالح والتخصصات وما إلى ذلك. وهذا الاتصال الهادف إلى الاختلاط البشري الحي، يتنازل على نحو متزايد عن المكان للاتصال البراغماتي. وحتى إن الاتصال البراغماتي الحقيقي يختفي أيضاً تدريجياً من المشهد العام. وتسمح شبكات المعلومات للناس بالتواصل مع بعضهم بعضاً بلغة الأرقام والوقائع مستبعدين كلياً أي نوع مهما كان من التفاعل الشخصي، في حين أن الإنسان قادر على أن يثبت نفسه كفرد فقط في حوار حي مع شخص آخر. وليست حالة ما بعد الحداثة في حد ذاتها هي التي تدمر هذا التواصل الحي، لكنها توفر خيارات واسعة من بدائل الاتصال أيضاً التي تسمح للإنسان بالوجود، وتعمل على نحو كامل كلولب للآلية الاجتماعية، ولكنها ليست في وضع يمكنها من تلبية الحاجة إلى الاتصال. ويمكن أن يؤثر هذا الوضع سلباً على شخصية الفرد.

بوجوده في وضع ما بعد الحداثة، وعند اتخاذه القرار، لا يتعامل الإنسان إلا مع شظايا من القواعد القديمة البالية للعبة، وإنما يحاول ضغط هذه الشظايا في قالب من نوع تكنولوجي مبني على المبدأ القديم «الغرض – الوسيلة – النتيجة». وبهذا الشكل يضطر الأفراد للعمل وفقاً للمنطق الذي بحسبه

(1) ج. ف. ليوتار. حالة ما بعد الحداثة. موسكو، 1998. ص 11.

هناك ما فوق الوحدة للعناصر جميعها وحتمية عامة. ولا يمكن للإنسان من جهة أولى أن يعمل وفقاً لقواعد منطقية قديمة، ولكنه من جهة أخرى مضطر لاستخدامها هي تحديداً. وبدراسته لمسألة ما إذا كان الإنسان يمكن أن يوجد خارج القوانين المنطقية، يتوصل كلود ليفي ستروس Levi Stross إلى استنتاج سلبي مفاده أن حياة الإنسان تخضع دوماً لهذا المنطق أو ذاك، الذي يمكن أن يكون في الوقت نفسه مختلفاً تبعاً لظروف معينة.

إن الرجل الذي يضطر للعمل في ظروف دمرت فيها السرديات الكبرى، ويغيب فيها التحديد الشامل، يلجأ إلى قوانين المنطق في محاولة لهيكلة حياته، على الأقل في وعيه. وكي يكون نشاط الإنسان مثمراً ينبغي عليه هيكلة شظايا قواعد اللعبة لكل حالة على حدة. لذلك حالة ما بعد الحداثة هي متناقضة لدرجة كبيرة. من ناحية أولى يجرد الميدان الثقافي من التسلسل الهرمي المعتاد، ويقوض مفهوم الخير والشر، والسامي والمتدني، والرائع والقبيح – تظهر الثقافة بأكملها أمام الشخص المذهول كسحابة غير منظمة جذرياً من الأفكار.

من جهة أخرى، من أجل مواصلة وجوده بنجاح، يضطر الشخص بطريقة أو بأخرى إلى هيكلة هذه الشظايا، وربما حتى بشكل منفصل لكل عمل على حدة، ولكن عليه أن يفعل ذلك على أي حال. وفي الوقت نفسه نحن نتعامل مع الغياب الجذري للهيكلية، والضرورة الملحة لوجودها. وتتمثل أبسط نتيجة للهيكلية في ظهور القالب التكنولوجي «الهدف – الأساس – النتيجة». ومن أجل الوجود في حالة ما بعد الحداثة يجبر الإنسان على التصرف كما لو أنه مازال يعيش في حالة الحداثة. ويتمخض عن هذا استنتاج متناقض: يرتبط العمل الكافي في حالة ما بعد الحداثة ارتباطاً وثيقاً بالتقييم غير الكافي للواقع المحيط، والعكس بالعكس.

يتصرف الإنسان وفقاً للمنطق، للمنطق الغريب لموضوع التعامل، المنطق

الذي حياتنا وفقه مكرسة للتقدم الذي لا نهاية له، وللنمو المتواصل في القوة والقدرة في جميع أشكالها وأنواعها – الاعتقاد الذي يميز الثقافة الكلاسيكية عن النوع الأوروبي. إن استخدام منطق غريب عن هذه الكيانات في التعامل معها (وهو في هذه الحالة الوسيلة الوحيدة الممكنة للتعامل معها) يؤدي حتماً إلى العنف على هذه الكيانات، وحشرها في إطارات غريبة عنها، وإلى الإرهاب اللين أو القاسي.

تعد النزعة الفردية السمة المميزة لثقافة أيامنا، ففي حالة ما بعد الحداثة، ولا يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك، إذا كان كل واحد منا يولف السرديات الصغرى لنفسه وللحالة الموجودة، «يعيش كل واحد منا على تقاطعات مسارات العديد من هذه الجزيئات»[1]. إن سقوط سمعة التقاليد هو نفسه تناثر السرديات الكبرى، والفردية مرتبطة مباشرة مع ضرورة توليف السرديات الصغرى. وعليه، مرة أخرى يمكننا أن نرى العلاقة الوثيقة لما بعد الحداثة كاتجاه في الوعي الثقافي الذاتي مع تطور العلم والصناعة، وكذلك مع الفردية كسمة مميزة لثقافة أيامنا.

بدون احترام الشخص الآخر، وبدون الاعتراف به كصاحب حقوق غير قابلة للتجريد، يكون تشكيل شخصية متكاملة ومتطورة أخلاقياً مستحيلاً. النزعة الفردية كما تظهر في حالة ما بعد الحداثة، هي بعيدة عن هذا الموقف تجاه القريب. إن إنسان حالة ما بعد الحداثة الهادف إلى أغراض عملية بحتة يفتقر إلى أية حوافز لرؤية الشخص الآخر أكثر من كونه أداة لبلوغ أهدافه. ويصبح من الواضح أنه ينبغي أن يقود الدافع الأخلاقي الإنسان هنا أيضاً. ونرى تناقضاً آخراً بين المطالب التي يوجهها المجتمع إلى الإنسان في حالة من الحداثة، والمواقف الأخلاقية اللازمة لوجود الفرد.

(1) ج. ف. ليوتار. حالة ما بعد الحداثة. موسكو، 1998. ص 10–11.

تهيمن الحتمية المحلية في ثقافة ما بعد الحداثة، وهي شبيهة بإزالة الصورة المركزية للعالم، والانتقال إلى الفلسفة في الحواف. وتخرج الحتمية عن المبدأ المحوري لتصبح محلية. والحتمية المحلية تعني عدم وجود قواعد مشتركة للمجتمع بأسره، فالشيء المستحسن والموجود في مجال اجتماعي معين، قد يشجب ويتعرض لانتقادات حادة في مجال اجتماعي آخر.

لا يملك الشخص الموجود في مثل هذه الحالة شيئاً للاستناد عليه، إذ لا توجد قاعدة واحدة يمكن أن تعمل في كل مكان. لا أحد ولا شيء يمكن أن يضمن الامتثال لهذه القواعد، سواء أكان إلهاً، أو عقائد دينية، أو قواعد أخلاق، أو قوانين، أو تقاليد. وفي حالة ما بعد الحداثة يرغم الإنسان على رفض كل ذلك، ولكن حتى ما يراعى شكلياً (القوانين والأخلاق العامة) في واقع الأمر يفسر في كثير من الأحيان ويشوه بالشكل الذي يكون فيه مفيداً لهذا الشخص في حالة معينة.

يجبر الإنسان على هيكلة السرديات الصغرى التي ينفذ نشاطه في إطارها. وعلى الرغم من هذه الاضطرابات ذات الطابع الجذري، فإن عملية إضفاء الشرعية على الظواهر الثقافية في ثقافة أيامنا هذه، وحالة ما بعد الحداثة، لا تختفي، فهي مازالت موجودة. إلا أنه يتم إملاؤها ليس من قبل السرديات الكبرى، وإنما من الجهة الفاعلة.

هنا مرة أخرى نرى تناقضاً يميز وضع الشخص في حالة ما بعد الحداثة. للوهلة الأولى نحن نتعامل مع حالة يكون فيها الفرد باعتباره شخصاً كاملاً مضطراً لاتخاذ قرارات مسؤولة مسترشداً بالمبادئ الأخلاقية التي يمتاز بها. إلا أن الوضع في الواقع أعقد بكثير، فالأسهل بالنسبة للإنسان في حالة ما بعد الحداثة في كثير من الأحيان أن يعوم مع التيار ويتخذ قرارات آنية دون تفكير بالقيم الأخلاقية.

يخلق إنسان ما بعد الحداثة السرديات الصغرى بنفسه، وهو نفسه القانون لنفسه. ولعدم قدرتهم إيجاد السند في الحياة، ولعدم قدرتهم على مساندة أنفسهم بالاستقلالية، يلجأ الناس إلى عالم الأوهام فاقدين الصلة مع الواقع. وهناك خيارات واسعة لطرق الهروب من الواقع، أولها وقبل كل شيء التلفزيون، والموسيقى الشعبية، وألعاب الكمبيوتر وغيرها من طرق قضاء الوقت على الانترنت. وثمة خطر آخر يحدق بالإنسان في ظروف التماثل التشريحي للمكتشفين، هو خطر فقدان الطريق. نعم، يمكن للإنسان نفسه اختيار الطريق التي سيسلكها، ولكن ليس هناك من يضمن أن الطريق التي اختارها ستكون صحيحة. وفي حالة ما بعد الحداثة تفقد الأخلاق الخالدة قوتها الشرعية، فهي مازالت موجودة، ولا تزال قادرة، ويجب عليها، أن تبين للإنسان الطريق التي يجب أن يتحرك بها، ولكنها فقدت قوتها الشرعية، وهي غير قادرة على دعم الإنسان، وإنما على العكس من ذلك، يجبر الإنسان على دعم وجودها.

لا يعتبر بلوغ الإجماع في ثقافة ما بعد الحداثة شرطاً إلزامياً لتحقيق التواصل الناجح، فالإجماع يصبح مجرد واحد من خيارات الحوار، واللحظة الأبدية العابرة التي يؤدي بلوغها إلى نهاية الحوار، وتوقف تطوره اللاحق، في حين يفتح الإجماع الذي لم يتم التوصل إليه الطريق لمزيد من التطور.

تجذرت القيم والمثل العليا للثقافة الأوروبية الكلاسيكية في السرديات الكبرى، ومع تدمير الأخيرة تنازعت مفاهيم الحقيقة والخير والعدالة. ولم يعد إنسان ما بعد الحداثة يؤمن بها، وإنما يعتمد على السرديات الصغرى التي تمتلك في قاعدتها المعيار التكنولوجي التشغيلي الذي لا يمكن تطبيقه لمعالجة قضية حول المثل والقيم. كذلك يمكن لإنسان ما بعد الحداثة الحديث عن العدالة الاجتماعية أو الحقيقة العلمية، لكنه سيضع في هذه الكلمات معنى مختلفاً

نوعياً. والحديث لا يدور عن المثل العليا، وتحسين أداء النظام، وفعاليته.

يظهر نموذج جديد من إضفاء الشرعية، يختلف جذرياً عن النموذج ذي النوع الكلاسيكي. ويقتضي إضفاء الشرعية في ثقافة ما بعد الحداثة تمييز وتفكيك الواحد إلى الكثير، بما في ذلك التمييز كالتماثل التشريحي تحديداً، وتجري حركة مستمرة مع ظهور ثابت لقواعد جديدة. ولا يقتضي النموذج الجديد لإضفاء الشرعية البلوغ أو الأداء أو الاختلاف الأفضل على الإطلاق.

من السهل رؤية أن لهذا وجهان يحمل كل منهما آثاره السلبية على تطور الشخصية. وينبغي أولاً وقبل كل شيء التذكر مرة أخرى نهاية التاريخ بالحرف الكبير. نجد الآن أن الإنسان ليس مفصولاً عن رفاقه فقط، وإنما هو غير قادر على يثبت نفسه في الوقت المناسب أيضاً. وهو لا يستطيع اللجوء إلى الماضي، إذ يحول كل من الحاضر متواصل التغير، والواقع الاجتماعي المتحرك الماضي إلى شيء لا يمتلك منذ زمن ما هو مشترك مع الواقع.

وهو لا يستطيع التوجه إلى المستقبل لأن مدى تغير العالم يرتبط بشكل وثيق مع عدم القدرة على التنبؤ بهذه التغيرات. ولا يستطيع الإنسان التفكير بمستقبله لأنه يفتقر إلى إمكانية التنبؤ بالكيفية التي سيكون عليها، وهل سيكون أم لا عموماً. ويصبح جلياً أن مثل هذه الحالة من التجزيء تنطبق أيضاً على الوقت (فالإنسان مقطوع ليس عن رفاقه فقط، وإنما عن نفسه في الماضي، وعن نفسه في المستقبل أيضاً)، ولا يساعد على تشكيل شخصية متكاملة النمو.

إن الأيديولوجيا التي تجلب معها حالة ما بعد الحداثة هي عملية وواقعية للغاية، وبالتالي يسهل عليها أن تجند لنفسها المزيد من الأتباع الجدد. وهل تستوجب المجادلة مع حقيقة أن التاريخ لا يشبه العملية التدريجية من أصعب مراحل حياة الإنسان إلى الأكثر سعادة. ولكن ينبغي في الوقت نفسه التفكير في العواقب التي تجلبها مثل وجهة النظر هذه إلى العالم والتاريخ والإنسان.

لنعد مرة أخرى إلى وضع الفرد الذي يجد نفسه في حالة ما بعد الحداثة. لنتناول هذه المشكلة من زاوية مختلفة بعض الشيء. إذا كان الإنسان في السابق، في حالة الحداثة والمعاصرة، قادراً على الإيمان في مستقبل أفضل والعمل من أجله، فالآن اختفى هذا الإيمان. عش يوماً واحداً، وامرح مادام بإمكانك – هذا هو الوضع الذي يروج له في حالة ما بعد الحداثة.

ولكن هل يمكن الإنسان – الذي يعتبر فرداً كاملاً – التعاملَ بهذا الشكل مع الحياة، وأن لا يفكر في الغد، وفي مكانه في الكون والعملية التاريخية؟ وهل يمكن بتخليه عن العمل الخلاق من أجل الصالح العام واستخدامه للملذات الآنية، أن يبقى فرداً كاملاً، ويساهم في تربية الأجيال القادمة؟ يبدو أن مثل هذا الأمر مستحيل.

لا تدعي السرديات الصغرى بناء فضاء ثقافي – اجتماعي موحد، وبهذا الشكل يجري تأمين الطبيعة السباقية للألعاب اللغوية وعالميتها. دعونا نتناول الآن ماهية وضع الفرد في الظروف التي لا يوجد فيها فضاء ثقافي – اجتماعي فقط، ولكن عندما تكون حتى محاولة إنشاء مثل ذلك لا تجري أيضاً، وعندما تكون طبيعة التواصل بين الناس سباقية. الإنسان الذي يجد نفسه في مثل هذه الحالة هو غير قادر على استيعاب واقعه الاجتماعي المحيط ككل متكامل قائم بقوانين موحدة.

كي يتكون الإنسان كفرد، يجب أن يتمتع بموجهات أخلاقية ومعنوية وحياتية معينة، وإذا وجد نفسه موضوعاً في حالة التحلل الكامل للسرديات الكبرى، فإن هذه الموجهات على الرغم من بقاءها موجودة، إلا أنها لم تعد تمتلك قوة شرعية، وبالتالي فهي نفسها بحاجة إلى التعزيز من قبل الإنسان. وعي الفرد «يتفتت»، وبدلاً من المبادئ الصلبة والراسخة يسترشد بالسرديات الصغرى المحلية. وتتجلى الطبيعة المتناقضة لوجود الفرد في عدد كبير

من الاضطرابات العصبية، والأمراض النفسية، وحالات الشدة والتوتر، والانتحار وما إلى ذلك. وتتطلب دراسة الثقافة دراسة متأنية لهذه العمليات، وكشف أسبابها الاجتماعية – الثقافية الكامنة.

يجب على الأشخاص الذين يعملون في بيئة من الأتمتة والحوسبة المتزايدة تلبية المستوى العام لتطور التكنولوجيا. وكما كنا قد ذكرنا، ينبغي عليهم أن يكونوا قادرين على اتخاذ القرارات والتوجه بالشكل المناسب في الوضع المتغير بسرعة. إلا أن اتخاذ القرارات المتعلقة بالنشاط لبلوغ الهدف هو أبسط بكثير من تلك التي تتعلق بالإنسان نفسه ومكانته في المجتمع وعلاقاته المتبادلة مع الأناس الآخرين.

يبدو الثمن الذي تضطر البشرية لدفعه من أجل الحصول على مكاسب الحضارة باهظاً جداً. وفي الواقع لا يدور الحديث فقط عن أن الإنسان لم يعد يوجه سلوكه إلى القيم الأخلاقية. ويشير آرون إلى أن وجود الفرد يصبح لا روحياً. وضمن علاماته الرئيسة يدرج السعي لتحقيق النجاح والمتعة، والتعطش النهم للتملك، والأهم من ذلك هو الانسياق والاستعداد لطاعة المؤسسة الحاكمة.

لا بد من القول عن حالة العلم، فعدم الإيمان بالسرديات الكبرى يفترض تقدم العلوم. ويرتبط تقدم العلوم ارتباطاً وثيقاً مع أزمة الفلسفة الميتافيزيقية والتعليم الجامعي. ويتمتع علم ما بعد الحداثة بعدد من السمات البارزة التي تميزه جذرياً عن العلوم الكلاسيكية من النوع الأوروبي، فهو يجسد ويرسخ مفارقة ثقافة ما بعد الحداثة، في حين يواجه حقيقة أن العديد من المشاكل تبدو لا حل لها. ويتمثل موضوع دراسة علوم ما بعد الحداثة ومجالها اهتماما غير قابلٍ للحل في كل من حدود تدقيق المراقبة، وقابلية الإحصاء، وتناقضية المعلومات الناقصة، ونتائج التدمير اللغوي، والكوارث، والمفارقات البراغماتية، والأوضاع على

الحدود.

تختفي في العلوم لغة المعرفة المشتركة Metalanguage، وتصبح غير تباينية وتقدم في براغماتيتها عكس نموذج النظام مستقر. والصحيح ليس ما هو غير متناقض، وإنما الشيء الذي يسمح لشيء ما بالظهور بشكل جديد. ودائماً طرح بشكل حاد التساؤل عن أهمية هذا الاكتشاف والاختراع العلمي أو ذاك إذا كان يجلب الموت والدمار. إلا أنه في حالة ما بعد الحداثة يبدو هو أكثر أهمية، فبالإضافة إلى الاهتمام العلمي الفعلي ومحاولات النظر خارج نطاق المعرفة، تعلو أمام العلماء دوافع لمواصلة دراساتهم بغض النظر عن الشيء الذي يمكن أن تفضي إليه، تتمثل بالأموال والمركز الاجتماعي والسمعة وإمكانية ممارسة النشاط العلمي عموماً. لا ينبغي نسيان أن العلم منذ زمن طويل لم يعد يشكل ساحة للقتال الفردي، إذ يحتاج إجراء البحوث العلمية الجدية إلى مبالغ كبيرة من المال، أما أولئك الذين يمولون هذه الدراسات الاستقصائية، فهم لا يأخذون دوماً في الاعتبار الأغراض والقيم الأخلاقية. من ناحية أخرى، في حالة ما بعد الحداثة تفقد القيم الأخلاقية قوتها الشرعية.

من بين الاتجاهات الفنية للقرن العشرين يمكن ذكر التكعيبية Cubism (بابلو بيكاسو Pablo Picasso، وروبرت دولونيي Robert Delaunay، وجورج براك Georges Braque)، والمستقبلية futurism (جينو سيفيريني Jinho Severini)، والتعبيرية Expressionism (أوتو ديكه Otto Dix ، إدوارد مونك Edvard Munch، هانز غروس Hans Gross، إيرنيست كيرشنير Ernst Kirchner)، والتجريدية Abstractionism (فاسيلي كاندينسكي Wassily Kandinsky)، والتفوقية Suprematism (كازيمير ماليفيتش Kazimir Malevich)، والسوريالية Surrealism (أندريه بريتون André Breton، سلفادور دالي Salvador Dali)، وفن البوب Pop art (Popular art)، التصورية conceptualism، الحدثية

Happening. كما تظهر في الفن أشكال وأساليب جديدة مرتبطة مع ظهور التكنولوجيات الجديدة (الراديو والسينما والتلفزيون وأجهزة الكمبيوتر والإنترنت).

الحداثة – مصطلح يعني الاتجاهات المختلفة للفن غير الواقعي الذي ظهر في فترة الأزمة الثقافية. وبوضعهم هدف خلق أسلوب جديد باستخدام الإمكانيات التقنية الجديدة، اعتمد ممثلو الحداثة على الأساليب الغريبة، ورفض التقاليد السائدة في الفن. وبدرجة كبيرة مثلت الحداثة انحرافاً لأفكار الفلسفة ما بعد التقليدية كما كانت من قبل، فقد شكلت أفكار أوغست كونتAuguste Comte على سبيل المثال التعهد النظري للمذهب الطبيعي Naturalism. وقد وجدت الحداثة تجسيدها الأول في التكعيبية التي تشكلت في فرنسا في العقد الأول من القرن العشرين. وحدد التكعيبيون هدف فنهم في ذلك تصوير الأشياء الذي تبرز فيه أبسط الأشكال الهندسية (مكعب، مخروط وغيرها) – أشكالاً ثابتة تهدف إلى تبيان ثبات العالم الموضوعي.

تمثل المستقبلية اتجاهاً آخراً تميز ظهوره بنشر الشاعر الإيطالي فيليبو تومازو مارينيتي Philippo Tomazo Marinetti في عام 1909 «بيان المستقبلية». كان المستقبليون واقعين تحت انطباع الإنجازات الأخيرة للعلوم، وكانت قريبة إليهم شعارات الفوضويين والمذهب الوجداني Intuitivism لهنري لوي برغسون Henri Louis Bergson. واعتبروا الشيء الرئيس في الفن تصوير الحركة والسرعة التي نقلت بطريقة بدائية – وضع متوال للصور، وصورة لسيارة مع الكثير من العجلات، وما إلى ذلك. وفي الأدب «دمر» المستقبليون بناء الجملة باستخدامهم لغة «مخترعة».

لم يتم تحديد وقت ظهور التعبيرية. ويعترف هذا الاتجاه بالعالم الداخلي للإنسان كحقيقة وحيدة يمثل تجسيدها الغرض من الفن. وتمثل غرابة وبشاعة

التصوير والخيال الملامح المميزة لهذا الاتجاه.

يعود ظهور التجريدية إلى عام 1910، وفعلياً تتخلى التجريدية والتفوقية التي ظهرت في إطارها عن واقعية تصوير العالم الموضوعي باستخدام الرسم البدائي. والأهمية الكبرى أعطاها ممثلو هذا الاتجاه إلى نقل الضوء واللون الذين سعوا بوساطتهما إلى عكس الطبيعة الروحية الداخلية.

أصبحت فرنسا زمن الحرب العالمية الأولى موطناً للسوريالية التي حددت عقيدتها في «بيان السريالية» الذي وضعه الشاعر أندريه بريتون. وتعرف السريالية في هذا العمل على أنها تعبير آلي للفكرة بغض النظر عن العقل والمعايير الأخلاقية.

ظهرت اتجاهات مثل فن البوب والتصورية بعد الحرب العالمية الثانية. وفي الأول كان بالإمكان اعتبار كل الأشياء المحيطة فناً، في حين اعتبر الثاني نفسه توليفة من العلوم والفنون. لم تضع التصورية أمامها مهمة تغيير العالم. ولا يتمثل جوهر الفن من وجهة نظر ممثلي هذا الاتجاه في الصورة، وإنما في فكرة الشيء المجسدة في الكلمة والرسم وغيرها.

تجسد الفكر الفلسفي في القرن العشرين في اتجاهات، مثل فلسفة الحياة Philosophy of living (أوسفالد شبينغلير Osvald Spengler، برغسون، خوسيه أورتيغا إي غاسيت José Ortega y Gasset)، والوجودية Existentialism (جان بول سارتر Jean–Paul Sartre، ألبير كامو Albert Camus، كارل ياسبرز Karl Jaspers)، والتحليل النفسي Psychoanalysis (زيغموند فرويد Sigmund Freud، فروم، كارل غوستاف يونغ Carl Gustav Jung)، والماركسية Marxism في تفسيراتها المختلفة، والبنيوية Structuralism وما بعد البنيوية Post–structuralism (ستروس، دريدا، دولوز، ليوتار، ميشيل فوكو Michel Foucault)، والتفسيرية Hermeneutics (هانس غيورغ غادامير Hans

Georg Gadamer)، والظواهرية (الفينومينولوجيا Phenomenology) (إدموند هوسيريل Edmund Husserl) وغيرها. والدور الهام في الفلسفة بدأت تلعبه الدراسات الثقافية، التي نُظر إليها «كوسيلة لفلسفة القرن العشرين».

خاتمة

تغير التكنولوجيا بتطورها المستمر حياة الإنسان، ومع تطور تقنيات المعلومات ستحدث تغييرات في وضع الفرد أيضاً. ويتمثل الجانب المهم لهذه المشكلة في موقف الفرد في مواجهة تقنيات المعلومات الجديدة تماماً غير المتوفرة حالياً. ومن المعقول افتراض أن ظهورها وانتشارها سيطرحان أسئلة جديدة تتطلب إجابات جديدة. ومن الصعب التكهن بماهية هذه التقنيات، ولكن ليس هنالك شك في أن إنشاءها هو أكثر من ممكن. واليوم تُجرى بالفعل دراسات تهدف إلى تصميم التلفزة التفاعلية المدمجة بشكل كامل مع الحاسوب. ولم يشغل بعد ما نشر إلى اليوم من نتائج لهذه المشاريع المواقع الريادية في مجال تقنيات المعلومات (على سبيل المثال الإرسال التفاعلي)، ولكن من الممكن أن يتغير هذا الوضع في المستقبل، وذلك بوضعه تحديات جديدة أمام الباحثين.

ومع ذلك، فإنه يبدو من الخطأ اختزال الدراسات البعيدة في تحقيق بسيط للتغيرات التي تحدث في السياق الثقافي. وتبرز الحاجة إلى استعراض وتحليل الاتجاهات المميزة لهذا التطور. وعلى المدى البعيد يدور الحديث عن دراسة تشكيل البنية الجديدة لتشريع السرديات الكبرى ومدى مساهمتها في تشكيل ووجود الشخصية، أو على العكس من ذلك تبرير استحالة تشكيل مثل هذه البنية.

الاتجاه التالي الذي يمكن للبحوث المستقبلية أن تتطور فيه هو تحليل مشكلة الشخصية في البلدان المتطورة صناعياً التي لا تعتبر بلداناً من الطراز الغربي. وكمثال على هذه الدول يمكن أخذ اليابان، حيث فيها يتضح أن وضع الفرد مغاير تماماً، وذلك بسبب النوع الآخر للنظرة إلى العالم، والإثبات الذاتي المغاير

للإنسان في المجتمع، والسياق الثقافي. يمكن أن يدور الحديث هنا أولاً وقبل كل شيء عن التأثير المتبادل بين الثقافتين الغربية والشرقية، فضلاً عن الأسلوب الياباني للإدارة وتأثيره على الفرد.

تنجر البلدان النامية إلى عملية تطوير تقنيات المعلومات، ويتجسد ذلك في المقام الأول في استيراد الثقافة ذات النمط الغربي، بدءاً من السلع الاستهلاكية البسيطة، وانتهاءاً بنمط السلوك، وأسلوب الحياة، وتوجهات معنى الحياة. إن وضع الفرد الموجود باستمرار في إطار ثقافة فريدة من نوعها، وفي الوقت نفسه يحتك على الدوام مع ظواهر ثقافة غريبة، يثير على ما يبدو مع حدية خاصة مسألة الهامشية الثقافية cultural marginalism التي لا يمكن للباحثين تجاهلها. وعليه، إن المشكلة المرتبطة بوضع البلدان في مواجهة استيراد الثقافة الغربية (العدواني بما فيه الكفاية في كثير من الأحيان)، تزداد وتتفاقم بحقيقة أن الحديث أصبح يدور الآن عن الثقافة المعلوماتية.

وبهذا، هناك ما يبرر الحديث عن دراسة مشكلة الفرد في العالم المعاصر في ظروف حوار الثقافات المتعددة. وتساهم تقنيات المعلومات في تقارب البلدان، ومع ذلك، يجب على المرء أن يتساءل عن المدى الذي سيكون فيه هذا التقارب مفيداً في نهاية المطاف، لو تناولنا هذه المشكلة ليس من وجهة نظر الجدوى والفعالية، وإنما من مواقع أكثر أهمية – انطلاقاً من مصلحة الإنسان كفرد. يبدو أن الحوار بين الثقافات بالشكل الجديد يطرح مشكلة الفرد، وهذا الموضوع هو بالغ الأهمية بالنسبة للدراسة.

تجدر الإشارة إلى أنه لا توجد في الوقت الراهن آليات اجتماعية موجهة إلى تعليم الجيل الناشئ روح القيم الأخلاقية الخالدة ومبادئ الإنسانية. ومراراً وتكراراً ما يحتك الإنسان الراشد «بإثباتات» لحقيقة أنه من الأسهل لك أن تصبح عديم الرحمة وقاس، وتعتمد على المنفعة المادية فقط. وعلى ما يبدو أن

المهم في مسائل التعليم ليس حظر كل ما هو سيء، لأن القيود غالباً ما تزيد من جاذبية المحظور، وإنما إظهار ميزات كل ما هو جيد، وتشجيع الجيل الناشئ على التقيد بالقيم الأخلاقية – الإنسانية.

بمجاز القول، إن تقنيات المعلومات في أيدي الإنسان هي بمثابة النار التي قد تحرقه، وتدمر بشكل تام ليس الشخص نفسه فحسب، وإنما عالمه كله أيضاً، ولكن في الوقت نفسه عند استخدامها بشكل مناسب تكون قادرة على تحسين حياة الناس جميعهم على وجه الأرض بشكل كبير. ما هي الطريق التي ستسلكها البشرية، وهل ستتبع بشكل أعمى التقدم غير المنضبط للمعلومات، الذي يمكن أن يقود العالم إلى الموت، أم أنها ستتعلم كيفية السيطرة عليه والاستفادة منه مع التركيز على القيم الأخلاقية – الإنسانية والمثل العليا – كل ذلك يتوقف في نهاية المطاف على البشرية نفسها.

المراجع

● الثقافة البدائية:

- فاسيلييف ل. س. تاريخ أديان الشرق. موسكو، 1983.
- زوبوف أ. ب. تاريخ الأديان. موسكو، 1997.
- تاريخ دراسات الأديان// تحرير ن. إ. يابلوكوف. موسكو، 1994.
- سيميونوف يو. إ. نشوء الثقافة وأشكالها المبكرة//تاريخ ثقافة روسيا. موسكو، 1993.
- تايلور إ. ب. الثقافة البدائية. موسكو، 1989.
- توينبي ج. فهم التاريخ. موسكو، 1991.
- يونغ ك. غ. مشكلات روح عصرنا. سانت بطرسبورغ. 2002.

● ثقافة بلاد ما بين النهرين:

- دوموكوش فراغا، الشرق القديم. عند بدايات تاريخ الكتابة. بودابست. 1979.
- الشعر والنثر في الشرق القديم. موسكو، 1973.
- توينبي، أ. ج.، فهم التاريخ. موسكو، 1991.
- تورابيف، ب. أ.، تاريخ الشرق القديم. لينينغراد، 1935.
- كتاب نصوص حول تاريخ العالم القديم/ تحرير ف. ف. ستروف. موسكو، 1956.

● ثقافة مصر القديمة:

- ماتيا، م. إ. أساطير مصر القديمة. لينينغراد، 1940.

– الشعر والنثر في الشرق القديم. موسكو، 1973.
– كتاب حول تاريخ العالم القديم/ رئيس التحرير ف. ف. ستروف. موسكو، 1956.
– كتاب تاريخ الشرق القديم. موسكو، 1980.
– شبنجلر، أ. أفول أوروبا. موسكو، 1993.

● ثقافة الصين القديمة:

– بونتوف، يو. عظام التنجيم من هينان (الصين). لينينغراد، موسكو، 1935.
– مقدمة إلى علم الثقافية. موسكو، 1995.
– غيورغييفسكي، س، مبادئ حياة الصين. سانت بطرسبورغ، 1888.
– أدب الشرق القديم. موسكو، 1984.
– توينبي، أ. ج.، فهم التاريخ. موسكو، 1991.
– كتاب عن تاريخ الشرق القديم/تحرير كوروستوفتسيف وآخرين، موسكو، 1980.
– يان يون غو، تاريخ الفكر الصيني القديم. موسكو، 1957.

● ثقافة الهند القديمة:

– ل. س. فاسيلييف، تاريخ الديانات الشرقية. الفصل 12. موسكو، 1983.
– أدب الشرق القديم. موسكو، 1984.
– الشعر والنثر في الشرق القديم. موسكو، 1973.
– رادهاكريشنان س. الفلسفة الهندية. موسكو، 1993. 1–1.
– توكاريف س. أ.، الدين في تاريخ شعوب العالم. موسكو، 1964.
– كتاب تاريخ الشرق القديم. موسكو، 1980. الجزء 2.

● ثقافة الشعوب القديمة لأمريكا الوسطى:

– باغلاي، ف.، الأزتك: التاريخ، الاقتصاد، النظام الاجتماعي–السياسي (حقبة ما قبل الاستعمار). موسكو، 1988.

– فايان، ج.، تاريخ الأزتك. موسكو، 1949.

– كينجالوف، ر.، فنون أمريكا القديمة. موسكو، 1962.

– كينجالوف، ر.، الصقر والكوزال والصليب. موسكو، 1991.

– ليون–بوتيليا، م.، فلسفة ناغوا. موسكو، 1961.

– سودي، د.، الثقافات العظيمة لأمريكا الوسطى، موسكو، 1985.

– ستينغل، م.، أسرار الأهرامات الهندية. موسكو، 1982.

– توينبي، أ. ج.، فهم التاريخ. موسكو، 1991.

– توكاريف س. أ.، الدين في تاريخ شعوب العالم. موسكو، 1964.

● ثقافة اليونان القديمة:

– أرسطو. الشعر. موسكو، 1958.

– ف. خ. كيسيدي. من الأسطورة إلى المنطق. موسكو، 1972.

– بلوتارك. التراجم المقارنة. في ثلاثة مجلدات. موسكو، 1961. المجلد 1.

– س. إ. رادتسيغ. تاريخ الأدب الإغريقي القديم. موسكو، 1969.

– مجموعة مقالات عن التاريخ القديم، تحرير ف. ف. ستروف. موسكو، 1963.

– أ. ن. تشانيشيفا. ما قبل الفلسفة الإيجية. موسكو، 1970.

– ن. أ. تشيستياكوفا، ن. ف. فوليخ. تاريخ الأدب القديم. فيشايا شكولا، 1972.

● ثقافة روما القديمة:
- غاي ساليوستي كريت، الأعمال. موسكو، 1981.
- إ. ف. كوليسنيكوفا، لمحة موجزة عن تاريخ الثقافة القديمة/ الغرب والشرق. التقاليد والحداثة. موسكو، 1993.
- ت. إ. كوزنتسوفا، إ. ب. ستريلنيكوفا، فن الخطابة في روما القديمة. موسكو، 1976.
كتاب تاريخ روما القديمة. موسكو، 1962.
- ن. أ. تشيستياكوفا، تاريخ الأدب القديم. ك.، 1972.

● ثقافة بيزنطة:
- أفيرينتسيف س. س.، شاعرية الأدب البيزنطي المبكر. موسكو، 1977.
- بيتشكوف ف. ف.، معنى الفن في الثقافة البيزنطية. موسكو، 1991.
- ليخاتشيفا ف. د.، فن بيزنطة. القرن العاشر- القرن الخامس عشر، موسكو، 1989.
- ثقافة بيزنطة. موسكو، 1989، 1984.
- كورباتوف غ. ل.، تاريخ بيزنطة: من العصور القديمة إلى الإقطاع، موسكو، 1984.

● ثقافة الخلافة العربية:
- يريمييف أ. د.، الإسلام: أسلوب حياة ونمط تفكير. موسكو، 1990.
فنون الإسلام، موسكو، 1985.
الإسلام في تاريخ شعوب الشرق. موسكو، 1985.
- كونتيروفا ن. أز، دميتريفا ن. أ. فنون القرون الوسطى. موسكو، 1989.

- الشرق في القرون الوسطى: التاريخ، الثقافة، دراسة المصادر. موسكو، 1980.

● ثقافة أوروبا القرون الوسطى:
- غوريفيتش أ. يا. طبقات ثقافة القرون الوسطى. لينينغراد، 1972.
عالم القرون الوسطى: ثقافة الأغلبية الصامتة. موسكو، 1990.
- ديوبي ج. أوروبا في القرون الوسطى. سمولينسك، 1994.
- ثقافة عصر النهضة والإصلاح. لينينغراد، 1981.
- لوثر م. 95. سانت بطرسبورغ: «وردة العالم»، 2002.
- أوسوفسكايا م. الفارس والبورجوازي. بحث في تاريخ الأخلاق. موسكو، 1987.
- خيزينغا إ. خريف القرون الوسطى. موسكو، 1988

● ثقافة عصر النهضة:
- باتكين ل. م. دانتي وعصره. موسكو، 1965.
الإنسانيون الإيطاليون: أسلوب الحياة ونمط التفكير. موسكو، 1978
- باختين م. م. إبداع فرانسوا رابلي والثقافة الشعبية في القرون الوسطى وعصر النهضة. موسكو، 1965.
- براغينا ل. م. الإنسانية الإيطالية. دراسات أخلاقية للقرنين الرابع عشر والخامس عشر. موسكو، 1977.
- غورفونكيل أ. ف. فلسفة عصر النهضة. موسكو، 1980.
- كوزنتسوف ب. غ. أفكار وصور النهضة الإيطالية. موسكو، 1978.
- روتينبورغ ف. إ. أسرار عصر النهضة. لينينغراد، 1976.

● ثقافة الأزمنة الحديثة:

– آسموس ف. ف. مقالات تاريخية–فلسفية. موسكو، 1984.
– غولباخ ب. منظومة الطبيعة. مجموعة المؤلفات في مجلدين. موسكو، 1963.
– ليزول الظلام! الماديون الفرنسيون في القرن التاسع عشر عن الإلحاد والدين والكنيسة. موسكو، 1976.
– ديكارت ر. المؤلفات في مجلدين. موسكو، 1989.
– كوزنتسوف ف. ن. فرانسوا ماري فولتير. موسكو، 1978.
– تاريخ الدياليكتيكية من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر. موسكو، 1974.
– روسو ج. ج. مقالات. موسكو، 1949.

● ثقافة القرن العشرين:

– الفكر الاجتماعي الأمريكي. موسكو، 1994.
– بال د. التناقضات الثقافية للرأسمالية// الفكر الأخلاقي. موسكو، 1990.
– ليوتار ج. ف. حالة ما بعد المعاصرة. سانت بطرسبورغ، 1998.
– ماركوزي غ. الإنسان المتزامن. موسكو، 2003.
– توفلير أ. صدمة المستقبل. سانت بطرسبورغ، 1997.
– فروم إ. الهروب من الحرية. موسكو، 1990.
المجتمع السليم//التحليل النفسي والثقافي. موسكو، 1995.

الأسماء والمصطلحات المستخدمة في الكتاب
مسرد عربي-إنجليزي-روسي

أ

Кириллица	*Cyrillic alphabet*	الأبجدية السيريلية
Глаголица	*Glagolitic alphabet*	أبجدية غلاغوليستا
Конгрегационалисты	*Congregationalists*	أبرشانيون
Апсара	*Apsara*	أبسارا
Ибсен، Генрик Иоган	*Ibsen, Henrik Johan*	إبسن، هنريك جوان
Апсу	*Apsu*	أبسو
Ибн аль–Хайсам	*Ibn Al-Haytham*	ابن الهيثم
Ибн Баджжа	*Ibn Bajjah*	ابن باجة
ибн–Гебироль	*Ibn Gabirol*	ابن جبيرول
Ибн Рушд	*Ibn Rushd (Averroes)*	ابن رشد
Ибн Сина (Авиценна)	*Ibn Sīnā (Avicenna)*	ابن سينا
Ибн Туфейль	*Ibn Tufail*	ابن طفيل
Ибн Маймон (Маймонид)	*ben Maimon*	ابن ميمون
Абулькасима Фирдоуси	*Abu'l-Qasim Firdawsi*	أبو القاسم فردوسي
Сфинкс	*Sphinx*	أبو الهول
Абу–ль–Валийд Мухаммед бну–Ахмед Ибн Рушд	*Abu 'l-Walid Muḥammad ibn Aḥmad ibn Rushd*	أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد
Абу–Хамид Мухаммед Ибн Мухаммед аль–Газали	*Abu Ḥamed Muḥammad ibn Muḥammad al-Ghazali*	أبو حامد محمد بن محمد الغزالي
Арер	*Apep*	أبوفيس

Апполо	*Apollo*	أبولو
Аполлон и Дафна	*Apollo and Daphne*	أبولو ودافني
Ипет–Сут	*Ipet-isut*	ابيت–سوت
Эпиграмма	*epigram*	إبيغرام
Эпикур	*Epicurus*	أبيقور
Атауальпа	*Atahualpa*	آتاهوالبا
Сентиментализм	*Sentimentalism*	الاتجاه العاطفي
Этруски	*Eutruscan*	إتروسكان
Атаман	*Ātman*	أتمان
Атум	*Atum*	أتوم
Атон	*Aton*	آتون
Аттика	*Attica*	أتيكا
Атхарваведа	*Atharvaveda*	آثارفافيدا
Атхарван.	*Atharvan.*	آثارفان
Аякс	*Ajax*	أجاكس
Агни	*Agni*	آجني
Женщины на празднестве	*Thesmophoriazusae (Women Celebrating the Festival of the Thesmo-phoria)*	احتفال النساء مهرجان ثيسموفوريا
Ханифы	*Hanifs*	أحناف
Анимиз	*Animism*	إحيائية
Ахейцы	*Achaeans*	آخائيين
Протестантская этика и дух капитализма	*The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism*	الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية

Эхнатон	*Akhenaten*	إخناتون
Арвальские братья	*The Arval Brethren*	الأخوان أرفال
Братья Гракхи	*Gracchus*	الأخوان غراخوس
Ихет	*Ikhet*	إخيت
Ахиллес	*Achilles*	أخيل
Адапа	*Adapa*	أدَبا/آدابا
Адам и Ева	*Adam and Eve*	آدم وحواء
Эдвард Мунк	*Edvard Munch*	إدوارد مونك
Адоленда	*Adolenda*	أدوليندا
Адони	*Adoni*	أدوني
Адонис	*Adonis*	أدونيس
Адити	*Aditi*	أديتي
Эратосфен	*Eratosthenes*	إراتوسثينس
Араньяка	*Aranyaka*	أرانياكا
Артемида	*Artemis*	أرتميس
Архимед	*Archimedes*	أرخميدس
Архон	*Archon*	أرخون
Аристофан	*Aristophanes*	أرستوفانيس
Аристотель	*Aristotle*	أرسطو
Арон، Раймон	*Aron, Raymond*	آرون، رايمون
Арианство	*Arianism*	الأريانية
Эрехтейон	*Erechtheum*	إريختيوم
Арес	*Ares*	آريس

Аристарх Самосский	*Aristarchus of Samos*	أريستارخوس الساموسي
Эрешкигаль	*Ereshkigal*	أريشكيغال
Ареопаг	*Areopagus*	أريوباغوس
Ария	*Arius*	آريوس
Арии	*Aryans*	الآريون
Ацтек	*Aztec*	أزتك
Спарта	*Sparta*	أسبارطة
Австралопитеки	*Australopithecus*	أسترالوبيثكس
Требование к правителям Европы возвратить свободу мысли، которую они до сих пор подавляли	*Reclamation of the Freedom of Thought from the Princes of Europe, Who Have Oppressed It Until Now*	استرداد من أمراء أوروبا حرية الفكر الذين قمعوها إلى الآن
Абсолютизация	*absolutisation*	استطلاق
Эсхил	*Aeschylus*	أسخيليوس
Стамбул	*Istanbul*	إسطنبول
Асклепий	*Asclepius*	أسكليبيوس
Александр III Македонский	*Alexander III of Macedon*	الإسكندر المقدوني
Ассур	*Assur*	آشور
Ashurbanipal	*Ашшурбанапал*	آشوربانيبال
Ассирийцы	*Assyrians*	آشوريون
Контрреформация	*Counter-Reformation*	الإصلاح المضاد
Математические начала натуральной философии	*Mathematical Principles of Natural*	الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية

Элементы геометрии	*Euclid's Elements*	أصول الهندسة
Труды и дни	*Works and Days*	أعمال وأيام
Август	*Augustus*	أغسطس
Игнатий Лойола	*Ignatius of Loyola*	أغناطيوس لويولا
Кто свободный человек	*Song about free man*	أغنية الإنسان الحر
Искушение святого Антония	*The temptation of St. Anthony*	إغواء القديس أنطوني
Авгур	*augur*	أغور
Агора	*Agora*	أغورا
Афродита	*Aphrodite*	أفروديت
Эфес	*Ephesus*	أفسس
Мысли	*Pensees*	الأفكار
Платон	*Plato*	أفلاطون
принципат	*Principatus*	إقامة الحكم الرئاسي
Евклид	*Euclid*	إقليديس
Аккадцы	*Akkadians*	الأكاديون
Приобретение друзей	*The Gaining of Friends*	اكتساب الأصدقاء
Альтдорфер، Альбрехт	*Altdorfer, Albrecht*	آلتدوفر، ألبرشت
Электра	*Electra*	إلكترا
Алексей I Комнин	*Alexios I Komnenos*	ألكسيوس الأول كومنينوس
Алеманы	*Alamanni*	ألمان
Лары	*lares*	الآلهة الحارسة
Илиада	*Iliad*	الإلياذة
Ахейское княжество	*Principality of Achaea*	إمارة أخايا

Хуан–ди	*Yellow Emperor*	الإمبراطور الأصفر
Император Яо	*Emperor Yao*	الإمبراطور ياو
Ассирийская империz	*Assyrian Empire*	الإمبراطورية الآشورية
Византийская империя	*Byzantine Empire*	الإمبراطورية البيزنطية
Священная Римская империя	*Holy Roman Empire*	الإمبراطورية الرومانية المقدسة
Латинская империя	*Latin Empire*	الإمبراطورية اللاتينية
Никейская империя	*Empire of Nicaea*	إمبراطورية نيقية
Амвросий	*Ambrose*	أمبروز
Аменхотеп IV	*Amenhotep IV*	أمنحوتب الرابع
Амориты	*Amorites*	الأموريون (العموريون)
Амулий	*Amulius*	أموليوس
Амон	*Amun*	آمون
Угодный Атону	*Amun is Satisfied*	آمون اقتنع
Амон–Ра	*Amun-Ra*	آمون–رع
Государь	*Il Principe*	الأمير
Принцесса Клервосская	*La Princesse de Clèves*	أميرة كليف
Эмиль، или О воспитании	*Emile: or, On Education*	إميل أو في التعليم
Анакс	*Anaxo*	أناكسو
Анагуак ацтеков	*Anahuac Aztec*	أناهواك أزتك
Антигона	*Antigone*	أنتيجون
Энгельс، Фридрих	*Engels, Friedrich*	إنجلز، فريدريك
Анхер	*Ankher*	آنخير
Индра	*Indra*	إندرا

Андромаха	*Andromache*	أندروماش
Андах	*Andes*	أنديز
Ранниие предлюди	*Archaic Homo sapiens*	الإنسان البدائي
Человек разумный	*Homo sapiens*	الإنسان العاقل
Человек умелый	*Homo habilis*	الإنسان الماهر (الصانع)
Архантропы	*Homo erectus*	الإنسان المنتصب
Человек прямоходящий	*Homo erectus*	الإنسان المنتصب (هومو إريكتوس)
Синантроп	*Sinanthropus pekinensis (Peking Man)*	إنسان بكين
Питекантроп	*Java Man*	إنسان جاوا
Неандерталец	*Neandertal (Homo nean-derthalensis)*	إنسان نياندرتال
Палеоантроп	*Homo neanderthalensis*	إنسان نياندرتال
Книга о середине	*Center of Harmony*	الانسجام المركزي
Ансельм Кентерберийский	*Anselm of Canterbury*	أنسيلم كانتربري
Импрессионизм	*Impressionism*	الانطباعية
Антоний	*Antonius*	أنطونيوس
Англы	*Angles*	أنغلو
Инка	*Inca*	إنكا
Энки	*Enki*	إنكي
Энкиду	*Enkidu*	إنكيدو
Энлиль	*Enlil*	إنليل
Ану	*Anu*	آنو

Анубис	*Anubis*	أنوبيس
Энума элиш	*Enūma eliš*	إنوما إيليش
Аном–Ра	*Anum-Ra*	أنوم–رع
Анима	*anima*	أنيما
Энеолит	*Eneolithic*	إنيوليثيك
Ахкин	*Ahkin*	أهكين
Ахарняне	*The Acharnians*	أهل أخارناي
у	*u*	أو
Упанишада	*Upanishads*	الأوبانيشاد
Обермайер، Хуго	*Hugo, Obermaier*	أوبيرماير، هيوغو
Отто Дике	*Otto Dix*	أوتو ديكه
Одоакер	*Odoacer*	أودواكر
Эдип	*Oedipus*	أوديب
Царь Эдип	*Oedipus the King*	أوديب ملكاً
Одиссея	*Odyssey*	الأوديسة
Ур	*Ur*	أور
Уран	*Uranus*	أورانوس
Орестея	*Oresteia*	الأورتيسيا
Ортега–и–Гассет، Хосе	*José Ortega y Gasset*	أورتيغا–إي–غاسيت، خوسيه
Орфей	*Orpheus*	أورفيوس
Орфей и Эвридика	*Orpheus and Eurydice*	أورفيوس ويوريديس
Орфики	*Orpheuseans*	أورفيوسيون
Орк	*Orcus*	أوركوس

Урук	*Uruk*	أوروك
Ориньяк	*Aurignac*	أورينياك
Осирис	*Osiris*	أوزيريس
Ушас	*Ushas*	أوشاس
Ушебти	*Ushabti*	أوشيبتي
Евтихий	*Eutychian*	أوطاخي
Августин Блаженный	*Augustine of*	أوغسطينوس
Октавиан	*Octavius*	أوكتافيان
Ульм	*Ulm*	أولم
Умесао، Тадао	*Umesao, Tadao*	أوميساو، تاداو
Он	*On*	أون
И-цзин	*I Ching*	أي تشينج
Эа	*Ea*	إيا
Эберт	*Ebert*	إيبرت
Epode	*Epode*	الإيبود
Итцамна	*Itzamna*	إيتزامنا
Итцамл	*Izamal*	إيتزمال
Эразм Роттердамский	*Erasmus Roterodamus*	ايراسموس روتيرداموس
Эрот	*Eros*	إيروس
Исида	*Isis*	إيزيس
Инина	*Inanna*	إينانا
Энеида	*Aeneid*	إينياذة
Энея	*Aeneas*	إينياس

Евполид	*Eupolis*	أيوبولوس
Ионический	*Ionic*	الأيوني
Ионийцы	*Ionians*	الإيونيون

ب

Ба	*Ba*	با
Баб-Или	*bab-Illu*	باب إيلي
Баба	*Baba*	بابا
папа Григорий VII	*Pope St. Gregory VII*	البابا غريغوري السابع
Папа Юлий II	*Pope Julius II*	البابا يوليوس الثاني
Вавилон	*Babylon*	بابل
Патрици، Франческо	*Patrizi, Francesco*	باتريزي، فرانشيسكو
Пачакамак	*Pacha Kamaq*	باتشا كاماك
Пачамама	*Pachamama*	باتشا ماما
Патес	*pates*	باتيس
Бах، Иоганн Себасьтян	*Bach, Johann Sebastian*	باخ، يوهان سيباستيان
Барт، Ролан	*Barthes, Roland*	بارت، رولان
Парфенон	*Parthenon*	بارثينون
Бару	*Baru*	بارو
Барокко	*baroque*	باروك
Баррес، Морис	*Barrès, Maurice*	باريس، موريس
Бастет	*Bastet*	باستت
Пастер، Луи	*Pasteur, Louis*	باستور، لويس
Бастилия	*Bastille*	الباستيل
Паскаль، Блез	*Pascal, Blaise*	باسكال، بليز

Басилей	*Basileus*	باسيلي
Вакханалия	*bacchanalia*	باكهاناليا
Паллада	*Pallas*	بالاس
Палес	*Pales*	باليس
Паленке	*Palenque*	بالينكي
Пан	*Pan*	بان
Панчатантры	*Panchatantra*	بانتشاتانترا
Пань–гу	*Pangu*	بانغو
Бау	*Baw*	باو
Пайдейя	*Paydeyya*	بايديا
Байрон، Джордж Гордон	*Byron, George Gordon*	بايرون، جورج غوردون
Зеленщица	*The Market Gardener*	بائعة الخضراوات
Птах	*Ptah*	بتاح
Аль–Баттани	*Al-Battani*	البتاني
Петрарка، Франческо	*Petrarca, Francesco*	بتراركا، فرانشيسكو
Пигмалион	*Pygmalion*	بجماليون
Трактат о живописи	*A Treatise on Painting*	بحث في الرسم
Море	*The Sea*	البحر
Черное море	*Black Sea*	البحر الأسود
Китайское моря	*China Sea*	بحر الصين
Эгейское море	*Aegean Sea*	بحر إيجه
Мраморное море	*Sea of Marmara*	بحر مرمرة
Озеро Гуатабита	*Lake Guatavita*	بحيرة غواتافيتا
Меридовое озеро	*Lake Moeris*	بحيرة قارون

Скупой	*The Miser*	البخيل
Брак، Джордж	*Braque, Georges*	براك، جورج
Брахма	*Brahma*	براهما
Брахман	*Brahman*	براهمان
Брахманоспати	*Brahmanaspati*	براهماناسباتي
Брахманизм	*Brahmanism*	البراهمانية
Брейдвуд، Роберт	*Braidwood, Robert*	برايدوود، روبرت
Бержерак، Сирано де	*Bergerac, de Cyrano*	برجراك، سيرانو دي
Бергсон، Анри	*Bergson, Henri*	برجسون، هنري
Папирус Эберса	*Ebers Papyrus*	بردية إبيرس
Бергсон، Анри Луи	*Bergson, Henri Louis*	برغسون، هنري لوي
Бернар، Клод	*Bernard, Claude*	برنار، كلود
Бернар Клервосский	*Bernard de Clairvaux*	برنارد من كليرفو
Бернини، Жан Лоренцо	*Bernini, Gian Lorenzo*	برنيني، جان لورنزو
Бернини، Джованни Лоренцо	*Bernini, Giovanni Lorenzo*	برنيني، جوفياني لوينزو
протестантизм	*Protestantism*	البروتستانتية
Брут	*Brutus*	بروتوس
Прометей	*Prometheus*	بروميثيوس
Прикованный Прометей	*Prometheus Bound*	بروميثيوس مصفداً
Брунеллески، Фидиппо	*Brunelleschi, Philippo*	برونليسكي، فيليبو
Бруно، Джордано	*Bruno, Giordano*	برونو، جيوردانو
Брунеллески، Филиппо	*Brunelleschi, Filippo*	برونيليسكي، فيليبو
Бретон، Андре	*Breton, André*	بريتون، أندريه

Притхиви	*Prithvi*	بريثفي
Бжезинский، Збигнев Казимеж	*Brzezinski, Zbigniew Kazimierz*	بريجينسكي، زبغنيو كازيميج
Персей с головой Медузы–горгоны	*Perseus with the Head of Medusa*	بريسيوس ورأس ميدوسا
Перикл	*Pericles*	بريكليس
Петр I	*Peter I of Russia*	بطرس الأكبر
О назначении ученого	*Some Lectures Concerning the Scholar's Vocation*	بعض المحاضرات المتعلقة بمهنة العالم.
пфеннинг	*Pfennig*	بفنك
Галлия	*Gaul*	بلاد الغال
эпидейктический	*epideictic*	البلاغة
Кастильоне، Бладссер	*Castiglione, Baldassare*	بلدسر كاستيغليون
Бальзак، Оноре де	*Balzac, Honoré de*	بلزاك، أونوريه دي
Беллини، Джованни	*Bellini, Giovanni*	بلليني، جيوفاني
Плутарх	*Plutarch*	بلوتارك
Великий строитель мостов	*greatest bridge-maker*	بناء الجسور الأعظم
Пентакосиомедимны	*pentakosiomedimni*	بنتاكوسيوميديمني
Бентам، Иеремия	*Bentham,Jeremy*	بنثام، جيرمي
Бенедикт (Барух) Спиноза	*Benedict (Baruch) de Spinoza*	بنديكت (باروخ) دي سبينوزا
Структурализм	*Structuralism*	البنيوية
Бу	*bu*	بو
Пуатье	*Poitiers*	بواتييه

Буало–Депрео، Никола	*Boileau-Despréaux, Nikola*	بوالو–ديبرو، نيكولا
Публий Вергилий Марон	*Publius Vergilius Maro*	بوبليوس فيرجيلوس مارو
Пополь–Вух	*Popol-Vuh*	بوبول–فوه
Бочика	*Bochika*	بوتشيكا
Бодлер، Шарль	*Baudelaire, Charles*	بودلير، شارل
Будда	*Buddha*	بوذا
Буддизм	*Buddhism*	البوذية
Порат، Марк Юри	*Porat, Marc Uri*	بورات، مارك يوري
Мещанин во дворянстве	*Le Bourgeois gentil-homme*	البورجوازي النبيل
Бургунды	*Burgundians*	البورغنديون
Пуруша	*Purusha*	بوروشا
Пуруша	*Purusha*	بوروشا
Борромини، Франческо	*Borromini, Francesco*	بوروميني، فرانشيسكو
Посейдон	*Poseidon*	بوسيدون
Пуссен، Никола	*Poussin, Nikola*	بوسين، نيكولا
Пушан	*Pushan*	بوشان
Буше، Франсуа	*Boucher, François*	بوشيه، فرانسوا
Бокаччо، Джованни	*Boccaccio, Giovanni*	بوكاتشيو، جيوفاني
Павел III с Оттавио и кардиналом Фарнезе	*Pope Paul III and His Grandsons Ottavio and Cardinal Alessandro Farnese*	بولس الثالث مع أوتافيو والكاردينال فارنيزي
Буле	*Boule*	بولي

Бомарше، Пьер Огюстен Карон де	*Beaumarchais, Pierre-Augustin Caron de*	بومارشيه، بيير أوغوستين كارون دي
Помпонацци، Пьетро	*Pomponazzi, Pietro*	بومبنازي، بيترو
Помпеи	*Pompey*	بومبي
Понтифик	*pontifex*	بونتيفيكس
Бонд، Джеймс	*Bond, James*	بوند، جيمس
Бондоне، Джотто ди	*Bondone, Giotto di*	بوندوني، جيوتو دي
Бунсони	*Bunsoni*	بونسوني
пуны	*Punics*	بونيون
Бойль، Роберт	*Boyle, Robert*	بويل، روبرت
Бёме، Якоб	*Boehme, Jacob*	بويهمه، ياكوب
Беотиец	*Boeotian*	بويوتي
Дом двойной секиры	*The house of the Double Axe*	بيت الفأس ذات الرأس المزدوج
Питара	*Pitarah*	بيتاراه
Питрис	*Pitris*	بيتريس
Петкова، Светлана Михайловна	*Petkov, Svetlana Mikhailovna*	بيتكوفا، سفيتلانا ميخايلوفنا
Бетховен، Людвиг ван	*Beethoven, Ludwig van*	بيتهوفن، ليودويغ فان
Бэрбрук، Ричард	*Berbruk, Richard*	بيربورك، ريتشارد
Бертло، Пьер Эжен Марселен	*Berthelot, Marcellin Pierre Eugène*	بيرتيلو، مارسيليان بيير يوجين
Персей и Андромаха	*Perseus and Andromache*	بيرسيوس وأندروماش
Беркли، Джордж	*Berkeley, George*	بيركلي، جورج
Питро Перуджино	*Perugino, Pietro*	بيروجينو، بيترو

Аль-Бируни	*Al-Beruni*	البيروني
Византивизм	*Byzantinism*	البيزنطية
Бессемер، Генри	*Bessemer, Henry*	بيسمير، هنري
Золотое Яйцо	*Golden Egg*	البيضة الذهبية
Пикассо، Пабло	*Picasso, Pablo*	بيكاسو، بابلو
Бэкон، Фрэнсис	*Bacon, Francis*	بيكون، فرانسيس
Белл، Дэниел	*Bell, Daniel*	بيل، دانيال
Пелопоннес	*Peloponnese*	بيلوبونيز
Пьер Абеляр	*Pierre Abailard*	بيير آبيلارد

ت

Тапас	*Tapas*	تاباس
История английской литературы	*The History of The English Literature*	تاريخ الأدب الإنجليزي
Древняя история	*Classic of History*	التاريخ القديم
История Англии	*The History of England*	تاريخ إنجلترا
История в девяти книгах	*The History of Herodotus*	التاريخ في تسعة مجلدات
Тлалок	*Tlaloc*	تالالوك
Первоначальная философия	*Meditationes de Prima Philosophia*	تأملات في الفلسفة البدائية
Тайлор، Эдуард Бернетт	*Tylor, Edward Burnett*	تايلور، إدوارد بورنيت
Опыты	*The experiences*	التجارب
Эмпиризм	*Empiricism*	التجريبية
Абстракционизм	*Abstractionism*	التجريدية

Тутмос III	*Thutmose III*	تحتمس الثالث
Иконоборчество	*Iconoclasm*	تحطيم الإيقونات
Психоанализ	*Psychoanalysis*	التحليل النفسي
Тот	*Thoth*	تحوت
Траян	*Traianus*	تراجان
Тертуллиан	*Tertullianus*	ترتليان
Триба	*Tribus*	تريبوس
треченто	*trecento*	تريتشينتو
Математизация	*mathematization*	ترييض
Цзоу Янь	*Zou Yan*	تساو ين
Огораживание	*enclosure*	التسييج
Карл I	*Charles I*	تشارلز الأول
Чанышев، Арсений Николаевич	*Chanyshev, Arseny Nikolayevich*	تشانيشيف، أرسيني نيكولايفيتش
Чайлд، Гордон	*Childe, Gordon*	تشايلد، جوردان
Чжу	*Chu*	تشو
Чжуан-цзы	*Zhuangzi*	تشوانغ تسو
Чжоукоудян	*Zhoukoudian*	تشوكوديان
Чулыун	*chuliun*	تشوليون
Цзюнь-цзы	*Junzi*	تشون تسو
Чун-цю	*Chun Qiu*	تشونغ كيو
Чжун-юн	*Zhong Yong*	تشونغ يونغ
Чибча	*Chibcha*	تشيبتشا
Чибча-муисков	*Chibcha-Muisca*	تشيبتشا الموسيكين

Чезальпино، Андреа	*Cesalpino, Andrea*	تشيزالبينو، أندريا
Чилам–Балам	*Chilam –Balam*	تشيلام–بالام
Чилан	*Chilan*	تشيلان
Челлини، Бенвенуто	*Cellini, Benvenuto*	تشيلليني، بينفينوتو
Цинь Шихуан ди	*Shih-Huang Di*	تشين شي هوانغ دي
Чинампа	*Chinampa*	تشينامبا
Чинквеченто	*cinquecento*	تشينكفيتشينتو
Концептуализм	*conceptualism*	التصورية
Зооморфизм	*zoomorphism*	تصوير الالهة بالحيوانات
Пуританизм	*Puritanism*	التطهيرية
Пуританы	*Puritans*	التطهيريون
Аналекты Конфуция	*Analects of Confucius*	تعاليم كونفوشيوس
Экспрессионизм	*Expressionism*	التعبيرية
Немецкий экспрессионизм	*German Expressionism*	التعبيرية الألمانية
Великое учение	*Great Learning*	التعليم العظيم
Герменевтика	*Hermeneutics*	التفسيرية
Тефнут	*Tefnut*	تفنوت
Супрематизм	*Suprematism*	التفوقية
Пиетисты	*Pietists*	التقويون
Тескоко	*Texcoco*	تكسكوكو
Кубизм	*Cubism*	التكعيبية
Тлоке–Науаке	*Tloquenahuaque*	تلوكايناواك
Бюст Людовика XIV	*Equestrian Statue of King Louis XIV*	التمثال النصفي للويس الرابع عشر

Пантомим	*Pantomime*	تمثيل إيمائي
Таммуз	*Tammuz*	تموز
Реинкарнация	*Reincarnation*	التناسخ
Гаруспиция	*Haruspices*	التنجيم بدواخل الحيوانات
Опровержение философов	*The Incoherence of the Philosophers*	تهافت الفلاسفة
Тевтоны	*Teutons*	توتونيون
Ту-ди	*Tudi*	تودي
Тюрго، Анн Робер Жак	*Turgot, Anne Robert Jacques*	تورغو، آن روبير جاك
Тоффлер، Элвин	*Toffler, Alvin*	توفلر، ألفين
Поклонение волхвов	*Adoration of the Magi*	توقير ماغي
Токарев، Сергей Александорович	*Sergej Alexandrovich Tokarev*	توكاريف، سيرجي ألكساندروفيتش
Толтек	*Toltec.*	تولتيك
Фома Аквинский	*Thomas Aquinas*	توما الأكويني
Фома Торквемада	*Tomás de Torquemada*	توماس دي توركيمادا
Tonantzin	*Tonantzin*	توناتسين
Тиамат	*Tiamat*	تيامات
Тянь-Шань	*Tian Shan*	تيان شان
Тянь-ши	*Tianshi*	تيانشي
Тиберий	*Tiberius*	تيبيريوس
Тит Ливий	*Titus Livius*	تيتوس ليفيوس

Тициан (Тициан Вечеллио)	*Titian (Tiziano Vecellio)*	تيتيان (تيتسيانو فيتشيليو)
Терминалия	*Terminalia*	تيرميناليا
Терминус	*Terminus*	تيرمينس
Тецкатлипока	*Tezcatlipoca*	تيزكاتليبوكا
Тиберий	*Tevere*	تيفيري
Тикаль	*Tikal*	تيكال
Телезио، Бернардино	*Telesio, Bernardino*	تيليزيو، برناردينو
Тэн، Ипполит	*Taine, Hippolyte*	تين، هيبوليت
Мотекухсома	*Tenochtitlan*	تينوتشتيتلان
Теночка–мехика	*Tenochca-Mexica*	تينوشكا–مكسيكا
Теокалли	*Teocalli*	تيوكالي

ث

Теккерей، Уильям Мейкпис	*Thackeray, William Makepeace*	ثاكيراي، وليام ماكيبيس
Троице	*Trinity*	الثالوث
Ашельская культура	*Acheulean Culture*	الثقافة الأشولية (أشولينية)
Первобытная культура	*Primitive culture*	الثقافة بدائية
Славная революция	*Glorious Revolution*	الثورة المجيدة
Салоники	*Thessaloniki*	ثيسالونيكي
Темис	*themis*	ثيميس

ج

Гаргантюа и Пантафюэль	*Gargantua and Pantagruel*	جارجانتووا وبانتاجرويل
Жакерия	*jacqueri*	جاكيريا
Галилео Галилей	*Galileo Galilei*	جاليليو جاليلي
Мечеть Омейядов	*Umayyad Mosque*	الجامع الأموي
Университет Вестминстер	*University of Westminster*	جامعة ويستمنستر
Джами	*Jami*	الجامي
Геб	*Geb*	جب
Гора Дракона–тигра	*Dragon-Tiger Mountain*	جبال التنين والنمر
Котурны	*buskins.*	جزمة نصفية
Гильгамеш	*Gilgamesh*	جلجامش
Орден иезуитов	*Society of Jesus*	جمعية اليسوعيين
Параскении	*paraskenii*	جناحان
Воз сена	*The Garden of Earthly Delights) The Haywain Triptych).*	جنة المتع الأرضية
Юпитер	*Jupiter*	جوبيتير
Юдифь	*Judith*	جوديث
Джорджоне، Джорджо Барбарелли да Кастель–франко	*Giorgio Barbarelli da Castelfranco, Giorgione*	جورجيوني، جورجيو بارباريلي دا كاستيلفرانكو
Юстиниан I	*Justinian I*	جوستينيانوس الأول
Иоанн Скотт Эриугена	*Johannes Scotus Eriugena*	جون سكوتس إريجيا

Юнона	*Juno*	جونو
Джоконда	*Gioconda*	جويكندا
Цзянси	*Jiangxi*	جيانغشي
Иероним	*Jerome*	جيروم
Жирондистский	*Girondin*	جيروندييني
Гигантопитеки	*Gigantopithecus*	جيغانتوبيثيكوس
Жень	*Zhen*	جين
Женюс	*Genius*	جينيوس

ح

Любовь земная и небесная	*Sacred and Profane Love*	الحب المقدس والحب المدنس
Римский патриарх	*Pontifex Maximus*	الحبر الأعظم
Хатор	*Hathor*	حتحور
Хетты	*Hittites*	حثيون
Модернизм	*Modernism*	الحداثة
Хеппенинг	*happening*	الحدثية
Первая Пуническая война	*First Punic War*	الحرب البونية
Третья Пуническая война	*Third Punic War*	الحرب البونية الثالثة
Вторая Пуническая война	*Second Punic War*	الحرب البونية الثانية
Движение Реформации	*Reformation movement*	حركة الاصلاح
Свобода на баррикадах	*Liberty Leading the People*	الحرية تقود الشعب إلى المتاريس

Херихор	*Herihor*	حريحور
Доколумбовая эпоха	*Pre-Columbian era*	حقبة ما قبل كولومبوس
Четвертое (Вюрмское) оледенение	*Wurm Ice Age*	حقبة وورم الجليدية الرابعة
Поля Иалу	*The fields of Aaru*	حقول إيارو
Абсолютизм	*Absolutism*	الحكم المطلق
Севильский цирюльник	*The Barber of Seville*	حلاق إشبيليا
Делосский союз	*Delian League*	حلف ديلوس
Хаммурапи	*Hammurabi*	حمورابي
Ханбализм	*Hanbalism*	الحنبلية
Ханифизм	*Hanifism*	الحنفية
Гор	*Horus*	حورس (الصقر)
Нимфа и пастух	*Shepherd and Nymph*	الحورية والراعي
О народной речи	*De vulgari eloquio*	حول اللغة العامية
Трактате о бессмертии души	*On the Immortality of the Soul*	حول خلود الروح
Об обращении небесных сфер	*De revolutionibus orbium coelestium*	حول دوران القبة السماوية
О достоинстве и превосходстве человека	*On the Dignity and Excel-lence of Man*	حول كرامة وتفوق الإنسان
Живой‹ сын Бодрствующего	*Alive, son of Awake*	حي بن يقظان

خ

Слуги солнца	*Servantsof theSun*	خادمو الشمس
Хепра	*Khepri*	خبري
Письма провинциалу	*The Provincial Letters*	خطابات مقاطعة
Речи царств	*Guoyu*	خطب الممالك
Кордовский халифат	*Caliphate of Córdoba*	خلافة قرطبة
Халкидон	*Chalcedon*	خلقيدون
Хонсу	*Khonsu*	خونسو

د

Да сюе	*Daxue*	دا سيو
Да Винчи، Леонардо ди сер Пьеро	*Leonardo di ser Piero da Vinci*	دا فنشي، ليوناردو دي سير بييرو
Дарвин، Чарльз Роберт	*Darwin, Charles Robert*	داروين، تشارلز روبرت
Дарий	*Darius*	داريوس
Дафна	*Dafne*	دافنه
Давид، Жан Луи	*David, Jean Louis*	دافيد، جان لوي
Дакша	*Daksha*	داكشا
Дали، Сальвадор	*Dali, Salvador*	دالي، سلفادور
Даная	*Danaé*	داناي
Данте، Алигьери	*Dante, Alighieri*	دانتي، أليغييري
Д'Аннунцио، Габриэле (Князь Монтеневозо)	*D'Annunzio, Gabriele (Principe di Monte-nevoso)*	دأنونزيو، غابريلي (أمير مونتينيفوسو)
Давид	*David*	داود
Дейк، Антоний Ван	*Dyck, Anthony van*	دايك، أنطوني فان

Драхенлох	*Drachenloch*	دراتشينلوش
Трактат о началах человеческого знания	*A Treatise Concerning the Principles of Human Knowledge*	دراسة في مبادئ المعرفة الإنسانية
Драма	*Drama*	دراما
Сатировская драма	*satiric drama*	الدراما الساخرة
Королевская лестница в Ватикане	*Scala Regia*	الدرج الملكي في الفاتيكان
Двойной щит	*Double Shield*	الدرع المزدوج
Дравидический	*Dravidian*	درفيدي
Протодравиды	*Proto-Dravidian*	الدرفيدي الأصلي
Деррида، Жак	*Derrida, Jacques*	دريدا، جاك
Драйзер، Теодор Херман Альберт	*Dreiser, Theodore Herman Albert*	دريزر، تيودور هيرمان ألبرت
дриопитеки	*Dryopithecus*	دريوبيثاكوس
Зографское евангелие	*Codex Zographensis*	دستور زوغراف
Диоклетиан	*Diocletianus*	دقلديانوس
Дельфы	*Delphi*	دلفي
Днепр	*Dnieper*	دنيبر
Дуат	*Duat*	دوات
дученто	*ducento*	دوتشينتو
Дордони–Вьенна	*Dordogne-Vienne*	دوردوني– فيين
Дюрер، Альбрехт	*Dürer, Albrecht*	دورر، ألبرشت
Дорический	*Dorian*	الدوري
Дорийцы	*Dorians*	الدوريون

Афинское герцогство	*Duchy of Athens*	دوقية أثينا
Государство	*The State*	الدولة
Государства Ахеменидов	*Achaemenid Empire*	الدولة الأخمينية (الأخمينيدية)
Восточно–Франкское государство	*Francia orientalis*	دولة فرنكيا الشرقية
Западно–Франкское государство	*Francia occidentalis*	دولة فرنكيا الغربية
Делез، Жиль	*Deleuze, Gilles*	دولوز، جيل
Делоне، Роберт	*Delaunay, Robert*	دولوني، روبرت
Домье، Оноре	*Daumier, Honoré*	دوميه، أونريه
Дон Жуан	*Don Juan*	دون جوان
Дон Кихот	*Don Quixote*	دون كيخوت
Ди	*Di*	دي
Хтоническая религия	*Chthonic religion*	الديانة الأرضية
Дьяус	*Dyaus*	دياوس
Дебюсси، Клод Ашиль	*Debussy, Achille-Claude*	ديبوسي، كلود آشيل
Дедал	*Daedalus*	ديدالوس
Дидро، Дени	*Diderot, Denis*	ديدرو، دينيس
Дидо	*Dido*	ديدو
диди	*didi*	ديدي
Дездемона	*Desdemona*	ديزديمونا
Дега، Эдгар	*Degas, Edgar*	ديغا، إدغار
Деферунда	*Deferunda*	ديفيروندا

Деферунда	*Deferunda*	ديفيروندا
Декарт، Рене	*Descartes, René*	ديكارت، رينيه
Диккенс، Чарльз Джон Гаффам	*Dickens, Charles John Huffam*	ديكنز، تشارلز جون هوفام
Делакруа، Фердинан Виктор Эжен	*Delacroix, Ferdinand Victor Eugène*	ديلاكروا، فيرناندد فيكتور أوجين
Демос	*demos*	ديموس
Демосфен	*Demosthenes*	ديموستينيس
Деметра	*Demeter*	ديميترا
Диоген	*Diogenes*	ديوجينيس
Диодор Сицилийский	*Diodorus Siculus*	ديودورس الصقلّي
Думузи	*Dumuzi*	ديوموزي
Дионис	*Dionysus*	ديونيسوس
Дионисий Фракийский	*Dionysius Thrax*	ديونيسيوس ثراكس
Дионисий Галикарнасский	*Dionysius of Halicarnassus*	ديونيشيوس الهلكرنسي

ذ

Субъективиз	*Subjectivism*	الذاتية
Гекатомба (Заклание 100 животных)	*hecatomb*	ذبيحة المئة ذور
Эстетизм	*Aestheticism*	الذوق الجمالي

ر

Рабле، Франсуа	*Rabelais, François*	رابليه، فرانسوا
Рабинальачи	*Rabinal Achi*	رابينال أتشي
Аль–Рази	*Al-Razi*	الرازي

Рассел، Бертран	*Russell, Bertrand*	راسيل، بيرتراند
Расин، Жан	*Racine, Jean*	راسين، جان
Рамман	*Ramman*	رامان
Рамаяна	*Ramayana*	رامايانا
Рембрандт، Харменсзон ван Рейн	*Rembrandt, Harmenszoon van Rijn*	رامبرانت، هارمينسون فان راين
Рейхстага	*Reichstag*	الرايخستاغ
Оплакивание Христа	*Lamentation of Christ*	رثاء المسيح
Философские письма	*Lettres philosophiques*	رسائل فلسفية
Четыре апостола	*The Four Apostles*	الرسل الأربعة
Ра	*Ra*	رع
Буколики	*Bucolica*	الرعويات
Пляшущие крестьяне	*Dancing Peasants*	رقصة الفلاحين
Пляска смерти	*Dance of Death*	رقصة الموت
Символизм	*Symbolism*	الرمزية
Рамсес III	*Ramesses III*	رمسيس الثالث
Робеспьер، Максимилиан Франсуа Мари Исидор де	*Robespierre, Maximilien François Marie Isidore de*	روبسبير، ماكسمليان فرانسوا ماري إيسيدور دي
Рубенс، Питер Пауль	*Rubens, Peter Paul*	روبنس، بيتر بول
Рудра	*Rudra*	رودرا
Руссо، Теодор	*Rousseau, Théodore*	روسو، تيودور
Руссо، Жан-Жак	*Rousseau, Jean-Jacques*	روسو، جان جاك
Рококо	*Rococo*	الروكوكو
Роллан، Ромен	*Rolland, Romain*	رولان، رومان

Римляне	*Romans*	رومان
Неоромантизм	*Neo-romanticism*	الرومانسية الجديدة
Ромайос	*romayos*	رومايوس
Ромул	*Romulus*	رومولوس
Рёйсдаль Якоб ван	*Ruisdael, Jacob van*	رويسدال، ياكوب فان
Рита	*Rita*	ريتا
Ригведа	*Rigveda*	ريج فيدا
Реди، Франческо	*Redi, Francesco*	ريدي، فرانسيسكو
Рем	*Remus*	ريموس
Рен	*Ren*	رين
Ренуар، Пьер Огюст	*Renoir, Pierre-Auguste*	رينوار، بيير أوغست

ز

Георгики	*TheGeorgics*	الزراعيات
Женитьба Фигаро	*The Marriage of Figaro*	زواج فيغارو
Зенон	*Zeno of Citium*	زينون الرواقي
Зевес	*Zeus*	زيوس
Зевгиты	*zeugitai*	زيوغيتاي

س

Сатурн	*Saturn*	ساترون
Сатур	*Satur*	ساتور
Сатурналия	*Saturnalia*	ساتورناليا
Шарлатан	*The Conjurer*	الساحر
Сартр، Жан Поль	*Sartre, Jean-Paul*	سارتر، جان بول

Савонарола، Джироламо	*Savonarola,Girolamo*	سافونارولا، جيرولامو
Савитри	*Savitr*	سافيتر
Саксы	*Saxons*	الساكسون
Самаведа	*Samaveda*	ساما فيدا
Саман	*Saman*	سامان
Самхита	*Samhita*	سامهيتا
Санто–Спирито	*SantoSpirito*	سان سبيريتو
Сан–Лоренцо	*San Lorenzo*	سان لورنزو
Санта– Мария делле Грацие	*Santa Maria delle Grazie*	سانتا ماريا ديلي غراتسي
Санти، Рафаэль	*Santi, Raffaello*	سانتي، رافائيل
Сандро Боттичелли (Алессандро ди Мариано ди Ванни Филиппи)	*Botticelli, Sandro (Alessandro di Mariano di Vanni Filipepi)*	ساندرو بوتيشيلي (أليساندرو دي ماريان ودي فاني فيليبيبي)
Санго	*Sango*	سانغو
Сава، Такамитсу	*Sawa,Takamitsu*	ساوا، تاكاميتسو
Спартак	*Spartacus.*	سبارتاكوس
Семеро против Фив	*Seven Against Thebes*	سبعة ضد طيبة
Спенсер، Герберт	*Herbert, Spencer*	سبنسر، هربرت
Спинден	*Spinden*	سبيندين
Сет	*Set*	ست
Сталин، Иосиф	*Stalin, Joseph*	ستالين، جوزيف
Стоуньер، Том	*Stonier, Tom*	ستونير، توم
Стефенсон، Джордж	*Stephenson, George*	ستيفنسن، جورج

Стивенсон، Роберт Льюис	*Stevenso, Robert Louis*	ستيفنسون، روبرت لويس
Стен، Ян	*Steen, Johannes*	ستين، يان
Исторические записки	*Records of the Grand Historian*	السجل التاريخي
Облака	*The clouds*	السحب
Магия	*Magic*	السحر
Сохмет	*Sekhmet*	سخمت
Саргон	*Sargon*	سرجون
Аккадский Саргон	*Sargon of Akkad*	سرجون الأكادي
Метанаррративы	*Meta narratives*	السرديات الكبرى
Сардиния	*Sardinia*	سردينيا
Сократ	*Socrates*	سقراط
Скамбха	*Skambha*	سكامباها
Скворцов–Степанов، Иван Иванович	*Skvortsov-Stepanov Ivan Ivanovich*	سكفورتسوف–ستيبانوف، إيفان إيفانوفيتش
Скотт، Вальтер	*Walter Scott*	سكوت، والتر
Скифы	*Scythians*	سكيثيين
Сельджуки	*Seljuq*	السلاجقة
Славяне	*Slavs*،	السلافيون
Саисская династия	*Saite Dynasty*	السلالة السايسية
Иньская династия	*Yin Dynasty*	سلالة إين
Династия Тан	*Tang Dynasty*	سلالة تانغ
Династия Чжоу	*Dynasty Zhou*	سلالة تشو

Шанская династия	*shang Dynasty*	سلالة شانغ
Ханьская династия	*Han Dynasty*	سلالة هان
Мир	*Peace*	السلام
Саламин	*Salamis*	سلاميس
Кельты	*Celts*	السلتيون
Безрассудные поступки	*Considered Action / Rash deeds*	السلوك الطائش
Сенат	*senate*	سناتو
Синухет	*Sinuhe*	سنوحي
Снейдерс، Франс	*Snyders, Frans*	سنيدرز، فرانس
Собек	*Sobek*	سوبك
Сурья	*Surya*	سوريا
Сюрреализм	*Surrealism*	السوريالية
Софист	*sophist*	سوفسطائي
Софокл	*Sophocles*	سوفوكليس
Схоластика	*Scholasticism*	السوكلاستية
Сулла	*Sulla*	سولا
Солютр	*Solutré*	سوليوتر
Сома	*Soma*	سوما
Сунь-цзы	*Sun Tzu*	سوون تزو
Сяо	*Sjao*	سياو
Сяо-жэнь	*Xiao ren*	سياو رين
Сяотунь	*Sjaotun*	سياوتون
Септимий Север	*Septimius Severus*	سيتيموس سيفيروس
Сети I	*Seti I*	سيتي الأول

Мадонна дельи Альберетти	*Madonna degli Alberetti*	السيدة ألبيريتي
Мадонна у лестницы	*Madonnaof the Stairs*	السيدة العذراء والدرج
Мадонна Бенуа	*The Benois Madonna*	السيدة بينوس
Мадонна Грандука	*Madonna delGranduca*	سيدة جراندوقا
Мадонна Литта	*Madonna Litta*	السيدة ليتا
Мадонна с ребенком и цветком	*Madonna and Child with Flowers*	السيدة وطفل مع الزهور
Жизнеописание знаменитых живописцев، ваятелей и зодчих	*Lives of the Most Excel-lent Painters, Sculptors, and Architects*	السيرة الذاتية لمشاهير الرسامين والنحاتين والمعماريين
Сервет، Мигель	*Miguel, Servet*	سيرفيت، ميغيل
Цереалии	*Cerealia*	سيرياليا
Цереру	*Ceres*	سيريس
Сезанн، Поль	*Cézanne, Paul*	سيزان، بول
Сы–шу	*Si Shu*	سيشو
Северини، Джино	*Severini, Jinho*	سيفيريني، جينو
Сыма Цянь	*Sima Qian*	سيما تشيان
Героическая симфонию	*Eroica*	السيمفونية البطولية
Синтеотль	*Centeotl*	سينتيوتل
Сюаньняо	*Xuan Niao*	سيوان نياو

ش

Шарден، ЖанБатист Симеон	*Chardin, Jean Baptiste Siméon*	شاردان، جان باتيست سيميون
Карл V	*Charles V*	شارل الخامس
Шарль Перро	*Charles Perrault*	شارل بيرو
Карл Великий	*Charlemagne*	شارلمان
Шафиизм	*Shafism*	الشافعية
Шань хай цзин	*Shan Hai Jing*	شان هاي جينغ
Чандала	*Chandala*	شاندالا
Шанди	*Shandi*	شاندي
Шан–Инь	*Shang-Yin*	شانغ–اين
Шахнамэ	*Shahnameh*	شاهنامه
Шпенглер، Освальд	*Spengler, Oswald*	شبنجلر، أوسفالد
Апеннинский полуостров	*Italian Peninsula*	شبه الجزيرة الإيطالية
Пиренейский полуостров	*Iberian Peninsula*	شبه جزيرة أيبيريا
Юкатан	*Yucatán Peninsula*	شبه جزيرة يوكاتان
Шпенглер، Освальд	*Spengler, Osvald*	شبينغلير، أوسفالد
Антропоид	*anthropoid*	شبيه الإنسان
Стерн، Лоренс	*Sterne, Laurence*	شتيرن، لورنس
Легизм	*Legalism*	الشرعوية
КодексХаммурапи	*Code of Hammurabi*	شريعة حمورابي
Разъединение друзей	*The Separation of Friends*	شقاق الأصدقاء
Шекспир، Уильям	*Shakespeare, William*	شكسبير، وليام

Шамаш	*Shamash*	شمش
Шанидар I	*Shanidar I*	شنيدر
Шу	*Shu*	شو
Шу цзин	*Shu-Ching*	شو تشينغ
Шу–цзин	*Shu Jing*	شو جينغ
Шоу، Джордж Бернард	*Shaw, George Bernard*	شو، جورج برنارد
Швапач	*Shwapach*	شواباش
Швейцер، Альберт	*Schweitzer, Albert*	شوايتزر، ألبرت
Шуберт، Франц Петер	*Schubert, Franz Peter*	شوبرت، فرانس بيتر
Шопенгауэр، Артур	*Arthur, Schopenhauer*	شوبنهاور، آرثر
Шюц، Генрих	*Heinrich Schütz*	شوتز، هاينريش
Шудра	*Shudra*	شودرا
Чолула	*Cholula*	شولولا
Шуман، Роберт	*Schumann, Robert*	شومان، روبرت
Шунь	*Shun*	شون
Ши	*Shi*	شي
Ши цзин	*Shih Ching*	شي تشينغ
Цицерон، Марк Туллий	*Cicero, Marcus Tullius*	شيشرون، ماركوس توليوس
Шива	*Shiva*	شيفا
Шиллер، Иоганн Кристоф Фридрих фон	*Schiller, Johann Christoph Friedrich von*	شيلر، يوهان كريستوف فريدريش فون
Шелли، Перси Биши	*Shelley, Percy Bysshe*	شيلي، بيرسي بيش
Шэн–нун	*Shennong*	شين نونغ

Утопический коммунизм	*Utopian ccommunism*	الشيوعية الطوباوية
Шёнер، Иоганн	*Schöner, Johannes*	شيونير، جوهانز

ص

Циклоп	*Cyclops*	صقلوب
Сицилия	*Sicily*	صقلية
Распятие	*Crucifixion of Jesus*	صلب المسيح
Аугсбургский мир	*Peace of Augsburg*	صلح أوغسبورغ
Портрет дожа Леонардо Лоредана	*Portrait of Doge Leonardo Loredan*	صورة الدوج ليوناردو لوريدان.
Солон	*Solon*	صولون

ض

Умоляющие	*Suppliants*	الضارعات

ط

Даосизм	*Daoism*	الطاوية
Таосизм	*Taosim*	الطاوية
Третье сословие	*Third Estate*	الطبقة الثالثة
Тартюф، или Обманщик	*Tartuffe, or the Impostor*	طرطوف، أو المرائي
Троя	*Troy*	طروادة
Книга о дао и дэ	*Tao Te Ching (Dao De Jing)*	الطريق والفضيلة
Тотемизм	*Totemism*	طوطمية
Ауспиция	*Auspices*	الطيرة أو مراقبة الطيور

ع

Гроза	*The Tempest*	العاصفة
Буря и натиск	*Sturm und Drang*	العاصفة والاندفاع
Мир как воля и представление	*The World as Will and Representation*	العالم إرادة وفكرة
Манизм	*Manism*	عبادة أرواح الأجداد
Митры	*Mitras*	عبادة الميثراسية
Умирающий раб	*The Dying Slave*	العبد المحتضر
Скованный раб	*The Rebellious Slave*	العبد المقيد
Сикстинская мадонна	*Sistine Madonna*	عذراء السيستين
Мадонна в скалах	*Virgin of the Rocks*	عذراء الصخور
Мадонна Конестабиле	*Conestabile Madonna*	عذراء كونيستابيليه
Последний ужин	*Last Supper*	العشاء الأخير
Иштар	*Ishtar*	عشتار
Астарта	*Astarte*	عشتروت
Астарту	*Ashtarout*	عشتروت
Архаическая эпоха	*Archaic Period*	العصر الأرخي (العتيق)
Декаданс	*Decadence*	عصر الانحطاط
Палеолит	*Stone Age*	العصر الحجري
Поздний (верхний) Палеолит	*age Neolithic*	العصر الحجري الحديث
нижний (ранний) Палеолит	*Palaeolithic age*	العصر الحجري القديم
Средний Палеолит	*Mesolithic age*	العصر الحجري الوسيط (العصر الميزوليتى)

Эпоха классики	*Age Classical*	العصر الكلاسيكي
Моицен	*Miocene*	عصر الميوسين
Эпоха эллинизма	*Hellenistic age*	العصر الهلنستي
Гомеровская эпоха	*Homeric Period*	العصر الهومري
Отелло	*Othello*	عطيل
Логос	*logos*	العقل الأول
Феноменологии духа	*The Phenomenology of Spirit*	علم ظواهر الروح
Мимиямб	*Mimiambi*	عمبق إيمائي
Мелиямб	*Meliambi*	عمبق لحني
Омар Хайям	*Omar Khayyám*	عمر الخيام
Гигантизм	*giantism*	عملقة
О причине، начале и едином	*On Cause, Principle and Unity*	عن السبب والمبدأ والوحدة
О природе	*On Nature*	عن الطبيعة
Время Перикла	*Age of Pericles*	عهد بريكليس
Элам	*Elam*	عيلام
Эламиты	*Elamites*	العيلاميون

غ

Гадамер، Ганс Георг	*Gadamer, Hans Georg*	غادامير، هانس غيورغ
Гелбрейт، Джон	*Galbrait, John*	غالبرايت، جون
Ганг	*Ganges*	الغانج
Гея	*Gaia*	غايا
Гай	*Gaius*	غايوس

Гай Цильний Меценат	*Gaius Cilnius Maecenas*	غايوس كلنيوس ميكيناس
Граветта	*Gravetta*	غرافيتا
О воронах и совах	*Of Crows and Owls*	الغربان والبوم
Гросс، Ганс	*Gross, Hans*	غروس، هانز
Грюневальд ، Матис	*Grünewald, Matthias*	غرونيفالت، ماتياس
Григорий Богослов	*Gregory the Theologian*	غريغوري اللاهوتي
Григорий Нисский	*Gregory of Nyssa*	غريغوريوس النيصي
Грёз، Жан-Батист	*Jean Batiste Greuze*	غريوز، جان باتيست
Аль-Газали	*Al-Ghazali*	الغزالي
Голсуорси، Джон	*Galsworthy, John*	غلوزورثي، جون
Гёте، Иоганн Вольфганг фон	*Goethe, Johann Wolfgang von*	غوته، يوهان فولفغانغ فون
Горфункель، Александр Хаимович	*GorfunkelAlexandr Hayi-movich*	غورفونكيل، ألكساندر حاييموفيتش
Горилла	*Gorilla*	غوريلا
Гоген، Эжен Анри Поль	*Gauguin, Eugène Henri Paul*	غوغان، إيجين هنري باول
Гиберти، Лоренцо	*Ghiberti, Lorenzo*	غيبيرتي، لورنزو
Гейнсборо، Томас	*Gainsborough, Thomas*	غينزبورو، توماس

ف

Аль-Фараби	*Al-Farabi*	الفارابي
Рыцарь، Смерть и Дьявол	*Knight, Death and the Devil*	الفارس والموت والشيطان
Варна	*Varna*	فارنا

Фарос	*Pharos*	فاروس
Варуна	*Varuna*	فارونا
Двойная секира	*Double Axe*	فأس مزدوجة
Вазари، Джорджо	*Vasari, Giorgio*	فاساري، جورجيو
Василий Великий	*Basil the Great*	فاسيلي العظيم
Васильев، Леонид	*Vasilev, Leonid*	فاسيليف، ليونيد
Балла، Лоренцо	*Valla, Lorenzo*	فالا، لورنزو
Фальконе، Этьен Морис	*Falconet, Étienne Mau- rice*	فالكوني، إتيين موريس
Ван Гог، Винсент	*van Gogh, Vincent*	فان غوخ، فينسنت
Вандалы	*Vandals*	الفانداليون
Ванини، Джулио– Чезаре (Лючилио Ванини)	*Vanin, Giulio Cesare) Lucilio Vanini)*	فانيني، جوليو سيزار (لوتشيليو فانيني)
Фаурсмит	*Fauresmith*	فاورسميث
Фауст	*Faust*	فاوست
Федра	*Phaedra*	فايدرا
Федр	*Phaedrus*	فايدروس
Вайшьи	*Vaishya*	فايشيا
Фрагонар، Жан Оноре،	*Fragonard, Jean-Honoré*	فراغونارد، جان أونريه
Фракасторо، Джироламо	*Girolamo, Fracastoro*	فراكاستورو، جيرولامو
Франс، Анатоль (Франсуа Анатоль Тибо)	*France, Anatole (Fran- çois- Anatole Thibault(*	فرانس، أناتول (فرانسوا أناتول تيبو)
Элизиум	*Elysium*	الفردوس

Персы	*Persians*	الفُرس
Всадники	*The Knights*	الفرسان
Тамплиеры	*Templars*	فرسان القبر المقدس
Госпитальеры	*Hospitallers*	فرسان القديس يوحنا
Тевтонский орден	*Teutonic Knights*	فرسان تيوتون
Ливонский орден	*Livonian Order*	فرسان ليفونيان
Мальтийский орден	*Sovereign Military Order of Malta*	فرسان مالطة
Фараон	*pharaoh*	فرعون
Вряги	*Varangians*	الفرنجة
франки	*Franks*	الفرنجة
Фромм، Эрик	*Fromm, Erich*	فروم، إريك
Фрейд، Зигмунд	*Freud, Sigmund*	فرويد، سيغموند
Вритра	*Vritra*	فريترا
Фридрих I Барбаросса	*Frederick I Barbarossa*	فريدريك الأول بربروسا
Фридрих Ницше	*Friedrich Nietzsche*	فريدريك نيتشه
Утрата приобретенного	*Loss Of Gains*	فقدان المكتسب
филология	*Philology*	فقه اللغة
фламины	*flamines*	فلامين
Новая философия Вселенной	*New Philosophy of Universes*	الفلسفة الجديدة للكون
Любовная философия	*The Philosophy of Love*	فلسفة الحب
Философия жизни	*Philosophy of living*	فلسفة الحياة
Натурфилософия	*Natural philosophy*	الفلسفة الطبيعية
Схоластика	*Scholasticism*	الفلسفة المدرسية

Позитивизм	*positivism*	الفلسفي الوضعية
Поп–арт	*pop art) popular art)*	فن البوب
Диалог о военном искусстве	*The Art of War*	فن الحرب
Поэтическое искусство	*L'art poétique*	الفن الشعري
Фо	*Fu*	فو
Фотий	*Photios*	فوتيوس
Вюрц، Шарль Адольф	*Würtz, Charles Adolphe*	فورتز، شارلز أدولف
Фортуна	*Fortune*	فورتونا
Фуко، Мишель	*Foucault, Michel*	فوكو، ميشيل
Вольтер (Франсуа Мари Аруэ)	*Voltaire) François Marie Arouet(*	فولتير (فرانسوا ماري آرويه)
Волхов	*Volkhov*	فولخوف
Фавн	*Faun*	فون
Об Общественном договоре، или Принципы политического Права	*Of The Social Contract, Or Principles of Political Right*	في العقد الاجتماعي، أو مبادئ الحق السياسي
О полете птиц	*Codex on the Flight of Birds*	في تحليق الطيور
О природе согласно ее собственным началам	*On the Nature of Things according to their Own Principles*	في طبيعة الأشياء وفقاً لمبادئها
Об анатомии	*On anatomy*	في علم التشريح
О бесконечности Вселенной и мирах	*On the Infinite Universe and Worlds*	في لانهائية الكون والعوالم

На день коронации Генриха VIII	*The Coronation Suite Henry VIII*	في يوم تتويج هنري الثامن
Вебер، Макс	*Weber, Max*	فيبر، ماكس
Фета	*feta*	فيتا
Фециалы	*fetiales*	فيتالي
Фичино، Марсилио	*Ficino, Marsilio*	فيتشينو، مارسيليو
Виттенберг	*Wittenberg*	فيتنبرغ
Пифагорейцы	*Pythagoreans*	الفيثاغوريون
Фихте، Иоганн Готлиб	*Fichte, Johann Gottlieb*	فيخته، جوهان جوتليب
Веда	*Vedas*	فيدا
Веданта	*Vedanta*	فيدانتا
Феррароти، Франко	*Ferrarotti, Franco*	فيراروتي، فرانكو
Веррес	*Verres*	فيرِّس
Верлен، Поль Мари	*Verlaine, Paul Marie*	فيرلان، بول ماري
Вермер، Ян	*Vermeer, Johannes*	فيرمير، يان
Вернан، Жан–Пьер	*Vernant, Jean-Pierre*	فيرنان، جان بيير
Вирини	*Virin*	فيرين
Везалий، Андреас	*Vesalius, Andreas*	فيساليوس، أندرياس
Веста	*Vesta*	فيستا
Вишну	*Vishnu*	فيشنو
Вико، Джамбаттиста	*Vico, Giambattista*	فيكو، جيامباتيستا
Виллы Фарнезина	*Villa Farnesina*	فيلا فارنيسينا
Вильгельм Телль	*William Tell*	فيلهلم تيل
Филипп	*Philip*	فيليب

Филипп IV Красивый	*Philippe IV le Bel*	فيليب الرابع الوسيم
Вена	*Vena*	فينا
Виналии	*Vinalia*	فيناليا
Вентрис	*Ventris*	فينتريس
Венера	*Venus*	فينوس
Спящая Венера	*Sleeping Venus*	فينوس النائمة
феноменология	*Phenomenology*	الفينومينولوجيا

ق

Кадет	*Kadesh*	قادش
Философский словарь	*Dictionnaire philos-ophique*	القاموس الفلسفي
Акт о верховенстве	*Act of Supremacy*	قانون السيادة العليا
Трайбализм	*tribalism*	قبلية
Киевские листки	*Kiev Missal*	قداس كييف
Святой Георгий	*Saint George*	القديس جرجس
Иероним в келье	*Saint Jerome in His Study*	القديس جيروم في قاعة دراسته
Святой Себастьян	*San Sebastián*	القديس سيباستيان
Гепатоскопия	*hepatoscopy*	قراءة البخت بالكبد
Гоминид	*Hominidae*	قردة عليا
Карфаген	*Carthage*	قرطاج
Константин	*Konstantin*	قسطنطين
Константин I	*Constantine I*	قسطنطين الأول
Константинополь	*Constantinople*	القسطنطينية

Клятва Горациев	*Oath of the Horatii*	قسم الأخوة هوراس
Кот в сапогах	*Le Maître chat ou le chat botté*	القطة ذات الحذاء
Готы	*Goths*	قوطيون
Остготы	*Ostrogoths*	قوطيون شرقيون
Вестготы	*Visigoths*	قوطيون غربيون
Цезарь	*Caesar*	قيصر
Кесарийский	*Kayseri*	قيصري

ك

Капподокия	*Cappadocia*	كابادوكيا
Меланхолия	*Melancholia*	الكآبة
Капитолия	*Capitol*	كابيتول
Собор Святого Петра	*St. Peter's Basilica*	كاتدرائية القديس بطرس
Собор Святого Павла	*St. Paul's Cathedral*	كاتدرائية القديس بولس
Антверпенский собор	*Cathedral of Our Lady (Antwerp)*	كاتدرائية نوتردام (أنتويرب)
Картрайт، Эдмунд	*Cartwright, Edmund*	كارترايت، إدموند
Картезий	*Cartesius*	كارتيسيوس
Кардинал Ришелье	*Cardinal Richelieu*	الكاردينال ريشيليو
Карл Густав Юнг	*Carl Gustav Jung*	كارل غوستاف يونغ
Карл Великий	*Carolus Magnus*	كارلوس
Карма	*Karma*	كارما
Кариатиды	*caryatids*	كارياتيد
Кастро، Фидель	*Castro, Fidel*	كاسترو، فيدل

Кала	*Kālá*	كالا
Кальвин، Жан	*Calvin, John*	كالفين، جان
Кальвинизм	*Calvinism*	الكالفينية
Хал колит	*Chalcolithic*	كالكوليت
Калигула	*Caligula*	كاليجولا
Кама	*Kama*	كاما
Кампанелла، Томмазо	*Campanella, Tommaso*	كامبانيلا، توماسو
Камю، Альбер	*Camus, Albert*	كامو، ألبرت
Кант، Иммануил	*Kant, Immanuel*	كانت، إيمانويل
Кандинский، Василий	*Kandinsky, Wassily*	كاندينسكي، فاسيلي
Каносса	*Canossa*	كانوسا
Ка	*Ka*	كاه
Киплинг، Редьярд Джозеф	*Kipling, Joseph Rudyard*	كبلنغ، روديارد جوزيف
Книга песней	*Book of Songs*	كتاب الأغاني
Книга песнопений	*Book of Songs*	كتاب الأناشيد
Книга истории	*Book of History*	كتاب التاريخ
Книга перемен	*Classic of Changes*	كتاب التغيرات
Книга гор и морей	*Collection of the Mountains and Seas*	كتاب الجبال والبحار
Книга спасения	*The Book of Deliverance*	كتاب الخلاص
Книга весны и осени	*Spring and Autumn Annals*	كتاب الربيع والخريف
Книга исцеления	*The Book of Healing*	كتاب الشفاء

Книга церемоний	*Classic of Rites*	كتاب الطقوس
Книга царей	*Book of Kings*	كتاب الملوك
Книга мертвых	*Book of the Dead*	كتاب الموتى
Книги Пророка Ягуара	*Books of the Jaguar Prophet*	كتب النبي جاغوار
Кратин	*Cratinus*	كراتينوس
Крас	*Crassus*	كراسوس
Святой престол	*Holy See*	الكرسي الرسولي
Карнак	*Karnak*	الكرنك
Кребер، Алфред Луис	*Kroeber, Alfred Louis*	كروبير، ألفريد لويس
Кроманьонец	*Cro-Magnon*	كرومانيون
Кромвель، Оливер	*Cromwell, Oliver*	كرومويل، أوليفر
Кронос	*Cronus*	كرونوس
Кронид	*Kronid*	كرونيد
Крити	*Crete*	كريت
Алкестида	*Alcestis*	الكستيس
Александр VI	*Alexander VI*	الكسندر السادس
Кшатрия	*Kshatriya*	كشاتريا
Кааба	*Caaba*	الكعبة
Клаас، Петр	*Claas, Peter*	كلاس، بيتر
Классицизм	*classicism*	كلاسيكية
Клавер، Ренди	*Klaver, Rendi*	كلافير، راندي
Клакхон، Клайд	*Klakhon, Clyde*	كلاكهون، كلايد
Клисфен	*Cleisthenes*	كلايستينس

Кальвинисты	*Calvinists*	كلفينيون
Хлодвиг I	*Clovis I*	كلوفيس الأول
Калила и Димна	*Kalila and Dimna*	كليلة ودمنة
Коммуна	*Commune*	كمونا
Аль-Кинди	*Al-Kindi*	الكندي
Сикстинская капелла	*Sistine Chapel*	الكنيسة السيستينة
Собор Святого Петра	*St. Peter's Basilica*	كنيسة القديس بطرس
Гроб Господня в Иерусалиме	*Church of the Holy Sepulchre*	كنيسة القيامة
Капелла Пацци	*Cappela die Pazzi*	كنيسة باتسي
Капелла Бранкаччи	*Brancacci Chapel*	كنيسة برانكاتشي
Церковь Сант-Андреа аль Квиринале	*The Church of Saint Andrew's at the Quirinal*	كنيسة سانتا أندريا في الكويرينال
Собор Санта-Мария-дель Фьоре	*Cathedral of S Maria del Fiore*	كنيسة سانتا ماريا دل فيوري
Церковь Санта-Мария дель Кармине	*Santa Maria del Carmine*	كنيسة سانتا ماريا ديل كارمين
Кафедральный храм святой Софии	*Churchof HagiaSophia*	كنيسة كاتدرائية القديسة صوفيا (آيا صوفيا)
Капелла де Медичи	*de' Medici Chapel*	كنيسة ميديتشي
Кватроченто	*Quattrocento*	كواتروتشينتو
Копан	*Copán*	كوبان
Коперник، Николай	*Copernicus, Nicolaus*	كوبرنيكوس، نيكولاس
Кортесы	*cortes*	كورتيس
Корсика	*Corsica*	كورسيكا

Кир	*Cyrus*	كورش (قوروش)
Коринфский	*Corinthian*	كورنثي
Корнель، Пьер	*Corneille, Pierre*	كورنيلي، بيير
Кюри، Пьер	*Curie, Pierre*	كوري، بيار
Кюри، Мария	*Curie, Marie*	كوري، ماري
Курия	*curia*	الكوريا
Косала	*Kosala*	كوسالا
Куспиниан، Иоганн	*Cuspinian, Johannes*	كوسبينيان، جوهانز
Куско	*Cusco*	كوسكو
Кукулкан	*Kukulkan*	كوكولكان
Кольбер، Жан–Батист	*Colbert, Jean Batiste*	كولبير، جان باتيست
Кельн	*Cologne*	كولونيا
Коммоленда	*Commolenda*	كوموليندا
Коммоленда	*Commolenda*	كوموليندا
Комедия	*comedy*	كوميديا (ملهاة)
Божественная комедия	*Divina Commedia*	الكوميديا الإلهية
Пауман، Конрад	*Conrad Pauman*	كونارد باومان
Конт، Огюст	*Comte, Auguste*	كونت، أوغست
Кондорсе، Мари☒ Жан Антуа☒н Николя☒ де Карита☒، марки☒з де	*Condorcet, Marie Jean Antoine Nicolas de Caritat, marquis de*	كوندورسيه، ماري جان أنطوان نيقولا دي كاريتا مركيز
Кондильяк، Этьен Бонно де	*Condillac, Étienne Bonnot de*	كوندياك، إيتين بونوت دي
Констебль، Джон	*Constable, John*	كونستابل، جون
Констанца	*Constanta*	كونستانتسا

Консуалии	*Consualia*	كونسواليا
Консус	*Consus*	كونسوس
Кун–цзы	*K'ung-tzu*	كونغ تسو
Конфуций	*Confucius*	كونفوشيوس
Конфуцианство	*Confucianism*	الكونفوشيوسية
Кетцалькоатль	*Quetzalcoatl*	كويتزالكواتل
Кечуа	*Quechua*	كويتشوا
Кито	*Quito*	كويتو
Ки	*Ki*	كي
Кеплер، Иоганн	*Kepler, Johannes*	كيبلر، يوهانس
Киплинг، Джо⊠зеф Ре⊠дьярд	*Kipling, Joseph Rudyard*	كيبلينغ، جوزيف روديارد
Кипу	*Quipu*	كيبيو
Кирхнер، Эрнст	*Kirchner, Ernst*	كيرشنير، إيرنيست
Кирилл	*Cyril*	كيريل
Кессиди، Феохарий Харлампиевич	*Feohary Harlampievich Cessidy*	كيسيدي، فيوهاري هارلامبييفيتش
Кисинг، Фелиция	*Keesingm Felicia*	كيسينغ، فيليشيا
Киш	*Kish*	كيش
Кечуа	*Qhichwa*	كيشوا
Клеон	*Cleon*	كيلون

ل

Агностицизм	*agnosticism*	اللاأدرية
Latifundia	*Latifundia*	لاتيفوندیا
Лахаму	*Lahamu*	لاحامو
Ляско	*Lascaux*	لاسكو
Ласс، Орландо ди	*Orlande de Lassus*	لاسو، أولاندو دي
Лафайет، Мари Мадлен де	*La Fayette, Marie-Madeleine de*	لافاييت، ماري-مادلين دي
Лавуазье، Антуан Лоран	*Lavoisier, Antoine Laurent de*	لافوازييه، أنطوان لوران دي
Лафонтен، Жан де	*La Fontaine, Jean de*	لافونتين، جان دي
Лакониика	*Laconia*	لاكونيكا
Ламберт	*Lambert*	لامبرت
Ламму	*Lahmu*	لامو
Ламетри، Жюльен Офре де	*La Mettrie, Julien Offray de*	لاميتري، جوليان أوفري دو
Ландтаги	*Landtag*	اللاندتاغ
Лансон، Гюстав	*Lanson, Gustave*	لانسون، غوستاف
Лао–цзы	*Laozi*	لاو تسو
Лаутензак، Ханс Себалд	*Lautensack, Hans Sebald*	لاوتنزاك، هانز سيبالد
Лейбниц، Готфрид	*Leibniz, Gottfried*	لايبنتز، غوتفريد
Лагаш	*Lagash*	لجش (لكش)
Сельский концерт	*Pastoral Concert*	اللحن الريفي
Разбойники	*The Robbers*	اللصوص

Лондон، Джек (Джон Гри⊠ффит Че⊠йни)	*London, Jack (John Griffith Chaney)*	لندن، جاك (جون غريفت تشيني)
Бог–Отец	*God the Father*	الله الآب
Бог–Сын	*God the Son*	الله الابن
Бог–Святой Дух	*God the Holy Spirit*	الله–الروح القدس
Луперкалии	*Lupercalia*	لوبيركاليا
Лубембе	*Lubembe*	لوبيمبي
Людвиг	*Ludwig*	لودفيغ
Лоррен، Клод (Клод Желле)	*Lorrain, Claude (Claude Gellée)*	لورين، كلود (كلود جيلي)
Локк، Джон	*Locke, John*	لوك، جون
Лукас Кранах	*Lucas Cranach the Elder*	لوكاس كراناك الأكبر
лукумон	*Lucumo*	لوكومون
Ликей	*Lykeion*	لوكيون
лангобарды	*Lombards*	لومبارديون
Лунь юй	*Lun-Yu*	لون يو
Лао–цзы	*Longhushan*	لونغوشان
Людовик XV	*Louis XV*	لويس الخامس عشر
Людовик XIV	*Louis XIV of France*	لويس الرابع عشر
Ли	*Li*	لي
Ли–цзи	*Li Ji*	لي جي
Ле Мустье	*Le Moustier*	لي موستيي
Либера	*Libera*	ليبرا
Лебрен، Шарль	*Le Brun, Charles*	ليبورن، تشارلز
Лисистрата	*Lysistrata*	ليسيستراتا

Леви–Брюль، Люсьен	*Leve –Bruhl, Lucien –*	ليفي برول، لوسيان
Леви–Стросс، Клод	*Levi-Stross, Claude*	ليفي–ستروس، كلود
Лемур	*lemur*	ليمور
Лемурия	*Lemuria*	ليموريا
Ленин، Владимир Ильич	*Lenin, Vladimir Ilyich*	لينين، فلاديمير إيليتش
Папа Лев III	*Pope Leo III*	ليو الثالث
Лев III Исавр	*Leo III the Isaurian*	ليو الثالث الإسوري
Лиотар، Жан Франсуа	*Lyotard, Jean-François*	ليوتار، جان فرانسوا
Люлли، Жан Батист	*Lully, Jean Batiste*	ليولي، جان باتيست

م

Постимпрессионизм	*Post-Impressionism*	ما بعد الانطباعية
Постструктурализм	*Post-structuralism*	ما بعد البنيوية
Постсовременность	*Postmodernism*	ما بعد الحداثة
Послеполуденный отдых ФавнаПослеполуденный отдых Фавна	*Afternoon of a Faun*	ما بعد ظهر إله الريف تمهيد لما بعد ظهر إلهِ للريف
доарийский	*PreAryan*	ما قبل الآري
Метерлинк، Морис	*Maeterlinck, Maurice*	ماتيرلنيك، موريس
Мадлен	*Madeleine*	مادلين
Мадонна семейства Пезаро	*The Pesaro Madonna*	مادونا بيسارو
Мадонна Донини	*Madonna Donini*	مادونا دونيني
Мартен، Пьер Эмиль	*Martin, Pierre-Émile*	مارتن، بيير إميل
Марциал، Марк Валерий	*Martialis, Marcus Valerius*	مارتياليس، ماركوس فالريوس

Марс	*Mars*	مارس
Марк Твен، (Сэмюэл Лэнгхорн Клеменс)	*Mark Twain (Samuel Langhorne Clemens)*	مارك توين (صموئيل لانغهورن كليمنس)
Маркс، Карл	*Marx, Karl*	ماركس، كارل
Марксизм	*Marxism*	الماركسية
Маркиз де Сад (Донасьен Альфонс Франсуа)	*Marquis de Sade Donatien Alphonse François*	ماركيز دي ساد (دوناتا ألفونس فرانسوا)
Марута	*Maruts*	ماروتا
Маринетти، Филиппо Томмазо	*Marinetti, Philippo Tomazo*	مارينيتي، فيليبو تومازو
Мазаччо (Томмазо ди сер Джованни ди Гвиди)	*Masaccio, Tommaso di Ser Giovanni di Simone Guidi Cassai*	مازاتشو (توماس ودي سير جيوفياني دي سيموني جيودي كاساي)
Трагедия	*tragedy*	المأساة
Масуда، Ёнэдзи	*Masuda, Yoneji*	ماسودا، يونيجي
Магадха	*Magadha*	ماغادا
Макбет	*Macbeth*	ماكبث
Махлуп، Фриц	*Machlup, Fritz*	ماكلوب، فريتس
Малларме، Стефан	*Mallarmé, Stéphane*	مالارميه، ستيفان
Малларме، Стефан	*Mallarmé, Stéphane*	مالارميه، ستيفان
маликизм	*Malikism*	المالكية
Малевич، Казимир	*Malevich, Kazimir*	ماليفيتش، كازيمير
Мамонт	*Mammoth*	ماموث
Манн، Томас	*Mann, Thomas*	مان، توماس
Манн، Генрих	*Heinrich Mann*	مان، هينريش

Мандала	*Mandala*	ماندالا
Мандрагора	*Mandragola*	ماندراغولا
Мандзолли، Пьер-Анджело	*Manzolli, Pier Angelo*	مانزوللي، بيير أنجيلو
Манко Капак	*Manco Cápac*	مانكو كاباك
Ману	*Manu*	مانو
Мануфактура	*manufactory*	مانوفاكتور
Манетти، Джаноццо	*Manetti, Giannozzo*	مانيتي، جيانوتسو
Мане، Эдуард	*Manet, Édouard*	مانيه، إدوارد
Махабхарата	*Mahabharata*	ماهابهاراتا
Махаяна	*Mahayana*	ماهايانا
Аль-Наварди	*Mawardi*	الماوردي
Майя	*Mayans*	مايا
Майапан	*Mayapan*	مايابان
Мэйфлауэр	*Mayflower*	مايفلاور
Деизм	*Deism*	مبدأ الربوبية
Лабиринт	*Labyrinth*	المتاهة (التيه)
Александрийский музей	*Mouseion at Alexan-dria*	متحف الإسكندرية
Тексты пирамид	*Pyramid Texts*	متون الأهرامات
Тексты саркофагов	*Sarcophagus Texts*	متون التوابيت
Немецкий идеализм	*German idealism*	المثالية الألمانية
Здоровое общество	*The Sane Society*	المجتمع السليم
Тридентский Вселенский собор	*Ecumenical council Council of Trent*	مجلس ترينت للمجمع المسكوني
Ансамбль Акрополя	*Acropolis of Athens*	مجمع الأكروبوليس

Конгрегация Святого престола	*Congregation Holy See*	مجمع الكرسي الرسولي
Первый Вселенский собор духовенства	*First Ecumenical council*	المجمع المسكوني الأول
Мегиддо	*Megiddo*	مجيدو
Три разговора между Гиласом и Филонусом	*Three Dialogues between Hylas and Philonous*	المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس
Мохаммед аль–Хорезми	*Muhammad Al-Kha-warizmi*	محمد الخوارزمي
Стоицизм	*Stoicism*	المدرسة الرواقية
Кинизм	*Cynicism*	مدرسة الشكاكين
Лицей	*lyceum*	مدرسة عليا
Школа Эллады	*The School of Hellas*	مدرسة هيلاس
Кодекс Юстиниана	*Codex Justinianeus*	مدونة جستنيان
Похвала глупости	*The Praise of Folly*	مديح الحمق
Город солнца	*Sun city*	مدينة الشمس
Медина	*Medina*	المدينة المنورة
Город пророка	*city of the prophet*	مدينة النبي
Изенгеймский алтарь	*Isenheim Altarpiece*	المذبح
Мемуары о французском дворе	*Memoires de la Cour de France*	مذكرات من المحكمة الفرنسية
эпикуреизм	*Epicureanism*	المذهب الأبيقوريري
Натурализм	*Naturalism*	المذهب الطبيعي
Интуитивизм	*intuitivism*	المذهب الوجداني
Мардук	*Marduk*	مردوخ (مردوك)

Миланский эдикт	*Edict of Milan*	مرسوم ميلانو
Нантский эдикт	*Edict of Nantes*	مرسوم نانت
Китаецентризм	*Sinocentrism*	مركزية الصين
Дева Мари	*Ave Maria*	مريم العذراء
К исправлению суждений публики о французской революции	*Contribution to the Rectification of the Public's Judgment of the French Revolution*	المساهمة في تصحيح أحكام العامة حول الثورة الفرنسية
Воспитательный дом	*Hospital of the Innocents Ospedale degli Innocenti)*	مستشفى الأبرياء
Футуризм	*futurism*	المستقبلية
Индепенденты	*Independents*	مستقلون
Мечеть Ибн Тулуна	*Mosque of Ibn Tulun*	مسجد ابن طولون
Мечеть Куббат-ас-Сахра	*Dome of the Rock*	مسجد قبة الصخرة
Мим	*Mime*	مسرحية إيمائية
Пресвитерианы	*Presbyterians*	المشيخيون
Босфорский пролив	*Bosphorus*	مضيق البوسفور
Пролив Дарданеллы	*Dardanelles*	مضيق الدردنيل
Охота на ведьм	*Witch-hunt*	مطاردة الساحرات
Карнакское Святилище	*Karnak Temple Complex*	معبد الكرنك
Храм Ники	*Temple of Athena Nike*	معبد المعبودة أثينا نيكي
Храм Амона-Ра	*Precinct of Amun-Re*	معبد آمون-رع

Энциклопедическом словарь Брокгауза и Ефрона	*Brockhaus and Efron Encyclopedic Dictionary*	معجم بروكهاوس وإفرون الموسوعي الجديد
Битва Александра с Дарием	*The Battle of Alexander at Issus*	معركة ألكسندر وداريوس
Фермопильское сражение	*Battle of Thermopylae*	معركة تريموبيل
Битва при Саламине	*Battle of Salamis*	معركة سلاميس
Марафонская ,битва	*Battle of Marathon*	معركة ماراثون
Баптисты	*Baptists*	المعموديون
Трактат о человеческой природе	*A Treatise of Human Nature*	مقال عن الطبيعة البشرية
Опыт новой теории зрения	*An Essay Towards a New Theory of Vision*	مقال نحو رؤية جديدة للرؤيا
Рассуждения на первую декаду Тита Ливия	*Discourses on the First Ten Books of Titus Livius*	مقالات في العشرة كتب الأولى لتيتوس ليفيوس
Эссе	*Essays*	مقالة
Архиепископы	*Primates*	مقدَّمات
Александрийская библиотека	*Library of Alexandria*	مكتبة الإسكندرية
Библиотека Лауренциана	*Laurentian Library*	مكتبة لاورينتيان
Маккиавелли، Никколо	*Machiavelli, Niccolò*	مكيافيلي، نيكولو
Меланхтон، Филипп	*Melanchton, Philipp*	ملانكتون، فيليب
Милет	*Miletus*	الملتيسيون
Король Артур	*King Arthur*	الملك آرثر

Мемфис	*Memphis*	ممفيس
Ассирийская империя	*Assyrian kingdom*	المملكة الأشورية
Франкское королевство	*Frankish Empire*	مملكة الفرنجة
Итальянское королевство	*Kingdom of Italy*	مملكة إيطاليا
Ново–Вавилонское царство	*Neo-Babylonian Empire*	مملكة بابل الجديدة
Фессалоникийское королевство	*Kingdom of Thessa-loniki*	مملكة تسالونيكا
Народные трибуны	*Plebeian Tribune*	المناصب العامة
Мэн–цзы	*Mencius*	منسيوس
Диалог о двух главнейших системах мира، птолемеевой и коперниковой	*Dialogue Concerning the Two Chief World Systems*	منهج بطليموس ومنهج كوبرنيكوس
Мопассан، Ги де (Анри⊠–Рене⊠–Альбе⊠р)	*Maupassant, Guy de (Henry-René-Albert-Guy de Maupassant(*	موباسان، جي دي (آنري رينيه ألبرت دي موباسان)
Смерть Марата	*The Death of Marat*	موت مارات
Мэн–цзы	*Mo Tzu*	موتزو
Монтесума	*Motecuhzoma*	موتيكوزما
Мор، Томас	*More, Thomas*	مور، توماس
Моррас، Шарль	*Maurras, Charles*	موراس، شارل
Моравия	*Moravia*	مورافيا
Морли، Сельванус	*Morley, Sylvanus*	مورلي، سيلفانوس
Мавр	*Moors*	موروس
Моретто	*Moretto*	موريتو

Моцарт‹ Вольфганг Амадей	*Mozart, Wolfgang Amadeus*	موزارت، ولفغانغ أماديوس
Мустье типа Ла Феррасси	*Moustérien de type Ferrassie*	موستيري من طراز فيراسي
Мустье типа Ла Кина	*Moustérien de type Quina*	موستيري من طراز كوينا
Mousterian Culture	*Mousterian Culture*	الموستيرية
Энциклопедия‹ или Толковый словарь наук‹ искусств и ремесел	*Encyclopedia, or a systematic dictionary of the sciences, arts, and crafts*	الموسوعة أو القاموس التوضيحي للعلوم والفنون والحرف
Моисей	*Moses*	موسى
молох	*Moloch*	المولوخ
Мольер (Жан–Батист Поклен)	*Moliere, Jean Baptiste Poquelin)*	مولير (جان باتيست بوكلين)
Мумму	*Mummu*	مومو
Монд	*monad*	موناد
Мона Лиза	*Mona Lisa*	موناليزا
Менту	*Monthu*	مونت
Монтескье‹ Шарль–Луи де Секонда	*Montesquieu)Charles de Secondat)*	مونتسكيو (شارل لوي دي سيكوندا)
Монтесума	*Montezuma*	مونتيزوما
Монтень‹ Мишель де	*Montaigne, Michel de*	مونتين، ميشيل دي
Мунда	*Munda*	موندا
Монофизитство	*Monophysitism*	المونفيزتية
Мунк‹ Эдвард	*Munch, Edvard*	مونك، إدوارد

Моне، Клод Оскар	*Monet, Oscar-Claude*	مونيه، أوسكار كلود
Мохенджо-Даро	*Mohenjo-daro*	موهنجو دارو
Муиски	*Muisca*	مويسيكا
Моисеев، Александр Павлович	*Moiseyev, Aleksandr Pavlovich*	مويسييف، ألكساندر بافلوفيتش
Моизм	*Moism*	موئيزم
Методисты	*Methodists*	الميتوديون
Мефодий	*Methodius*	ميثوديوس
Медея	*Medea*	ميديا
Медея	*Medea*	ميديا
Мирандол، Пико делла	*Mirandol, Giovanni Pico della*	ميراندول، جيوفاني بيكو ديلا
Элиаде، Мирче	*Eliade, Mircea*	ميرتشا إلياده
Микены	*Mycenae*	ميسيني
Мигель Сервантес де Сааведра	*Miguel de Cervantes Saavedra*	ميغيل دي سيرفانتس سافيدرا
Микеланджело де Франческо де Нери де Миниато дель Сера и Лодовико ди Леонардо Ди Буонарроти Симони	*Michelangelo di Francesci di Neri di Miniato del Sera i Lodovico di Leonardo di Buonarroti Simoni*	ميكلانجيلو دي فرانشيسكو دي نيري دي ميناتو ديل سيرا إي مودوفيكو دي ليوناردو دي بوناروتي سيموني
Милле، Жан-Франсуа	*Millet, Jean François*	ميلي، جان فرانسوا
Мелье، Жан	*Meslier, Jean*	ميلييه، جان
Мин	*Min*	مين
Менье، Константин	*Meunier, Constantin*	ميونير، قسطنطين

ن

Набу	*Nabu*	نابو
Ут–Напиштим	*Utnapishtim*	نابيشتيم
Нарамсин	*Naramsin*	نارام سين
Нарский، Игорь Сергеевич	*Narski, Igor Sergeyevich*	نارسكي، إيغور سيرغييفيتش
Назианзин، Григорий	*Nazianzen, Gregory*	نازيانزين، غريغوري
Наком	*Nacom*	ناكوم
Нагуаль	*Nahual*	ناهوال
Нагуализм	*Nahualism*	الناهوالية
Навуходоносор	*Nebuchadnezzar*	نبوخذ نصر
Нергал	*Nergal*	نركال
Нергал	*Nergal*	نركال
Гуманизм	*humanism*	النزعة الإنسانية
Антропоцентризм	*Anthropocentrism*	نزعة المركزية البشرية
Снятие с креста	*Descent from the Cross*	النزول من الصلب
Алжирские женщины	*The Women of Algiers*	نساء الجزائر
Трахинянки	*Trachinian Women*	نساء ترشينيات
Несторий	*Nestorius*	نسطور
Несторианство	*Nestorianism*	النسطورية
Система природы	*The System of Nature*	نظام الطبيعة
Нефтида	*Nephthys*	نفتيس
Нефертум	*Nefertum*	نفرتوم
Критика чистого разума	*Critique of Pure Reason*	نقد العقل الخالص

Желтая река	*Yellow River*	النهر الأصفر
Река Инд	*Indus River*	نهر السند
Нил	*Nile*	نهر النيل
Река Усумасинта	*Usumacinta River*	نهر أوسوماسينتا
Река Брахмапутра	*Brahmaputra River*	نهر براهمابوترا
Ренессанс	*renaissance*	النهضة
Проторенессан	*ProtoRenaissance*	النهضة الأولى
Раннее Возрождение	*The early Renaissance*	النهضة المبكرة
Нубия	*Nubia*	النوبة
Нут	*Nut*	نوت
Ной	*Noah*	نوح
Номархи	*Nomarch*	نورماخ
Норманы	*Norman*	نورمانديون
Нокс، Джон	*John Knox*	نوكس، جون
Номос	*nomos*	نوموس
Нун	*Naun*	نون
Нейт	*Neith*	نيت
Нитхардт، Матис (Гордхардт)	*Matthias, Neithardt (Gothart)*	نيتهاردت، ماتياس (غرودهاردت)
Нидиммуд	*Nidimmud*	نيديمود
Нирвана	*Nirvana*	نيرفانا
Нейсбит، Джон	*Naisbit, John*	نيسبيت، جون
Никея	*Nicaea*	نيقية
Николай Кузанский	*Nicholas of Cusa*	نيكولاس كوزا

Нингирсу	*Ningirsu*	نينجيرسو
Нинурта	*Ninorta*	نينورتا
Ниневии	*Nineveh*	نينوى
Ньютон، Исаак	*Newton , Isaac*	نيوتن، إسحاق

هـ

Аид	*Hades*	هاديس
Хараппа	*Harappa*	هارابا
Харгривс، Джеймс	*Hargreaves, James*	هارجريفز، جيمس
Гарди، Томас	*Hardy, Thomas*	هاردي، توماس
Халс، Франс	*Hals, Frans*	هالس، فرانس
Культурный маргинализм	*cultural marginalism*	الهامشية الثقافية
Гамлет	*Hamlet*	هاملت
Хань Фэй	*Han Fei*	هان فاي
Хольбейн، Ханс	*Hans Holbein the Younger*	هانز هولباين الابن
Ганнибал	*Hannibal*	هانيبال
Гауптман، Герхарт	*Hauptmann, Gerhart*	هاوبتمان، غيرهارت
Гауптман، Герхарт Иоганн Роберт	*Hauptmann, Gerhart Johann Robert*	هاوبتمان، غيرهارت جوان روبرت
Гейне، Христиан Иоганн Генрих	*Heine, Christian Johann Heinrich*	هاينه، كريستيان جوهان هاينريش
Константинов дар	*Donation of Constantine*	هبة قسطنطين
Отдых на пути в Египет	*Rest on the Flight to Egypt*	الهرب إلى مصر
Геркулес и Омфала	*Hercules and Omphale*	هرقل وأومفالي

Бегство от свободы	*The Fear of Freedom*	الهروب من الحرية
Тибетское плато	*Tibetan Plateau*	هضبة التبت
Гефест	*Hephaestus*	هفستئس
Гелиополь	*Heliopolis*	هليوبوليس
Генрих IV Наваррский	*Henri IV of Navarre*	هنرى الرابع ملك نافارا
Генрих IV	*Henry IV*	هنري الرابع
Изак، Хенрик	*Heinrich Isaac*	هنريش إسحاق
Уаскар	*Huáscar*	هواسكار
Хуан–ди	*Huangdi*	هوانغ دي
Уайна–Капак	*Huayna Capac*	هواينا كاباك
Гоббс، Томас	*Hobbes, Thomas*	هوبز، توماس
Губер، Вольф	*Huber, Wolf*	هوبير، ولف
Гораций	*Horace*	هوراس
Гуссерль، Эдмунд Густав Альбрехт	*Husserl, Edmund Gustav Albrecht*	هوسيريل، إدموند غوستاف ألبرخت
Гюго، Виктор Мари	*Hugo, Victor Marie*	هوغ، فيكتور ماري
Хогарт، Уильям	*Hogarth, William*	هوغارث، وليام
Гофман، Эрнст Теодор Амадей	*Hoffmann, Ernst Theodor Amadeus*	هوفمان، إيرنست تيودور أماديوس
Гольбах، Поль Анри Тири	*Holbach, Paul-Henri Thiry*	هولباخ، بول أنري ثيري
Гомер	*Homer*	هوميروس
Гунны	*Huns*	الهونيون
Гюисманс، Жорис Карл	*Huysmans, Joris-Karl*	هويسمانس، جوريس كارل

Ипполит	*Hippolytus*	هيبوليتوس
Хед، Уильям	*Hed, Willem*	هيد، وليم
Гера	*Hera*	هيرا
Геракл	*Heracles*	هيراكليس (هرقل)
Гермес	*Hermes*	هيرميس
Геродот	*Herodotus*	هيرودوت (هيرودوتس)
Геродот	*Herodotus*	هيرودوتس
Иероглифы	*hieroglyph*	الهيروغليفية
Иероним Босх (Ерун Антонисон ван Акен)	*Hieronymus Bosch (Jeroen Anthoniszoon van Aken)*	هيرونيموس بوش (جيروم أنثونيسون فان أكين)
Гестия	*Hestia*	هيستيا
Гесиод	*Hesiod*	هيسيود
Гегель، Георг Вильгельм Фридрих	*Hegel, Georg Wilhelm Friedrich*	هيغل، غيورغ فيلهلم فريدريش
Геката	*Hecate*	هيكات
Гильдебранд	*Hildebrand*	هيلدبراند
Гельвеций، Клод Адриан	*Helvétius, Claude Adrien*	هيلفيتوس، كلود أدريان
Илоты	*helots*	هيلوتيين
Хинаяна	*Hinayana*	هينايانا
Юм، Дэвид	*Hume, David*	هيوم، ديفيد

و

Ватто، Жан Антуан	*Watteau, Jean Antoine*	واتو، جان أنطوان
Уатт، Джеймс	*Watt, James*	واط، جيمس
Вагнер، Вильгельм Рихард	*Wagner, Wilhelm Richard*	واغنر، وليام ريتشارد
Бытовой реализм	*Mundane realism*	الواقعية العادية
Критический реализм	*Critical realism*	الواقعية النقدية
Лесли Уайта	*White, Leslie*	وايت، ليزلي
Уайльд، Оскар	*Wilde, Oscar*	وايلد، أوسكار
Экзистенциализм	*Existentialism*	الوجودية
Завещание	*Testament*	وصية
Завещание Солона самому себе	*The reflectiveelegy of Solon*	وصية لصولون
Завещание афинянам	*Elegyto the People of Athens*	وصية للأثينيين
Позитивизм	*positivism*	الوضعية
Уота Тайлера	*Wat Tyler*	ووت تايلر
У–цзин	*Wujing*	ووجينغ
Вормс	*Worms*	وورمس
Уитцилопочтли	*Huitzilopochtli*	ويتزيلوبوتشتلي
Уэллс، Герберт Джордж	*Wells, Herbert George*	ويلس، هيربرت جورج
Вэнь–ван	*Wen-Wang*	وين–وانغ

ي

Яджурведа	*Yajurveda*	ياجور فيدا
Белая Яджурведа	*White Yajurveda*	ياجور فيدا البيضاء
Черная Яджурведа	*Black Yajurveda*	ياجور فيدا السوداء
Яджус	*Yajus*	ياجوس
Ясперс، Карл	*Jaspers, Karl*	ياسبرز، كارل
Яго	*Yago*	ياغو
Якоб، Йорданс	*Jacob, Jordaens*	ياكوب، جوردانيس
Ян Гус	*Jan Hus*	يان هوس
Яо	*Yao*	ياو
Ятриб	*Yathrib*	يثرب
ларва	*larvae*	اليرقة
Якобинцы	*Jacobins*	اليعاقبة
Яхве	*Yahweh*	يهوه
Утопия	*Utopia*	يوتوبيا
Иоанн Дамаскин	*John of Damascus*	يوحنا الدمشقي
Еврипид	*Euripides*	يوريبيديس
Юлий Цезарь	*Iulius Caesar*	يوليوس قيصر
Страшный суд	*Last Judgment*	يوم القيامة
Юнг، Карл Густав	*Carl Gustav Jung*	يونغ، كارل غوستاف
Инь и ян	*Yin and yang*	ين ويانغ